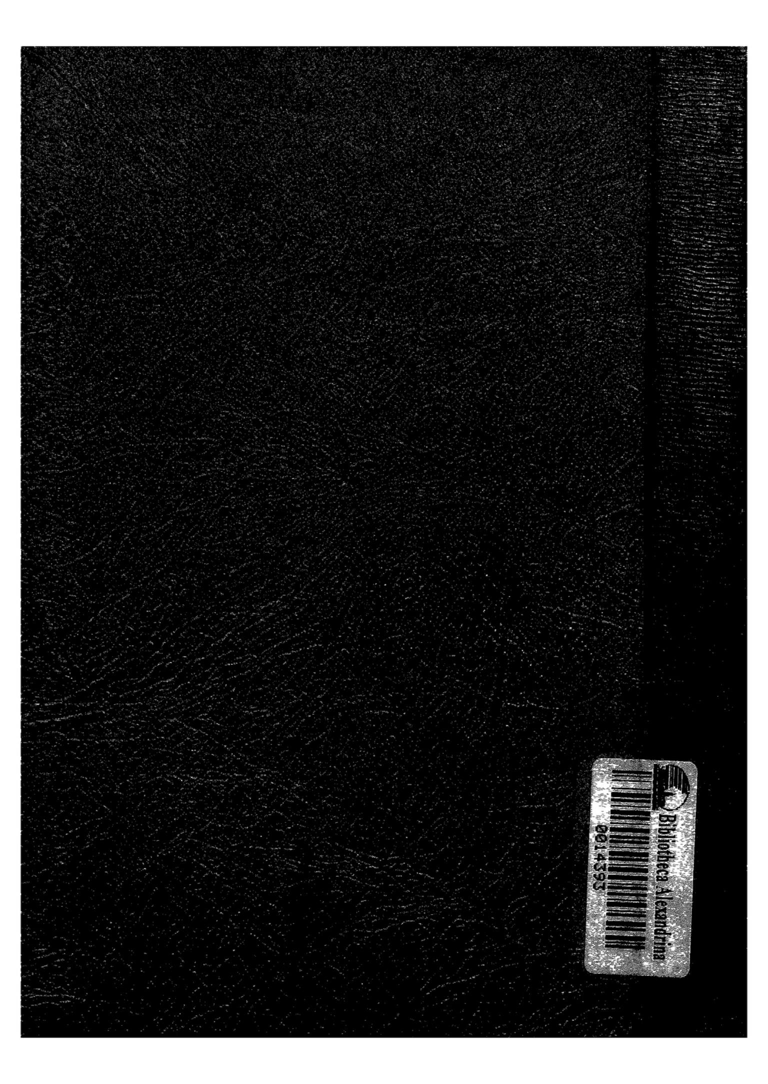
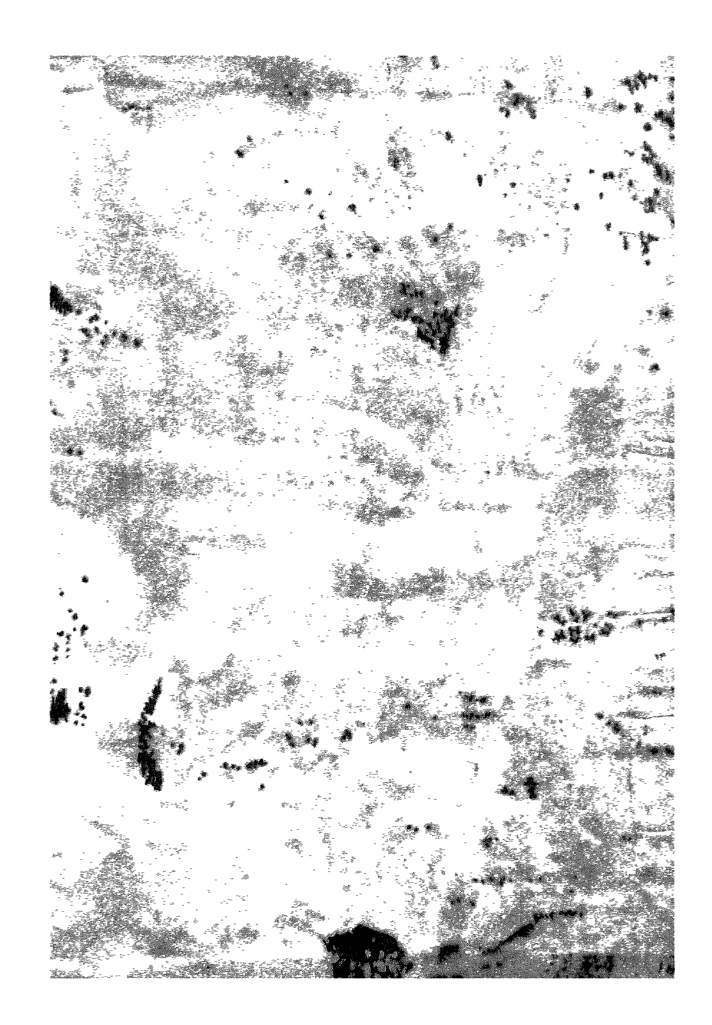

Bibliotheca Alexandrina
0014393





الألف كتاب
٤٣٩

الأزمنة والأمكنة

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب ٤٣٩

الأزمنة والأمكنة

الجزء العاشر من دهاليز الزمن

تأليف

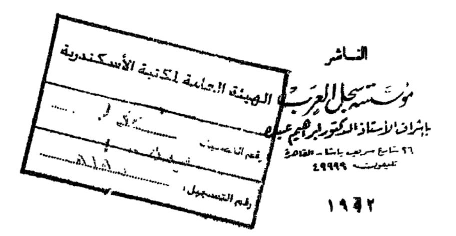
هارولد بيك ، هربرت جون فلير

ترجمه

الدكتور محمد السيد غلاب

راجعه

الدكتور ابراهيم احمد رزقانه



الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف
رقم التسجيل

الناشر

مؤسسة سجل العرب

بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده

٢٦ شارع شريف باشا - القاهرة

تليفون ٤٩٩٩٩

١٩٦٢

هــــذه ترجمــة كتاب

Times and Places

(The Corridors of Time "X")

تأليــف

H. PEAKE and H. J. FLEURE

فهـــرس

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

وضع هذا الكتاب ليكون خاتمة لسلسلة كتب « دهاليز الزمن » ومن ثم كان لابد من أن يصدر بتقدير لحياة « هارولد بيك » أكبر المؤلفين الذى توفى عام ١٩٤٦ .

وينقسم هذا الكتاب إلى قسمين : القسم الأول ويضم الفصول الثلاثة الأولى ، ويحاول أن يعطى فكرة عامة عن الأبحاث الحديثة عن الإنسان فى العصر الحجرى القديم .

وكان من رأى المؤلفين فى « دهاليز الزمن » أن جنوب غرب آسيا هى المنطقة التى خطا فيها الإنسان خطواته العظيمة من مرحلة الاعتماد على الصيد وجمع الطعام والتقاطه إلى مرحلة إنتاج الطعام بزراعة الحبوب ، ثم أضاف إلى هذا تربية الحيوان المستأنس . وستظل جهود مصر وجنوب غرب آسيا فى نشر طرق إنتاج القوت من المعالم الكبرى فى تاريخ البشرية رغم ما عساه أن يكون قد حدث من محاولات صغيرة بقيام الزراعة واستئناس الحيوان فى جهات أخرى من العالم . . من ثم خصص القسم الثانى من هذا الكتاب لتتبع انتشار إنتاج القوت فى أقاليم عديدة ولتتبع نشأة الحضارة وتطورها فى تلك الأقاليم تتبعاً عاماً .

وقد استبعدت الأمريكتان بمشاكلهما الخاصة من هذا البحث .

وقد تأخر صدور هذا الجزء عدة سنوات بسبب ظروف خارجة عن إرادة أحد المؤلفين الذى ما زال على قيد الحياة ، وقد وجد من الصعب بذل الجهد المستمر بجعل معلومات هذا الكتاب جديدة ، ومع ذلك فالمرجو ألا تكون المعلومات المدونة به قديمة إلى درجة خطيرة .

المرحوم هارولد بيك

بقلم زميله : الاستاذ فلير

هارولد جون إدوارد بيك ابن جون بيك قس الزمير ، ولد عام ١٨٦٧ ، وتوفى عام ١٩٤٦ ، تلقى تدريباً مبكراً فى إدارة الأرض الزراعية ، مما أعطاه بصيرة فى مسائل استغلال الأرض واستئجارها على أساس تاريخى ، وبعد أن تزوج من شارلوت بايليس وجد أنه يستطيع أن يسافر حول العالم وأن يقضى وقتا ما فى إحدى مزارع كولومبيا البريطانية ، ومن ثم اكتسب بصيرة خاصة فى حياة الرعى قبل التاريخية ، تحدث عنها فى كثير من مقالاته وفى بعض فصول هذه السلسلة . وعندما استقر الزوجان ، فى بوكسفورد عام ١٨٩٩ أعطيا مثلا يحتذى لأصحاب الفراغ البريطانيين الذين لا يقيدهم مركز أو وظيفة ، فاستخدماه فى خدمة الثقافة والمجتمع ، وأصبح بيتهما مركزاً للعلم والقيادة الفكرية ، ليس فقط لإقليميهما بمساهمتهما فى نشاطه القصصى والمسرحى واشتراكهما فى كثير من الواجبات وأعمال البر . بل أيضاً للباحثين الشبان الذين اغترفوا من فيض الحكمة والمعرفة فى حديقة دارهما الجميلة ، وحول النار المشتعلة فيها . وقد أصبح بيك أميناً فخرياً لمتحف نيوبرى . فأكسبه سمات خاصة ، فأدخل عليه تنظيمات رئيسية أهمها ذلك التتابع التاريخى الذى خص فيه كل قرن من الزمان منذ ٣٠٠٠ ق . م بمكان خاص يعرض فيه آثاره وخرائط له . كما أصبح رئيساً لمجلس إدارة مدرسة نيوبرى الثانوية ، وعضواً فى مجلس التعليم بمقاطعة بركشير ، ورئيساً لمجلس إدارة مستشفى نيوبرى العامة ثم مديراً له ، وعضواً فى مجلس جمعية الآثار بلندن ورئيساً للمعهد الملكى للأنثروبولوجيا وحاملا لميدالية هكسلى التى يمنحها هذا المعهد ، ورئيساً للقسم الأنثروبولوجى فى الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم .

وقد صممت المجموعات الزمنية بمتحف نيوبرى بحيث تبرز مقدار القصور الذى تعانى منه كتبنا المدرسية ، وهى تنتقل من بضعة أسطر قليلة تقتبسها عن الحروب الغالية لقيصر إلى الغزو الأنجلو سكسونى مباشرة وبذلك تضرب صفحاً عن السكان السابقين لهذا الغزو ، ومن نتائج متحفه فى نيوبرى أن مفتشاً للتعليم تحدث يوماً عما حدث منذ « عهد بعيد » فصححه أحد تلاميذ نيوبرى الصغار قائلا « إن هذا حدث فى وقت متأخر ، فى فترة لاتين • La Tène

وقد ابتعد بيك من تلقاء نفسه عن الطائفية والحزبية لأنه صاحب بصيرة نفاذة وميل لفعل الخير، لم يرض لنفسه أن يقيد ضميره . واكتفى بأن يلاحظ ماحوله فى عناية ، وأن ينصب نفسه محامياً عن القضايا العادلة . وكانت نزاهته العقلية تمتزج أحياناً بروح المرح والمداعبة . فعندما سأله أحد ضيوفه الأجانب يوماً عن أصل ميدان السباق أجاب قائلا « ربما كان هذا معبداً لديانتنا القومية » . وكان ينتقل بنا — فى محاضرته عما قبل التاريخ — إلى فجر التاريخ . ثم يقول وهنا تصبح القصة مشوهة ، إذ أن الإنسان قد بدأ يزور الحقائق عندما ترك وثائق مكتوبة . وكان « بيك » أحد الرواد الأوائل فى دراسة جغرافية الإنسان الأول وما وصل إليه ، كما شجع المحاولات العديدة التى بذلت لرسم خرائط توزيع آلاته وآثاره وفخاره وغيرها ، لأنه كان مقتنعاً بأهمية انتشار الحضارات وتداخلها وامتزاج بعضها بالبعض . وسيظل « كتالوج الأدوات البرونزية البريطانية » عملا علمياً ممتازاً وعلامة طريق هامة عن الدراسات قبل التاريخية . وقد منعه علمه الواسع من أن يكون تبعاً للمدرسة الانتشارية الحديثة ، التى أسسها « سيرجرافتون إليوت » ودكتور بيرى Perry ، والتى دافعت عن انتشار الحضارة من مصر القديمة على يد « أبناء الشمس » . وكان « بيك » يقول إن من الصعب عليه أن ينتظر إلى العالم

من خلال « بيرسكوب »[١] ، ولكنه قدر ما قدمه كل من إليوت سميث وإلزورث هنتنجتون للبحث بالدراسة ، من نظريات وفروض وآراء . وقد حاول ألا يخضع تماماً لفروضه المعقولة ، ولم يمنع هذا من نضوج آرائه نضوجاً كبيراً بعد عمل دام خمسين عاما . وقد حاول باستمرار أن يربط دراسة توزيع الآثار القديمة توزيعاً دقيقاً ، بدراسة تلك الآثار من الوجهة الفنية ، وأن يحصل بذلك على صورة حية لنشاط السكان وفنونهم وبذلك أعاد الحياة إلى التاريخ القديم وإلى القدماء ، وقدم ذلك إلى الطالب ، وكان حريصاً أن يخضع نفسه كما يخضع غيره للتطور الحضارى . وقد عرض فى أحد المتاحف نماذج للرئيسيات العليا التى تنتهى بظهور الإنسان مرآة — وليس هيكلا عظميا — ليرى فيها الزائر نفسه كنموذج للإنسان العاقل Homo sapiens . وقد استحوذ بانتباهه موضوعان هما : نشأة زراعة الحبوب (وقد اشترك معه فى هذا صديقه هـ . هـ كوغلان) ، والمراحل الأولى لعصر المعـدن .

وقد نشر « بيك » — إلى جانب اشتراكه فى إصدار « دهاليز الزمن » ومقالاته الكثيرة فى صحيفة المعهد الملكى للأنثروبولوجيا ، ومجلة الإنسان Man ، ومجلة نادى نيوبرى ، وتاريخ بركشر . القرية الإنجليزية (١٩٣٢) . وعصر البرونز والعـالم الكتى (١٩٢٣) . ونشأة الزراعة (١٩٢٦) . والطوفان (١٩٣٠) وخطوات التقدم الإنسانى الأولى (١٩٣٣) .

ومن يعرف « مستر ومسز بيك » سيذكر باستمرار جهود مس ولسون ومس بلومب اللتين عملتا فى منزل « بيك » أكثر من خمس وأربعين عاما ، وساعدتا فى جهود بيت وستبروك بمـا فى ذلك الأبحاث قبل التاريخية .

---

(١) أى من وجهة نظر « برى » Perry (المعرب) .

هربرت جون فلير

بقلم المعـــرب

ولد الأستاذ فلير فى إحدى جزر بحر المانش التابعة لبريطانيا . وكان أستاذاً للجغرافيا فى جامعة ويلز بأبرستوث فترة طويلة ، ثم أستاذاً للجغرافيا والأنثروبولوجيا بجامعة مانشستر . وبعد أن أحيل إلى المعاش عام ١٩٤٤ عبر المحيط الأطلسى إلى الولايات المتحدة حيث حاضر كأستاذ زائر مدة عام . عاد بعدها إلى انجلترا وعكف على تنظيم الاتحاد الجغرافى والإشراف على إصدار مجلة « الجغرافية » . وقد دعته جامعة القاهرة وجامعة الإسكندرية من عام ١٩٤٨ إلى ١٩٥٠ حيث حاضر بهما كأستاذ زائر فى هذه الفترة ، ونشرت له مجلة الجمعية الجغرافية المصرية فى هذه الفترة أبحاثاً قيّمة .

نال الأستاذ فلير درجة الدكتوراه فى علم الحيوان ومن ثم كان رسوخ قدمه فى العلوم الطبيعية والأحياء القديمة والجيولوجيا ، ولكنه أوقف حياته على دراسة علمى الجغرافية والأنثروبولوجيا ، وكان رئيساً لقسميهما فى الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم ، وبينما انتخب زميلا للجمعية الملكية F. R. S. فى بريطانيا ، وهو أرفع منصب علمى يرنو إليه أى بريطانى ، إذا به يكرم أيضاً فى الجمعيات الجغرافية البريطانية والأمريكية على حد سواء .

وقد انقضى الآن أكثر من أربعين عاما منذ أن نشر كتابه عن الجغرافية البشرية لغرب أوربا ، الذى يعتبر من أوائل الدراسات الجغرافية البشرية فى هذا القرن ، كما انقضى أكثر من ثلاثين عاما منذ أن شرع فى إصدار سلسلة دراسات «دهاليز الزمن» مع زميله المرحوم هارولد بيك ، وقد استمر إصدار هذه الدراسات من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٥٦ وقد استقل الأستاذ فلير

بتحرير المجلد الأخير من هذه السلسلة ، وهو الذى نقدمه الآن إلى قراء العربية ، ورغم ذلك فقد احتفظ باسم زميله الراحل وقدم لكتابه بثناء عاطر عليه ، بما يدل على خلق الوفاء والإخلاص لدى هذا الأستاذ الكريم.

ونحن لانستطيع أن نحصى كل مؤلفات الأستاذ فلير فهى عديدة ومتنوعة ويكفى أن نشير إلى مقالاته فى المجلات الجغرافية المعروفة فى انجلترا وأمريكا ومصر ، ومجلة المعهد الأنثروبولوجى البريطانى ومجلة الآثار Antiqiuty البريطانية ، كما نود أن نشير إلى أحد مؤلفاته الجامعة التى كتبها عام ١٩٥١ وفيه ملخص لأبحاثه عن الجزر البريطانية . ويعتبر الأستاذ فلير مؤسس علم الجغرافية الحديث فى بريطانيا ، وقد تتلمذ عليه كثير من المصريين ولعل فى ترجمة هذا الكتاب خير تحية للأستاذ فلير فى شيخوخته .

المعرب

مقدمة الترجمة العربية

الحضارة الإنسانية هي ما خلفه ذلك الحيوان الفريد ، الإنسان ، من أثر على سطح الأرض ، يثبت به وجوده ويدل على ذاته . فقطعة الحجارة المشكلة ، والآلات الالكترونية الدقيقة ، وحجارة الأثافى الصغيرة ، وأفران الصهر العالية ، والكهوف والمغارات التى كان يأوى إليها ، وآيات العمارة المختلفة ، ونقوش الصخر المتناثرة فى صحراء كلاهارى أو داخل الكهوف والمغارات فى شمال أسبانيا والصور الفنية الرائعة فى متاحف العالم الكبرى وشواهد القبور وأهرامات الجيزة ، وقوارب شعوب المحيط الهادى وقطع الأسطول التى تمخر العباب فى ثقة وجبروت ، كلها آيات حضارية صنعتها يد الإنسان نتيجة خبرة طويلة انتقلت إليه من الخلف إلى السلف ، وهو يعيش فى جماعات على درجات متفاوتة من التنظيم . وهى فى تسلسلها ، واتصالها تؤلف قصة الحضارات الإنسانية .

فالحضارة إذن من صنع الإنسان . ولم يكن الإنسان بقادر على أن يخطو أولى خطواته الحضارية الرائعة لولا ما اتصف به من مميزات جعلته يقف فريداً فى عالم الحيوان . فهو — كحيوان — يختلف اختلافاً كبيراً عن أقرب الأنواع إليه ، كما تختلف البشرية اختلافاً كبيراً عن أقرب عائلات الثدييات الأخرى . فهو يسير منتصب القامة ، يحمل رأساً متزنة فوق عموده الفقرى ، مختزلة الخيشوم منحدرة الفك مرتفعة الجبهة يستطيع أن يرى بكلتا عينيه معاً فيدرك أبعاد المنظور الثلاثة ، ويرى للأشياء عمقاً كما يرى لها طولا وعرضاً ، وأصبح بذلك يدرك المسافات ، وهو فى وقفته المنتصبة يستطيع أن يشرف على مساحة أكبر من الأرض ، قد ارتفع

عن سطح الأرض فاستبدل بقوة حاسة الشم ، قوة فى حاسة الإبصار ودقة ، وقد هيأت قامته المنتصبة الفرصة أن يحرر يديه من السعى بهما على الأرض ، فتطورت أصابعه وتنوعت أشكالها واستطاع بها أن يمسك بالأشياء ويقبض عليها ويجذ بها ويدفعها ، واكتسبت تلك اليد مهارة ودقة ومرونة فى الحركة فكان الإنسان صانعاً Homo Faber ، كما أن وضع الرأس فوق العمود الفقارى وتخفف حجم الفك منح الفرصة للمخ بأن ينمو فى كل اتجاه ، فامتلأ فراغ الجمجمة العلوى ثم الخلفى ثم استدارت الجبهة وارتفعت فامتلأت أيضاً بالمخ . وهذا هو العامل الفيصل فى تميز الإنسان العاقل Homo Sapiens الذى نقله من نطاق الحيوانات الأخرى وجعله من الرئيسيات ، بل والذى نقله من مستوى الرئيسيات الأخرى — كالقردة العليا والنسانيس — وجعله فريداً وحيداً فى عالم الحيوان ، ورفعه إلى مستوى الإنسانية .

وإذا كانت اليد وأصابعها التى تختلف كل أصبع فيها عن الأخرى فى الشكل والترتيب وإن اتحدت فى ترتيب معين يعين على القبض على الأشياء ورفعها ودفعها ، قد جعلت الإنسان أكبر وأدق وأمهر صانع فى الطبيعة لا يدنو منه أى حيوان آخر فيها ، فإن المخ هو مستودع الخبرات ومخزن التجارب ، وموضع التفكير ومهبط الوحى . وهو الذى قاد الحيوانات العليا فى تطورها وقاد الإنسان فى تطوره وميزه عن أقرب الأنواع الحيوانية إليه ، هو المحرك والموجه والمدبر فى معركة الحياة ، للفرد فى حياته القصيرة وللنوع فى حياته الطويلة، انحدرت إليه عن طريق الوراثة الخبرات السابقة واختزنت، وأضيفت إليها الخبرات اللاحقة . ولولاه لكان على كل فرد منا أن يبدأ حياة البشرية من جديد ، أى منذ عهدها الأول بالحجارة والصوان ، فالمخ هو مستودع التقاليد بأوسع وأشمل معنى للكلمة .

وما كان لهذه التقاليد أن تنتقل لولا الكلمة ، تنطق بها الأم فتحذر طفلها

من الابتعاد عن الكهف حتى لا يفترسه الدب ، هذه خبرة سنين كاملة تنقلها الأم فى أحد أيام العصر الحجرية الأولى لطفلها فيعينها ولا يحتاج لتكرارها، فنى تكرارها حتفه. فاللغة إذن أداة تفكير وأداة عمل فى نفس الوقت .لولاها ما أمكن نقل التقاليد من جيل إلى جيل ، والاحتفاظ بتراث إنسانى ينمو ويتعاظم فى كل اتجاه على مر آلاف السنين ، ورمز لخبرات لاحصر لها ومجال لتصور خبرات قادمة تصوراً كاملا دقيقاً ، مما جعل الإنسان مخلوقاً فريداً لا يحده زمان ولا مكان . بالكلمة يستحضر الماضى ويعيش فى أجواء غير التى يعيش فيها ويتصور المستقبل ويرسم لنفسه مجالات غير التى يحيا فيها . تصور مثلا وأنت تقرأ هذا الكتاب أنك تعيش فى فترات التاريخ الماضية فى مصر حيناً ، وفى جزر المحيط الهادى حيناً آخر، فى عصر بناة الأهرام أو فى عصر النهضة ، وتصور وأنت تقرأ الكلمة أو تنطق بها وتتحدث عن المستقبل .

هذه أدوات الإنسان الكبرى فى تقدمه وتطوره والتى نقلته من عالم الحيوان إلى عالم فريد خاص به لا يشاركه فيه مخلوق آخر : قامة منتصبة ، يد صانعة ، مخ تام ، لغة .

هذا التطور الذى انتهى بتلك الأدوات قدتم خلال المليون السنة الأخيرة، فى عصر البلايستوسين ، الذى بلغ من أهميته أن أفرد له العلماء فصلا خاصاً فى سجل التاريخ الجيولوجى وأسموه بالزمن الرابع . فى هذا الزمن لم ينتقل الإنسان نهائياً من الحيوانية إلى الإنسانية فحسب ، بل خطا خطوته الأولى نحو الحضارة . وبدأ يصنع آلاته من الحجارة ويشكلها لكى تقابل حاجاته المختلفة . ورغم بساطة تلك الآلات الحجرية ، التى كانت عدته الوحيدة فى الحياة ، فقد استطاع بحيله وذكائه أن يواجه تغيرات مناخية عنيفة ، اجتاحت فيها الثلاجات وغطاءات الجليد الجزء الأكبر من شمال أوربا وشمال أمريكا الشمالية، وجثمت أغطية الثلج فوق مساحات هائلة من أوراسيا وانخفض فيها مستوى

البحار والمحيطات ، واضطر فيها الإنسان إلى أن يلجأ إلى الكهوف والمغارات ، حيث كان يزاحم الحيوانات القطبية فى أماكن التجائها ، هذا بينما استطاعت الأعاصير الغربية أن تصل إلى شمال إفريقية وما يسمى الآن بالصحراء الكبرى وصحراء بلاد العرب ، فكانت الأشجار والمروج تغطيها ، والأنهار والجداول تجرى فيها ، وكان مسرحاً لأنواع شتى من الحيوان العاشب ومجالا واسعاً للصيد .

ولقد صحب تطور معالم البيئة الجغرافية ، تطور الإنسان الطبيعى ، كما صحب تطوره الحضارى القديم . فنى خلال نصف مليون سنة الأخيرة ظهر أول إنسان وهو إنسان جاوة ، أو الإنسان القرد منتصب القامة . كما ظهر إنسان الصين وما يشبهه فى الصين وفى أنحاء أخرى من جنوب شرق آسيا . وكذلك فى هيدلبرج بأوربا . ثم ظهر إنسان نياندرتال فى أوربا وشمال إفريقية وجنوب غرب آسيا وروديسيا وإيران وأخيراً ظهر الإنسان العاقل وهو الجنس البشرى الذى ننتمى إليه .

ولو صور تاريخ تطور الفقاريات فى شريط سينمائى يستغرق عرضه ساعتين ، فإن الحضارة الحجرية القديمة لاتظهر إلا فى الدقائق العشر الأخيرة من العرض ، ولو صور تاريخ تطور الحضارة البشرية كلها فى شريط آخر يستغرق عرضه ساعتين أيضاً ، فإن الزراعة لا تظهر فيه إلا فى آخر دقيقتين ، ولا يستغرق الوقت الذى انقضى بين ظهور الآلة البخارية وتفجير القنبلة الذرية أكثر من ثلاث ثوان .. فعصر ما قبل التاريخ قد استغرق من البشرية الجزء الأعظم من تاريخها حتى الآن ، من حوالى ٥٠٠,٠٠٠ ق . م إلى ٣٠٠٠ ق . م فى أعرق جهات العالم عهداً بالمدنية ، مصر والعراق . بينما لم يبدأ ظهور التاريخ ، أى لم يعرف الإنسان الكتابة ، وكيف يسجل خواطره أو تاريخه فى جهات أخرى من العالم إلا بعد ذلك بفترات تتراوح بين نصف

ألف أو ألف من السنين ، بل لا تزال بعض القبائل البدائية ، مثل الأستراليين الأصليين والبوشمن والهوتنتوت فى جنوب أفريقية تعيش فى مرحلة ما قبل التاريخ ولم تبدأ تاريخها بعد .

وتعتمد دراســـة تطور الحضارة ، فى مراحلها الأولى ، على أدلة أثرية لا تجمع الآثار المادية للإنسان فى منطقة ما — فحسب بل تحاول أن تستقرىء منها تاريخها ، متى صنعت أول مرة ، وأين وكيف وأى سبيل تسلكه وكيف انتقلت من مكان إلى آخر ، أو من مجتمع إلى آخر ، ولذلك يحتاج من يتصدى لهذا البحث أن يكون على إلمـام تام بعلوم مختلفة مثل علوم الأحياء القديمة ، لدراسة الأحياء القديمة وهى الأثر أو الطابع أو البقايا التى تركها الكائن الحى فى الصخر ، وما يتصل بها من علوم طبقات الأرض وتتابعها Stratigraphy وأن يفهم فهماً تاماً نظرية التطور ، كما عليه أن يكون ملماً بنظريات تغيير المناخ ، والمناخ القديم ، وما يتصل به وأثر ذلك فى الغطاء النباتى والتربة وتغيير مظاهر السطح .

ولا يحتاج فهم الآثار المـادية والإلمـام بأنماطها ونماذجها أو تصنيفها إلى آلات مختلفة ذات أغراض مختلفة ، أو أسماء حضارية مختلفة فحسب ، ولا لدراسة توزيعها جغـــرافياً فقط ، بل لا بد من فهم شىء عن الطبيعة البشرية ، والدوافع الإنسانية التى تكمن وراء نقش على الحائط ، أو رسم معين ، أو على تمثال أو إقامة نصب ، أى لا بد من الإلمـام بالأنثروبولوجيا بشطريها الطبيعى والحضارى .

نحن إزاء قصة التطور ، نصل إليها إما باستقراء الأحداث التاريخية فى الزمان ، وإما باستقراء الأدلة الأنثروبولوجية فى المكان ، وخير من هذا أو ذاك الاستقراء المكانى والزمانى معاً أو الجغرافى التاريخى .

وتعيش فى الوقت الحاضر جماعات بشرية تقف على درجات متفاوتة من

السلم الحضارى ففى أدغال الهند وأحراج الملايو وغابات أندونيسيا وصحراء أستراليا وصحراء كلاهارى وأصقاع بتاجونيا لا تزال هناك أقوام تعيش فى مرحلة من العصر الحجرى القديم ، تجمع النار وتصطاد الحيوان . وفى جزر المحيط الهادى وأجزاء مختلفة من الأمريكتين وجزر كاناريا لا تزال شعوب تعيش فى أوائل مراحل العصر الحجرى الحديث ، وهكذا يمكن العثور على بقايا جماعات بشرية تمثل مراحل مختلفة من تطور الإنسانية الحضارى . وكانت هذه الجماعات ولا تزال موضع اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو الحضارية . وتلقى نتائج هذه الدراسات أضواء هامة على الآثار التى خلفها الإنسان فى العصور الحجرية القديمة وتفسر كثيراً من المسائل الأثرية .

ويبدو فى كثير من صفحات هذا الكتاب تساؤل معين : هل الاختراعات والاكتشافات الحضارية الكبرى نشأت فى أوطان معينة ، ومنها انتشرت بعد ذلك إلى غيرها من الأوطان الثانوية والأقطار ، أم كانت هذه الاختراعات والاكتشافات متعددة النشأة ، فى أوطان عديدة مختلف بعضها عن بعض ؟

بمعنى آخر هل الحضارة ذات وطن واحد انتشرت منه إلى غيرها من الأوطان ، أم أنها متعددة الأوطان ، وليس من شك فى أن الإنسان وجماعاته لم يستقر قط فى مكان واحد ، بل كانت جماعاته تنتشر وتهاجر من مكان إلى آخر ، كما كانت هذه الجماعات منذ أقدم العصور تتبادل المعرفة والخبرة . والإنسان نفسه حيوان اجتماعى ، كان يتبادل مع غيره ما وصل إليه من فنون الصناعة والمعرفة وألوان الخبرة والتجربة ووسائل ذلك عديدة ، التقليد والإقناع والإكراه والقسر . وكانت التجارة والارتحال من أولى عوامل نقل الخبرة واكتسابها ، ثم أصبح الفتح والغزو أيضاً من أهم وسائلها . وقديماً قال ابن خلدون إن الشعوب المغلوبة مولعة بتقليد غالبيتها ، كما أن كثيراً من الشعوب المغلوبة كانت تهزم غالبيتها

وتصبغهم بصبغتها ، فالمصريون القدماء مصروا البطالسة والإغريق وطبعوا الرومان بطابعهم الحضارى . والشعوب الدرافيدية أثرت فى الشعوب الآرية الفاتحة للهند والديانات الهندوكية أثرت فى البوذية الجديدة وهكذا .

فالانتشار Diffusion عامل هام جداً فى نشر معالم المدنية والحضارة . ومن ثم اتجه كثير من المفكرين إلى تقسيم العالم إلى أقاليم حضارية Kultur Kreise . فجنوب غرب آسيا إقليم حضارى له سماته الخاصة ، والشرق الأقصى إقليم حضارى له سماته الخاصة وهكذا . وكانت تظهر بوادر الاختراع والاكتشاف فى مكان من أى اقليم حضارى لكى تنتشر فى بقية أنحائه بالتجارة أو الهجرة أو الفتح أو الغزو أو بأكثر من عامل من هذه العوامل .

إلا أن مدرسة أخرى من المفكرين رأت أن قوانين التطور تعمل على أن يسير الذهن البشرى فى خطوات متتابعة متلاحقة ، ولما كان العقل البشرى — أساساً واحداً ، لوحدة النوع البشرى المنحدر من أصل واحد فى كل مكان ، فليس ثمة مايمنع — من الناحية المنطقية — أن يصل العقل البشرى فى اقليم ما إلى نفس النتائج التى وصل إليها نفس العقل فى إقليم آخر إذا تساوت ظروف البيئة ، ثم نادوا بالنشأة المستقلة للاختراعات الكبرى . بمعنى أن العقل البشرى الذى توصل إلى معرفة استخدام النار فى الصين ، هو نفسه الذى توصل إليها فى أوربا ، دون حاجة إلى نقل ذلك الاكتشاف من الصين إلى أوربا . كما أن العقل البشرى الذى توصل إلى اكتشاف الزراعة فى مكان ما بجنوب غرب آسيا ، هو نفسه الذى توصل إلى هذا الاكتشاف فى مكان ما بجنوب شرق آسيا ، دون حاجة إلى نقل هذا الاكتشاف من أقصى الأرض إلى أقصاها .

ويبدو أن الحضارة كان لها أكثر من نشأة ، فنشأ نوع من الزراعة فى جنوب غرب آسيا وهى الزراعة الجافة . التى تعتمد على الرى ، بينما ظهر نوع

آخر منها فى حوض الدانوب ، ونوع ثالث وهى الزراعة المتنقلة فى إفريقية المدارية وهكذا . أى أننا لا نستطيع أن نغفل عامل النشأة المستقلة والتطور المحلى للمدنية والحضارة .

إلا أن ذلك لم يمنع من قيام الاتصالات المتعددة بين اقليم وآخر، فعن طريق هذه الاتصالات ازدادت سرعة تقدم المدنية والحضارة ، لأن معنى هذا استعانة الجماعات البشرية المختلفة بعضها بالبعض الآخر ، ولولاها لأصابها الركود وانتهى بها الأمر إلى التدهور . والحضارة فى هذا تشبه النهر الكبير ، الذى تغذيه الروافد العديدة التى تصب إليه من كل مكان ، بينما العزلة والانطواء يؤدى بجداول الحضارة إلى أن تركد وتأسن ، وقد ثبت من دراسة تاريخ المدنية والحضارة أن الشعوب ذات الاتصالات الثقافية المتعددة المتنوعة ، هى أكثر الشعوب تقدماً وثراء فى مدنيتها ، بينما تلك التى أصابتها العزلة ، انتهت بها الحال إلى التدهور والانحطاط .

وقد استطاع مؤلفا هذا الكتاب ، وقد ملكا ناصية علوم الجغرافية والتاريخ والأنثروبولوجيا أن يتتبعا قصة التطور الحضارى للبشرية من إرهاصاتها الأولى خلال الأزمنة المتتابعة ، فى الأمكنة المختلفة ، ومن ثم كانت هذه الدراسة كاملة شاملة إلى حد كبير . ولا يستطيع القارىء أن يستغنى بجزء من هذا الكتاب عن الآخر ، وربما استطاع أن يقرأ القسم الأول منه على أنه موضوع قائم بذاته وهو خاص بتطور الإنسان . ولكن القسم الثانى الخاص بالتطور الحضارى كل متماسك . بدىء بجنوب غرب آسيا مهد الحضارات الأولى الراقية ، ومهبط الوحى ، ولكنه لم يستطع فى هذا الفصل أن يغفل الإشارة إلى مصر من ناحية أو شرقى البحر المتوسط من ناحية أخرى ، بينما هو عالج هذين الإقليمين فى فصلين آخرين متتابعين . ولا يستطيع من يدرس تطور حضارات أوربا أن يغفل الأحداث الهامة

التى كانت تضطرم فى داخلية آسيا ، والتى دفعت إلى أوربا بالهجرات والغزوات يتلو بعضها بعضاً . ونفس هذه الأحداث هى التى شكلت تاريخ الهند ، والصين ، وهى التى غيرت مجرى التاريخ عدة مرات فى جنوب غرب آسيا بل ووصلت آثارها إلى مصر .

هذا الكتاب — نتيجة دراسة ثلاثين عاماً متوالية ، وملخص أبحاث ظهرت فى تسعة مجلدات سابقة — يقدم لنا درساً فى دقة البحث ، والبصر والأناة فى جمع الأدلة المختلفة والتكامل الذهنى لعدة فروع مختلفة ومتشابكة أحياناً ، فروع متباعدة من العلم ، ثم التواضع العلمى الجم إذ أن صاحبيه لم يحاولا أن يستخدما لفظاً واحـــداً فيه شىء من الضخامة أو الفخامة وهما يؤرخان لتطور الحضارة الإنسانية فى جميع بقاع العالم خلال جميع العصور .

ولعلهما كانا يعتقدان أن غموض العبارة لا يخفى سوى الجهل ، وأن الاختباء وراء الألفاظ البراقة ليس إلا حيلة العاجز . وأن الفهم الكامل للموضوع تعبر عنه عبارة سهلة واضحة .

وإن من أعظم الدروس التى يخرج منها القارىء لهذا الكتاب هو أن الحضارة الإنسانية من صنع جميع البشر ، ليست غربية ولا شرقية وليست بيضاء ولا سوداء ولا صفراء ، وأن مدنيتنا هذه شجرة وارفة الظلال ، تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ ، وتمتد جذورها إلى كل مكان ، ارتوت من روافد وأنهار عديدة من مصر والعراق والهند والصين وأوربا ، وأن لكل قارة ولكل شعب من الشعوب العريقة ، نصيباً فى ريها وتهذيبها والعناية بها ، فمن تلال جنوب غرب اسيا ظهرت زراعة القمح والشعير ولكن فى سهول الرافدين ودلتا النيل عرفت فنون الرى . وأن ملايين

البشر فى أفريقية وجنوب غرب آسيا تتناول طعاماً منقولا من الأمريكتين بعد كشفهما ألا وهو الذرة . كما أن ملايين أخرى لم تعرف الأرز إلا بعد أن نقل من جنوب شرق آسيا ، وإذا كان غرب أوربا يتزعم العالم فى الوقت الحاضر فى المدنية الصناعية ، فعلينا أن نذكر أن صناعة التعدين لم تظهر بادئ الأمر إلا فى مصر وجنوب غرب آسيا ، التى سبقت بقية العالم بأكثر من ألف عام فى هذه الفنون ، ولم تكن مدنية أوربا الحديثة لتظهر لولا قيام مدنية الإسلام وحضارته فى قرطبة وأشبيلية ، وحضارة العرب فى صقلية. ومن هذه المشاعل الحضارية تعلم الغرب فلسفة أرسطو وافلاطون وهندسة إقليدس وطب جالينوس مترجمة إلى اللغة العربية ، ومضافاً إليها من العلم العربى .

ولقد أخذنا من الشرق الأقصى صناعة الخزف الدقيق والحرير الطبيعى وفن الطباعة ، وأخذنا عادة شرب الشاى . وقد استعنا بالطباعة الصينية ، لطبع ما نكتب ، أى لطبع وسيلة نقل الأفكار والآراء التى تعلمناها من سيناء أو رأس شمرة أو الفنيقيين . ومعرفة الكتابة ظهرت لأول مرة فى مصر واستخدمت فى ذلك عدة خطوط هى الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ثم أدخل الفينيقيون تحسينات على وسائل الكتابة باستعمال الحروف الأبجدية التى عمت فيما بعد .

وبعد . .

لعلى أكون قد وفقت إلى نقل هذا الكتاب الهام إلى اللغة العربية ولعل القراء أن يفيدوا من قراءته ويخرجوا منه بأعظم دروس التاريخ : الإنسانية واحدة ، وتراثنا الحضارى واحد ، ساهمت فيه جميع شعوب الإنسانية .

محمد السيد غلاب

الاسكندرية فى ١٢ يولية ١٩٦٠

القسم الأول

تطور الإنسان

الفصل الأول

عن العصر الجليدي والإنسان

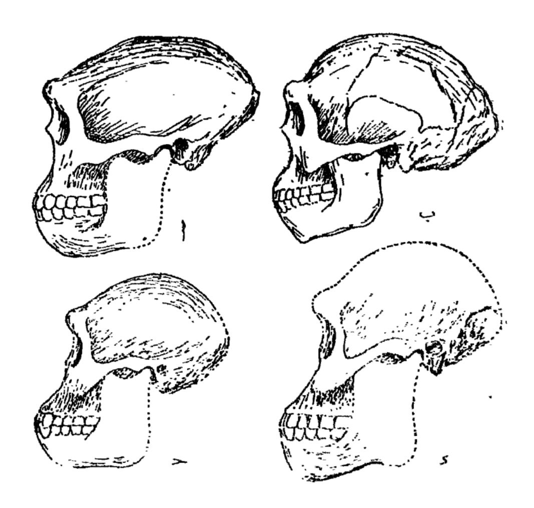
أصبحت قصة تطور الإنسان أكثر تعقداً وأكثر تفصيلا الآن نتيجة للكشوف التي تمت لسنوات خلال الثلاثين الأخيرة أو أكثر (١٩٢٤ — ١٩٥٤) وخصوصاً في جاوة والصين وجنوب أفريقيا وشرقيها هذا بالإضافة إلى اكتشاف وسائل جديدة لاختبار عمر الحفريات العظمية النسبي ، بطرق تطبق تحت ظروف خاصة فقط بما أغنى معلوماتنا . إلا أنه لم يكشف بعد عما يرجع بأصل الإنسان إلى ما قبل الفترة الانتقالية التي تقع بين عصرى البلايوسين ، والبلايستوسين ، أى ماقبل المليون سنة الأخيرة. ثم إن العظام البشرية الشبيهة بالبشرية لا تحفظ إلا تحت ظروف خاصة . ومن المتفق عليه أن الشامبانزى والغوريلا تشتركان مع الإنسان في صفات عديدة وأن هذه الصفات المشتركة من التعدد والكثرة بحيث لا يمكن أن ترجع إلى ما يسمى بالتلاقى أو التجمع ، أى ظهور عدة صفات بدأت من أصول متفرقة وتلاقت بعد تطورها — وبدت في شكل واحد . ومن العسير أن نجد حيواناً أقدم من الليمور أو التارسيوس (العلس الشجرى) يستطيع أن ينظر بكلتا عينيه إلى الأمام وأن يرفع هامته فوق منكبيه ولديه أيد لها أصابع تشبه أيدى الإنسان . وربما تطور فرع خاص من شبيهات الترسيوس إلى الإنسان كما يرى وود جونز Wood-Jones ، وقد أيد « مورتون » هذا الرأى بما لاحظه من وجود العظمة التارسية الطويلة لدى الإنسان محتفظاً بها من أصله التارسى الجيولوجى القديم ، وهذه العظمة تختلف عن نظيراتها القصيرة القوية لدى القردة العليا . علينا أن نذكر أن الرئيسيات أى الليمور والنسانيس والقردة

العليا من حيوانات الغابة الرطبة الدفيئة أى التى لا تحتفظ تربتها بعظام الحيوانات التى تدفن أو تطمر فيها إذ سرعان ما تتحلل وتذوب . ولقد أصبح الإنسان إنساناً لأنه — بالإضافة إلى أشياء أخرى — قد خاطر وخرج من الغابة إلى السهول المكشوفة وهذه السهوب أيضاً لا تحتفظ بعظام الموتى إن لم تدفن . ومن ثم كانت حفريات الإنسان القديم نادرة جداً كما كانت السلالات البشرية القديمة المعروفة قليلة جداً .

وتستخدم القردة العليا والنسانيس قطع الحجارة لتحطيم البندق ، ولابد أن أسلافنا قد سلكوا نفس السلوك ، إلا أنه لا يمكن أن نقبل الحجارة غير المشكلة كقرينة على ظهور الإنسان . ومن الممكن أن نقول إن الإنسان والشامبنزى والغوريلا تشترك فى صفات عامة تجعل قرابة بعضها للبعض الآخر كقرابة أولاد العم ، وإن افتراق بعضها عن البعض الآخر قد جاء نتيجة لانتقال الإنسان من الغابة إلى السهول المكشوفة بينما ظلت القردة العليا فى بيئة الغابات حتى بعد أن تعلمت السير على الأرض كما تعلمت بعد ذلك بعض النسانيس أيضاً .

وتعيش أجنة الإنسان والقردة العليا حوالى تسعة أشهر فى أرحام أمهاتها قبل أن تولد ، وتستطيع تلك الرئيسيات أن تتزاوج فى كل فصول السنة . ومن ثم فإنها أكثر التصاقاً بعضها بالبعض الآخر فى حياتها (أى أنها تعرف شيئاً عن الحياة العائلية) ، وقد ساعد طول فترة الحمل على نمو الرأس والمخ ، ولتصور ذلك نستطيع أن نذكر أن الشمبانزى يستطيع أن يخرج أصواتاً عديدة ذات معان مختلفة تفوق مايستطيعه أى حيوان آخر ، كما أن بعضها يستطيع أن يقوم بأعمال يمكن أن تعتبر وسائل لأهداف معينة مما يكاد يقرب من التعقل .

د داروخت و بروم وروبنسون وزملاؤهم فى جنوب أفريقية عدداً من الهياكل



شكل (١)

مناظر جانبية لجماجم قديمة (عن بروم) مقياس مصغر ٢٢ مرة تقريباً .

ا — الإنسان القرد (إنسان جاوة) ، ديبو ، جاوة .

ب — إنسان ، بلاك ، شمال الصين .

حـ — شبيه البشر الترنسفالي Plesianthropus ، بروم ، ستركفونتين ، ترانسفال .

ى — شبيه البشر الضخم Paranthropus robustus ، بروم ، كرومدارى ، ترانسفال .

العظمية مطمورة فى طبقات الحجر الجيرى فى ترانسفال وأطلق عليها أسماء عديدة مثل القرد الجنوبى وأشباه الإنسان .

Australopithecus, Telanthropus, Plesianthropus

وترجع هذه الكائنات إلى مرحلة الانتقال بين البلايوسين والبلايستوسين . إلا أن «بروى» يميل إلى إرجاعها إلى عصر البلايوسين مستنداً فى ذلك إلى ما دثر عليه معها من حفريات حيوانية ، ويدور جدل كثير حول صلة هذه الحفريات بكل من من القرد والإنسان وهذا يترك للإخصائيين يبحثونه عندما يتوافر لديهم عدد أكبر من الحفريات . إلا أن فك هذا المخلوق السفلى أقرب فى صفاته إلى البشر ، كما أن أنيابه ليست ضخمة . وتمتاز القردة العليا بوجود فجوة بين الناب والأسنان الأخرى كى تستقر فيها أنياب الفكين العلوى والسفلى حينما ينطبقان على بعضهما البعض ، وهذه الفجوة صغيرة جداً لدى القردة البشرية الجنوبية ، بحيث لم تعد تؤدى وظيفتها . وهذا تحول نحو الظروف البشرية ، وكما أن عظام حوض الرحم أقرب فى شكلها إلى الحالة البشرية منها إلى الحالة القردية ؛ بل إنه يقال إن القردة الجنوبية عرفت استخدام النار ومن ثم أطلق عليها اسم القردة الجنوبية مستخدمة النار Australopithecus prometheus . وقد استند هذا الفرض على ما وجد مع حفرياتها من عظام محترقة ، ومن ثم أضيف إلى اسم هذا القرد لقب بروميثيوس . ويعتبر استخدام النار إحدى الخطوات الهامة التى تميز الإنسان ، فهو يتضمن العناية بجذوة النار وتغذيتها باستمرار حتى لا تنطفىء إذ لم يكن ذلك المخلوق بقادر على استنباطها .

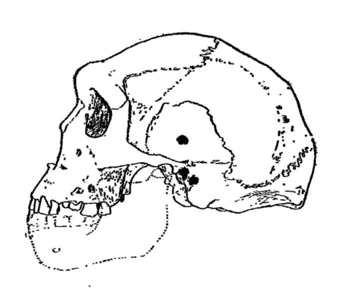
وقد وجد «كارل لارش» عام ١٩٣٨ بالقرب من بحيرة نيارا بقايا فك علوى لمخلوق قريب من القردة والإنسان ، وقد أطلق عليه اسم الإنسان الضخم Meganthropus . كما أطلق اسم الإنسان القرد الضخم Pithecanthropus robustus على بقايا فك أسفل عثر عليه فى جاوة .

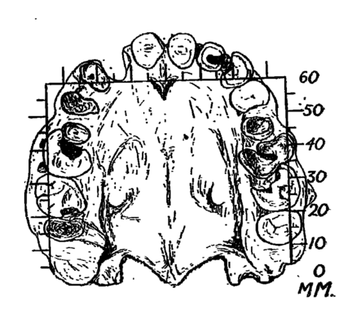
كما اشترى «فون كونجزفالد» ثلاث أسنان شبه بشرية ضخمة من أحد الحوانيت فى هونج كونج ، ويقال إنها جلبت من شانسى وقد سميت بالقرد

الضخم Gigantopithecus ، ومن المحتمل أن هذه البقايا تميز فرعاً جانبياً مندثراً لشجرة تطور الإنسان وأنها لا تلقى سوى ضوء ضئيل على قصة التطور ، ولا ريب أن مجموعة القرد الجنوبى أكثر أهمية ، ويبدو أنها كانت تستطيع أن تسير منتصبة القامة أو قريبة من ذلك ، وربما عرفت استخدام النار والحجارة والعظام ، وربما لم تبتعد كثيراً عن الحالة البشرية كما يقول لوجرو كلارك . ورغم أن الإنسان القرد اسم أطلق على قطع من أفكاك ضخمة كما ذكرنا ، إلا أنه فى الحقيقة يطلق أيضاً على الجماجم والهياكل العظمية التى تنتمى إلى عصر البلايستوسين الأسفل فى جاوة . وقد عثر على ثلاث أخرى بعد ذلك بسنوات طويلة ، إحداها ماسبق أن أشرنا إليه . وقد تم الكشف عن هذه البقايا فى ظروف لا تمكن من جمع أى دليل مستمد من الأدوات التى كان يصنعها الإنسان القديم إلا أن دافيد سن بلاك أخذ منذ سنة ١٩٢٧ يفحص مكانا سكنه الإنسان لفترة طويلة فى شوكوتين بالقرب من بيكين . يحتل هذا الموضع فترة زمنية طويلة إذ عثر فيه على هياكل عظمية وجماجم تنتمى لأربعة عشر شخصاً ، وقد درست تلك البقايا البشرية ووجد أنها قريبة من الإنسان القرد الذى عثر عليه فى جاوة رغم أنه أطلق عليه اسم إنسان الصين .

وربما امتاز بعضها عن الإنسان الجنوبى بارتفاع الجبهة وقد وجد مع هذه البقايا أدوات من الشظايا ومواقد . وينتمى هذا الإنسان مع إنسان جاوة إلى عصر البلايستوسين ، ولكننا لا نستطيع أن نقول إن كان البلايستوسين الأسفل أو الأوسط ، ومن المعروف أن بقايا شوكوتين ترجع إلى ما قبل البلايستوسين الأعلى .

وقد عثر ليكى Leakey فى كانم وكانجيز بكينيا على فك وجمجمة ، قيل إنها كانت تقترن بآلات حجرية أشولية وإنها أقرب إلى الإنسان العاقل Homo Sapiens . وهذه البقايا قديمة جداً ، إلا أن بوزويل يشك كثيراً فى تفاصيل خاصة بتاريخها .





شكل (٢)

إنسان روديسيا ، بروكن هل ، روديسيا (عن براش) .

ا — جمجمة أضيف إليها تخطيط فك هيدلبرج الأسفل (٣ر٠ الحجم الطبيعي) .

ب — سقف حلق إنسان روديسيا ٧٥ر٠ من الحجم الطبيعي . ويمثل المستطيل مدى سقف حلق الإنسان الحديث على نفس القياس .

وفى أوربا قبل العلماء أن يرجعوا فك ماور الذى عثر عليه فى محجر بالقرب من هيدلبرج إلى البلايستوسين الأسفل . وهذا الفك ضخم جداً إذا قورن بفك الإنسان الحديث ألا أنه يكاد ينطبق على جمجمة « بروكن هل » فى روديسيا ، وسنتحدث عنها فيما بعد .

وترجع جمجمة فتاة (بالغة) وجدت فى شتاينهايم بوادى مور فى ألمانيا إلى عصر البلايستوسين الأوسط أو الأسفل ، أى إلى فترة جليد رس Riss ، أو فترة أدفا خلال هذا العصر الكبير . وتشير هذه الجمجمة إلى اتجاه الجمجمة اتجاها واضحا نحو اكتمال صفات الإنسانية أى الإنسان العاقل . وربما قيل إن جماجم الصغار ولا سيما من الإناث أقرب إلى الاعتدال وأميل الى أن تكون فى مركز متوسط فى صفاتها ، وإن صفات هذه الأنواع لا تتضح إلا بعد النمو ، ولا سيما نمو الذكور ، من ثم كانت جماجم الذكور أكثر تمثيلا لهذه الأنواع من جماجم الإناث .

وقد أكد أوكلى أخيراً أن عمر جزء من جمجمة عثر عليها فى سوانسكومب بكنت « ووصفها ا . ت . مارستون » يرجع إلى أوائل عصر البلايستوسين ، وقد استخدم أوكلى طريقة معينة لتقدير عمر الحفريات ، وهذه الطريقة لا تصلح إلا تحت ظروف معينة ، وتعتمد على تحليل كمية الفلورين التى تمتصها العظام من الأرض منذ دفنها . ولا تمتص العظام التى دفنت بعد عصر البلايستوسين أكثر من ٠٫٣٠ ٪ من الفلورين ، بينما وجد أن جمجمة سوانسكومب قد امتصت ٠٫٣٠ ٪ من الفلورين فى بعض أجزائها ، و١٫٩ ٪ فى بعضها الآخر . كما وجد أن هيكل «جالى هل» العظمى، الذى كثر عنه النقاش، قد امتص مقداراً من الفلورين وصل إلى ٠٫٤ ٪ ومن ثم فالأرجح أن يرجع عمره إلى أواخر البلايستوسين أو ما بعد ذلك . إلا أن اختبار الفلورين يخضع لظروف كل موضع وجدت فيه العظام على حدة . ومن ثم لم تكن نتائجه مطلقة . ولم يبق للأسف من جمجمة سوانسكومب عندما وضعت تحت

الفحص العلمى سوى جزئها الخلفى ، وهى على أيه حال تشير إلى طراز الإنسان العاقل ، بل إن بعض العلماء يرجعها إلى هذا النوع البشرى .

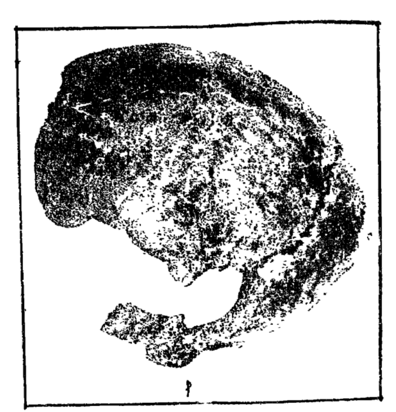


شكل (٣)

جمجمة (أنثى صغيرة) ، شتاينهايم ، ألمانيا

وقد وجدت هذه الجمجمة فى حفرة تحتوى على فئوس يدوية أشـولية (انظر ص ٢٧) ويرى بعض العلماء أن هذه الجمجمة تقترن بتلك الآلات الحجرية وهذا يعنى أنهم يعطونها تاريخاً قديماً .

وعثر فى وقت أحدث على أجزاء جمجمتين فى فونتيشفاد Fontéchevade فى غرب فرنسا مقترنتين بصوان يرجع إلى العصر الأشولى المتأخر (تيساسى Tayacian) ؛ وهذا يعنى أنهما ترجعان إلى تاريخ قديم ويقال إنهما يمثلان مرحلة تطور نحو الإنسان العاقل .





شكل (٤)

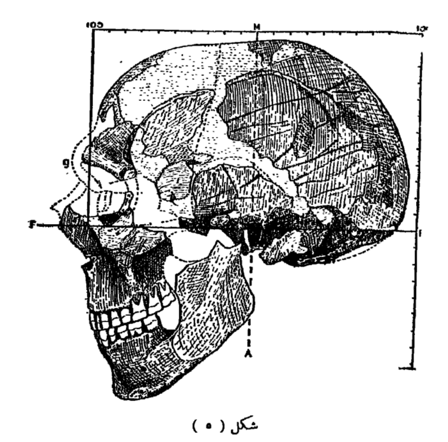
منظران لقطعتين من جمجمة سوانسكومب مقياس ٤ر٠ خطى .

(عن تقرير لجنة سوانسكومب ١٩٤٨) .

أ — منظر جانبي .　　　ب — السطح الداخلي .

وعثر على بعض الجماجم التى يطلق عليها اسم طراز نياندرتال وترجع إلى عصر البلايستوسين الأوسط فى أوربا . وقد اكتسبت هذه الجماجم هذا الاسم لأنه عثر على أول نماذجها فى وادى نياندر بالقرب من بون فى وادى الراين عام ١٨٥٦ ولم يعترف بهذه الجماجم كطراز خاص إلا بعد نقاش حاد افترض فيه أن شكلها الذى وجدت عليه إنما هو نتيجة مرض معين . وما إن اعترف بهذا الطراز حتى أرجعت إليه جمجمة أنثى عثر عليها فى جبل طارق عام ١٨٤٨ . ثم عثر فى عام ١٩١٨ على عينة هامة له أيضاً فى لاشابل أوسانت La Chapelle — aux — Saints اعتبرت الشكل النموذجى لهذا الطراز وكان الفضل فى ذلك يرجع إلى شكلها الكامل الذى ظل محتفظاً بكل سماته .

يمتاز هذا الطراز بجبهة أكثر ارتفاعاً من جبهة إنسان جاوة ولكنها أوفى بكثير من جبهة الإنسان العاقل ، كما أنها تمتاز بعظام الحجاجية الضخمة التى تشرف على العينين ، أما الفك والأسنان فهى ضخمة ، ويبعث التواء عظام الفخذ على الشك فيما إذا كان هذا الإنسان يستطيع أن يسير منتصب القامة تماماً أم لا . وتمتاز جمجمة لا شابل أوسانت بالفك البارز بروزاً شديداً ، إلا أن هذه الصفة ليست شائعة بين جماجم إنسان نياندرتال الأخرى . أما جماجم تل السخول (فى فلسطين) فهى تشبه إلى حدما صفات إنسان نياندرتال وربما كانت مرحلة وسطى بين الصفات النياندرتالية والصفات الإنسانية الحديثة ، وإذا اعتبرنا إنسان نياندرتال فرعاً خاصاً من الإنسان الحديث ظهر فى عصر البلايستوسين ليلائم ظروف المناطق البالغة البرودة ، فإن الجماجم الفلسطينية ولاسيما جمجمة السخول رقم ٤ يمكن أن تعتبر جماجم لإنسان حديث ذات أثر نياندرتالى ضعيف. كما عثر فى بروكن هل بروديسيا على جمجمة ذات عظام حجاجية ضخمة جداً وجبهة منخفضة تنتمى بشكل عام إلى مجموعة إنسان نياندرتال .



شكل (٥)

جمجمة تعرف بالسخول رقم ٤ (ذكر) . جبل الكرمل . فلسطين .

ح — عظمة الحجاجين .

ويرى بعض العلماء أنها أيضاً ذات وجه شبه بالإنسان العاقل ، وشبيه بها أيضاً جمجمة إياسى Eyassi (شمال تنجانيقا) وإن كانت صفاتها أقل غلظة من صفات إنسان نياندرتال ، إذ ربما كانت جمجمة أنثى ، ومن المحتمل أنها ترجع إلى عصر البلايستوسين الأوسط . وتعتبر جمجمة شتاينهايم التى سبق ذكرها مثالا لشاب نياندرتالى ، وهذا مثل لصعوبة التمييز بين الجماجم تمييزاً دقيقاً . ومن الأمثلة الأخرى لذلك أيضاً ما عثر عليه فى باندونج بجزيرة جاوة . وهى

مجموعة جماجم ترجع إلى عصر البلايستوسين الأوسط أو الأعلى . ويسمى غالباً بإنسان سولو Homo-soloensis وهى أقرب شبهاً للإنسان العاقل من أى جمجمة نياندرتالية عثر عليها . ويربط بعض الباحثين بين هذه المجموعة وبين الأستراليين الأصليين ، ولو أن الإنسان العاقل أو أى إنسان يشبهه كان يعيش فى البلايستوسين الأوسط أو حتى فى فترة من فترات البلايستوسين الأسفل جاز لنا أن نضع الإنسان العاقل الصرف (كوم كابل أوكرومانيون) فى طرف (انظر الفصل الثانى) ونضع إنسان لاشابل أوسانت فى الطرف الآخر من هذا العصر . ولأمكن ترتيب الأنواع البشرية الأخرى بين هذين الطرفين طبقاً لدرجة اقترابها من صفات الإنسان العاقل الكامل التى بدأت فى الظهور بوضوح فى نهاية البلايستوسين الأوسط .

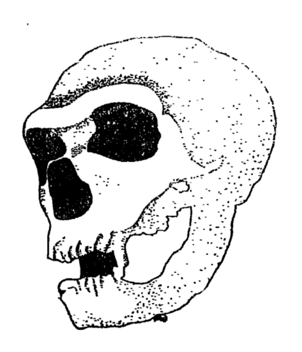
كان الرأى السائد بين العلماء منذ ثلاثين عاماً أن الإنسان العاقل لم يظهر قبل البلايستوسين الأعلى وأنه لم يعثر فى بقايا الإنسان نياندرتال فى طبقات أحدث من البلايستوسين الأوسط ، أى أن إنسان العاقل ربما كان قد بدأ فى الظهور قبل نهاية عصر البلايستوسين الأوسط ، وربما قبل بدايته وعلى الأقل فى شكله البدائى ، وهذه النظرية تتحاشى افتراضاً قديماً صعباً يقول بأن الإنسان العاقل انحدر من إنسان نياندرتال[1] .

وترتبط مجموعة نياندرتال بعظامها الغليظة القوية بأوائل فترة «فرم» الباردة

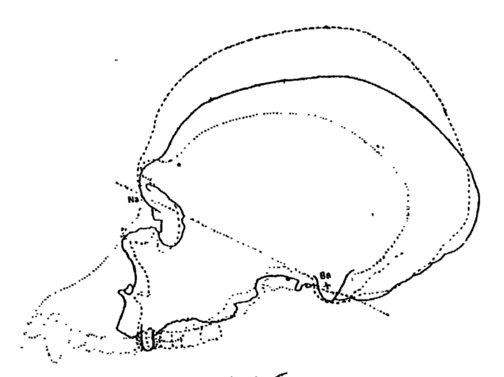
---

(١) نفضل أن نستخدم تعبير إنسان أو نوع جاوة بدلا من الإنسان القرد وهى الترجمة الحرفية للاسم اللاتينى الذى أطلق عليه .

إنسان Anthropus قرد Pithec.



جمجمة وفك لرجل لا شابل أو سانت .



شكل (٦)

شامبانزى — رجل لاشابل أو سانت — أوربى حديث

رسم قطاعات طولية لعدة جماجم .

من العصر الجليدى ، وهى تمثل حالة من التطور تعتبر كما هو الحال فى حيوانات أخرى عديدة استجابة محتملة الحدوث لبيئة جليدية ، ويجب أن نحترس ونستخدم تعبير استجابة محتملة الحدوث ، ونتجنب اعتبارها تطوراً حتمياً أو عاماً .

ولم يبق على ظهر الأرض مع بدء عصر البلايستوسين الأعلى إذا قبلنا التاريخ السائد سوى سلالات مختلفة من نوع الإنسان العاقل ، وهى بلا شك تشبه كثيراً الإنسان الحديث . وكان لبعضها عظام حجاجية كبيرة . ولكنها أقل بكثير من مثيلاتها لدى النماذج البشرية القديمة ، وكانت هذه السلالات جميعاً تسير منتصبة القامة ولم يكن بروز الفم والفكين — إن وجد — كبيراً ، بينما كانت الذقن لديها أكثر اكتمالا . وسنزيد هذا الموضوع تفصيلا فى الفصل الثانى .

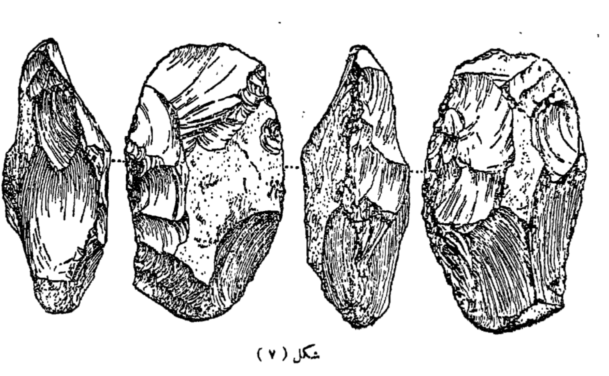
ومن أهم الحقائق التى تتعلق بالجنس البشرى قابليته للتكيف والتلاؤم لكل مناخ على ظهر الأرض فيما عدا مناخ القارة القطبية الجنوبية ، سواء كان ذلك بارتدائه الملابس أو إشعاله النار فى الأصقاع الباردة ، وكذلك كثرة تحركاته لا سيما فى عهود الصيد الأولى ثم ما يصحب ذلك من نواحى الاختلاط بين جماعاته المختلفة فى مساحات واسعة من الأرض ، وهذا يحد من تخصصه الإقليمى على نطاق واسع . وفى نفس الوقت لا بد أن الزواج الداخلى كان النظام الشائع بين المجموعات الصغيرة فى ذلك الوقت .

وآثار الإنسان الأول الحجرية أكثر وفرة من آثاره العظمية ، ولكن لم يبق لنا شىء مما استعمله الإنسان من آلاته الخشبية ، وقد استعمل الإنسان العظام وقرون الحيوان والعاج ، ولا تزال آثار الإنسان الحجرى القديم

المصنوعة منها باقية ، إلا أنه يقال إن أداة خشبية مدببة عثر عليها فى كلاكتون بإسكس . ترجع إلى فترة « مندل رس » غير الجليدية .

ومن المحتمل أن أغلب الآلات الحجرية كانت قطعاً من الحصى المشطوفة أيضاً ثم صنع الإنسان آلاته من الصوان أو الصوان الأبيض أو الحجر الزجاجى (الأوبسديان) . كما أنه عالج بشىء من الجهد الكوارتز وغيره من الصخور ، وقد عمد الإنسان إلى شطف شظايا من النواة الحجرية ثم عالج كلا من الشظايا والنواة على حدة لصنع آلات حجرية وقد سميت آلات النواة الأولى المشطوفة من كلا الجانبين بآلات شيلية نسبة إلى شل Chelles بالقرب من باريس ، ولكنها الآن تسمى أبيفلية نسبة إلى أبيفيل Abbeville على نهر السوم بشمال فرنسا ، حيث وجدت بكثرة . أما الآلات الأحدث منها وهى الفئوس اليدوية المصنوعة من الصوان أو غيره من الحجارة فهى تسمى أشولية نسبة إلى سانت أشول St. Acheul بالقرب من إميان بشمال فرنسا . وهذه الآلات الدقيقة الصنع كانت تحتاج لمهارة فى قطعها من كتل الحجارة أو العظام . وقد قام مسيو « كوتيل » بتجارب لإثبات هذا كما أيده فى ذلك الدكتور ليكى .

وتدل الدقة التى تمت بها صناعة الآلات الأشولية الجيدة على أن إنساناً عاقلا هو الذى قام بصناعتها ، وربما أيد هذا ما وجد من آلات أشولية مع جماجم سواسكومب وكانجيرا . ويشير توزيع الشظايا غير المتقنة فى كثير من أنحاء أوراسيا حيث توجد مختلطة بأدوات النواة — على أن بعض أنواع إنسانية أخرى غير الإنسان العاقل قد قامت بصنعها ومن الممكن أن نتصور هجرات الجماعات البشرية التى كانت تستخدم أدوات النواة المشطوفة من الوجهين (الإبيفلية والأشولية) من الأرض المكشوفة فى أفريقية شمال خط عرض ١٠° شمالا فى اتجاهات عديدة على النحو الآتى :



شكل (٧)

أداة لأوائل العصر الأبيفيلى الأشولى ، مصنوعة من نواة الصوان ، ومشظاة من الوجهين .

(ا) جنوباً إلى الأطراف الجنوبية لأفريقية ولا سيما فى الفترات الجافة وكانت تحمل عناصر حضارية من الشمال ، ومن الجائز أن تكون قد عاشت فترة طويلة من الزمن فى أقصى الأطراف الجنوبية للقارة وكانت هذه الهجرات تتحاشى فى سيرها الغابات الاستوائية الرطبة التى كانت أوسع انتشاراً فى خلال بعض فترات البلايستوسين .

(ب) شمالا إلى أوربا ، ولا سيما فى فترات الدفء ، ونحن الآن نعتقد تبعاً «لفوفيرى» Vaufrey أنه لم يكن ثمت معبر أرضى يربط أفريقية بإيطاليا فى عصر البلايستوسين . أما عن مضيق جبل طارق فإن «فوفرى» يرى أنه كان مفتوحاً طوال عصر البلايستوسين ، أما و . ب . رايت W. B. Wright فكان يرى أن المعابر الأرضية كانت موجودة ثم غمرت بالماء نهائياً خلال البلايستوسين ، ومن ثم ربما استطاع صناع آلات النواة الحجرية أن يعبروا من البر الأفريقى إلى البر الأوربى فوق أرض صلبة . وعلى أية حال فربما كانت المضايق المائية أضيق مما هى عليه الآن ، وربما لم يكن من العسير على الإنسان القديم أن يعبر تلك المضايق بوساطة أى نوع من العوامات .

(حـ) شرقاً إلى الهند وربما إلى جزر الهند الشرقية القريبة التى ربما كانت أجزاء من القارة الأسيوية خلال الفترات التى انخفض فيها مستوى ماء المحيط .

ولما كان من المحتمل أن الحافات الحالية لغرب الهند وجنوب بلاد العرب هى نتيجة حركة عيبية لم تحدث إلا فى البلايستوسين وربما بعده ، فإن معنى هذا أن الاتصال من شبه جزيرة العرب شرقاً إلى الهند ربما كان أيسر منه فى الوقت الحاضر ، ولا سيما حينما كان مستوى البحر أقل مما هو عليه الآن .

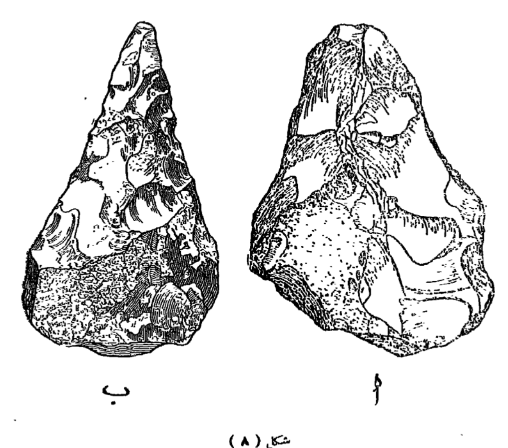
ومن المميزات الواضحة للآلات ذات الوجهين هو شيوعها وتجانسها

فى المساحة الواسعة التى وجدت فيها ، وقد وجدت الآلات التى تشبه الأزميل والكشط بكثرة حيث يتوفر صخر الربوليت والكوارتز ولا سيما فى أفريقية ، حيث إن هذا الصخر يشظى بسهولة حسب الشكل المطلوب إلا أنه وجدت أزاميل ومكاشط حجرية من أوربا وبريطانيا . رغم صعوبة تشظية الصوان فى الشكل المطلوب وعدم انتشار تلك النماذج الحجرية .

وتمتاز تلك الصناعات الحجرية أيضاً ببطء التغير فى طراز الآلات الحجرية، مما يدل على مدى سلطان العادة ، ورسوخها فى نفوس الصناع القدماء . وقد ذكرنا « هربر كيلى » فى بحث جديد أن صناع النواة كانوا أيضاً يستخدمون الشظايا الحادة التى كانوا يفصلونها من النواة ، ويوافقه على ذلك كثيرون ، ونستطيع أن نقول إن هذا الإنسان القديم وما تركه من آلات حجرية وما دل عليه من نشاط عقلى وعملى كان قد وصل إلى مستوى فنى حقيقى .

وفى السنوات الأخيرة تقدم تاريخ هذه الصناعات بحسب العصور الجليدية ، وصحب ذلك دراسات أكثر تفصيلا عن تتابع التكوينات فى الجهات التى غطاها الجليد أو تأثرت بالعصر الجليدى وشبه الجليدى .

فقد وجد « ريدموار » Reidmoir « وسينتى » Sainty آلات صوانية فى الرواسب العليا لكراج فى نورفولك أرجعاها إلى صناعة الإنسان . وهذه تعتبر رواسب بليوسينية ولكن من المحتمل أن تكون معاصرة لدور جنز الجليدى. وأحدث من هذه الآلات بقليل ما تسمى بشظايا منقار الطير Rostro - cariantes وهذه يضعها «زوينر» Zeuner فى فترة مندل غير الجليدية ولكن بارنز لا يعتبرها آلات (أى من صنع الإنسان) على الإطلاق . ويرى «زوينر» أن الحضارة الأشولية ظهرت فى أوربا فى فترة مندل رس غير الجليدية وأنها استمرت بعد دور الرس الجليدية إلى فترة رس فرم غير الجليدية فى بريطانيا وغرب أوربا .



شكل (٨)

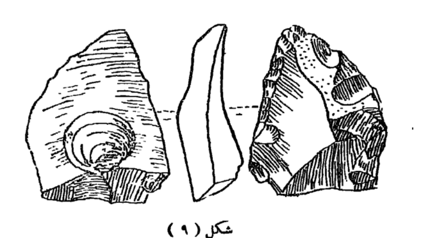
فأسان يدويان من الصوان

ا — طراز أبيفيلي قديم . ب — طراز أشولي متأخر .

وقد بينت دراسة آلات الشظايا فى السنوات الأخيرة ، ولا سيما تلك المشطوفة من جانب واحد ، ولذلك سميت بالآلات ذات الجانب الواحد ، أنها معاصرة للشظايا ذات الوجهين وأنها وجدت معها فى نفس الإقليم كما أنها وجدت فى بقاع مختلفة من وسط أوراسيا التى لم يصل إليها صناع الآلات ذات الوجهين . وقد عثر على بعض الآلات غير الدقيقة فى كلاكتون (شكل رقم ٩) بإسكس ، وقد أطلق على هذه الصناعة اسم الكلاكتونية ، وهى عبارة عن شظية فصلت عن كتلة الصخر بعد أن نالت شيئاً قليلا من التهذيب فى بعض

الأحيان ، ويبدو أن هذه الصناعة كانت مستقلة عن الصناعة الأشولية ،وأنها وصلت إلى بريطانيا فى فترة مندل رس غير الجليدية ، ثم عدلت فيما بعد إلى ما يقرب من الصناعة القياسية الأقرب إلى عدم الدقة كذلك .

أما الشظايا الأحسن صناعة فتسمى ليفالوازية Levalloisian وموسترية Mousterian وهى أسماء استخدمت لتدل على معان كثيرة مختلفة متنوعة . ويعود استعمالها أخيراً إلى أبحاث «برويل» بصفة خاصة وكان يتطلب تهيئة تلك الشظايا ، شطف سطح النواة على عدة مراحل ، حتى يصبح سطح الشظية محدباً كظهر السلحفاة ومن ثم كان اسمها نواة السلحفاة ، ثم فصل عدة شطفات أخرى لتكوين قاعدة للأداة الحجرية تفصل بعد ذلك بضربة أزميل من الكتلة الحجرية . وبذلك تفصل شظية كاملة ذات حواف حادة إذا أحسن تشظيتها . وكانت هذه التشظية تتم فى الصناعة التى يسميها «برويل» Breuil بالموسترية بحيث تصبح للشظية سن مدبية وقاعدة مثلثة . بل إن جوانب الشظية المثلثة كانت أيضاً تعالج بحيث تصبح بدورها حادة وتمتاز الحضارات الحجرية الأفريقية أيضاً بصناعة تعتمد على فصل الشظية من كتلة حجرية كبيرة .



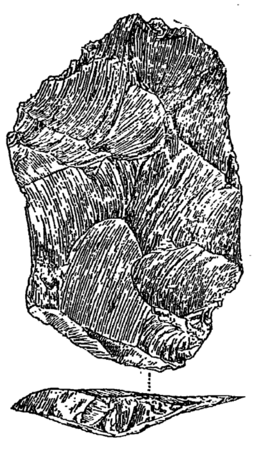
شكل (٩)

شظية كلاكتونية ، كلاكتون أون سى . إسكس (مقياس ٤ : ٩)

وتلاحظ أن هذه الصناعات تعتمد على فصل الشظية بعد تهيئتها من كتلتها الحجرية بطريقة واحدة إلا أن الصوان يمتاز بوجود نواة مستديرة بداخله ، وتوجد هذه النواة بالقرب من قاعدة الشظية فى الصناعات الليفالوازية . ويبدو أن هذه الصناعة قد تمت فى أثناء فترة الرس الجليدية أو فى الفترات الأقل برداً خلالها . وأنها استمرت إلى فترة رس فرم غير الجليدية ، بل إلى الفترة غير الجليدية التى تفصل بين قمتى الفرم الجليديتين . ونواة السلحفاة التى ذكرناها آنفاً ليست إلا وجهاً خاصاً لهذه الصناعة ومن الممكن أن صاحب هذه الصناعة الليفالوازية والموستيرية قد استعان بالخشب والعظام فى تهيئة الشظايا .

وقد وجدت الآلات ذات الوجه الواحد وذات الوجهين معاً فى أماكن عديدة إلا أنه ليس لدينا تسجيل سليم لوجود هذين النوعين معاً أو لوجود مرحلة وسطى بينهما إلا بعد قطع مرحلة كبيرة فى الصناعة الليفالوازية والموستيرية . فمن المعروف تماماً أن الذين كانوا يجمعون الآلات الحجرية ، حتى وقت قريب يقدر بثلاثين عاماً كانوا يرمون آلات الشظايا ويحتفظون بآلات النواة . ويلاحظ أن الآلات الأشولية المتأخرة (الحديثة) ذات الوجهين ولا سيما فى شمال أفريقية ، قد شظيت فى شظايا كبيرة ، وهناك حالات ظهرت فيها آلات الشظايا الأشولية من جانب واحد بينما الجانب الآخر ترك غفلا . وقد سميت الآلات الأشولية المتأخرة (الحديثة) الصغيرة المدببة والتى ترجع إلى الفترة غير الجليدية بين الرس والفرم أو إلى أوائل فترة الفرم الجليدية بالآلات القياسية Tayacian والميكوكية ، وهو اسم استخدمه كثير من الكتاب بمعان مختلفة . ومن المحتمل أن الشظايا الصغيرة كانت تركب أو تربط فى أطراف القنا ، كما وجدت آلات حجرية أخرى تعتبر إرهاصات لما يميز حضارات العصر الحجرى القديم الأعلى التى سنتحدث عنها فى الفصل الثانى . وقد وجدت نماذج مختلفة لصناعة العصر الحجرى القديم الأسفل

فى العـــالم الموسمى ، جنوب وشرق آسيـا منها الحصى المشطى الذى يشبه المكشط .



شكل (١٠)

شظية ليفالوازية ، مونتيير ، فرنسا . (مقياس ٤ : ٩)

وتحتفظ أسبانيا بقدر كبير متنوع من الآلات ذات الوجه الواحد وذات الوجهين .

أما فى شمال أفريقيا — عدا مصر — فقد تنوعت وتطورت صناعة الآلات الليفالوازية والموستيرية متأثرة إلى حد ما بالصناعة الأشولية . وتمتاز

صناعات شمال أفريقيا التى ترجع إلى هذا العصر بوجود طرف بارز فى منتصف القاعدة المثلثة ، وهذه الصناعة تسمى بالعاطرية . وقد اختلف العلماء فى تقدير عمرها حتى لقد اقترح أن تكون حجرية حديثة إلا أن بعض القرائن الأخرى تشير إلى عمرها القديم ، وهى أنها لم توجد فى كهوف . وربما استمر استخدام هذه الآلات العاطرية زمناً طويلا ، من بدء عهد صناعة الشظية الخشنة حتى تطورت صناعتها واكتملت أشكالها وقد أثبتت كل من مس كيتون تومسون ومس جاردنر أن الصناعة العاطرية التى وجدت نماذجها فى الواحة الخارجة ترجع إلى العصر الحجرى القديم المتأخر وأنها أثرت فى الصناعات الحجرية الأحدث فى مصر . ونلاحظ هنا أن الآلات ذات الطرف البارز فى قاعدتها قد ظهرت فى أواخر العصر الحجرى القديم وفى العصر الحجرى المتوسط فى أوربا فهى معروفة تماماً فى فونت روبرت بفرنسا .

وجدت فى بعض الحفائر آلات عظمية مقترنة بآلات الشظايا كما وجدت مع آلات النواة فى الألزاس . وقد تم الكشف عن حفائر قديمة جداً فى الألب وبافاريا حيث وجدت آلات مصنوعة من العظام فى كهوف ، مثل كهف دراخنلوخ Drachenloch على ارتفاع ٢٤٤٥ متراً فوق سطح البحر وكهف فلدكيرشلى Wildkrichi على ارتفاع ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر بالقرب من سانت جال بسويسرة ، وكهف دراخنهوهليه Drachenhole على ارتفاع ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر فى ستايرهارك ، وفى كهف آخر على ارتفاع ٥٠٠ متر فوق سطح البحر بالقرب من نورنبرج . وقد وجد فى هذه الكهوف أيضاً قليل من الآلات الحجرية سيئة الصناعة من الكوارتز وغيره من الصخور البللورية ، إلا أن الناس الذين صنعوا تلك الآلات كانوا يصطادون دب الكهوف ويعتمدون على عظامها فى صناعة آلاتهم . ومهما قيل عن مجتمع العصر الحجرى القديم ، فما لا شك فيه أن صيادى دب

الكهوف كانوا يتعاونون فى جماعات لصيد هذا الحيوان . ويتكون كهف دراخنلوخ من ثلاث حجرات شيدت حوائط حجرتين منها من قطع الحجر الجيرى بعيدة عن جدران الكهف وقد امتلأت المسافة بين جدار الكهف والحائط بجماجم الدببة .

وتدل بعض هذه الجماجم على أنها أصيبت بجراح معينة كما عثر فيها أيضاً على بعض أطراف الدببة وتشير الأدلة المختلفة على أن هذه البقايا لم تكن أجزاء من هياكل عظمية كاملة جمعت كيفما اتفق . فبالقرب من مدخل إحدى حجرات الكهف جمعت عظام الدببة خلف الحائط وغطيت بقطعة حجرية كبيرة تشبه الصندوق أو التابوت ولم تكن هذه العظام كاملة فقد اختيرت عظام بعض الأطراف دون الأخرى وصنفت بعناية . ومن الممكن تتبع أجزاء أخرى من الهياكل العظمية فى كهوف أخرى فى جنوب ألمانيا وربما كانت بقايا قرابين أو أضاحى ، وهذا يذكرنا بأجزاء من لحم الدب يقدمها «الآينوفى» شمال اليابان — كقرابين ، كما عثر على أفكاك حيوانات أخرى فى الهند لابد وأنها كانت تقدم كقرابين دون بقية أجزاء الحيوان الأخرى .

ومن الملاحظ أنه فيما عدا تلك الأمثلة التى ذكرناها لم توجد آثار إنسان العصر الحجرى القديم كلها إلا فى العراء . إذ أن الحياة فى الكهف مما يميز العصر الحجرى التالى .

ولما كانت الآلات الصوانية قد استمر استخدامها حتى العصور الوسطى بل استمر استخدامها أيضاً فى أزمنة حديثة بشكل بدائى فإنه ينبغى لنا أن نحترس ونحن نحاول تأريخها .

وتدل القرائن الأولى للآلات الحجرية على أن الآلات الصوانية المصنوعة

من الشظايا (ذات الوجه الواحد) انتشرت فى منطقة أوراسية وأن الآلات الصوانية المصنوعة من النواة (ذات الوجهين) انتشرت فى منطقة إفريقية غربية . وأن الصناعة الأولى كانت تمتد من غرب أوربا وبريطانيا شمالا بغرب إلى جنوب آسيا حتى الهند جنوباً بشرق . ويبدو أن كلا من الحضارتين التقتا واختلطتا فى بريطانيا وفرنسا وشمال أفريقيا ، وأن فى هذه المنطقة التى تقابلت فيها الحضارتان حدث تبادل فى فن الصناعة وأخذ وعطاء فى الحضارة فاقتربت كل من الحضارة الأشولية والحضارة الموستيرية بالأخرى ، فسادت صناعة الشظايا وبدأ تخصص الآلات الحجرية فى الشكل تبعاً لوظيفتها الخاصة إما للقطع وإما للكشط أو للثقب . وهذا كله مهد الطريق لظهور حضارات العصر الحجرى القديم الأعلى عندما بدأت الثلاجات فى التقهقر نهائياً ، وعندما بدأ المناخ يتحول إلى تغير آخر .

ويبدو أنه لا يزال من المحتمل أن صناعة النواة التى تحدثنا عنها فى ذلك الفصل لم تكن قد وصلت إلى العالم الجديد بعد ، إلا أن صناعة الشظايا امتدت إلى أمريكا وأفريقية وعمرت هناك حتى أوقات متأخرة كما أنها ساهمت فى تكوين حضارات أستراليا ولا تزال آثارها بادية حتى الوقت الحاضر .

وقد أوحى بقاء بعض عناصر الحضارة الحجرية القديمة فى أستراليا حتى الوقت الحاضر لبعض الكتاب بأن يروا أن الحضارة الأسترالية ليست إلا امتداداً لمراحل العصر الحجرى القديم الوسطى . إلا أن مثل هذه المناقشة مضللة . فقد تسللت إلى أستراليا عناصر حضارية أخرى أحدث عهداً وأكثر تقدما مثل القادوم الحجرى الذى تم صنعه بالصقل ، وأحدثت فجوة صغيرة لربط يد خشبية به . ولابد أن أستراليا تقبلت من الخارج إلى جانب العناصر الحضارية المادية مثل القادوم والقارب المستطيل ، آراء ومعتقدات أثرت

فى كيان المجتمع . وهناك خطر آخر فى هذا الخط من التفكير فالأستراليون الأصليون والسيمانج (فى الملايو) وغيرهم شعوب منحطة تعيش فى مستوى اجتماعى متخلف أو راكد بينما كانت شعوب العصر الحجرى القديم فى أوراسيا وأفريقية على عتبة عصور حضارية أرقى . ولنا أن نشير إلى أن منطقة التقاء حضارات الفأس اليدوية وحضارات الشظايا ، أى التقاء الشعوب التى تستخدم آلات الشظايا ، كانت مسرحا معداً لتطور الحضارة وتقدمها . وقد قدمت الأستاذة «دوروثى» براهين من فلسطين تدل على وجود شظايا ليفالوازية موستيرية ، وعلى أسلحة ترجع إلى أواخر العصر الحجرى ولكنها لم تجد آلات حجرية ترجع إلى مرحلة انتقالية بينهما . وهى تميل إلى أن تفترض أن الشعب الذى كان يستعمل الآلات الليفيالوازية فى فلسطين هو الذى صنع آلات أواخر العصر الحجرى القديم بعد أن كان مقتصراً على الصناعة الليفالوازية ، وهى تقترح ان تسمى تلك الحضارة الفلسطينية الحديثة باسم العميرة Emireh . ونستطيع أن نضيف إلى هذا أنه حيث وجدت آلات حجرية لا تصلح إلا للكشط فمعنى هذا اشتغال الناس بصيد الحيوانات الضخمة ، وهذا يتطلب تعاوناً بين أفراد المجتمع . وأن تطور صناعة المكاشط والمخارز مكن الناس من استخدام جلود الحيوان فى الغطاء والكساء . وأن الشظايا المدببة دقيقة الصنع مكنته من استخدام العظام والعاج .

ولا بد أن نضيف إلى هذا أن البحث الدقيق فى كثير من أنحاء العالم قد أثبت استخدام النار ، وقد أظهر بقايا حيوانات بعضها انقرض فى الوقت الحاضر . ومن الخطأ أن نظن أن هذه الحضارات القديمة التى كان أصحابها يستخدمون آلات من الخشب قابلة للتلف تقارن بالمستوى الحضارى الذى تعيش فيه بعض الشعوب البدائية داخل الغابات فى الوقت الحاضر وأنها لذلك كانت منحطة أو متأخرة .

وسنناقش حضارات أواخر العصر الحجرى القديم فى الفصل الثانى .

وسنتحدث الآن عن أهم المميزات الأساسية للإنسان ، فالإنسان حيوان اجتماعى ، وأهم ما يميز حياته أنه يعيش فى جماعات وهذه قرائن واضحة وضوحاً كبيراً فى أشباه البشر الذين كانوا يعيشون فى جنوب أفريقية وشوكوتين رغم أننا أخذنا فى الاعتبارات قانون الاحتمالات الذى قد يسمح ببعض الحالات الفردية التى كان الإنسان يعيش فيها منفرداً ، وأكثر من ذلك فمن المحتمل جداً أن الجماعة الإنسانية الأولى كانت أكبر من الوحدة الإنسانية الاجتماعية البسيطة المكونة من رجل وزوجه وأولادهما . ونحن لا نعرف شيئاً عن أسلافنا عندما كانوا يعيشون فى مرحلة جمع الثمار والتقاطها فحسب ، ولكن هناك ما يبرر افتراضنا أن الإنسان منذ أن هبط من فوق الأشجار ليعيش على الأرض قد أصبح أكثر اعتماداً على اللحم فى غذائه ، يوماً بعد يوم ، ومن ثم أخذ فى حياة الصيد والقنص وقد جمع « ليكى » بالقرب من أولورجيزيلى Olorgesailie أدلة على أن الإنسان كان يحفر الحفر كوسيلة لاقتناص الحيوانات الكبيرة ، وهو فى مرحلة أبيفيلية أشولية عندما كان لا يزال يستخدم الفأس اليدوية . وقد ساعدت على نمو مقدرة الإنسان على الصيد قامته المنتصبة وقدرته على أن يرى بكلتا عينيه الأشياء المجسمة ، أى على رؤية البعد الثالث (وهو العمق) ، وهذا أوحى إليه بقذف الحجارة أو الرمح على الحيوان ، وهذه كلها عوامل أدت إلى خلق المجتمع الأول .

انتصاب قامة الإنسان جعل مراحل الحمل الأخيرة عند المرأة عائقاً كبيراً للحركة ، وأجبر الطفل على تعلم المشى وإن كان هذا يستغرق من عمره عامين . وقد أصبح لدى الجماعات التى تولى الأمهات فيها أطفالها ، خلال فترة وضعها ، عناية متزايدة فرصاً أكبر للبقاء ، ولا سيما أن العناية بالنار كانت

تترك للأمهات بينما الرجال غائبون فى رحلات الصيد الطويلة . وكان الصيد وعلى الأقل صيد الحيوان الكبير عملية تستدعى وتتطلب تعاون عدد كبير من الرجال ، وكانت تستلزم توزيع العمل على الرجال والنساء . ولم يكن فى استطاعة النساء ، لا سيما اللائى يحملن أطفالهن ، أن يتحملن مشقة الصيد سيراً على الأقدام فى مساحة كبيرة . وكان من الطبيعى أن تقوم النساء بجمع المواد اللازمة الضرورية للجماعة إلى جانب العناية بالأطفال وتغذية النيران . ومن ثم ارتادت المرأة ميادين نشاط جديدة ، فربما كانت هى التى اخترعت صنع الملابس من الجلود ، ودبغها وخياطتها ، ولا بد أنها التى اخترعت ، فيما بعد ، الفخار والزراعة وما إلى ذلك . وكان الرجل فى معظم الأحيان يحمل عن المرأة ما بدأت هى اختراعه ، لا سيما أنه كان أقدر منها فى استنباط وسائل اقتصاد العمل اليدوى .

فعجلة الفخار من اختراع الرجل والجاروف الذى كان الرجل يدفعه بقدمه أداة من أدوات الرجل — بينما كانت وسيلة المرة فى الزراعة هى العصا المعقوفة « السلوكة » . غير أن الحديث عن الفخار والزراعة يبعدنا كثيراً عن البراعم الأولى لتطور الإنسان ، وهى وسائل سنتحدث عنها فى الفصول القادمة .

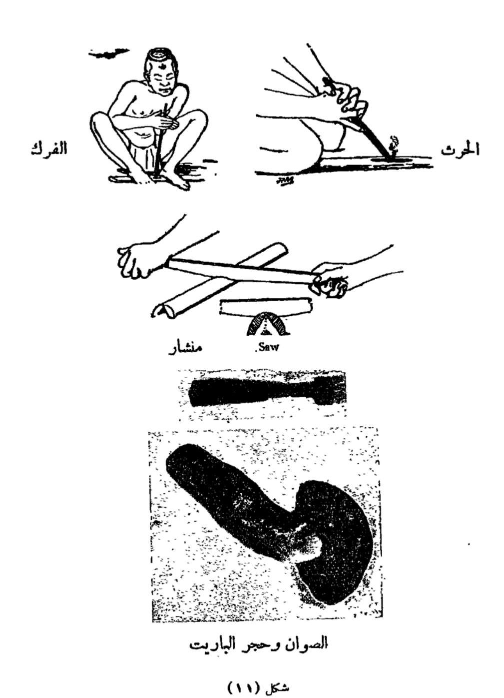
يعتبر نمو اللغة ، وإن كانت فى ذلك الحين لا تزال فى بدايتها ، من وسائل تقدم الإنسانية الهامة المبكرة التى ارتبطت بقامة الإنسان المنتصبة واكتشاف النار والصيد . ويعرف من يلاحظ القردة العليا وخصوصاً الشمبانزى أنها تصدر أصواتاً عديدة مختلفة ذات معان ولا سيما المعانى العاطفية . وقد جمع «رندل» Rundle كشفاً بمائتى صوت من أصوات الشمبانزى . ومن العسير أن نعتبر هذه الأصوات لغة ، أى نقل معلومات أو أسماء أشياء من قرد إلى آخر ، بل إن كثيراً من الباحثين يشكون فى أن تكون تلك الأصوات ذات معان على الإطلاق .

وقد ساعد على ظهور اللغة لدى الإنسان قصر الخيشوم الذى أصبح فماً ، والتخفف من عضلات الفك الأسفل القوية مما جعل حركته سهلة ميسرة ، وجعل اللسان والشفاة تتحرك حركات كثيرة التنوع . ومن المحتمل أن طول فترة عناية الأم بطفلها ، وتعاون الرجال فى الصيد والحياة والإلتفاف حول النار كل هذا ساهم فى نمو اللغة لدى الإنسانية المبكرة . فلقد استنتج الباحثون من أخذ مجسم مخ إنسان جاوة أنه كان يستطيع أن يتحدث بشكل ما . ولا ريب أن تبادل العواطف بوساطة أصوات بين الأم وطفلها وبين الرجل وزوجه كانت من الخطوات الهامة نحو تطور اللغة . وعلينا أيضاً أن نتذكر أهمية الألفاظ الصوتية فى الحديث والغناء ، وهذه الأصوات قد بلغت حداً كبيراً من الكمال بين الشعوب ذات الأشداق المرتفعة فى أوربا وأفريقيا . ويبدو أنها تظهر بين الشعوب ذات الرأس الطويل والوجه المستطيل وذات البشرة السمراء .

نمو اللغة من مجرد أصوات على مستوى عاطفى إلى مرحلة إعطاء الأسماء للأشياء كان عاملا بالغ الأهمية فى التقدم العقلى والذهنى إذ أنها منحت العقل عملة يتعامل بها ومشاجب يعلق عليها ما يريد أن يتذكر من أفكار ومعلومات يمكن أن ينقلها للأفراد الآخرين ، ومن ثم أعانت على نمو الحياة الاجتماعية.

وجد فى كهف جبل شيشرون Cicero فى إيطاليا هيكل عظمى أحاطت به قطع من الحجارة وضعت فى عناية ، ومن المعتقد أنها ترجع إلى أواخر البلايستوسين الأوسط ، ويدل الثقب الذى وجد فى غطاء الجمجمة وإزالة الفك الأسفل على أن المخ قد أزيل منها ، كما أن الفك الأسفل قد فصل وربما كان ذلك فى حفل دينى استلزم طقوساً معينة ، وهذه جميعاً تدل على إرهاصات نحو ظهور الدين .

ونستطيع أن نستخلص من هذا كله أن إطالة مدة حضانة الأم لأطفالها كان أهم العوامل فى نمو الروح الإنسانية والقيم الأخلاقية بوجه عام .



الصوان وحجر الباريت

شكل (١١)

طرق استنباط النار بعد انقضاء فترة طويلة من استخدام النيران الطبيعية ، والمحافظة عليها ، أو استنباطها بطرق اعتباطية .

ملحق للفصل الأول

حول العصور الجليدية والإنسان

كانت « أعمال بنك وبركنر » Penck&Bruckner عن العصر الجليدى فى جبال الألب و« دى جير » de Geer عن العصر الجليدى فى شمال أوروبا هى أساس ما كتبناه فى مجلدات هـذه المجموعة الأولى التى ظهرت عام ١٩٢٦ . ومنذ ذلك الحين تقدمت هذه الدراسات على أيدى غيرهم من البـاحثين كما تجمعت لدينا نتائج محاولات عديدة لربط نتائج الأبحاث الجيولوجية والأثرية والحيوية والملاحظات الفلكية وحسابها ، وكانت النظرية القديمة عن حدوث عصر جليدى كبير واحد قد ماتت فعلا عام ١٩٢٦ . بل لقد عفت عنها الذاكرة أو كادت وقبلت عوضاً عنها نظرية تقدم الجليد وتقهقره عدة مرات وهى نظرية افترضها « جيمس جايكى » Geikie لإسكتلندة وارتبطت بفترات الجليد الرئيسية التى ذكرها بنك وبركنر لجبال الألب ، وأضافت الدراسات التالية تحسينات عديدة على نظام تتابع هذه الفترات فى مراحل متتالية .

سجل «ميلانكوفتش» Milankovitch (من بلغراد) كمية الإشعاع الشمسى، وحسب كمية الإشعاع الشمسى التى تستقبلها الأرض نظرياً فى نطاقات خطوط العرض المختلفة فى فترات مختلفة خلال المليون سنة الأخيرة التى شهدت ذبذبات مناخية كبرى سميت تطرفاتها الباردة بالعصور الجليدية . ويتوقف تغير الإشعاع ، نظرياً ، على تغير ميل المحـور على مستوى الكسوف والخسوف وعلى اختلاف موضع مركز الأرض بالنسبة للمدار واختلاف بعد الأرض عن الشمس ، وقد استطاع أن يتعرف من جداوله على الفترات التى ينخفض فيها الإشعاع الشمسى فى الصيف إلى أقل ما يمكن فى درجات العرض المختلفة ، وقدر أن الجليد يتكون فى بعض هذه الفترات على الأقل ويتراكم عاما بعد عام، وأن هذا التراكم يؤدى إلى عدة آثار ويترتب على ذلك:

(١) أنه يلطف من درجة حرارة الرياح التى تهب من البحار ويجعلها تتكاثف وتسقط ثلجاً بدورها ، وهذا يؤدى إلى ازدياد برودة الصيف ، أى هبوب أعاصير عاصفة قادمة من المحيط وتسقط ما تحمله من مطار أو ثلج بشدة على مرتفعات اسكنديناوة ومرتفعات غرب بريطانيا .

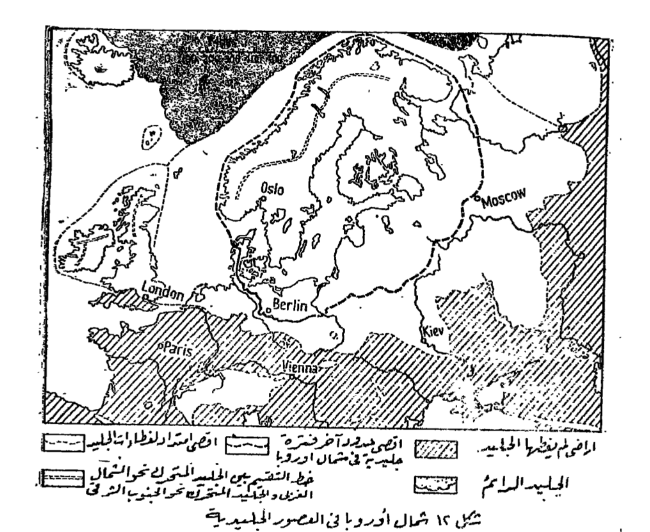
(٢) أنها تجمد مياه البحر وبذلك ينخفض مستوى مياه البحر ويبتعد اليابس عن تأثير مياه البحر الملطف .

(٣) بعد تراكم الجليد فوق اليابس مدة طويلة من الزمن يصبح من الثقل بحيث تنوء به الأرض فينخفض مستوى اليابس وبذلك يرتفع مستوى البحر نسبياً . وقد عالج « و . ب . رايت »[١] فى كتابه « عصر الجليد الرباعى » ارتباط الآثار المترتبة على نشاط الجليد رقم ٢ ، ٣ بشئ من التفصيل .

إذا تذكرنا هذه العوامل المختلفة ، وإذا تذكرنا الوقت الطويل الذى حدثت فيه هذه التغييرات أدركنا أن العصر الجليدى ظاهرة متعددة المراحل . وقد قدر « ميلانكوفتش » أن آخر فترة وصلت فيها أقل كمية من الإشعاع الشمسى حدثت منذ ٢٢٫١٠٠ عام مضت تقريباً . بينما حسب « دى جير » عدد دقائق الرمل المترسب من الثلج الذائب عاماً بعد عام والمتراكم بعضه فوق بعض فى قطاعات متوالية من الجنوب إلى الشمال فى السويد فوجد أنها ترسبت فى ١٨٫٠٠٠ سنة ، وهى الفترة التى استغرقها تقهقر جليد دنمارك Daniglacial Retreat الذى حدث بعد فترة فرم الجليدية . ورغم أن هذا التقدير يكاد يتفق مع تقدير «ميلانكوفتش» عن زمن حدوث آخر فترة جليدية إلا أننا يجب أن نحترس عند ربط الدورات الفلكية بالإرساب الفصلى للطين الجليدى . ويدل التاريخ المعتمد على نسبة الكربون ذى الوزن الذرى ١٤ وهى نسبة تتضاءل بالتدريج فى البقايا العضوية على أن هذه الفترة الجليدية الأخيرة حدثت منذ ٢٠٫٠٠٠ سنة .

---

(١) W.B. Wright, Quaternary Ice Age, 2 nd. edn. 1937



شكل ١٢ شمال أوروبا في العصور الجليدية

ويرى كثير من الباحثين أن أهم عوامل تكوين الجليد هو حدوث صيف بارد . ويقع جزء من شمال شرق آسيا على نفس خطوط عرض جزيرة جرينلندة ، وهي تمتاز بشتاء بارد وصيف أدفأ من صيف جرينلندة ، ومن ثم يتراكم الثلج فوق جرينلندة على نطاق واسع بينما يتراكم أي ثلج فوق شمال شرق آسيا .

ويقرر «ميلانكوفتش» بصراحة أن حساباته وتقديراته لا تقدم أي دليل على عدم حدوث فترات جليدية في ملايين السنين التي تفصل بين البلايستوسين والعصور البرمية الكربونية وربما تأثر مناخ الأرض بطريق مباشر أو غير مباشر بالحرارة المنبعثة من باطنها في فترات تشقق القشرة وتكوين الجبال في أواخر الزمن الثلاثي بعد ارتفاع التواءات الألب والهملايا، وفي العصر البرمي الكربوني بعد ارتفاع سلاسل الجبل الهرسينية الفارسكية ، وفي العصر الديفوني وفي العصر السابق للكامبيري . والتواء الجبال على نطاق أوسع يرفع أجزاء من قشرة الأرض إلى مستويات عليا تسمح بدرجة حرارتها بتساقط الثلج وتجمده .

وقد تمكن « سورجيل » Soergel من أبحاثه في تورنجن ، عن جليد الألب وجليد شمال أوربا ، أن يصل إلى تعاقب تغيرات في أودية الأنهار كما يلي :

(ا) ترسيب الحصى في الفترات الباردة الجافة نسبياً .

(ب) تعميق الوديان وترسيب الطمي في قيعانها أثناء الفترات الأكثر اعتدالا .

وقد حاول أن يربط بعض الفترات الباردة هذه بتقدم الجليد في كل مكان من جبال الألب وشمال أوربا ، وبهذه الوسيلة أمكن ربط الأبحاث الخاصة بالجليد في كل من جبال الألب وشمال أوربا ، وأمكن تصور تتابع للأحداث المناخية تصوراً أكد نظرية بنك وبركنر عن فترات الجليد الأربع الرئيسية في مراكز تجمع الجليد الأوربي الرئيسية . ولم تظهر أعمال « برويل » في منطقة السوم بشمال فرنسا أدلة عن الركامات الجليدية بطبيعة الحال إنما قدمت أدلة على انزلاق التربة نصف المتجمدة فوق المنحدرات Solifluxion .

وقد حدث هذا فى كثير من الحالات كنتيجة لتشقق المواد المتجمدة إلا أن «باترسون» قد بين حديثاً أن هذا يحدث أيضاً تحت ظروف رطبة . وقد تعرف « برويل» إلى إحدى عشرة فترة متتابعة من فترات انزلاق التربة التى يحتورها فترات باردة تتوسطها ست فترات من الإرساب النهرى ، وتدل على فترات معتدلة . ومن الممكن مقابلة فترات « برويل » المتتابعة بالنظام العام الذى رسمه كل من « بنك » و « بركنر » و «سورجيل» و « ميلانكوفتش » وغيرهم عن العصور الجليدية .

ولقد حاول كل من : « ولد ستيت »[1] و « زوينر »[2] و «باترسون»[3] رسم صورة عامة للعصور الجليدية فى القارة الأوربية وفى العالم ؛ ومع هذا فإننا لم نتفق بعد على العوامل التى تدخلت فى تكوين العصور الجليدية رغم أن الأبحاث تميل إلى الاتفاق على تتابع الإرساب وغيره من الأدلة الجيولوجية .

ويرى « زوينر » أن جداول « ميلانكوفتش » عظيمة القيمة إذ أنه يرجع تكوين الجليد إلى تتابع سنوات ذوات صيف لطيف الحرارة أو بارد ، عندئذ يتراكم الجليد والثلج فى العروض الوسطى والعليا . بينما يتبع «باترسون» من ناحية أخرى نظرية « سير جورج سمبسون » مع شئ من التعديل . وهذه النظرية تبدأ من فكرة تغاير الإشعاع الشمسى الساقط من الشمس إلى الأرض ، ولكنها تفترض أن فى الفترات التى يتزايد فيها الإشعاع الشمسى المتساقط إلى الأرض يحدث اختلاف كبير فى الأحوال المناخية بين المناطق الاستوائية والمناطق القطبية ، وينتج عن هذا ازدياد نشاط الأعاصير وازدياد كمية التساقط فى

1 — Woldstedt : Das Eiszeitalter, 1939.

2 — Zeuner : Geol. Mag. 1935; Proc. Geol. Assoc. 1937; Proc. Prehist. Sec. 1937.

3 — Paterson : Trans. Roy. Soc. Edinburgh, 1940-1.

العروض العليا — وهذا كما « يرى سمبسون » أدى إلى تجمع الثلج وتكوين عصر جليدى .

ويفترض سمبسون[١] أنه عندما يزداد الإشعاع الشمسى الذى تستقبله الأرض أكثر من هذا فإن الثلج المتراكم يبدأ فى الذوبان وهذا يؤدى إلى ظهور فترة دفيئة . ولكن عندما تنتهى مرحلة النهاية القصوى للإشعاع الشمسى تصبح الظروف المناخية مواتية لتكوين عصر جليدى آخر . وعندما تقل نسبة الإشعاع الشمسى عن حد معين يقل التناقص الكبير بين الظروف المناخية فى كل من المناطق القطبية والمناطق الاستوائية ويقل عنف الأعاصير ، وتنتهى فرص تراكم الجليد أى ينتهى العصر الجليدى . وعلى علماء المناخ أن يبينوا لنا ما إذا كان هناك تعارض بين نظرية «ميلانكوفتش» عن الصيف اللطيف (فى العروض الوسطى والعليا) كسبب لتكوين الجليد كما يقول « نوينر » ، أو ازدياد المطر كما قال «باترسون» .

و تؤيد الآراء السائدة بين العلماء كلا من « ميلانكوفتش » و « زوينر » ، إلا أننا يجب أن نتحفظ عند محاولة تأريخ الفترات الجليدية الأخيرة .

نظريات « ميلانكو فتش » تتضمن ضرورة دراسة كل نطاق من نطاقات الحرارة (حسب خطوط العرض) على حدة ، كما أنها تجعل الباحث يحجم عن تطبيق ظروف نصف الكرة الشمالى على نصف الكرة الجنوبى لأن ظروف الإشعاع الشمسى الذى يتقبله اليابس فى كل منهما تختلف عن الآخر بينما يرى باترسون أن الأدلة المستقاة من جهات مختلفة من العالم أجمع أى من نصفى الكرة الشمالى والجنوبى تشير إلى تغيرات مناخية عامة شاملة ، وهو

---

(١) Sir George Simpson : Quart. J Journ. Meteorol. Soc. 1934.

يعتنق نظرية « سمبسون » . ونحن بداهة لازلنا فى المراحل الأولى فى فهم العصور الجليدية ، ولا نستطيع أن نتصور الآن نظاماً يربط بين وجهات النظر المختلفة ربطاً منسجما . وإذا تذكرنا أنه منذ جيل مضى كان الاعتقاد السائد فى عصر جليدى واحد ، فإننا نستطيع أن نقدر مدى التقدم الذى وصل إليه البحث العلمى الحديث ، وقد اتفق العلماء على الحقائق أسرع مما اتفقوا على العوامل التى أدت إليها ، وهذا ما كان متوقعاً .

ملاحظة :

من الممكن أن نضيف بعض تعديلات فى التفاصيل ، عما ورد فى المجلد الثانى من السلسلة (الصيادون والفنانون Hunters and Artists) على ضوء ما تجمع لدينا من معلومات حديثة . فتقدير عمر البلايستوسين قد تقدم فى السنين الأخيرة ، والاتجاه الأحدث الآن هو تخفيض فكرة العصر الحجرى القديم كلها إلى ربع مليون سنة تقريباً .

وقد أصبحت أهمية ركامات « بول » Bühl والتعرف إليها أكثر غموضاً مما كنا نتصور منذ ٢٠ عاما إلا أن ركام فنو إسكنديناوة Fenno-Scandian قد أصبح بداهة أكثر أهمية ، ويرجع تاريخ توقف الجليد فى فنلندة وإسكنديناوة إلى ما هو أبعد من عشرة آلاف سنة ، وأن ركام « راجوندا » Ragunda أرسب عندما كانت حافة الجليد المتقهقر قد وصلت إلى حافة جبال إسكنديناوة فى اتجاه شمالى جنوبى . منذ ٨٧٠٠ سنة . وقد قدرت الأعمار على أساس إحصاء رقائق الطفل الجليدى التى أرسبها الجليد الذائب عاماً بعد عام .

الفصل الثاني

صيادو أواخر العصر الحجري القديم

الاتصال بين الحضارات يؤدى إلى التقدم عامة . وسيحاول هذا الفصل أن يبين الثورات الكبرى التى أوجدها الاتصال الحضارى بين صناع الآلات الحجرية المصنوعة من النواة (ذات الوجهين) وصناع الآلات الحجرية المصنوعة من الشظايا (ذات الوجهين) فى جنوب غرب أوروبا وشمال أفريقيا بوجه عام وفى فلسطين . ولقد توصل أصحاب الحضارة الآشولية الحديثة إلى صنع آلات حجرية ذات وجهين من قطع الشظايا وضؤل شأن آلات النواة وتقدمت صناعة الشظايا وتهذبت تشظيتها واستخدمت طريقة تشظيتها فى صناعة أدوات النواة . ومع تقهقر غطاء جليد إسكنديناوة حدثت تغيرات مناخية أدت إلى هجرات الإنسان الذى أصبح أكثر استعداداً عقلياً لمواجهة ظروف لم يكن مهيئاً لاستقبالها عند نهاية الفترات الجليدية السابقة .

كان الجليد يغطى غرب أوروبا وربما كان سبب ذلك كثرة التساقط الناجم من التيارات الهوائية الأطلسية . ويبدو أن غطاء جليد الفرم كان أقل انتشاراً فى شرق أوروبا وغيرها من الأراضى الداخلية منه فى عصر فترات جليدية سابقة . ومع تقهقر جليد الفرم فى أوروبا ازداد جفاف شمال أفريقيا بينما كانت فلسطين من ناحية أخرى قد استفادت من الأعاصير الأقل عنفاً التى كانت تهب فوق البحر المتوسط فى الشتاء والقادمة من المحيط الأطلسى عن طريق جنوب فرنسا أو مضيق جبل طارق . ومن هذا يبدو أن الأقاليم التى كانت تحف بالمنطقة المتجمدة فى جنوب غرب أوروبا وفلسطين وشرق ووسط أوروبا ذات ظروف مناخية متحسنة ، بينما كانت أجزاء من شمال أفريقية

تعانى من ازدياد الجفاف الذى أدى إلى افتقارها . ورغم أن النيل كان يجرى بالفيضان كل عام إلا أن واديه الأدنى ودلتاه التى كان يغرقها النهر بفيضانه كل عام كانت مليئة بالمستنقعات التى لم تكن قد جفت بعد ، وكانت إمكانيات الصيد فيها محدودة ، ومن ثم لم تكن مصر ذات أهمية تذكر فى ذلك الحين ، فهى لم تكتسب أهميتها الحضارية إلا بعد اكتشاف فنون الزراعة والرى ، غير أن « حزين » وغيره قد علقوا أهمية كبيرة على كميات الطمى الأسود التى تسبب خصب ارض مصر التى بدأ النهر يحملها من فتات صخور الحبشة كل عام فى فصل الفيضان الصيفى . هذا الفصل الذى بدأ فى الوضوح عندما بدأت ظروف المناخ الحالى فى الاستقرار وبدأت الرياح الموسمية (وهى سبب فيضان النيل السنوى) فى الهبوب بانتظام ، ومن المحتمل كثيراً أن يكون هذا قد بدأ فى الحدوث حوالى ٨٠٠٠ قبل الميلاد .

يميل « بوبيك » Bobek إلى الاعتقاد بأن شمال شرق إيران وممرات تركستان لم يصبها الجليد . ويرى « ج.ف رايت » G.F. Wright أن غطاء مائياً متسعاً كان يغطى منخفضات البحر الأسود وبحر قزوين وبحر آرال ويربط بينهما وأن هذا الماء كان نتيجة ذوبان الجليد الذى كان يغطى الجبال إلى شرقها .

فاضمحلال الجليد من وسط آسيا قد أدى إلى استغلال الأراضى الوطيئة فى غربها ، إلا أن البرد الشديد السائد فوق المرتفعات كان حائلا دون انتشار الناس من غرب آسيا إلى شرقها الأقصى وشمالها الشرقى . وقد انتشر صيادو أوروبا فى ذلك العصر فوق نطاق الحشائش الباردة التى كانت ترعاها قطعان البيسون Bison priscus والماشية المتوحشة Bos primigenius التى كانت تعيش على أطراف الغابة وفى نطاق الحشائش الرطبة ، والخيل البرية والأتان المتوحشة فى المناطق الأكثر جفافاً . أما الغزلان والخنازير البرية فقد تكاثرت مع ازدياد نمو الغابات لا سيما بعد نطاق الصنوبر والشربين ، كما كانت الأغنام

البرية التي تعيش فوق التلال . وبالقرب من متخلفات الجليد كانت تعيش الفيلة الصوفية (الماموث) والرنة أو الوعل القطبي .

ونستطيع أن نشير إلى مساكن الإنسان في ذلك العصر الحجرى القديم فبينما كان الإنسان في أوائل العصر الحجرى القديم يهيم على وجهه ويلجأ إلى مواضع بالقرب من الأنهار وغيرها من أماكن السقيا ويعسكر فيها . يبدو أن جماعات أواخر العصر الحجرى القديم كان لها مراكز تتجمع فيها من وقت إلى آخر . ومن أمثلة تلك المراكز فنلدورف فى النمسا . وهناك احتمال كبير أن كهوفها المزينة كانت تستخدم كمراكز للعبادة فترة طويلة من الزمن . وكان الصيادون يستقرون فى العراء فى ألمانيا والنمسا وسويسرا بالقرب من مجارى المياه ولكن فوق مستوى الفيضان . ولنا أن نتصور أنهم كانوا يعيشون فى خيام فى فصل الصيف . ويرى بعض الباحثين أن النقوش ذات الأضلاع المتعددة التى تركت فى الكهوف لم تكن سوى رسوم لتلك الخيام. وإن كان بعضها يمثل الحفر التى كانت تستخدم للصيد وحيث توجد الكهوف تقل آثار مخيمات العراء ، ويبدو أن الناس كانوا يلجأون الى الكهوف فى الشتاء على وجه الخصوص . وربما كانت الكهوف مخازن لحفظ الطعام . ونحن نعلم أنها أيضاً كانت أماكن مقدسة . وقد وجدت فى مخيمات العراء والكهوف مواقد للنار وهى حفر صغيرة ذات أرضية أوجدران من الصلصال محاطة بقطع من الحجارة وأكوام من الرمل ، ويبدو أن هذا الموقد كان مهيئاً كمطبخ . وقد عثر على مواقع للسكن ذات أرضية من الصخر فى سويسرا والنمسا ، كما جمعت أدلة عن مساكن تحت الأرض وجدت فى جنوب روسيا ، وحفر لإقامة الأعمدة وجدت فى كوستنسكى ، ومواقد للنار ومداخن تيمونوفكا Timonovka مع قطع من الصوان ونماذج هندسية مصنوعة من عاج الفيل الصوفى ، وتماثيل أنثوية صغيرة فى كوستنكى وجاجارينو . وعثر على مثل هذه المساكن تحت الأرضية فى مالطا وفى سيبيريا .

هذا الملخص العام يوحى بأن جنوب غرب أوروبا ووسطها وفلسطين كانت مراكز لتطور خاص ، ويدل على هذا ماعثر عليه فيها من آلات حجرية ، وغيرها من الأدلة ، ويبقى أن نتبين ما إن كان هذا التشابه فى الآثار يرجع إلى أكثر من مجرد تطور متواز (مستقل) فى كل من هذه المراكز فتلك نقطة جدلية . وقد ازدادت أهمية منطقة مورافيا وغيرها من مناطق تربة اللويس فى وسط أوروبا وجنوب روسيا مع ازدياد تقهقر الجليد وازدياد تأثيرها فى فرنسا إزدياداً ملحوظاً ، وليس من الواضح ما إذا كانت هناك علاقة حضارية بين مناطق تربة اللويس هذه وبين جنوب غرب آسيا .

ولم يتضمن صيد الحيوانات الكبيرة وسائل ضربها من بعد فحسب ؛ بل تضمنت المقدرة على العمل التعاونى ، وقطع مسافات طويلة فى حركة سريعة كذلك ، وربما كانت النساء والأطفال عقبة فى سبيل هذه الحركة السريعة ، والسفر الطويل . ومن ثم خرج الرجال وحدهم دون نسائهم للصيد ، ومن ثم نستطيع أن نلمح بوادر تقسيم العمل بين الجنسين . إلا أن النساء والأطفال كانوا يكونون نواة أو مركزاً يعود إليه الصيادون ، وكانت الكهوف حيث وجدت وحيث كانت جافة : إما أماكن السكنى الطبيعية وإما أماكن تخزين الطعام ولاسيما فى الفصل البارد . وربما كانت المرأة ترعى النار التى جلب جذوتها — إذا صدقنا القصص الشعبية — شاب أعزب ، كما كانت النساء والأطفال يهيئون الجلود التى كانوا يلتفون بها ويقطعون السيور الجلدية وينظفون الطعام وما إلى ذلك من أعمال مختلفة . ومن ثم امتدت فرص الحديث وتبادل المعرفة اللفظية والفنية ونقلها من جيل إلى جيل بين النساء والأطفال. ولنا أن نتساءل ما إذا كانت هذه المجتمعات تحتفظ بحيوانات صغيرة مدللة ، وما إذا كان هذا بداية أولى لفن استئناس الحيوانات ، وليس من شك فى أن الكلب كان أول هذه الحيوانات استئناساً .

الكهوف والصخور النائية التى كان يأوى إليها الانسان غنية فى الغالب

بالنقوش والصور لا سيما نقوش الحيوانات حيث كانت تمثل كما كانت تبدو للصيادين أو كانت تبدو ميتة . ومن عادات « البيرهور » Birhors وهي قبائل متأخرة تعيش فى شوتاناجبور بالهند أن زوجة الصياد الذى يقع فى شباكه حيوان تنظف الأرض أمام منزلها وتضع عليها الحيوان الميت ثم تقوم بطقوس خاصة قبل أن تسلخه . ومن الممكن جداً أن جماعات العصر الحجرى القديم كانت تتجمع حول مداخل الكهوف وتقوم بطقوس خاصة حول رسوم الحيوانات فى أغوار الكهف السحيقة . ولدينا بعض التماثيل مكسورة عن عمد ، وربما كان هذا جزءاً من الطقوس التى كانت متبعة ، وهذا ملاحظ بصفة خاصة فى العصر المجدلى . وكانت بعض الرسوم منقوشة على الصخر ، وصنعت أحياناً أخرى نماذج من التماثيل للحيوان من العاج والصلصال ، وكانت لبعض النماذج مثل التى وجدت فى توك دودوبير رأس حقيقية أو جمجمة تركب فى النموذج أو التمثال . ومن مميزات هذا العصر أيضاً تماثيل النساء لا سيما الحوامل ، بينما تقل وتندر نقوش أو رسوم الرجال وكأنما كان هناك تحريم يحيط بهذا الأمر ، غير أن صـــور الجنسين تركت فى لى كومباريل Les Combarelles . ولا نعرف ماذا تثيره تلك الصور والتماثيل فى مخيلة الناس حينذاك ، ويبدو أن بعضها كانت مجرد تعبير عن سرور الفنان ، إلا أن قليلا منها كانت تؤدى أغراضاً أخرى أكثر من السرور الفنى ، ففى كهف الإخوة الثلاثة Les Trois Frères بفرنسا مثلا صورة لرجل متنكر فى جلد حيوان ورأسه وربما كان هذا قناعاً تنكرياً يضعه الإنسان فى الطقوس. وكان هذا الرسم يحتل مركزاً هاماً فى الحائط ليلفت إليه الأنظار ، وربما كان هذا الشخص هو ساحر الجماعة نفسه ، وبهذا كانت الكهوف ذات الرسوم والنقوش أماكن يحوطها الغموض ويظن بها قوة سحرية .

وتدل طرق الدفن حيث كان يوضع مع الميت بعض أدواته وزينته على فكرة البعث بعد الموت ، ويبدو أن بعض الشخصيات الهامة كانت تعتقد فى

بعثها من جديد إذ أنها كانت تدفن فى وضع يشبه وضع الجنين فى رحم أمه . فى كهف كوجول Cogul بأسبانيا صورة بعض نساء يتحقق حول رجل له أعضاء تناسلية كبيرة ويرقصن له وكان التكبير فى الرسم دليلا على الأهمية . ويبدو أن النساء كن يلبسن القميص وكانت القصص الشعبية تظن أنه يساعد أرواح السلف على الحلول فى أرحام النساء لكى تولد من جديد ، كما أنها تحمى الرحم من العين الخبيثة (الحسودة) . وربما كان انتشار فكرة بعث أرواح السلف راجعاً إلى الظن بأن الحمل لا يحدث فى النوع البشرى كنتيجة مباشرة منتظمة للاتصال الجنسى كما هو الحال بين الحيوانات التى يعرفها الإنسان ، وربما كان راجعاً أيضاً إلى ملاحظة التشابه الوراثى بين السلف والخلف . وأما عن أصل ملابس الرجال فربما كانت مرتبطة بعادات الوقوف والسير مما يتطلب إزاحة أعضاء الذكور قليلا عن مواضعها لتسهيل الحركة والسير . وربما كان الخوف من الحسد أيضاً دافعاً إلى ستر العورة ولا سيما بعد أن عرف الإنسان العلاقة بين الاتصال الجنسى والإنجاب ، وتستر بعض قبائل أفريقية العارية عورات الذكور خشية الحسد . ولا نحتاج إلى أن نقول إن الملابس كانت وسيلة فى حد ذاتها لحماية الجسم من البرد .

وكانت عملية إعداد الملابس تتطلب عدة آلات متخصصة مثل المخارز ، والسكين والمسلة العظمية أو العاجية وغيرها ، ومهما كان نوع الحياة التى كان يحياها الإنسان (إنسان العصر الحجرى) القديم فلا بد أنه كان له عدد كبير من الآلات والعدد ، بل وقطع الغيار خصوصاً بعد اختراع طريقة تركيب قطع الصخر فى أيد خشبية .

وقد رأينا أن هناك أدلة متوافرة على وجود أماكن استقرار أكثر دواما مما كان معروفا من قبل . وأن نقوش الكهوف وغيرها من التفاصيل توحى بنواحى حياة تعاونية تحياها مجتمعات ذات عدد كبير حتى وإن كانت مبعثرة فى مساحة كبيرة .

فكثافة السكان بين جماعات الصيادين فى الوقت الحاضر لا تزيد على شخص وأحد فى الميل المربع . ولم تكن كثافة السكان قليلة فحسب ، بل لا بد وأن كان الناس يهاجرون هجرات فصلية ، ورغم هذا فلا بد وأن كانت لهم أوطان معينة ، ينظر إليها الناس على أنها ملك لهم ، ويدل على ذلك توزيع بعض الآثار التى فسرها « أوبرماير » Obermeir هذا التفسير .

وعلى كل حال فقد نمت لدى صيادى الوقت الحاضر مثل هذه العواطف نمواً كبيراً . وتدل الحلى التى وجدت فى وادى فيزير Vezère والتى تشمل عدداً كبيراً من القواقع على فكرة التجارة أو تبادل الهدايا يداً بيد ، وربما أيضاً — وإن كان هذا الإحتمال ضئيلا — على الهجرة الطويلة المدى . كما تدل نقوش الساحر التى وجدت فى مكان بارز فى كهف الأخوة الثلاثة على بدء ظهور فكرة الزعامة ، وأن المستوى الرفيع الذى وصلت إليه فنون أصحاب حضارة أواخر العصر الحجرى القديم ليدل على أن هؤلاء الناس كانوا أكثر تقدما وأفضل استعداداً فنياً وعقلياً عن جماعات الصيادين وجامعى القوت الذين يعيشون فى الوقت الحاضر .

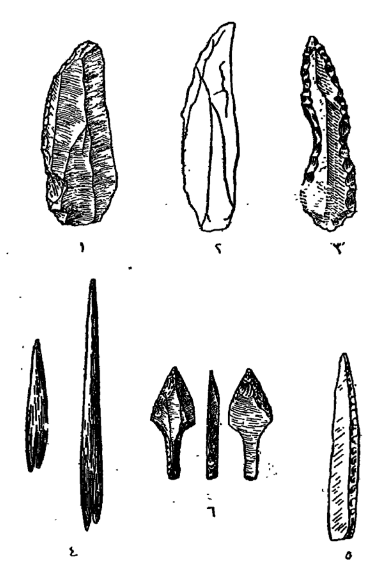
ولا بد أن برد الشتاء الطويل الذى اضطرهم لتخزين الطعام قد ساهم كثيرا فى نمو التفكير وتدبير المستقبل والتنظيم وفى تكتل السكان فى وادى فيزر ونطاق اللويس .

وجدت فى الحجرات الداخلية الصعبة المنال للكهوف رموز ورسوم عديدة كما وجد فى « بجوان » Begouen آثار أقدام شبان داخلة إلى أعماق كهف « مونسبان » ، والذى لم تطأه قدم أخرى منذ آلاف السنين . ومن المحتمل أن تكون هذه الكهوف المظلمة مرتبطة بطقوس تأهيل الشبان Initiation Rites . وهذه الطقوس منتشرة جدا بين الشعوب البدائية فى الوقت الحاضر ، ولا بد وأن الصيادين القدماء كانوا يقومون بها . وتدل طرق الدفن على أن فكرة ،

ما عن الحياة بعد الموت كانت معروفة لديهم ، كما أن تماثيل النساء واهتمامهم بالجنس والولادة ربما كانت دليلا على انتشار فكرة البعث وإرهاصا بظهور فكرة الروح . ولا ندرى إلى أى حد استبدت فكرة تجسد الروح وحلولها فى الأشياء بهؤلاء الناس ، وإن كان بعض الكتاب يرى نقوش الكهوف إشارات إلى فكرة التوتمية Totemism التى تربط روح أفراد المجتمع بروح الحيوانات والنباتات والأشياء والظاهرات الطبيعية . وربما كان الرقص والجنس كما تدل عليها نقوش «كوجول» عامة قد لعبا دوراً كبيراً فى الطقوس ، وأن السحر وما يتبعه من طقوس سواء كان القصد منه اكتساب قوة تفوق الآخرين أو قوة يواجه بها ظروف البيئة ، كان يلعب دورا كبيرا . ولا نستطيع أن نقول ما إن كانت إحدى صور العبادة ، وهى ربط المخلوق بروح الخالق ، أى أساس الدين كما ظهر فيها بعد ، قد ظهرت فى ذلك الحين أو لا .!

الآلات

وصف «بْرويل» آثار العصر الحجرى القديم الأعلى التى وجدها فى فرنسا ، وسماها الحضارة الأورنياسية Aurignacian . وإن كانت قد اقتصرت فيما بعد على مرحلة حضارية دخلت فرنسا من آسيا عن طريق وسط أوروبا وكانت تعرف بالحضارة الأورنياسية المتوسطة . وقد سميت مراحل هذه الحضارة الأولى والتى ربما كانت تطوراً محلياً لها ، باسم الحضارة البيريجوردية Perigordien . وربما كان من الأوفق أن نرى تلك الحضارة التى ظهرت فى فرنسا نتيجة لتطور حضارى محلى متأثر بعناصر دخيلة من وسط أوروبا اختلط بها وتسمى أقدم الآلات الحجرية الأورنياسية «بلأودى» Audi نسبة إلى اسم مكان فى فرنسا ، وكانت تمتاز بانحناء الحافة انحناء جانبيا ثم تطورت تلك الآلة وأصبحت نهايتها مستقيمة ، ولكنها لا تزال عريضة وأطلق عليها اسم المكان التى وجدت فيه أول مرة أى «شاتلبيرون» Chatelperron



شكل (١٢)

١ — نصال أودى ($\frac{1}{2}$) أواخر العصر الموستيرى ؛ أودى — فرنسا .

٢ — نصل شاتلبيرون ($\frac{2}{3}$) . أوائل العصر الحجرى القديم الأعلى .

٣ — نصل مشظى ($\frac{2}{3}$) أورنياسى .

٤ — نصال عظمية ذات قواعد مجوفة .

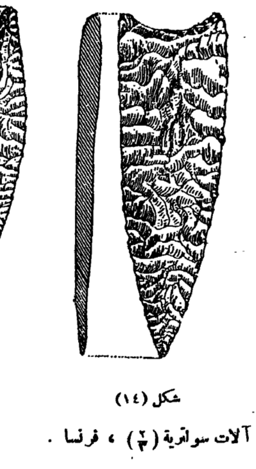
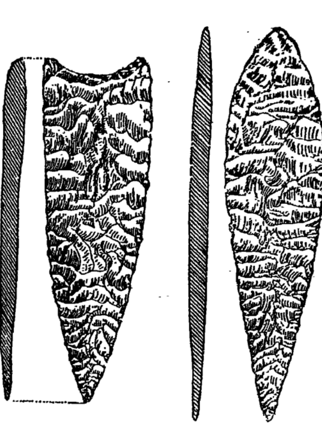
٥ — رؤوس سهام جرافيت ($\frac{2}{3}$) ما بعد الأورنياسى .

٦ — رؤوس سهام فونت روبرت ما بعد الأورنياسى .

أما فى «لافيراس» La Ferrassie فالآلات الحجرية وسط بين النوعين السابقين. وفى «أودى» Audi وجدت طبقات بها هذه الآلات وفوقها طبقات بها آلات «موسترية» Mausterian ، وربما كانت هناك علاقة تطورية بين هذه الآلات المختلفة . فقد وجدت فى هذه الطبقات أيضا مكاشط من الشظايا ذات حواف مستوية ، ومدى ذات حواف قاطعة حادة وحواف غير قاطعة يستطيع أن يضغط بها الصانع بيديه، ومخارز ذات أسنان مدببة ، وبعضها له قاعدة مزدوجة، وتماثيل نساء من براسمبوى Brassempouy وأشياء تسمى أحيانا بعصى (شكل ٢٢) ذات ثقوب مستديرة وربما لوضع مقلاع بها . وكانت المخارز الحادة تستعمل فى أشغال العاج وحفر الخشب .

وتمتاز الحضارة الأورنياسة بمعنى الكلمة كما تستعمل فى الوقت الحاضر ، بتنوع المكاشط وآلات الحفر ؛ ولكنها لا تمتاز بالجدة تماما فيما يتعلق بالسهام والمدى . وقد تنوعت فى ذلك العهد آلات الصوان تنوعاً كبيراً ، كما تميزت وسط أوربا بوجود التماثيل النسوية الصغيرة ، وتقدم الفن التشكيلى تقدما كبير . أما الحضارة الأورنياسية العليا فقد أمتازت بنمو صناعة السهام الماضية التى أطلق اسم «لاجرافيت» La Gravette وسهام أعرض ذوات عنق خاص تسمى فونت روبرت ، إلا أن أدوات الصوان لم تكن متوفرة كما كانت من قبل فى ذلك العهـــد . وبعض المدى الصوانية كانت ذات حافة ماضية وأخرى عريضة .

وتحسنت وسائل استخدام العظام كثيراً فى هذه الفترة . وكانت أهم مناطق استخدامها فى فرنسا منطقة بيرجورد من جنوب غرب فرنسا وساحل الرفيرا . هـــذا إلى جانب ساحل أسبانيا الشمالى أو « لى كانتابريا » وما يليها جنوباً . إلا أنه ليس لدينا أى دليل على أن هذه الصناعة دخلت فرنسا من أفريقيا أو أسبانيا بينما كانت لاتزال الفأس اليدوية الأشولية باقية جنبا إلى جنب مع المدى والقواقع بالقرب من مدريد .

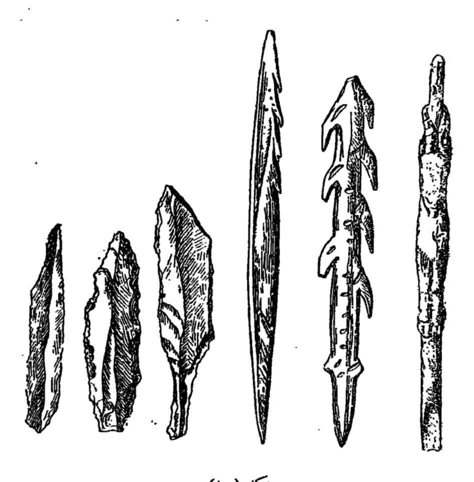



شكل (١٤)

آلات سولترية ($\frac{٢}{٣}$) ، فرنسا .

ومهما اختلفت الآراء حول انتشار الحضارة الأورنياسية من آسيا أو وسط أوربا إلى فرنسا أو بالعكس ، فما لاريب فيه أن الحضارة التالية التى تسمى بالسولترية (نسبة إلى سولتريه Salutré فى برغانديا) كانت حضارة دخيلية قادمة من شمال المجر إلى غرب أوربا حتى وصلت جنوب غرب فرنسا وشمال فرنسا . ولم يكن أصحابها على مايظهر يهتمون بالفنون التشكيلية ولكنهم صنعوا آلات صوانية كبيرة دقيقة الصنع تسمى «ورق الغار» وهناك من الدلائل ماتشير إلى أن صناع هذه الآلات الأوائل يدنيون بشىء من الفضل إلى صناع السهام الموسترية ؛ ومن ثم إلى صناع آلات النواة الأشولية ، وأنهم من ناحية أخرى تركوا تراثهم لشعوب العصر الحجرى الحديث فيما بعد . إلا أن كلا من هذه الحضارات الأشولية والحجرية الحديثة بعيدة جداً من حيث الزمن عن الحضارة السولترية ، وربما كان الشبه بينهما راجعا إلى تشابه وسائل الصناعة وكان أصحاب الحضارة السولترية يصيدونه قطعان الخيل الوحشية التى كانت تتكاثر فى نطاق الحشائش والتى تقهقرت إلى وسط آسيا عندما نمت الغابات وحلت محل الحشائش .

كان حيوان الرنة يعيش فى فرنسا كما كان الوعل الأحمر يعيش فى أسبانيا . وظلت هذه الحيوانات تعيش فى تلك المناطق فترة من الزمن إلا أن الوعل الأحمر حل محل الرنة عندما مالت درجات الحرارة فى فرنسا إلى الاعتدال . وقد عادت حضارات فرنسا الحجرية القديمة إلى الازدهار بعد أن تقهقرت الحضارة السولترية ، وتركت مدى حيوانية قديمة رديئة الصناعة إلا أن المخارز والمثاقب ازداد عددها بينما لم تزد المكاشط أو السهام . وتسمى هذه المرحلة باسم الحضارة «المجدلية» Magdalenian ، وتقسم إلى ست فترات . منها فترات أولى فقيرة فى فنها . إلا أن الفترة الرابعة من هذه الحضارة امتازت بسهام مصنوعة من العاج أو العظام ، وربما كان السبب فى هذا انتشار الغابة التى دفعت



شكل (١٥)

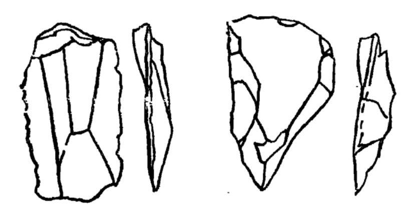
آلات مجدلية فرنسية

عصا قذف — خطافان

الناس أمامها . ويقدم لنا انتشار الحضارة المجدلية داخل خط ركامات الفرم الجليدية فى سويسرا دليلا مباشراً على تقهقر الجليد وتغيير المناخ .

آلات أخرى غير فرنسية

وجدت الأستاذة « دورثى جارود » فى فلسطين مدى حجرية مع آلات أشولية وليفالوازية أو موستيرية . بعد ذلك وجدت آلات أورنياسية سفلى وسهام عريضة بعض الشئ وخارز ومكاشط ومدى ذات ظهور غير حادة ، وكلها أدق صنعاً بقليل من نظيراتها فى غرب أوربا . وتجمعت لدينا فى الوقت الحاضر ، فيما بين غرب أوربا وفلسطين ، أدلة من القرم تتفق مع أدلة فلسطين ، إلا أننا لم نجد فى القرم أدلة حجرية أقدم . وفى مورافيا لدينا أدلة لصناعة انتقالية موستيرية تطورت إلى فنون تشكيلية مثل نحت العاج وعمل تماثيل منه وأشغال الحفر الدقيقة عليه .



شكل (١٦)

شظايا حجرية قديمة متأخرة (سبيلية)

من الفيوم — مصر . (٢/٣)

أما من الجانب الأفريقي فقـد أودى الجفاف التدريجي بالفنون الحجرية القديمة ، إلا أن الحضارة العاطرية استمرت وأسلت تراثها فيما بعد . ويبدو أن مصر قدأصبحت منعزلة وأن الشظايا الليفالوازية قد أصبحت صغيرة جداً ، وأن الإنسان كان يعيـد تشظية حافتها مرة بعد أخرى عندما تثلم . وتسمى هذه الحضارة بالحضارة السبيلية (شكل رقم ١٦) وأنها لم تكن تصنع المخارز حتى قرب نهاية عصرها . وقد وجدت شمال حلوان وشرق النيل الأدنى سهام صغيرة أكثرها رفيع ضيق وليس عريضاً أشـبه بصناعة جنوب غرب آسيا. وقد لوحظت علاقة حلوان بجنوب غرب آسيا فى كثير من العصور التاريخية التالية.ووجدت فى جنوب تونس وشرق الجزائر آلات صوانية أشبه بما وجد فى شرق أسبانيا — أى مدى طويلة رفيعة ومخارز ، وآلات مثلثة ومعينة الشكل ، وقد ازدادت أهمية الأشكال المعينة[(١)] trapezoids فيما بعد . وتسمى هذه الحضارة «القفصية» Capsian نسبة إلى قفصة فى تونس ويرى البعض أنها دخلت أفريقية من أسبانيا . وقد عمرت هذه الحضارة فترة طويلة جداً من من الزمن (شكل ١٧) أما إلى الغرب من ذلك فقد ظهرت الحضارة «الوهرانية» الفقيرة التى تتوفر لديها الآلات الصوانية الهندسية وكانت تسمى بالحضارة « الإيبرية المرروسية » Ibero-Maurusian رغم أنه لا توجد أية علاقة بينها وبين أسبانيا .

---

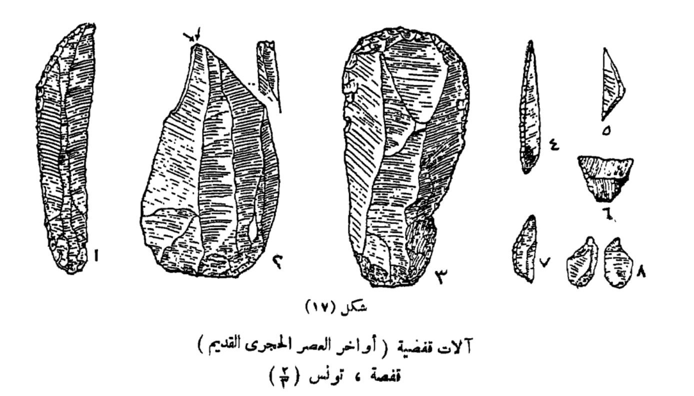
(١) فيما يختص بالصناعة العاطرية ، لابد أن نشير إلى محاضرة جرترود كاتون تومبسون عام ١٩٤٧ بالمعهد الأنثربولوجى الملكى ، مجلد ٧٧ ، بصحيفة المعهد .

Gertrude Caton – Thompson's Huxlé Memorial Lecture, 1947. Royal Anthropological Institute, Vol 77.

امتازت كل من بريطانيا وإيطاليا على طرفى المنطقة الإيبرية الفرنسية بنمو مبتسر لحضارات أواخر العصر الحجرى القديم. ويدرس لزلى أرمسترنج الحضارات البريطانية الحجرية ، وقد تأخر نمو حضارات ذلك العهد فى المناطق الأخرى كل التى ذكرناها ، كما انتشرت صناعة آلات الصوان الصغيرة أو القزمية ذات الأشكال الهندسية فى المناطق التى تطورت فيها حضارات العصر الحجرى القديم ، وقد سميت تلك الحضارة التى سادت فيها الأشكال الهندسية وحدها بالحضارة التردنوازية نسبة إلى «لافير ترد نواز» La Fère en-Tardenois فى فرنسا . وسنعالج هذا فى الفصل الثانى الذى نتحدث فيه عن أواخر العصر الحجرى القديم .

وعثر «ليكى» فى كينيا على آلات من الأوبسديان فى رواسب أحد «الكهوف» التى يظنها رواسب تركها مستوى مرتفع قديم لإحدى البحيرات ، تدل فى رأيه على فترة مطيرة معاصرة لفترة فرم الجليدية إلا أن الأخدود الأفريقى قد عانى كثير من التغيرات ، لا تجعلنا نطمئن إلى تصور أية علاقة خاصة بتغير المناخ بينه وبين أوربا . وتشبه هذه الآلات ما خلفته الحضارات الأورنياسية والقفصية ، إلا أنها تقترن فى كينيا بالفخار . كما وجد «حزين» حضارة مشابهة تمتاز بشظايا الأوبسديان فى جنوب بلاد العرب ، وقد أيدت مس كيتون تومسون وجهة نظره هذه ، إلا أنهما وجدا هذه الشظايا مقترنة بفخار يعود إلى الألف السابقة للميلاد ، ومن هذا يتبين أنه يجب التحفظ الشديد لدى استخدام طراز الصناعة فى تاريخ الحضارات .

ويزداد الأمر صعوبة عند محاولة الاهتداء بطراز الصناعة لمعرفة عمر الحضارات فى جنوب أفريقيا ، إلا أن البحث يسير بخطوات كبيرة جديرة بأن تعلمنا الكثير عن تلك البلاد .



شكل (١٧)

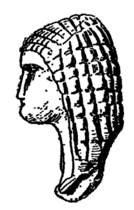
آلات قفصية (أواخر العصر الحجرى القديم)
قفصة ، تونس (٢/٣)

التصوير والحفر والنحت

إن ميدان الفنون التشكيلية والحفر والنحت والتصوير ليبين لنا تنوعاً كبيراً فى الدوافع التى دفعت الإنسان إلى إبداعها ، كما بينت ذلك دراسة الآلات الحجرية . ولدينا نحو عشرة تماثيل نسوية صغيرة من مورافيا وقليل منها من ألمانيا ، وثمانية من جنوب روسيا ، وعشرون من سيبيريا ، وما يقرب من إثنى عشر تمثالا فى جنوب فرنسا ، وواحد من إيطاليا ، ومعظم هذه التماثيل محفور فى العاج . وقد وجدت ستة أشكال للنساء محفورة فى كتل الحجر الجيرى فى لوسيل Laussel بجنوب فرنسا كما تتمثل أقنعة التنكر . وتمتاز صور أو تماثيل النساء بأنها قوية البنية ، كبيرة العجز ذات أثداء كبيرة وتبدو كما لو كانت حوامل . وربما كانت إحدى نقوش هذه الفترة التى وجدت فى انجلترة تمثل رجلا . وقد وجد أبسولون Absolon فى فستونيش Vestonice بتشيكوسلوفاكيا حضارة تمتاز بآلات عظمية دقيقة ، وخطاطيف ، ورماح عظيمة ذات أخاديد ليجرى فيها الدم ، ومعالق من العاج ذات حزوز ربما كانت علامات لعدها فى مجموعات خماسية . وكان يظن أن هذه الآثار ترجع إلى العصر الحجرى الحديث وقد استخدم الفنان المورافى القديم عظام الماموث المحروقة المفتتة مختلطة بالطفل الجيرى الدقيق كما فعل فنان توك دودوبيرت Tuc d'Audoubert .

وكان الفنانون يرسمون أشكالا تخطيطية (كاريكاتورية) لتمثيل الأشخاص إما للفكاهة وإما خشية أن تحل بها الروح لو أنها رسمت بدقة . وهذه صفة نفسية على جانب كبير من الأهمية .

ومن ثم كانت أهمية التماثيل الصغيرة ذات الوجوه المعبرة التى رأى «كيث» Ketih وغيره أنها أنثوية . وقد درس « برويل » مجموعة دقيقة جداً من نقوش الكهوف ، ربما كانت ترجع إلى العصر الأورنياسى ، تشمل

شكل (١٨)
رأس فتاة من العاج ، براسمبوى ، لاند ، جنوب غرب فرنسا

رؤوساً للماشية وجدها فى حفائر لاسكوه Lascaux بالدودونى فى فرنسا (شكل ١٥) كما وجد فى حفائر ليروك Le Roc فى شارنت وهى حفائر سولترية على تماثيل الحيوانات ربما تركها فنانون أورنياسيون ، إلا أن السولتريين لم يهتموا بمثل هذا النشاط الفنى .



شكل (١٩)
صورة لخنزير برى قافز ، كهف التحو التاميرة ، شمال أسبانيا .



شكل (٢٠)

ثور وحشى Bos Porimigenius ، ليه كامباريل

أما فى الفترة الجدلية ، فقد قلت أهمية التماثيل الإنسانية فى فرنسا وشمال أسبانيا وأصبحت نادرة بينما تحسنت نقوش الحيوانات وأصبح فن التصوير فى حوائط الكهوف أهم معالم الفن فى ذلك الحين ، وغالباً ما كانت تلك الصور تبين الحيوان الذى اقتنص غير أنه وجدت فى فونت دى جوم صورة تمثل ذكر الرنة وهو يقترب من أنثاه بينما فى توك «دودوبيرت» فى البرانس نماذج من الصلصال لذكر البيسون يطارد أنثاه أيضاً . وترك فى كهف الأخوة الثلاثة القريب ، نقش لرجل متنكر فى جلد حيوان . ونقشت أجمل الصور الجدلية على الإطلاق فى كهف التاميرا بشمال أسبانيا حيث وجدت الحوائط المزينة بالرسوم فى أغوار الكهف المظلمة ، وجدت بقايا مصابيح حجرية . وتشتمل هذه الرسوم أيضاً على علامات اصطلاحية أو تقليدية ، وربما كان بعضها تسجيلات معينة ، بينما الأخرى على رأى «برويل» تمثل الخيام التى كان يأوى

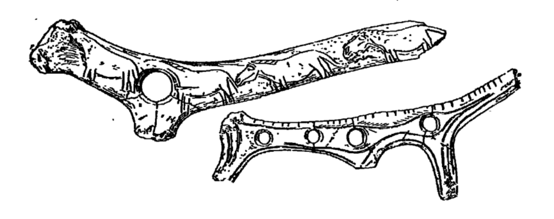


شكل (٢١)

ثور وحشى . من كهف لاسكو . لاحظ العصا ذات الشعب الثلاث
التى قد يكون لها معنى رمزى

إليها الناس فى الصيف ، وبعضها الآخر يمثل الحفر والمصايد، وربما ارتبطت القيم السحرية لهذه النقوش والصور بالقيم الفنية البحتة ، ومن الصعب ألا نتصور رسم الساحر المنقوش فى كهف الأخوة الثلاثة إلا على أنه يراد به تأثير سحرى معين . والألوان التى بقيت حتى الآن إما ألوان المغرة الحمراء المصنوعة من خام الحديد المعروف بحجر الدم (الهماتيت) ، أو المغرة الصفراء من

الليمونيت . أما اللون الأسود فمن ثانى أكسيد المنغنيز أو العظام المحروقة ، وكانت هذه الألوان تخلط بالدهن . ولا نعلم إن كانت التماثيل التشكيلية المحفورة فى الأصل ملونة أولا . ولكن وجد قليل من المغرة الحمراء فوق أحد تلك التماثيل الصغيرة ، وربما كانت للمغرة الحمراء صفة سحرية خاصة لأنها تشبه الدم فى لونها . وكان الفنان أحيانا يلجأ إلى رسم اصطلاحى فكان مثلا يرسم



شكل (٢٢)

آلات مزينة مصنوعة من عظام الرنة (مجدلية) يسميها الأثاريون عصى القيادة
(مصغرة تصغيراً شديداً)

عدداً كبيراً متتالية من القرون ليدل بها على قطيع ، ويكتفى برسم جسم الرانة بقليل من الحيوانات عند طرفى القطيع . وكانت بعض الصور تمثل ساقين فقط للحيوان . وبعد ذلك ظهرت أرجل الحيوان الأربعة مرسومة بمنظور ما . وكان الفنان أحيانا يشكل سطح الحيوان الحائط ليعطى تجسماً خاصا بشكل الحيوان الذى يرسمه ، كما كان أحيانا يظلل جسم الحيوان كله بخطوط دقيقة ، وأحياناً أخرى يعطيها لوناً له ظل معين لكى ينقل للناظر فكرة عن تقاطيع جسم الحيوان .

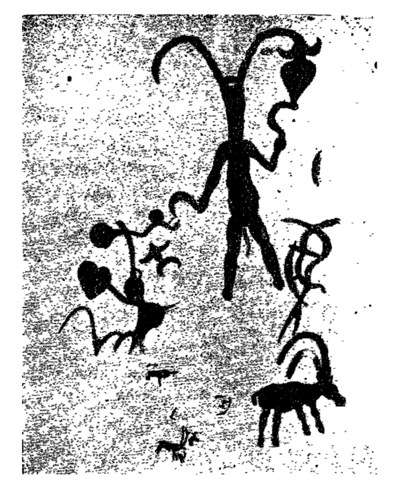
ومن معالم هذا الفن أيضاً أشكال اليد المنطبعة على الحائط ، وكانت الأيدى أحيانا تغمس فى مادة ملونة ثم تطبع فوق الحائط ، وفى أحايين كثيرة كانت بعض سلاميات اليد ناقصة فى طابعها ، وهذا يذكرنا بعادة لا تزال باقية بين نساء الاستراليين الأصلين حتى الوقت الحاضر .



شكل (٢٣)

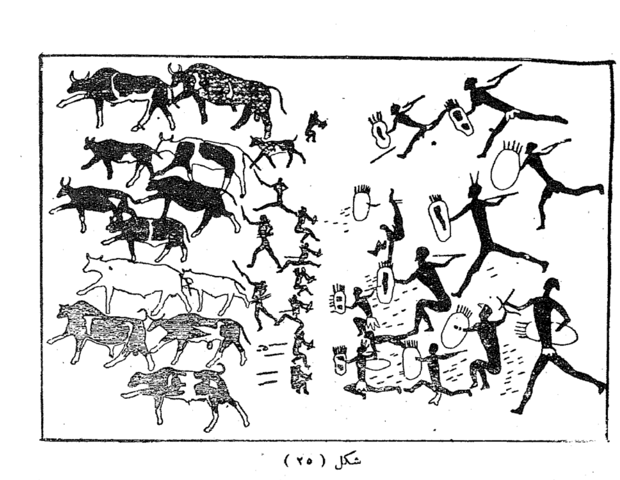
رسوم على الصخر ، لأحد رماة القوس ، ملونة بلون الأحمر الداكن ، كهف سالتادورا ، أسبانيا

واحتفظت الحظائر الشخصية التى كان الإنسان يأوى إليها والتى لا يحرم منها ضوء النهار تماماً بصور ملونة ساعد المناخ الجاف على الاحتفاظ بها حتى الآن فى جنوب أسبانيا . وهنا نلاحظ النزعة التقليدية أو الاصطلاحية واضحة تماماً بعكس النزعة الطبيعية التى تبدو فى صور كهف شمال أسبانيا وجنوب فرنسا وتمثل هذه الصور مناظر طبيعية عديدة ورسوما بشرية (شكل رقم ٢٥) معظمها كما يبدو الرجال يتسلقون شجرة لجمع العسل البرى ، أو يرمون



شكل (٢٤)
رسوم على الصخر من كهف لوس ليتيروس ، فيليز بلانكو ، الميريه ، أسبانيا

وعلاً بالقوس والنشاب أو يتحاربون ، وتمثل أيضاً مجموعة من النساء يرقصن حول شاب عار (أنظر أعلاه) . وكان حجم الشئ دليل أهميته أو تأكيده لدى الفنان فمثلا كانت السيقان تمثل بخطوط طويلة ورفيعة وفى أوضاع توحى بالسرعة ، وأحيانا كانت تمثل ضخمة جداً توحى بالقوة ، وهذا يذكرنا بالفن الذى يعبر عن القوة بتعدد الأيدى . وهناك رسوم شبيهة برسوم شرق أسبانيا وجدت فى أجزاء عديدة من إفريقية (شكل ٢٥) ، وبعضها يرجع عهده



شكل (٢٥)

رسوم البوشمن، هرمون ، جنوب إفريقيا ، تبين قبائل الكافر الزنوج تطارد الماشية التى سرقها البوشمن

وبعضها يرجع عهده إلى العصر الحجرى الحديث وما بعده حتى القرن الحالى ، ورسمها البوشمن فى جنوب غرب إفريقيا . وهناك نقوش على الصخرة وجدت إفريقيا وهى أكثر تمثيلاً للطبيعة وإن كان يبدو فى بعضها أحياناً ، تحريم تمثيل الحيوان والإنسان تمثيلا دقيقاً فظهر الفيل مثلا فى أحد النقوش بأقدام خلفية للكركدن . وقد بين « ريت لو » Riet Lowe أن فنون جنوب إفريقية ذات مميزات خاصة فنقوشها طبيعية ورسومها الملونة تقليدية أو اصطلاحية وقد تركت الأولى أى النقوش الطبيعية قرب الساحل ، بينما تركت الأخيرة فوق هضبة الفلد وفى كلاهارى ، وإن تقابلت المدرستان قرب نهر الأورنج وغرب نهر الفال وغيرهما من الأماكن . ولا ريب فى أن فنون جنوب أفريقيا مثل الرسوم الملونة فوق الصخر والنقش قد بدأتها شعوب كانت على علاقات حضارية بشعوب أواخر العصر الحجرى القديم فى شمال إفريقيا وأسبانيا، ويرى «فان ريت» لو أن النقش دخل جنوب إفريقية عن طريق الجانب الغربى لهضبة روديسيا ، وأن الرسوم الملونة على الصخر دخلتها عن طريق جانبها الشرقى .

وأن ظهور مدرستين فنيتين فى كل من جنوب أفريقيا وأوربا لأمر جدير بأن نوليه اهتماماً خاصاً . ونحن وإن كنا واثقين أن الرسوم الملونة الطبيعية فى كهوف أوربا قد تمت كلها فى أواخر العصر الحجرى القديم الذى انتهى فى فرنسا مع اعتدال المناخ وانتشار الغابات التى اضطرت الإنسان إلى الهجرة نحو سواحل البحر وشواطىء الأنهار ، إلا أننا لا نعرف حتى متى استمر هذا الفن فى شرق أسبانيا وأفريقية فى مواضع مختلفة كما أننا لا نعرف حتى متى استمر أسلوب الحياة الذى كان سائداً فى أواخر العصر الحجرى القديم ، وها قد ذكرنا أن هذا الأسلوب بشىء من التعديل قد استمر بين البوشمن حتى الوقت الحالى .

إضافة إلى الفصل الثانى

تنتمى كل البقايا البشرية التى وجدت مع آثار العصر الحجرى القديم الأعلى وما بعده إلى نوع الإنسان العاقل Homo Sapiens ، أى النوع البشرى الذى ينتمى إليه الإنسان الحالى وربما كانت بعض السلالات فى شرق آسيا تحمل قليلا من إنسان الصين Sinanthropus ، وبعض سلالات أوربا تحمل قليلا من صفات إنسان نياندرتال . ورغم هذا فالتشابه كبير بين جميع سلالات الإنسان الحالى مهما اختلفت فى لون البشرة أو شكل الوجه أو الأنف أو الرأس أو مجموعات الدم .

رغم هـــذا فإننا نستطيع أن نحكم من الميا كل العظمية بأن التنوع بين السلالات قد ظهر منذ أقدم الأزمنة ، وأن الظروف التى كان يعيش فيها الإنسان كانت تشجع على هذا التنوع . ولم تكن الجماعات البشرية الأولى كثيرة، وربما لم تزد أكبر الجماعات عـددا على خمسين شخصا ، وهذا رقم خطير من حيث إمكانية البحث عن الطعام ، ومعنى هذا أن الجماعة تظل تتزاوج فيما بينها داخل هذا العدد الصغير مما يؤدى إلى تحديد الخصوبة وإلى قلة عدد المواليد، بل وإلى ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال وإلى انخفاض أمـد الحياة لمن استطاع البقاء من هؤلاء الأطفال .

تميل التنوعات فى صفات السكان إلى أن تتأكد ، حيث تتضاعف فرص انتقالها بالوراثة من الوالدين معا ، ومن ثم تنتقل التنوعات المفيدة من جيل إلى جيل ، وتتأكد ولذلك تظهر قيمة الانتخاب الطبيعى فى نقل الصفات الحسنة بسرعة وتنميتها . وربما أثر الانتخاب الطبيعى فى عملية النمو . خصوصا إذا كانت نسبة وفيات الشبان عالية فمن المحتمل أن التغير فى عمليات النمو أدى إلى التنوع بين سلالات النوع البشرى . وقد شملت هذه التغييرات تقليل حجم الفك الأسفل من أوجه مختلفة هامة ، وتخفيف ثقل عضلات المضغ ، أو العضلات

التى تمسكه بالجمجمة ، وقد بينا فى الفصل الأول أن احتمال ظهور أنماط قريبة من الإنسان العاقل فى عصر البلايستوسين الأسفل والأوسط يؤيده الأدلة المستقاه من بقايا الجماجم التى عثر عليها فى سوانسكومب وكنت وفونتشفاد فى غرب فرنسا إلا أننا لا نستطيع أن نستنتج غير قليل من العلم من هذه البقايا المحطمة من الجماجم . ولم تظهر أدلة أقوى إلا فى أواخر عصر البلايستوسين بينما لا تدل بقايا البلايستوسين الأوسط إلا على وجود إنسان نياندرتال دون الإنسان العاقل فيما عدا بعض نماذج من جبل الكرمل التى يمكن أن تعتبر مرحلة وسطى بين الصفات النياندرتالية والصفات العاقلة ، أما عن البلايستوسين الأعلى فقد وجدت فى كهف «كرومانيون» بقرب فرنسا بقايا رجلين وامرأة واحدة تنتمى إلى أوائل الحضارة الأورنياسية . ووجدت فى «كومب كابل» (وهى أورنياسية أيضاً) بقايا رجل واحد يختلف إختلافاً كبيراً عن نماذج كرومانيون ، وتمتاز جمجمة كومب كابل بغطائها المرتفع وبحافتها الوسطى . وأقصى ارتفاع للجمجمة أكبر من أكثر عرض لها . وتمتاز بحافة كبيرة ضخمة بارزة بروزاً كبيراً فوق كل عين بينما لا توجد هذه الحافة العظيمة فى جمجمة كرومانيون (وأن كانت إحدى جماجمها تنتمى لرجل تحتفظ بحافة خفيفة) وجمجمة المرأة لا توجد بها هذه العظمة مطلقاً . وارتفاع أفضل عينات جماجم كرومانيون من القاعدة إلى قمة الجمجمة تتراوح بين ١٣٢ و ١٤٠ ملليمتراً وأقصى عرض لها يتراوح بين ١٤٩ و ١٥٢ ملليمتراً ، ومعنى هذا أن الارتفاع يقل كثيراً عن العرض . بينما أرقام جماجم كومب كابل المقابلة لها هى ١٣٧ و ١٣٤ (وإن كان هناك شىء من الشك حول الرقم الأخير) .

ووجه جماجم كرومانيون قصير وعريض ، ويمتاز بعظام الوجنتين الكبيرة الضخمة . ورغم استعراض عظام الوجنات فى جماجم كومب كابل فإنها تمتاز بالوجه الطويل ، وأنوف تلك الجماجم أعرض من أنوف جماجم كرومانيون كثيراً ، بينما تمتاز الأخيرة بالذقن الطويلة .

وأقصى عرض لأفضل جماجم كرومانيون تقدر نسبتها بحوالى ٧٣٫٧ إلى ٧٤٫٧٪ من أقصى طول لها . وهذه هى نسبتها الرأسية (مقاسة بالنسبة للجمجمة). وتقدر النسبة الرأسية للجمجمة كومب كابل بنحو ٦٧ ، وعلى أية حال فهى أقل من ٧٠ ، ويبلغ طول الهيكل العظمى الذى وجد فى كرومانيون ١٨٠٠ ملليمتر ، وهيكل كومب كابل طوله ١٥٥٠ ملليمتراً . وقد وجد فى كهف جريمالدى (كهف الأطفال) Giotes des Enfants على ساحل الرفييرا الفرنسية أربع جماجم بشرية قديمة ، ينتمى اثنان منها إلى مرحلة مبكرة جداً من البلايستوسين الأعلى : وهى بقايا امرأة عجوز وفتى لم يبلغ العشرين من عمره ومن ثم لا توجد فى جمجمتيهما الحافة العظمية الكبيرة التى تشرف على العينين فهى مميزات قلما توجد فى جماجم الإنسان العاقل إلا لدى الذكور البالغين . وتقل النسبة الرأسية فى هاتين الجمجمتين عن ٧٠ ، بينما الأنف عريض والذقن صغير . وتمتاز كلا منهما بالعظمة الوسطى الكبيرة ، وربما كان أقصى ارتفاع الجمجمة أكبر من أقصى عرضها. وهكذا كانت هاتان الجمجمتان أقرب إلى كومب كابل وكرومانيون ، رغم صفتها المميزة الخاصة .

إلا أن هياكل الذكور التى وجدت فى مستوى أعلى كهف الأطفال أقرب فى صفاتها إلى هياكل كرمانيون منها إلى هياكل كومب كابل . وربما أنطبق هذا على هيكل الأنثى الذى وجد فى المستوى العلوى لهذا الكهف . وكان هيكل الرجل طويلاً جداً ، ربما بلغ طوله ١٨٩٠ ملليمتراً (٦ أقدام و ٢,٥ بوصة) .

ووجد فى كهف بارما جراند فى جريمالدى أيضاً خمسة هياكل عظمية ، وتظهر فى جمجمتين منها ارتباط هام بين صفة الرأس المرتفع لدى جمجمة كومب كابل ، وبعض صفات الوجه على الأقل لدى إنسان كرومانيون ،

أما الجمجمة الثالثة فقد شوهدت بعد وفاة صاحبها تشويها كبيراً . والجمجمتان الأخيرتان أقرب فى صفاتها إلى جمجمة كومب كابل بوجه عام .

ويبدو أن الفرق بين جماجم كرومانيون وجماجم كومب كابل يكمن جزئياً فى طريقة اتصال عضلات الفك بالجمجمة ، فهى أقرب إلى أن تتصل بجانبى الجمجمة لدى إنسان كرومانيون . بينما هى أقرب إلى أعلى عظام الحجاجين لدى إنسان كومب كابل .

ولا بد لنا أن نشير إلى حقيقة هامة . وهى انتشار سلالة أقرب إلى طراز كومب كابل فى مناطق معينة ، كما سنذكر بتفصيل فى الوقت الحاضر . وهناك من يقول إن سلالة كبيرة من طراز كرومانيون لا تزال تعيش أيضاً فى قليل من المواضع ، وهذا سنذكره فيما بعد . كما سنذكر سلالات أخرى قديمة وهى جميعاً تخضع لتحفظ معين ، وهى أن عدد من يتمثل فيهم هذا الطراز قليل ، وأنها جميعاً قابلة لإعادة النظر على ضوء الكشوف التى تستجد . وفى الوقت نفسه فإن الشبه بين كومب كابل وبعض السلالات البشرية الحديثة تبرر إستعمال تعبير طراز أو سلالة كومب كابل مستقلة عن طراز أو سلالة كرومانيون .

قبل أن نستطرد فى مناقشة سلالات أخرى ظهرت فى المرحلة الأورنياسية (العصر الحجرى القديم) يجدر بنا أن نشير إلى البقايا التى تنتمى إلى أواخر هذا العصر . تنتمى إلى الحضارة الأورنيسية أو السولترية جمجمتان لرجلين وجدتا فى « بورنو » (Brno, Brünn) فى تشيكوسلوفاكيا . فهما يمتازان بارتفاع الجمجمة وعظام الحجاجين الغليظة ، وأنهما طويلتان جداً وضيقتان فهما إذن أقرب إلى طراز كومب كابل . وربما إنتست جمجمة «بروكس» Brüx فى تشيكوسلوفاكيا لهذا الطراز العام . وإن كان هناك شك يحيط بظروفها .

ووجدت جمجمة مرتفعة ولكنها لا تمتاز بعظام الحجاجين الغليظة . كما تنتمى جمجمة وجدت فى « بشدموست » Pschedmost (بتشيكوسلوفاكيا) لهذا الطراز العام فهى جمجمة رجل وجدت فى نفس المكان تمتاز بارتفاع الجمجمة والنسبة الرأسية البالغة الطول وعظام الحجاجين القوية بينما جمجمة أنثى وجدت فى نفس المكان تمتاز بارتفاع الجمجمة وأقل طولاً بطبيعة الحال من جمجمة الرجل، بينما وجدت جمجمة صبى أقرب فى صفاتها إلى طراز كرمانيون .

وتعتبر هيا كل بشدموست من أصحاب الحضارة السولترية . وتشبه إحدى جماجم « لاوتش » Lautsch (بتشيكوسلوفاكيا) كثيرا طراز كومب كابل وإن كانت جمجمتان أخريان تتصفان بالرأس المنخفض وعظام الحواجب الضخمة . وهذه أيضاً ترجع إلى العصر السولترى . أما عن الحضارة المجدلية فلدينا جمجمة تشبه طراز كومب كابل . وجدت فى « لوجيرى السفلى » Laugerie Basse بفرنسا ، وأخــــرى أقرب إلى طراز كروما نيون فى « لافى برونكيل » La Faye Bruniquel بفرنسا . وهناك أوجه شبه بين هيكل « شانسليد » (فرنسا) وهيكل كومب كابل ، إلا أنه يمتاز بالأنف الضيق جدا ، وله سمات خاصة مميزة، ويمكن أن يقارن باسكيمو اجرنيلندة . وربما تختلف صفات جمجمتين من سورد بفرنسا كثيراً عن طراز كرومانيون حسب ما استطعنا أن نحكم به من تفاصيل قليلة بقيت لنا منهما وجدت فى « أوبركاسل » بالقرب من بون ، وفى الراين الألمانى جمجمتان مرتفعتان تمتازان أيضاً بعظام الحجاجين الغليظة (وإن كانت أقل غلظة فى جمجمة الأنثى منها فى جمجمة الذكر) إلا أن وجهها قصير وعريض والقامة قصيرة ، ونلاحظ فى هـذه الحالة اقتراناً فى صفات طرازى كرومانيون وكومب كابل ، كما لاحظناه فى طبقات بارما جراندا وأوبركاسل ويحمل صفتهما معا . وإن كان الاحتمال قوياً فى صحة الفرض الأول إلا أنه تنقصنا دلائل أخرى تؤيده .

ووجدت فى سولترية (برغانديا) عينات أخرى عديدة لا تدخل ضمن

أى من هذين الطرازين . كما وجدت بقايا ثلاثة رجال وامرأتين فى طبقة قلنا إنها أورنياسية .

ويمتاز حجمها بأنها مرتفعة والوجه أقرب إلى الطول فى اثنتين منها ، ولكنه قصير عريض فى اثنتين منها آخرين (وليس لدينا معلومات عن الخامسة) وعلى كل فأقصى عرض لثلاث من هذه الجماجم يبلغ ٧٧,٩ — ٧٩,٣٪ من أقصى طول لها وهو ٧٧,٧ إلى ٨٣,٢ ٪ فى جمجمتى المرأتين . وربما كانت إحدى الجماجم الأنثوية أحدث زمنا من باقى الجماجم وفى طبقة سولترية أخرى ، غير معروف تاريخها بدقة وإن كانت تنتمى إلى إحدى فترات البلايستوسين إلا على حدث عهد الحضارة الأورنياسية . ووجدت جماجم ثمانية ذكور وامرأتين يمكن قياسها وبقايا عظمية أخرى . وتمتاز إحدى هذه الجماجم بالرأس الطويل الضيق ، وتمتاز أيضاً بأن أقصى ارتفاع لها أقل بكثير من أقصى عرضها وهى فى هذا تتفق مع جمجمة كرومانيون ؛ ولكنها ذات جبهة أعلى وأقل عرضا . كما تمتاز جماجم ثلاثة ذكور منها بالرأس الطويل الضيق وبارتفاع الجمجمة الذى يساوى أو يزيد على أقصى عرضها وبعظام الحجاجين البارزين فى اثنين منهما . أما الجبهة فأميل إلى الضيق والصغر وهى على العموم تشبه صفات إنسان كومب كابل فى نواح كثيرة .

وتمتاز جماجم أربعة ذكور منها أيضا بالنسبة الرأسية ٧٩—٨٣,٢ أى بالرأس القصير مثل بعض الجماجم الأورنياسية فى هذا الموضع .

ووجد فى « أوندورى » Oundory على نهر الفولجا بروسيا جمجمتان ضيقتان جداً تمتازان بعظام الحجاجين البارزة الغليظة والجبهة المتقهقرة ، وقد قارنهما بأفلوف بجمجمة كاومب كابل ، وكانت إحداهما صغيرة جداً وربما كان هذا راجعاً إلى أنها جمجمة أنثى بالغة .

وربما كان هيكل «أسيلار» (بالصحراء الكبرى) الذى يمتاز بالقامة الطويلة والأنف العريض والرأس الطويل أحد أسلاف البانتو . ومن ناحية أخرى ورغم أن هيكل «أولدواى» Oldoway (تنجانيقا) والمنتيرا (كينيا) تمتاز بالطول والرأس الطويل إلا نها ذات أنوف ضيقة جداً وجمجمة بوسكوب (من جنوب أفريقية) طويلة جداً وضخمة جداً ، وربما كانت تمت إلى جماجم « فش هويك » Fish Hoek (قرب مدينة كيبتون) بصلة . كما تمتاز جمجمة «فلورينسباد» بالضخامة وبعظام الحجاجين الغليظة ويضيق ما بين تجويفى العين . وتوضع هذه الجماجم الأفريقية جميعاً فى أواخر العصر الحجرى القديم بصفة مبدئية . وقريب منها — من حيث التاريخ — الجماجم المستطيلة التى وجدت فى طبقات كهف «تشوكوتين» العليا بالقرب من بين .

ولا رتب أن جمجمتى «وادجاك» WadJak (فى جاوة) تنتميان إلى الإنسان العاقل ، وهما تمتازان بالضخامة وبعظام الحجاجين الغليظة وبالجبهة المتقهقرة . كما تمتاز جمجمتان أخريان وجدتا فى كوهونا Cohuna (أستراليا) بعظام الحجاجين الغليظة والجبهة المتقهقرة وعظام غطائها الغليظ والرأس الضيق المستطيل . وربما لم تكن جمجمة «تالجاى» Talgai (فى إستراليا) وربما أمكن إرجاع هياكل أمريكا القديمة إلى أواخر عصر البلايستوسينى ، فقد عثر على هيكل منها فى « فولسوم » Folsom (نيومكسكو) ، واثنين فى منسوتا وآخر فى وادى المكسيك (تبكسبان Tepexpan) وقد أمكن تقدير عمر جمجمة بطريقة الكربون المشع ١٤ ، التى ذكرت فى الفصل الخامس .

وقد عثر على كمية من الجماجم فى «أوفنيت» Ofnet بأقاريا ، ترجع إلى ما يسمى بأعقاب العصر الحجرى القديم ، وقد جمعت مقاييس من أربع عشرة جمجمة بالغة ، منها عشر لأناث وأربع لذكور ، وتمتاز جماجم رجلين وإمرأة منها بالرأس الطويل الضيق والوجه القصير العريض وبهذا تقترب من جماجم أوبركاسل وبرما جراند التى سبق أن ذكرناها . وتمتاز جمجمة أحد الذكور

بعظام الحجاجين الغليظة والنسبة الرأسية لجمجمتي رجلين آخرين تتراوح بين ٧٨,٦ — ٧٨,٧ ، بينما هي في جماجم النساء التسع الأخريات تتراوح بين ٧٥,٧ — ٧٨,٩ ، وهي جميعاً فيما عدا واحدة فقط تمتاز بأن أقصى ارتفاعها أقل بكثير من أقصى عرضها . ووجوه خمس نساء من هذه التسع عريضة ، وعلى العموم فهذه المجموعة يمكن أن تقارن بمجموعة سولترية .

ووجدت أيضاً جماجم في «فورفوز» ببلجيكا و «ناجي ساب» في المجر ، «وموجيم» بالبرتغال و «فال دي أريرو» ، و«روما نيللي» ، و«أولو» في إيطاليا ، وهي جميعاً تقترب من مجموعة سولترية ، فيما عدا جمجمة امرأة واحدة وجدت في موجيم تمتاز بأنها ، ضيقة ما بين تجويفي العينين ، بارزة الفك أي يمكن أن تقارن بمجموعة كومب كابل ، وبصفة خاصة بجمجمة المرأة التي وجدت في الطبقة السفلى لكهف الأطفال بجريما لدي . وعلى هذا يمكن القول بصفة عامة إن المنطقة التي تحف بجبال الألب ، فيما عدا الرفييرا ، تمتاز بقاياها البشرية التي ترجع إلى أواخر العصر الحجري القديم (رغم أن كثيراً منها لم يعين تاريخه بعد) ، بالجماجم ذات المقاييس المتوسطة العليا أو العريضة عامة ، بينما جماجم غرب فرنسا الرفييرا طويلة غالباً أي أن بعضها قريب من كرومانيون والأخرى من كومب كابل .

وهناك جماجم بريطانية ترجع إلى عصر البلايستوسين الأعلى أو أعقاب العصر الحجري القديم رغم أن كثيراً منها لم يعين تاريخه بعد . وتوضح جمجمة «شيدار» Cheddar البالغة الطول ، والضيق ، والمرتفعة القمة ، وجمجمة «بيكرزهول» ذات عظام الحجاجين الغليظة في البلايستوسين الأعلى . كما وجدت جمجمة أخرى تمتاز بالطول والضيق والارتفاع وعظام الحجاجين الغليظة في «لانجويث» ، قد ظلت أمداً طويلاً مجهولة التاريخ ،

أن «لزلى أرمسترونج» وجد جمجمة أنثى تشبهها عامة فى رواسب البلايستوسين الأعلى فى «كروزويل» ، ومن هذا يمكن أن نستنتج أن جمجمة لانجويت ترجع إلى البلايستوسين الأعلى . وتمتاز جمجمة «هالنج» التى ترجع البلايستوسين الأعلى أيضاً بأنها مرتفعة كذلك ولكنها ليست فى ضيق الجماجم الأخرى التى ذكرناها . ونذكر فى هذا الصدد جمجمة رجل وجدت فى «سيسبرى» وهى أيضاً مرتفعة ، وربما كانت تنتمى إلى البلايستوسين الأعلى أو أعقاب العصر الحجرى القديم الذى تنتمى إليه أيضاً جمجمتى رجلين وجدتا فى «أفيلنزهول» فى منديب، وهما أيضاً ضيقتان وأقرب إلى الإرتفاع ، ووجد فى نفس الكهف جمجمة رجل وجمجمة امرأة أقرب فى مقاييسها إلى مقاييس جماجم سولترية وترجع إلى نفس الفترة جماجم ثلاث وجدت فى كهف «ماكرثر» فى أوبان ، وتنتمى جمجمتان منها لشابين إحداهما أقرب من اكتمال النمو ، أما الثالثة فكانت لرجل بالغ وهى طويلة جدا ضيقة ومرتفعة ذات عظام غليظة فوق الحجاجين .

من هذا نستنتج بصفة عامة أهمية طراز كومب كابل فى التراث البريطانى. ولا تزال صفة الرأس الطويل واسعة الانتشار فى الجزر البريطانية ، بل أن النسبة الرأسية فى بعض أنحائها قد تنخفض عن ٧٣ ، ولا سيما فى أجزائها البعيدة قديمة العهد بالسكان والتى كانت تلجأ إلى التزاوج الداخلى . وهناك مناطق أخرى تمتاز بالمبالغة فى طول الرأس والحواجب الغليظة الواضحة والأنف العريض نسبياً وعظام الصدغ العريضة والفم الكبير ، وقد لاحظ هذا «كوليفيون» Collignon منذ ستين عاماً فى الدردونى بفرنسا . وأعلن أنه وجد طراز كرومانيون فى ذلك الإقليم . ووصف هذا الطراز «كوستا دافرنزا» فى «تراس أوس مونتيس» ، شمال شرق البرتغال كما وصفه الدكتور «دكورث» فى «ساردينيا» ، ويبدو أنه من سمات سكان بعض الواحات فى شمال

أفريقيا والصحراء ، إلا أنه تنقصنا التفاصيل الكافية على ذلك وقد لاحظ «بروم» Broom أهمية هذا الطراز أيضاً فى «كورانا» بجنوب أفريقيا ، كما قامت مسز ملوارد[1] بدراسة خاصة عن هذا الطراز ومن وجهة نظر النحات فى بعض جماعات الهند التى تسكن الغابات . وتبين المجموعة الاسترالية الكبيرة الموجودة فى وشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية ، والتى رتبها الدكتور «هردلشكا» Hrdlicika نسبة كبيرة من الجماجم تتصف بالمبالغة فى الطول وما لرأس المرتفع وبعظام الحواجب البارزة فى الذكور ، والأسنان الكبيرة والفم الكبير وهذا الطراز معروف أيضاً بين الأينو ، وهم سكان شمال اليابان الذين ينتمون إلى المجموعة المغولية،وهذاأيضاً كثير بين إسكيموا جرينلندة وبين البوتوكود وفى شرق البرازيل ، ويظهر أيضاً بين الفجويين Fuegians ويتمثل كذلك فى مجموعات الجماجم التى جمعت من أجزاء مختلفة من أمريكا وترجع إلى العصر السابق للكشف الكلومبي للبلاد .

وإن ارتباط شكل الجمجمة هذا بأنماط مختلفة من لون البشرة أو شكل الشعر ليدل على أن وراثة شكل الجمجمة لا علاقة لها بوراثة لون البشرة أو شكل الشعر ، وأن تقسيم النوع البشرى إلى سلالات كما نعرفها فى الوقت الحاضر ليست له إلا قيمة وراثية متواضعة .

ووجد هذا الطراز فى جنوب أفريقية وفى إستراليا وأجزاء من العالم الجديد تحف بأطرافها التى يمكن أن يدخل منها الإنسان ، أى ببحر برنج والبحر الألوتى وفى أجزاء نائية من غرب أوروبا توحى بأنه طراز عريق ذو توزيع جغرافى هامشى غير متصل الحلقات .

---

(1) Milward, Marguerite, Artist in Unknowin India.

ويمكن مقارنة صفات جماجم سوانزية وأفنيت وغيرها ، العريضة حيث تزيد نسبتها الرأسية على ٧٨ ، بل و ٨٠ بصفات الرأس العريض الذى يتميز به سكان جبال الألب وما يحف بها فى الوقت الحاضر . وتشبه قواطع إنسان الصين التى وجدت فى تشوكين بقواطع الصينيين الحاليين وهذا يوحى . بأن إنسان الصين Sinanthropus ربما ساهم فى ميزات الشرقيين الحديثين ، كما ساهم إنسان نياندرتال فى صفات الأوروبيين الحديثين .

ولا زلنا فى حاجة إلى مزيد من الأدلة ، إلا أنه من المحتمل جدا أن ترجع بعض صفات الإنسان الحديث إلى صفات صاحبت حضارة العصر الحجرى القديم على الأقل فى بعض الأقاليم .

●●●●●●●●●●●●●

الفصل الثالث

أعقاب العصر الحجرى القديم

أضيف الصيد والجمع والالتقاط كوسيلة للحياة أثناء العصر الحجرى القديم . أما الخطوة الكبرى التالية وهى الزراعة فهى لم تكن قد ظهرت بعد . إلا أن عصر الصيد والجمع الذهبى فى أوربا وأفريقيا على الأقل قد تلاه — كما استنتج بعض الكتاب فترة انحطاط نظراً لتغير ظروف البيئة . فقد مرت فترة تقدر بآلاف السنين كانت بعض الجماعات الإنسانية خلالها تحوم حول أوطانها القديمة وبعضها خرج من تلك الأوطان إلى أماكن بعيدة بينما تعلم البعض الحياة فى المناطق الأكثر جفافاً من الغابات ثم بالتدريج سار نحو تعلم فن الزراعة فى أواخر العصر وانتشروا فى كل مكان حاملين معهم الثورة الثانية الكبرى فى حياة الإنسانية .

كان من أثر تقهقر الجليد من جبال الألب وشمال أوربا وكذلك بعض سلاسل وسط آسيا أن ارتفعت درجات حرارة الصيف فذاب قدر كبير من الثلج وانطلقت مياهها إلا أن برد الشتاء ظل عاملا هاماً إلى أن تقلصت مساحة أعظمية الجليد من شمال أوربا وجلبت أعاصير البحار الأمطار إلى غرب أوربا واندفعت من المحيط نحو الداخل بعد أن كانت الأعاصير تتحول نحو الجنوب لتسقط معظم أمطارها فى حوض البحر المتوسط وتسقط ما يبقى بعد ذلك فوق غرب الصحراء الكبرى وسببت الظروف المناخية الجديدة ازدياد جفاف الصحراء الكبرى وشمال أفريقيا ، فدفعت سكانها للهجرة نحو الشمال أو الجنوب أو نحو وادى النيل كما دفعت نفس الظروف سكان شبه جزيرة العرب نحو سوريا من ناحية أو نحو العراق من ناحية أخرى ومن ثم أصبح النيل والفرات وربما بعض المناطق المجاورة أيضاً بعد ذلك بوقت طويل أوطاناً أولى ، بل الأوطان الأولى لفن زراعة الحبوب بعد أن كانت قبل ذلك مراتع للصيد والجمع الضئيلين عدة قرون وكان الإنسان يصيد كثيراً من الحيوانات التى التجأت إلى مستنقعات السهول الفيضية ، كما كان يجمع ثمار النباتات التى كانت تنمو فى هذه السهول .

وإذا تذكرنا كيف كانت المناطق النهرية ضيقة ، لأمكن لنا أن نقدر أنها لم تكن بكافية كى تمد عدداً كبيراً من قطعان الحيوانات بالغذاء كما لم تكن تكفى سوى عدد ضئيل من السكان وربما كان هؤلاء الصيادون الجامعون يعيشون على هامش أودية الأنهار وربما استطعنا أن نتصور نساءهم وهن يتعلمن كيف يعنين بالنباتات التى تمدهم بالحبوب ، ومن ثم يستطعن المخاطرة إلى السهل الفيضى عندما ينخفض مستوى الفيضان ، ولم يتعلم الإنسان تهيئة الحقول إلا بعد تعلم فن الزراعة وهذا احتاج لكثير من الخبرة وكانت له نتائج عديدة نتحدث عنها فى الفصول القادمة . وسنقتصر فى هذا الفصل على تلك الأقاليم التى لم تتحول من الصيد والجمع والالتقاط إلى الزراعة إلا بعد أن دخلتها الزراعة من أحد أوطانها القديمة فى وقت متأخر جداً .

ربما بدأ تقهقر الجليد فى أوربا من جنوب السويد ١٢٠٠٠ — ١١٠٠٠ ق.م. ولكنه لم يكن يصل إلى المرحلة التى انقسم فيها الجليد إلى كتلتين إحداهما شمال اسكنديناوة والأخرى جنوبها الغربى وذلك حوالى ٧٠٠٠ ق . م حسب تقديرات ليدل الذى اتبع طريقة دى جير فى حساب رقائق الطمى الدقيقة Varves التى كان الجليد يرسبها كل صيف عند حافاته النهائية . وربما زاد متوسط درجة الحرارة فى أدفأ الشهور على عشرة درجات (١٠°م) فى جنوب غرب البحر البلطى إلا أن الشتاء ظل بارداً وكان الغطاء النباتى يتكون من غابات الصنوبر والبتولا والصفصاف . وكانت اسكنديناوة ترتفع ببطء بعد أن تخففت من أثقال الجليد عندما ذاب وملأ البحر البلطى الذى كان متصلا بالمحيط أثناء فترة يولديا بالماء العذب وحولته إلى بحيرة عذبة فى فترة انكيلوس Ancylus . ثم أدت زيادة ذوبان الجليد إلى أن يتصل البحر باليابس مرة أخرى ، فاتصلت مياه البحر البلطى بمياه بحر الشمال مرة أخرى إذ غمرتها مياه البحيرة السويدية السابقة — وبهذا تدخل فى الفترة المعتدلة الدافئة المعروفة بالفترة الأطلسية Atlantic ، وتشمل هذه الفترة ما عرف فى تاريخ البحر

البلطى بفترة الليقورينا لأن مياه البحر كانت من الدفء بحيث تسمح لقوقعة ليتورينا بالحياة فيها ولا بد وأن درجات الحرارة فى الصيف حينذاك كانت أعلى من نظيراتها فى الوقت الحاضر كما بين ذلك أول مرة بريجار Praeger فى إيرلاندة ولم يكن انتشار الغابات من مصلحة الإنسان فى بادىء الأمر فاضطر إلى البحث عن طعامه على شواطىء البحار أو من الأنهار والبحيرات وربما لجأ إلى كهوف الجروف الصخرية يتخذ منها مأوى لاسيما فى الشتاء وربما لجأ إلى التلال المرتفعة فوق مستوى الغابة ومنها يهبط مغيراً على أطرافها بحثاً عن الطعام . إلا أنه كان يقف عاجزاً أمام الغابة ، فغابة الصنوبر مكان مظلم موحش لا ينمو فى أرضها إلا النذر القليل مما يستطيع أن يجمعه لغذائه إلا أن حوافى الجليد كانت تذوب فى الصيف فينمو محلها الكلأ الذى يجتذب قطعان الرنة وصياديها وهناك من البراهين على حدوث هجرات موسمية بين هؤلاء الصيادين فقد وجد شفانتز Schwantes عدداً من الأرضيات المتتابعة فى دوفنزى Duvenses فى جنوب ألمانيا وقد غطيت أجزاء من هذه الأرضيات بالرمل لاستعمالها كمواقد ، كما غطيت أجزاء أخرى بلحاء الخشب ويبدو أن هذا المكان كان مأوى لإحدى الجماعات تهاجر إليه عاماً بعد عام فى فصل الصيف .

ويقول كلارك أن الأمتعة الخفيفة مثل الخيام كانت تستعمل صيفاً فى أواخر العصر الحجرى القديم وأعقابه وربما كان الإنسان يلجأ إلى الكهوف أو إلى منازل من الطين مبنية فوق حجرات تحت الأرض فى فصل الشتاء . وربما وجد طلاب القصص الشعبية هنا تفسيراً لاختفاء الجنيات تحت الأرض أو لمنازل الجن تحت الأرض ، أو للسحر العجيب المنبعث من تحت الثرى . كما يجب أن نتذكر هنا منازل عصر الحديد التى كانت تحت الأرض . ولدينا أمثلة حديثة عديدة من شمال شرق سيبريا وشمال أمريكا الشمالية لحالات تغير فيها الجماعات البشرية أماكن سكناها من الخيام إلى منازل الطين أو الحجارة أو الثلج . وربما أدى بناء المنازل التى تستعمل هياكل من الخشب

تملأ بالطين إلى بناء منازل من اللبن من ناحية أو من الخشب واللبن وطلاء الطين (كمنازل العصور الوسطى من ناحية أخرى) .

وربما استمرت حياة الصيادين الذين كانوا يستعملون أدوات صوانية صغيرة ويرسمون حوائط ملاجئهم الصخرية فى شمال أسبانيا ، بينما وجدت بقايا أكوام القواقع البحرية التى تركها السكان الذين كانوا يستعملون الآلات الصوانية الصغيرة أيضاً فى البرتغال وتوجد فى ساحل استرياس بشمال أسبانيا وفى بعض كهوف جنوب فرنسا حضارة تسمى بالأزيلية Azilian وكان أصحابها يستخدمون آلات صوانية صغيرة جداً ، كما كانوا يستخدمون المكاشط وكانوا يستخدمون قرون الوعل بعد تشكيلها فى هيئة خطاطيف كأسلحة وكان لبعض هذه الأسلحة ثقوب صغيرة . ووجدت فى بعض الكهوف الفرنسية وخصوصاً فى «مادازيل» Masd'Azil (التى أطلق إسمها على تلك الحضارة) حصى مزين بعلامات ، بلغ الحدس ببعض الكتاب أن ظنها حروفا أبجدية ، وجمع عدد كبير من هذا الحصى من شمال أسبانيا وقد أزال المطر طلاء النقوش من بعضها وكان الأزيليون يجمعون القواقع من شمال أسبانيا ، ومنها قوقعة ليتورينا ايتوريا Litorina Litorea التى وجدت بكثرة مما يدل على مناخ ألطف من مناخ العصور الحديثة فى هذه العروض ويجب أن نلاحظ العناية بأن وجود هذه القوقعة فى البحر البلطى يدل على فترة بحرية حيث كانت تسود الظروف الجزرية أى فترة دافئة المناخ نسبياً بالنسبة للعروض العليا . وقد وصفت آثار الحضارة الأزيلية التى تمتاز بالخطاطيف ، ومن كهف فكتوريا فى ستل Settle بيوركشر ومن كهف ماكارثر بالقرب من أوبان ومن بوباش فى دروم بفرنسا . ومن بيرسيك بالقرب من بازل بسويسرة ووجد فى الكهفين الآخريين حصى ملون كما وجدت الخطاطيف والمكاشط والآلات الصوانية الصغيرة فى مواضع عديدة من وسط أوربا غير أنه من الصعب إدراجها فى الحضارة الأزيلية .

قبل أن نعالج مناطق أخرى علينـــا أن نشير إلى تطور حضارى آخر فى شمال أسبانيا يعرف بالحضارة الأستورية Asturian ووجدت بقاياها فى مواضع عديدة — فوق بقايا الحضارة الأزيلية وهى أحدث منها عهداً ، وانتشرت إلى الغرب فربما انتشرت فوق شمال أسبانيا وجنوب فرنسا ولا يبدو أنها متطورة مباشرة من الحضارة الأزيلية أو الحضارة الترونوازية التى سندرسها فيما بعد . إلا أن بعض الحصى كان يشظى لكى تصنع حافات خشبية ، بينما تترك نهايتها للإمساك بها . ويظن « أوبرماير » أن هذه الآلات الصوانية كانت تستخدم فى فصل القواقع البحرية مثل قوقعة تروخوس لينا توس Trochus Lineatus وهى تدل على مناخ أدفأ من المناخ الذى تدل عليه قوقعة ليتورينا ليتوريا السائدة فى الحضارة الأزيلية . ولم تترك هذه الحضارة إلا قليلا من الآلات المصنوعة من العظام أو من قرون الوعل . ومن المحتمل أن الفترة الأزيلية ذات المناخ اللطيف فى أسبانيا كانت تتفق بصفة عامة مع فترة يولديا الباردة فى شمال أوربا وأن الفترة الأستورية جاءت بعد ذلك بوقت غير قصير ، ربما وقت تكوين بحر ليتورينافى الشمال. وربما بدأ العصر الأول حوالى ٨٠٠٠ ق . م . وبدأ الثانى حوالى ٤٠٠٠ ق.م والواقع أنه لا يمكن تحديد عمر أى من هذين العصرين ولكننا قدرنا هذين التاريخين لنبين مقدار طول الفترة التى أعقبت العصر الحجرى القديم .

وجدت فى كثير من تلال فرنسا ووسط أوربا قطع من الصوان ، سميت الصغيره جداً منهـا بالحضارة الترونوازية نسـبة إلى « لافير آن ترونواز » La Fère-en-Tardenois بفرنسا وإذا وجدت الة تشبه الخطاف مصنوعة من قرون الوعل فإنها تسمى أزيلية ترونوازية ووجدت الآلات التردنوازية الصوانية الصغيرة فى أماكن مختلفة على ارتفاع ١٠٠٠ قدم من سفوح البنين فى بريطانيا وقد شرح بكلى كهوف بدجرلاكس التى كان ينحتها أصحاب تلك الحضارة فى الصخر ويغطونها بفروع الأشجار ويأوون إليها فى فصل الصيف

وكان أصحاب تلك الحضارة الترونوازية يعيشون أيضاً فى كهوف كرزول وهذه الحضارة التى تمتاز بآلاتها الصغيرة جداً ، واسعة الانتشار فى القارة الأوربية وانتشرت ببطء نحو الشمال .

والغريب أن آثار تلك الحضارة متوفرة فى الركامات الجليدية الرملية فى بولندة ، بينما هى قليلة الانتشار فى مناطق اللويس ، رغم أن مناطق اللويس لم تكن كثيفة الغابات . وربما كان مناطق اللويس غزيرة الأشجار فى مراحل تكوينه الأولى ، أى فى أعقاب الجليد مباشرة ، ثم قطع الإنسان تلك الأشجار ولم تنم مرة أخرى بعد الفترة الأطلسية .

يبدو أن أصحاب تلك الحضارات كانوا من الصيادين ، ويبدو أنهم ظلوا فى مواضعهم الأولى التى لم تكن ذات قيمة فى الزراعة ، حتى بعد أن تعلموا هذا الفن ، ومن ثم كان من الخطر محاولة تقدير عمر آثارهم وتعتبر الآلات الصوانية القزمية من معالم الآثار الهندية وهذا دليل على أن تلك الحضارة التى نشأت فى جنوب منطقة حضارات ماجلموز ومولليرك وارتبلة Maglemose-Mullerup-Ertebölle فى شمال غرب أوربا حيث عمرت طويلا، وقد امتدت شرقاً إلى الأقاليم الدفيئة ، وتدل صناعات ولتون فى أفريقية على انتشار آخر لها جنوباً بشرق هذه القارة .

وهناك حضارة أخرى واسعة الانتشار فى السهل الأوربى ، وصفها شفانتز ، تمتاز بآلات مصنوعة من الشظايا الصوانية وأهم مايميز هذه الحضارة الآت ذات العنق المدبب ، وربما كان هذا ميراثا عن سهام فونت روبرت ، فى العصر الحجرى القديم الأعلى ، وربما كان هــذا تطوراً متوازياً فى الحضارتين أملته ضرورة تثبيت تلك السهام فى القنا — وتمتاز أيضاً بصوان صغير مختلف الأنواع ، وقد اتفق الباحثون على أن هذه الحضارة قد اختلطت بالحضارة الترونوازية وفقدت صفتها إلا فى المناطق القطبية الشمالية .

وإن امتزاج تلك الحضارة بغيرها يؤيد احتمال اقتباسها عناصر حضارية من حضارات سابقة ، فهي لم تبتدع جديداً ، وربما كان أصحاب تلك الحضارة قد حملوا ميراث العصر الحجرى القديم وخلطوا به ما عرفوه من الحضارة التروندوازية مع مرور الزمن . وقد انتشرت السهام ذات العنق المدبب إلى المنطقة القطبية حيث لعبت دوراً هاماً فى حضاراتها الأولى .

وقد وجدت فى مستنقعات الدنمارك وجنوب السويد وشمال غرب ألمانيا قرون الرنة المصنوعة على شكل فئوس وأزاميل ، ويقول شفانتز أن هذه الفئوس العظيمة هى أقدم فئوس من نوعها فى العالم ، وأنها سبقت الفئوس الصوانية ، وبالتالى سبقت فئوس العصر الحجرى الحديث المصقولة . وهذا كله حدس إلى حد كبير ، وقد اطلق على هذه الآلات المصنوعة من القرون اسم حضارة لنجبى Lyngby ، ولكننا لا نعلم إلا القليل عن الصوان الذى رافقها .

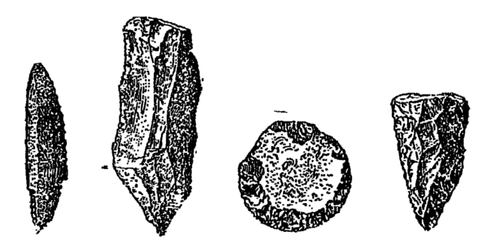
ثم حدث تغير شامل فى الظروف الطبيعية ، عندما غزت غابات البلوط والبندق والحور والدردار أرض الشمال ، أى عندما اعتدلت درجة حرارة الشتاء كثيراً ، وعندما ازداد دفء الصيف ، وعندما هبطت الأرض هبوطاً ضئيلا فى حواف شبه جزيرة إسكنديناوة الجنوبية . وقد اجتذبت حدود الغابة حيوانات الخنزير والكلاب والغزال والماشية الوحشية ، فأصبح الصيد عملية مجزية لمن يستطيع أن يرتاد حافة الغابة دون أن يترك التلال الرملية الجافة التى لجأ إليها الإنسان وسط أقاليم المستنقعات ودون أن يترك السهول الفيضية التى تحف بالأنهار أو البحيرات ، أو شواطىء البحر ، على الأقل فترة من الزمن . وكان عدد السكان صغيراً جداً ، مما يلائم حياة الصيد فى مثل هذه البيئة وقد تسلح الإنسان حينذاك بالفئوس لقطع الأحراج ، وكان سلاح قرن الوعل ذى الحافة الحادة ضرورياً . ولكننا نشك فى أن كان الإنسان —

فى هذه المرحلة — قد استطاع أن يتوغل فى غابة البلوط الرطبة (Queraus robur penduncculatus)
وكان من الممكن لديه أن يغير نصل هذا السلاح الصوانى من وقت إلى آخر ، كما أنه كان يستخدم الصوان فى صنع مكاشط صغيرة إلا أن الآلات الصغيرة كانت أكثر أدوات الصوان شيوعاً فى ذلك الحين ، وهى ذات حافة حادة وأخرى سميكة مثل الآلات الترونوازية ، وكان الخرز البالغ فى الصغر والدقة أحد معالم هذه الحضارة فى دوفنسى وقد وصف ماثياسين Mathiassen أحد أوجه هذه الحضارة المبكرة من موضع بالقرب من بعض الجداول المائية فى جتلند ، ولاسيما من جودينا Gudenaa وهذه تمتاز برءوس سهام ذات أشكال مثلثة ، كما وجد شفانتز حضارات متشابهة لها فى شلزويج وهو لشتاين . وتنتشر حضارة ماجلموز عامة فى زيلاند الدنمركية وفى سكانيا ، وفونن Fünen Fgen فى جتلند وشمال غرب ألمانيا وبالقرب من فستولا الأسفل وهى تستعمل آلات صوانية صغيرة حادة من جانب واحد فقط ، وفئوس صوانية ذات حافة قاطعة متعامدة مع محورها الرئيسى ، وبعض هذه الفئوس — ولا سيما الضخمة منها — مصنوعة من النواة ، بينما البعض الآخر الصغير مصنوع من الشظايا . وقد وجدت فى زيلاند (دنمارك) عينات جيدة من الصوان الدقيق ، وهى تشبه آلات ترندواز القريبة فى بعض صفاتها ، ولا ريب أنها مشتقة منها ، وربما كانت قطع الصوان هذه تركب فى آلات من العظم أو الخشب ، إلا أنه ليس لدينا دليل مباشر على هذا . ومن ميزاتها أيضاً المكاشط المصنوعة من الشظايا ، وكانت قطع الحصى تثقب من الجانبين ليمكن إمساكها بالأصابع ، وكانت الفئوس مصقولة وذات ثقب ، ربما لكى تثبت فى عصا . وربما سبق صنع هذه الآلات الحجرية تجارب أجريت على قرون الوعل كما وجدت مجاديف خشبية ، وربما دل هذا على أن الخشب كان واسع الانتشار .

وربما لم تكن آلات الصوان المصنوعة من النواة ذات قيمة فى قطع

الأخشاب ، لأن حافاتها غير المصقولة لا تصلح فى ذلك ، إلا أن الفأس المصقولة تصلح كاسفين يدق فى جذع الشجرة . وقد تحرر الإنسان — بعد أن تعلم فن صقل الحجر — من الاعتماد على أنواع قليلة من الصخر (وهى الصوان والنشرت ، والأبسديان ، والويوليت وبعض الكوارتز) يستطيع أن يشظيها ، فاستطاع أن يستخدم الكوارتزيت والنيس أيضاً . ولا يزال الباحثون مختلفين فيما إن كان فن صقل الصخر قد دخل شمال غرب أوربا من الخارج أولا . على أن فكرة الصقل هذه بسيطة فى حد ذاتها ومن الممكن أن يكون الإنسان القديم قد توصل إلى إدراك أهمية صقل الحجارة فى قطع الأشجار . وربما انتقلت هذه الفكرة من إقليم تغطيه الغابات .

وكانت الفئوس المصنوعة من قرون الوعل وغيرها من الآلات تزين بخطوط محفورة ، أو ثقوب صغيرة ، ربما كانت صوراً تقليدية أو اصطلاحية لرسم جسم الإنسان أو الحيوان ، وربما شكل القرن كله على هيئة رأس حيوان . وقد وجدت فى مولليروب وسفاير دبورج وهو لجارد فى فونن رئوس سهام مسننة مصنوعة من العظام ، وهذا وجه متأخر متخصص لهذه الحضارة .



شكل (٢٩)
آلات ماجلموزية

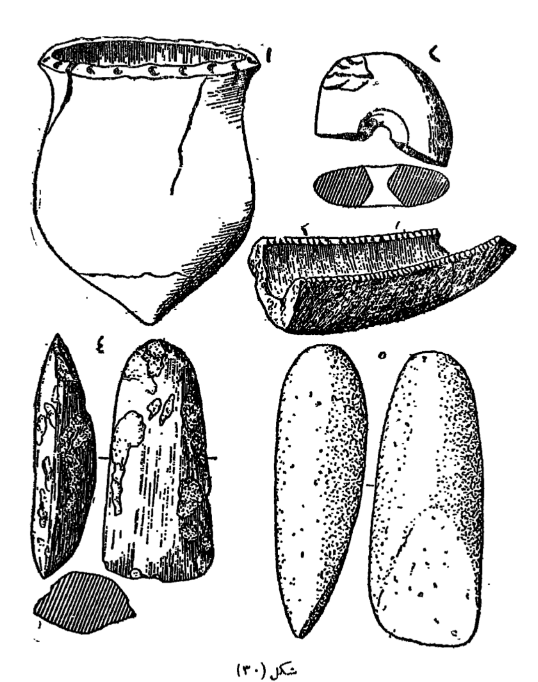
انتشرت حضارة ماجلموز إلى شمال فرنسا وأجزاء من الجزر البريطانية، حيث وجدت فى تاكشام فى بركشر وبروكسبورن فى هرتفوردشر ، وسكبس فى شرق بوركشر ، ووادى بان فى أنتريم .

وصف الأستاذ كلارك J . G . D . Clark (١٩٢٩) بعض المواضع الأثرية فى وادى جرينساند الأسفل بسرى وسسكس ولا سيما بالقرب من نهر «وى» Wey وكذلك فى رمال هورشام وآشداون ومن ثم استخدام تعبير حضارة هورشام ولاحظ الفرق الكبير بين الإنماط التى وجدها فى هذه المواضع وحضارة ماجلموز فى إنجلترا على النحو التالى :

في	الآلات الحجرية القزمية	الفئوس
حضارةهورشام	٢٢ أو ٢,٢٢ ٪	٩٧٥ أو ٩٧,٧٨٪ فارنهام وسلستون
حضارةماجلموز	١٤ أو ١١,٦٧ ٪	١٥٦ أو ٨٨,٣٣٪ بروكسبورن ووادى كولن

فمناطق جرينساند الأسفل فى انجلترة هى حدود حضارة ماجلموز، حيث تتقابل مع الحضارة الترونوازية الأكثر انتشاراً نحو الجنوب والتى تمتاز بالآلات الحجرية القزمية ، وتمتد منطقة تقابل الحضارتين حتى كرزول والبنين شمالا . وتمثل هورشام منطقة التقابل هذه .

وقد بدأ كلارك عام ١٩٢٩ دراسة ستاركار فى سيمر ، سكاربره، يوركشر وهى مكان حفائر حضارة ماجلموزية أى حجرية متوسطة Meoslithic حيث ظن أن المستنقعات ربما احتفظت بمواد عضوية إلى جانب الآلات الحجرية فوجد كثيراً من آلات الصوان وبقايا صناعته ووجدت مخارز ومكاشط من الشظايا وآلات صوانية قزمية وفأسين ذواتى حافة قاطعة ، ومنشار صوانى واحد . وربما استخدم الحجر الرملى لصقل الآلات الصوانية ، كما وجد عدد من الحصى المختلف الأشكال . وكانت قرون الغزال الأحمر شائعة الاستعمال ، كما استخدمت نصال السهام المسننة ، وربما كانت هذه النصال



شكل (٣٠)

إرتبولة (العصر الحجرى المتوسط) فخار وآلات حجرية ١ مقياس ٣ : ١٦

٢ ، ٣ مقياس ٩ : ٣٢ ، ٤ مقياس ٣ : ٨ ، ٥ مقياس ٩ : ١٦

تركب فوق عصى خشبية ، ويبدو أن العضام كانت قليلة الاستعمال ، رغم استخدام قرون الوعل وهذا أمر غريب،إذ أن هذه الحضاره تمتاز باستخدام العظام فى صنع كثير من الآلات ، كما أن أصحاب هـــذه الحضارة كانوا يجمعون لحاء أشجار البتولا بكثرة ويظن كلارك أن هذا اللحاء كان يخزن لـكى يستخدم فى صنع أوان لحفظ الماء وغيره قبل نمو صناعة الفخار ، كما كانوا يفرشون هذا اللحاء على الأرض وهذا أيضاً من مميزات هذه الحضارة .

ما أن تم الاتصال المائى بين البحر البلطى ومضايق سكاجراك Skagerrak عبر البحيرات السويدية وبلغ أقصى اتساعه المائى ، حتى أصبح المناخ أدفأ وأكثر مطاراً ، فحلت أشجار الحور والبندق والدردار والبلوط محل أشجار الصنوبر والبتولا ، وتسمى هـذه الفترة المناخية بالفترة الأطلسية ، وربما كانت قد وصلت ذروتها حوالى ٤٠٠٠ ق . م وقد استمرت حضارات تلك الفترة جنباً إلى جنب مع الحضارات الأكثر تعقيداً بما فيها حضارة الزراعة التى وصلت — فيما هو محتمل — إلى شمال غرب أوربا فى الألف الثالثة ق. م .ومن الصعب أن نقرر ما إن كانت حضارات الفترة المناخية مستعارة أو معدلة تعديلا ناقصاً من حضارات أرقى لـكى تلائم الظروف المناخية والطبيعية المحلية . وتتوزع محلات هذه المرحلة المتأخرة من حضارة الماجلموز أو إرتبله Ertebölle أقرب ما يـكون بالسواحل ، ومليئة فى الغالب بقايا القواقع ، وقد وجد إناء له قاعـــدة مدببة ، يَدُل على تغلغل آراء وعناصر حضارية من الخارج ولـكنها لم تؤثر كثيراً فى استمرار وسائل الحياة القديمة فيها ،كما هى الحال بالنسبة للاستراليين الأصليين وغيرهم فى الوقت الحاضر ، وربما دلت على تطور محلى صرف .

ومن الغريب أن الشعوب المتأخرة فى الوقت الحاضر ، بينما تستطيع أن تستخدم بعض الآلات التى رأتها مع الشعوب المتقدمة إلا أنها لاتستطيع أن

تعبر الهوه التى تفصل بين مستوى الصيد والجمــع والالتقاط وبين مستوى الزراعة . فالاستراليون الأصليون يستطيعون تشظية زجاجات الأوربيين ويصنعون منها آلات حادة ، كما نجد فى كثير من الأماكن الأثرية القديمة فئوساً مصقولة قد شظيت إلى آلات صوانية وقد بين استن إيفانز Estyn Evans أن بناء الهياكل الحجرية الضخمة Megaliths كانوا يعاصرون جماعات الجمع والصيد والقنص فى شمال إيرلنده .

وقد بين ماثياسن أنه على الرغم من أنه عثر فى ستراند جارد على رحى وقمح إمر، وقمح الخبز والشعير وفئوس حادة وقطع من الأوانى وأقداح وعظام ماشية وغنم وخنازير إلى آخره مما يشير إلى وجود اقتصاد يعتمد على إنتاج الطعام بالزراعة وتربية الحيوان إلا أنه لم يجد دليلا كافياً على ذلك ، غير أنه لا ريب فى أن كلا من هافنيليف Havnelev وستراند يجارد Strandegaard فى زيلاند (الدنمارك) كانتا متعاصرتين .

وهناك أمثلة عديدة من العصر الحاضر عن عناصر حضــارية اقتبستها بعض المجتمعات واحتفظت بها بعض الوقت ، ولكنها سرعان ما نسيتها وطرحتها جانباً ، ونحن لا نخطىء إذا قلنا أن جماعات الصيد والقنص وجمع القوت القديمة قد أخذت بعض عناصر حضارية أرقى لم يكتمل لها فهمها ، وربما احتفظت بها بعض الوقت ، ولكن طرحتها جانباً ونسيتها دون أن تدخلها فى نظام حياتها الأساسى . فالجماعون والصيادون فى الوقت الحاضر قد يحومون حول مجتمعات زراعية أو تجارية راقية ، وقد تقتبس منها أشياء، ولكنها سرعان ما تنساها . ولكن نكمل القصة لا بد أن نذكر أن بعض الصيادين أو الجماعين قد يعيشون على هامش المجتمع الأرقى ، كخدم وقد يتخذ رجال المجتمع الأرقى من نسائهم إماء يلدن أطفالا خلاسيين .

ومعنى هذا أن جماعات الصيد والجمع والالتقاط لم تختف تماما ، فقد تندمج فى المجتمعات الأرقى ولو على شكل أتباع وخدم .

لقد كانت أعقاب العصر الحجرى القديم فترة طويلة من الزمن، ولكنها انتهت أخيراً بعد إدخال فكرة زراعة الحبوب من جنوب غرب آسيا وشمال شرق أفريقية ، وما تلاها من معالم المدنية الزراعية ، وبعض هذه المعالم كان سريع الانتشار ، بينما بعضها كان بطىء الحركة . وقد وجد فى مكان ما بين شمال أوراسيا فى ذلك العصر ، نوع من الحيوان أنهى حياته كحيوان وحشى ، ثم أصبح أول أعوان للإنسان — ألا وهو الكلب .

لم تدرس الأدلة الأثرية عن سكان وسط آسيا وشمالها بعد دراسة كاملة . وقد وجد بالقرب من كراستويارسك تحت طبقة من اللويس كمية من الشظايا الصوانية ، كثير منها ذات حد واحد ، وقليل منها صغير جداً ، وتشتمل على عدد كبير من المكاشط المستديرة وبعض أدوات من العظام والعاج ، وآلة من قرن الوعل ذات ثقب وخروز محفورة فيها ، كما وجدت خطاطيف مسننة مصنوعة من قرون الوعل ، وآلات حجرية على شكل ورق الغاز ، تذكرنا بالحضارة السولترية . وقد وصفت مواضع تجمعت فيها فضلات المطبخ فى سيبيريا ، ولا سيما فى الكثبان الرملية ، وهى تبين أن أصحابها كان لديهم الكلب المستأنس . ووجد فى منطقة منوسنسك Minussinsk أنماط من فئوس الكوارتزيت الغير دقيقة التشظية . وربما كانت الآثار السيبيرية خليطاً من آثار تميز العصر الحجرى القديم الأوسط والأعلى مع بعض آثار تميز أعقاب العصر الحجرى القديم مثل آلات الصوان القزمية ورءوس النصال .

ولو كان ميلانكوفتش مصيباً فى إرجاعه لتغيرات المناخية إلى حد كبير إلى اختلاف كمية الإشعاع الشمسى الذى تستقبله الأرض لدى خطوط العرض

المختلفة ، فلابد إذن من وجود دفء فى شمال شرق آسيا وشمال أفريقيا أى نفس خطوط العرض التى سادها الدفء فى شمال غرب أوربا . ومعنى هذا فتح باب جديد للمناقشة . فربما كان الطريق إلى شمال غرب أمريكا من شمال شرق آسيا أقل صعوبة بكثير فى فترة ما بعد الجليد أى من ٥٠٠٠ ق . م إلى ٣٠٠٠ أو ٢٠٠٠ ق . م عما هو عليه الآن . كما أن ذوبان أغطية الجليد بسرعة قد ملأ الأودية الجافة فى الوقت الحاضر بالماء فجرت الأنهار فى ذلك الحين ومن ثم كانت البيئة التى تقع فى طريق الإنسان إلى شمال شرق آسيا أسهل بكثير من عما هى عليه الآن . ولابد أن أقدم الهجرات البشرية إلى أمريكا قد تمت خلال فترة أعقاب العصر الحجرى القديم كما حدثت خلال الفترات غير الجليدية السابقة لها من قبل .

القسم الثاني

تطور الحضارة الإقليمي

الفصل الرابع

جنوب غرب آسيا

لا نملك إلا أن نتحدث عن احتمالات فيما يتعلق ببدء ظهور الزراعة ، فمن الممكن إذا ما ألقيت بذور فوق كومه من فضلات عضوية أو فوق جسم مدفون أن تنمو نمواً حسناً . وقد عرف عن بعض الجماعات التى لا تعرف الزراعة أنها تنظف الأرض حول الأشجار ذات الفائدة الغذائية لها ، ويكمن الغذاء الذى تقـــدمه النباتات فى جذورها الدرنية الكبيرة أو فى أوراقها أو أعضائها أو ثمارها أو بذورها . إلا أن أهم غذاء نباتى عرف حتى الآن هو الحبوب ، ومعظمها من عائلة الحشائش . وتشمل نباتات الحبوب القمح والشعير وأنواع الدخن المختلفة والشيلم والشوفان والأرز والذرة .

والذرة هى الحبوب الخاصة بالعالم الجديد ، ولا يزال وطنها الأصلى موضع نقاش حتى الآن . ومن الممكن أن تزرع بنجاح دون الحاجة إلى فأس ، كما أن العالم الجديد كان يفتقر إلى حيوان جر المحراث .

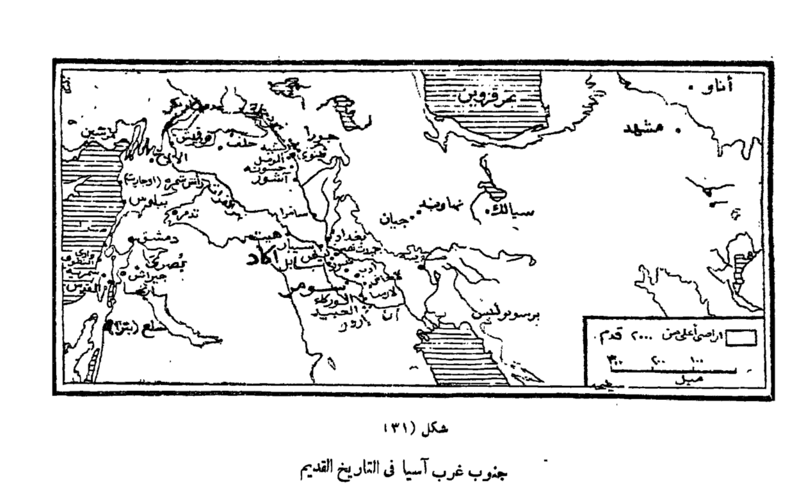
وكان الأرز يزرع فى الصين شمال نهر اليانجتسى منذ أوائل الألف الثانية ق . م ومن المحتمل أن هذه الزراعة ترتبط بالفأس الحجرية التى تشبه الإزميل ذات المقطع المستطيل ، وهذه الفأس ذات أهمية كبيرة فى الهند البعيدة ، ومن ثم انتشرت غرباً إلى أسام وسانتال بارجاناس وتشوتاناجبور حوالى الألف الثانية ق. م. ومن المحتمل أن زراعته انتشرت من الهند البعيدة أو من جنوب الصين إلى الهند ، إلا أننا لا نستطيع أن ننفى احتمال الهند كوطن أصلى للأرز . وقد ظهر استعمال الشيلم والشوفان كغذاء فى أوربا فى أوائل عصر الحديد ، ويبدو أنهما كانا إضافتين متأخرتين للنباتات المزورعة ، أما الدخن فقد زرع فى وقت مبكر فى شمال الصين ، ومن ثم انتشر وثبتت جذوره فى وسط الهند ، أو ما كان يعرف من قبل بالمقاطعات الهندية المتحدة ، كما زرعت فى وسط الدكن ، ولـكن ليس لدينا أدلة قبل التاريخية مباشرة عن زراعة هذا النبات فى الهند . وتزرع الذرة الرفيعة فى مساحات واسعة من مصر وسوريا ،

كما تنتشر فى جنوب بلاد العرب حيث توجـــد كمحصول ثانوى ولـكنها المحصول التقليدى فى أفريقية جنوب الصحراء الـكبرى وفى الحبشة . وعلى العموم ، إذا أردنا أن نفرض وطناً أساسياً للذرة الرفيعـة والدخن فإننا نقترح أن تـكون هذه الحبوب قد عرفت فى جنوب غرب آسيا أو مصر مع القمح والشعير ومن ثم انتشرت فيه كل مكان منذ عهد بعيد ، ولـكنها احتلت مكاناً ثانوياً بجانب القمح أو الشعير أو الأرز فى الأماكن الصالحة لنمـو كل من هذه المحاصيل . ونستطيع أن نفترض — حسب درجة علمنا فى الوقت الحاضر — وطنين أو ثلاثة أوطان أصلية لنشأة زراعة الذرة الرفيعة ، ونحن لا نعلم لماذا كانت أسبق فى الظهور من غيرها فى شمال الصين وإن كان المعروف عنها أنها تستطيع أن تتحمل تغيرات فصلية كبيرة فى المناخ ولا سيما فى كمية الأمطار الساقطة ، ولـكن الذرة الرفيعة والدخن بأنواعها أقل قيمة كغذاء من الشعير أو القمح .

وقد عرف نمو القمح والشعير كأعشاب وحشية فى جنوب غرب آسيا ولا سيما فى تلال سوريا ، وفى أماكن أخرى من المنطقة الممتدة من تيليقيا إلى شمال فارس .

ويستطيع الشعير أن يتحمل ظروفاً مناخية أوسع مدى مما يستطيع القمح تحمله ، وكان القمح فى وقت مبكر من تاريخ الزراعة ينقسم إلى نوعين أساسيين :

نوع Triticum Monococcum الذى يحتوى على سبعة كروموزومات ونوع إمر Emmer أو T. Dicoccum الذى يحتوى على أربعة كروموزوم، ثم عرفت فى عصر ما قبل التاريخ مجموعة ثالثة من قمح الخبز T. Uulgare يحتوى على واحد وعشرين كروموزوما ، وهو نتيجة تهجين بين قمح إمر وقمح آخر قريب منه ويرى بعض العلماء أن وطن قمح الخبز ربما كان فى أفغانستان



شكل (١٣١)

جنوب غرب آسيا فى التاريخ القديم

أو تركستان و الإقليم الواقع بين النهرين والقوقاز . إلا أن الأدلة على ذلك ضئيلة جداً ، ولا نستطيع أن نقول أكثر من أن زراعة قمح الخبز عرفت فى أقدم موقع لاناو Anau وفى منطقة حضارة السند .

ونستطيع حتى على ضوء معلوماتنا الضئيلة أن نقدر وجهة نظر المرحوم هارولد بيك منـذ ثلاثين عاماً عن سوريا أو المنطقة التى تقع حول مرسين (قيليقيا) حتى مشهد (إيران) كوطن أصلى لزراعة القمح ، وربما خطت بعض الجماعات التى تسكن فى هذه المنطقة أو حولها الخطوات الأولى من الجمع والالتقاط والصيد الذى يميز العصر الحجرى المتوسط إلى الزراعة المنتظمة . ومن الخطأ محاولة تعيين مكان واحد كوطن أول لنشأة الزراعة . كما أن الأدلة التى يمكن بها تحديد تاريخ نشأتها ضئيلة جداً ، وقد اعتاد الباحثون أن يضعوا هذا التاريخ حوالى ٥٠٠٠ ق . م . إذ أن الدول المنظمة التى قامت على أساس اقتصاديات الحبوب قد نمت فى الألف الثالثة ق . م . ولابد أنه مر وقت طويل تطورت فيه معرفة زراعة الحبوب وتنظيم اقتصادها قبل قيام الدول المنظمة وهذا التقدير مفيد فى الوقت الحاضر ، طالما لم نبالغ فيه .

وجدت الأستاذة دوروثى جارود فى كهوف وادى الناطوف ، بجبل الكرمل أدلة على وجـود شعب ترك آلات خاصة بالصيد . ولكنه ترك أيضاً آلات صوانية يمكن أن تثبت فى تجويف قطعة عظم ، وكانت هـذه الآلات الصوانية مشرشرة ولكنها بليت بعد طول الاستعمال ، ولابد أنها كانت تستعمل كمناجل لقطع أعواد الحشائش الغنية بالسيليكا . وكانت بعض أيادى المناجل مزينة بنقوش حيوانات محفورة فيها .ووجدت أيضا حجارة رحى كما وجدت حفراً فى الأرض لخزن الحبوب ، ولذلك فعلى الرغم من أننا لسنا متأكدين ما إذا كان هذا الشعب قد عرف أكثر من مجرد حصد أعواد القمح البرية ، إلا أنه من المحتمل أن يكون قد عرف الزراعة أيضاً.

ولم يترك شعب جبل الكرمل القديم هذا أية أدلة على استئناس الماشية أو الضأن أو الماعزه رغم أنه وجد عدد معين من عظام الحيوانات المتوحشة .

وجدت دكتورة كينيون Kenyon حديثاً (١٩٥٢-١٩٥٣) فى أريحا محلة الزراع القدماء ، دون أن تجد فيها فخاراً ، وإن وجدت تماثيل بديعة لرءوس وتعرف الزراعة دون الفخار فى أجزاء عديدة من جنوب غرب آسيا .وترى كينيون أن ما وجدته فى أريحا لايدل فقط على بدء الزراعة بل على بدء الحياة المدينية ، على أنها قديمة العهد ترجع إلى بعد الألف الخامسة ق . م بكثير .

وتظهر حفائر حسونة ، على الجانب الغربى لنهر دجلة وغير بعيد من نينوى (التى قامت فيما بعد بكثير) معالم قديمة لنمو الزراعة . فقد وجدت فى الطبقات السفلى للتل بقايا مواقد وحفر كان القمح يطحن فيها برحى حجرية مع بقايا بيتومين كان يستعمل فى إلصاقها بأيد خشبية Hoe . وهناك فروق ثلاثية بين آثار تل حسونة وآثار الناطوف ، فآلات الصيد التى وجدت فى وادى الناطوف لاشبيه لها فى تل حسونة ، بينما وجدت فى حسونة بقايا ماشية وضأن وماعز ، وأوان مزينة بخطوط محززة .

وتعتبر سيالك فى إيران ، شرقى سلاسل جبال زاجروس ، محله قديمة أخرى للزراع الأوائل الذين استأنسو الضأن أيضاً .فوجدت هنا أفران وفئوس يدوية من الحجارة ، ونخار . إلا أن هذا الفخار كان ملوناً بأشكال سوداء ، مما يدل على أنها كانت توضع فى الأتون ، بعيداً عن لهيبه مباشرة كما وجدت عظام بها ثقوب لوضع أسنان من الصوان لحصد الحبوب ، وكانت أيدى المناجل مزينة ببعض النقوش أحياناً .

وجدت إذن فى إريحا وحسونة وسيالك أدلة على الزراعة القديمة ، كما وجدت بعضها أدلة على ماصحبها من تقدم الآلات التى استخدمها الزراع .

وربما كانت الفئوس الحجرية المصقولة ذات الحافة القاطعة تراثاً من عهد سابق، ولكنها كانت تستعمل لخدش الأرض مثل السلوكة Hoe فى الوقت[1] الحاضر . وليس لدينا أدلة عن ظهور الفخار فى مراحل الزراعة المبكرة فى الشرق الأوسط ، إلا أن ليكى وجد فى أحد كهوف أواخر العصر الحجرى القديم فى كينيا سلالا مبطنة بالطين ومحروقة بالنار إما عن قصد أو دون قصد وبذلك أصبحت صلبه . وأصبح من الممكن تخزين القمح فى بدء عهد الإنسان بالزراعة ، عندما كان يسكن محلات مؤقتة لديه ، وبذلك انتقل الصلصال إلى فن الفخار على يد النساء . وإن قبول فكرة بذر البذور فى الأرض والانتظار فترة من الزمن حتى تنمو وينضج المحصول ، لايدل على إطاله فترة مكوث المجتمع فى قطعة أرض واحدة ، أكثر من فترة مكوثه وهو يعمل بالصيد فقط ، بل قبول عمل منظم تترتب عليه مسئوليات معينة ، ونشاط فصلى فى العمل ، وزيادة التنبوء بكمية المحصول . وبذلك بدأ الإنسان ينظر إلى الأمام ويتدبر غده كما يستفيد بأمسه ، بطريقة منظمة ، أكثر مما كان يفعل من قبل . وأصبح إهمال جزء من العمل المنظم الرتيب الفصلى أمراً ذا بال ، لا يلو من الكسول إلا نفسه إذا ارتكبه. وهذه هى المرحلة التى صورت بشكل مسرحى فى أسطورة سقوط الإنسان Fall of Man . وعلينا رغم قلة معلومتنا أن نقدر عمل المرأة فى ارتيادها عالماً جديداً من النشاط الاقتصادى، وهى تحاول فتح ميادين جديدة فى التغذية ، وتحطم عادات الماضى وقيوده وتقدم طرقا

---

(١) صقل الآلات الحجرية ، قدم للإنسان حرية الاختيار من بين عدد من المواد ، مثل البازلت والعقيق والديوريت والسينيت . . إلخ . ومن ثم لم يكن مضطرا للسكنى بالقرب من مناجم الصوان والتشرت واستطاع الإنسان أيضا أن يصنع ساقين من الحجارة ، ذات حواف مصقولة مستوية ، ويستطيع أن يحفر فى هذه الحجارة النارية الصلبة لتثبيت يد خشبية أو نحو ذلك .

جديدة فى إنتاج الطعام ، وربما تحدث بذلك محرمات قديمة ثابتة الأصول ، كما قد تدل عليها قصة حواء [١] .

تدل آثار وادى الناطوف على أن الزرعة بدأت قبل الرعى ، كما تدل آثار حسونة وسيالك أن الرعى أضيفت إلى المراحل الأولى للزراعة ، كعمل إضافى ، حيث وجدت أراض صالحة له وكانت الضأن أهم حيوانات الرعى هذه ، وتشتمل أنواعها على غنم الموفلون Mouflon فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وجنوب غرب آسيا . وغنم الأوريال Urial على حدود مناطق العيش الواسعة فى الأراضى الداخلية من غرب آسيا ، والأرجال Argal من بلاد مونغوليا . وجدير بالذكر أن غنم سوى التى سميت على إسم إحدى جزر الهبرديز ترجع بأحدأصولها إلى نوع الموفلون وبعض أنوع الأغنام الأوربية والبريطانية الحديثة ذات أصـــول ترجع إلى نوع الأوريال ، حيث أن أغنام الاستبس الأسيوية قد دخلت إلى وسط أوربا وغربها فى إعداد كبيرة أثناء عصر البرونز الأوربى . وكانت الماعز والماشية تعيش طليقه وحشية على سفوح جنوب غرب آسيا وبذلك أصبحت الضأن والماعز مهيأة للاستئناس فى هذه المنطقة . ويبدو أنها استؤنست أولا للبنها ولحومها ، ثم استخدمت للعمل بعد ذلك بوقت طويل . وربما بدئ باستئناس الحيوان الرضيع أولا

---

(١) يبدو من السياق أن الأستاذ فلير يرى أن قصة خروج آدم من الجنة نتيجة تناوله الثمرة المحـــرمة من حواء تنطبق على الكشوف الأثرية والتطور الحضارى الذى انتقل بالبشرية من الصيد والجمع والالتقاط إلى الغـذاء النباتى ، أو الزراعة التى ساهمت المرأة مساهمة كبيرة فى اكتشافها ، وهذا مجرد حدس من قبل المؤلف ومحاولة تفسير قصة آدم وحواء تفسيرا أثريا ولا علاقة لهامطلقا بالكشوف الأثريةأو البحث عن أصول الزراعة فالحدس والتبرير شىء والحقائق العلمية الأثرية شىء آخر . وللقارىء الحرية فى قبول أو رفض حدس المؤلف (المعرب)

وبذلك استدرجت أمه لكى ترضعه ، فحبست فى حظيرة طينيه حتى تم استئناسها وكانت تطلق فى مواعيد خاصة حتى يلقحها الذكر (الوحشى) ثم تعود لتلد. أما الثور وذكر الحيوان عموماً فلم يستأنس إلا بعد مجهود كبير .

وهناك أدلة من تل حسونة وسيالك وأريحا على نمو المدينة بعد ذلك نموا كبيراً . وكان أهم معالم ذلك تشييد المنازل القوية ، من الطين المجفف فى الشمس حيث قامت الزراعة ، وفى غيرها من الأماكن . وقد وجدت فى حسونة آثار مواقد وأوانى كبيرة للتخزين ، كما وجدت فى سيالك قليل من القطع النحاسية الصغيرة ، التى كانت تصهر — بلا ريب — فى الموقد .

بناء أكواخ كى تسكنها أسرة باستمرار ، دليل على وجود الأسرة أو العائلة داخل المجتمع ، كما أنها دليل على ظهور فكرة الملكية ، بل وعلى ظهور فروق بين بيت العامل الماهر والعامل غير الماهر . وكانت الجدران الطينية تنهار فى معظم الأحيان ، بعد وقت من الزمن ، ثم يعاد بناء المنزل فوق أنقاض المنزل القديم ، وبذلك تحولت المحلة إلى تل صغير . فأصبح هذا فى حدذاته أمراً هاما . لأنه مكن من قيام المحلة على حافة السهل الفيضى ، بعيداً عن مستوى الفيضان ، الذى يجدد بدوره خصب التربة .

السكنى الدائمة فى مكان واحد ، واستخدم فئوس الصخر المصقولة ، التى يمكن أن تستعمل كأزميل ، أعطى الإنسان مقدرة جديدة فى فن النجارة ، وبعد أن أضيف إليها التعدين ، أصبح لدى الإنسان مقدرة أوسع فى استعمال أدوات أكثر عدداً ووفرة من ذى قبل . وأصبح طهو الطعام من معالم الحياة المنزلية ، لاسيما بعد أن تهيأ لكل منزل فرن أو موقد خاص . وبذلك قلت حاجة الإنسان إلى فك قوى لمضغ اللحم أو الجذور النيئة . غير أن الأسنان كانت قد بدأت فعلا فى التضاؤل ، ونحن لانستطيع — حسب درجة علمنا أو جهلنا الحالية — أن نبين العلاقة السببية بين الأمرين . وليس برهان على

انتقال الصفات المكتسبة من الوالدين إلى أبنائهما بالوراثة . كما إننا لا نعرف إلا القليل فى الوقت الحاضر على تأثير الهرمونات على النمو .

ومن المحلات الزراعية أيضاً ، مرسين فى فيلقيا ، ورأس الشجرة على الساحل السورى ، ومحله فى برسيبوليس جنوب غـــرب إيران ، وأقدم أدلة العمران فى نينوى ، وفى جيان بالقرب من حدود إيران الغربية بالقرب من نهاوند وجوارا شمال نينوى بقليل . وقدحفرت فى نينوى حفرة عمقها ٧٠ قدما تحت أرضية المعابد التى شيدها مانشستوسو حوالى ٤٥٠ ق.م ،ووصل الحفر إلى بقايا قرية قديمة (نينوى ١) وتدل هـــذه الحفائر على زراعة الحبوب وصناعة الفخار المحلاة بالخطوط المحززة أو المضغوطة وفوقها آثار (نينوى ٢ ا) التى تمتاز بنفس الفخار ، ثم (نينوى ٢ ب) الذى يمتاز بفخار مطلى باللونين الأسود والبنى . وقد ازداد العمران فى هذه المنطقة (مرسين — مشهد) مع مرور الزمن ، ولاتزال آثار بعض محلاتها تحتاج لمن يكشف عنها . وعلى العموم فقد كان الناس فى هذه المحلات يصنعون الفخار . ويجب أن تتذكر أنه لا بد من حرق الفخار فى مواقد مقفلة ، حتى يمكن أن يصبح مصقولا معداً للطلاء . أما الفخار غير الجيد فهو الذى يحرق فى مواقد مفتوحة . ويعتبر تطور المواقد ، إحدى خطوات الصناعة الهامة التى رافقت زراعة الحبوب فهذا أدى إلى تطور وانتشار الفخار المطلى ، ومن ثم إلى ظهـور التعدين . وبينما كانت صناعة الفخار اليدوى من عمل المرأة ، وذلك قبل اختراع عملية الفخار ، إلا أنه من المحتمل أن تكون أنماط تلوين الفخار من السمات التى تميز كل مجتمع على حدة إذ لم تكن المرأة واسعة الأسفار حتى يتسنى لها أن ترى أشكالا جديدة أو تصميمات مبتكرة مختلفة عما تقوم بصنعه .

وكان الطلاء الذى يزين الفخار الموجود فى نينوى ٢ ب أكثر دقة من

ذى قبل كما عثر على أوان حجرية وعقود من أحجار شبه كريمة مثل العقيق، والفيروز واللازورد مما جلبتـــه التجارة وربما جلب اللازورد من بامير وبادكشان (شمال شرق أفغانستان) .

ويعتبر تل حلف ، بالقرب من حدود العراق وسوريا وتركيا موقعا له أهمية خاصة . فقد كانت القرية القائمة عليه مكونة من مبان طينية (وربما من اللبن الأخضر) ذات حوائط مستقيمة ، تحدد طرقا معبدة بالحجارة وكان السكان يزرعون قمح إمر ، والشعير ويصنعون فخـاراً جيدا مطليا باللونين الأحمر والأسود ، وكان للأوانى لمعـان خاص ، كما لو كانت السليكات المستعملة فى طلائها مزججة . ويدل تصميم الطلاء على هيئة مربعات على أن السكان عرفوا نسيج الحصر والسلال ، إلا أن شكل الأوانى لم يشبه السلال .

ووجدت بعض تصميمات حيوانية وربما قامت حلف فى نفس الزمن الذى نشأت فيه نينوى ٢ ب .

أما فى سامرا ، إلى الجنوب من تل حلف ، فقد كان لون طلاء الأوانى أسود فقط ، ويبدو أن هذه الأوانى كانت أقدم بقليل من أوانى تل حلف إذا كان لنا أن نحكم من وجود طراز سامرا فى طبقات تقع تحت الطبقات التى وجدت فيها أوانى تل حلف فى جزء من حسونة .

ذكـرنا من قبل وجود أشياء نحاسية فى سيالك ترجع إلى أوائل عهد الاستقرار الأول فى هذه المحلة ، (سيالك ٢) كما وجد مزيد من المعدن فى تل حلف . وكان النحاس أقدم المعادن التى استعملت ، رغم أن الذهب كان يضارعه فى القدم . ويوجد النحاس فى مواضع عديدة أحياناً على شكل كتل وأحياناً أخرى على شكل عروق فى الصخر ، وأحياناً فى الحصى إلا أن خام النحاس ليس سهل الاستعمال فسرعان ما يتحول إلى مادة هشة إذا طرق .

وقد لفت كوجان الأنظار إلى ضرورة صهره ثم تبريده ببطء ثم صهره مرة أخرى إلى درجة حرارة ٨٠٠° م حتى يمكن استعماله . إلا أن الوصول إلى هذه الطريقة كان يقتضى القيام بعدة تجارب . وقد استعملت بعض خامات النحاس مثل كربونات النحاس (الملاكيت) فى وقت مبكر جداً . أما سلفات النحاس فكانت أصعب فى الاستعمال .وكان استخدام الموقد من أعمال التعدين بعد استخدامه فى حرق الأوانى ، والبحث عن الخام ، وفهم طريقة صهره ثم تبريده ثم صهره مرة أخرى وهى خطوات متوالية فى عملية تعدين النحاس ومن ثم فاننا نفترض أن استخدام النحاس قد سبقته مرحلة انتقالية طويلة . ولما كان خام النحاس يوجد فى الجبال حول منطقة ديار بكر قرب الفرات الأوسط قبل أن يهبط من الجبال ، فمن المحتمل أن تكون أعمال التعدين الأولى قد تجمعت فى المنطقة التى عرفت زراعة الحبوب فى شمال العراق وربما فى إيران أيضا .وكان صهر النحاس وليس الذهب وإسالته وصبه فى قوالب وإعداده للصناعة اختراعاً آخر، احتاج إلى التغلب على بعض المشاكل الجديدة

يبدو لنا — فى الوقت الحاضر — أن المنطقة التى تتكون من سفوح وضفاف الأنهار وتقع ما بين مرسين فى قيليقية إلى قرب مشهد فى شمال شرق إيران كانت ذات أهميـــة خاصة لزراعة الحبوب الأولى ، ولنشأة مواطن الاستقرار الثابتة ، ولبدء التعدين بها بعد بعدة قرون ، ولا نعرف ما إن كان شق القنوات لأجل الرى عرف فى هذا المكان أيضا أم لا .

وإن كان هذا محتملا ، إذ أن هذه المنطقة تهبط بسرعة من سفوح الجبال وتنتشر مياه فيضاناتها فى السهول أسفل منها .

كان الرأى السائد أن العراق الأسفل قد تكون فى الغالب من رواسب

حديثة تمتد جنوباً من خط ساحل البلايستوسين الذى افترض مروره عند هيت ، والذى يبعد عن خط الساحل الحالى بنحو ٣٥٠ — ٤٠٠ ميل نحو الشمال . وقد أظهرت الأبحاث الحديثة أن سلاسل الجبال الحديثة التى تقع عند الحدود الإيرانية كانت ترتفع من وقت إلى آخر وأن الانخفاض الذى يقع بين هذه الجبال وبين كتلة بلاد العرب القديمة قد هبط ، وهذا الهبوط أعطى مجالاً لنشاط الترسيب كى يملأه ،وربما كان ذلك راجعاً أيضاً إلى ارتفاع مستوى البحر بعد ذوبان جليد البلايستوسين،وكان هناك تراوح بين الترسيب والطوفان من حين الى آخر فى العراق والخليج العربى (الفارسى)وهذا أدى الى اختلاف مستوى البحر وخط الساحل ولكنه لم يبعد عن مستواه الحالى خلال عصر البلايستوسين والأزمنة الحديثة . وقد عانى العراق الأدنى من توالى الفيضانات النهرية منذ عصر البلايستوسين ، ولا يمكن التقليل من خطر الفياضانات العامة ، وان كان لذوبان الثلوج المفاجىء فى جبال أرمينيا نتائج مخربة .

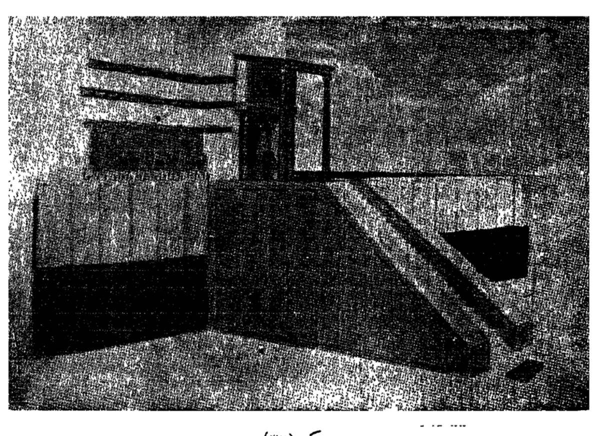
وقد أدت الفيضانات الى تكوين مستنقعات وبحيرات ضحلة وتغيير مجارى الأنهار ولذلك لم تكن بيئة العراق مهيأة لنشأة الزراع الأوائل قبل أن يتعلموا فن حفر القنوات لتوزيع مياه الرى . وقد سهل هذه العملية جريان الفرات أحياناً على مستوى أعلى أو مستوى أقل من مستوى نهر دجله . وليس من الحكمة أن نحاول تقدير زمن الطوفان الذى حدث فى عهد نوح .

تقع سوسا القديمة على حافة المستنقعات ، وربما كانت نشأة تلك المحلة مقترنة بالمحاولات الأولى لضبط السهل الفيضى واستخدامه . وهناك أدلة كثيرة على ذلك جمعت من العبيد على بعد بضعة أميال من محلة أور القديمة . وقد جاء السكان الذين قاموا بتلك الجهود من شمال العراق وحملوا معهم

الفخار الملون ، ولكنهم — كما يبدو لم يحملوا معهم أدوات معدنية ، رغم أن سكان سيالك ٢ المعاصرة للعبيد وسوسا قد عرفوا المعدن وإسالته وصبه وقدقامت العبيد على بقعة جافة، كانت فى الأصل بحيرة قديمة امتلأت بالرواسب والأعشاب . وقد عرف أهلها الفخار الملون المصنوع باليد ، والفئوس الحجرية ، وزرعوا الشعير الذى كانوا يحصدونه بمناجل فخارية . وعرفوا القليل من النحاس . وشقوا القنوات محاولين ضبط الفيضانات بعض الشىء. وقد استمرت بلدة العبيد قائمة أكثر من قرنين أغرقها طوفان كبير ترك رواسب من الطين بلغ سمكها ١١ قدماً ، إلا أن سمك هذا الطمى يقل بالتدريج كلما اتجهنا شمالا . ثم عاد السكان ثانية من شمال العراق بعد انتهاء الطوفان الذى يؤرخ بحوالى ٤٠٠٠ ق.م وتعرف المرحلة الثانية بمرحلة الوركاء Uruk, Erech (١) التى قامت على أساس حضارةالعبيد ، ثم أضيفت إليها عجلة الفخارى ، وصناعة المعدن . ويمتاز فخار هذهالفترة بتفضيل اللون الأحمر أو البنى البسيط . واستخدمت حضارة الركاء الحجارة فى المبانى ، وتقدمت فى فن العمارة . ويرى الأستاذ ليونارد وولى أن هذه الحضارة بدأت فن إقامة أعمدة القصب التى تنتهى بعقود من أعلاه ، وأن هذا القصب كان أساس بناء السقف ثم يطلى البناء كله بالطين ، ويفرش بالحصر من الداخل . وكانوا أحياناً يستعملون جذوع النخيل بدلا من القصب كأعمدة ، ولما شاع استعمال اللبن الأخضر فى البناء ، أدخل فى تشييد الأعمدة ، وإن ظلت تحتفظ بتقليد جذوع النخل . وقد استعملت حضارة الوركاء نوعاً من الكتابة التصويرية Pictograph حيث كانت تنقش الصور فوق ألواح الطين ثم تحرق فى النار وربما سبق ذلك كتابة تصويرية قديمة فوق مادة قابلة للتلف .

---

(١) قسم ديلوجاز Delougaz فترة الوركاء ـ كما سماها حسب التسمية العربية ، فوضع أواخر هذه الفترة مع فترة « جمدت نصر » معاً وأكد انتشار وسائل الرى التى ربما صحبها تحسن فى التنظيم الاجتماعى .



شكل (٣٢)

معبد من الأسرة الأولى

ولابد وأن الزراع الأوائل قد عرفوا قيمة استخدام الحيوان فى أعمال الحقول . وكان لابد لذلك من التغلب على بعض العقبات ، فإذا كانت البقرة تستخدم فى الجر أثر هذا فى مقدار اللبن الذى تدره ، وبذلك يتأثر وليدها . ومن ثم كان لابد من استخدام الثور ، وهو حيوان قوى الشكيمة ، وقد حل الإنسان هذه المشكلة بخص العجول الصغيرة ، وبذلك تنمو قوية صبورة على العمل . وأدت هذه العملية إلى تقليل ما كان يفقد من قبل نتيجة قتل العجول الذكور المشاكسة فى القطيع ، كما أدت إلى استخدام الثيران القوية فى الجر ، رغم بطء حركتها . ثم صنع النجارون المحراث ذا النصل الحجرى ، بوضع نصل من الحجارة فى آخر المحراث ، ثم استبدل به نصل معدنى ، وهذا أفضل من السلوكة الحجرية .

وكان على الزراع العراقيين أن يمنعوا سطح التربة من أن يجف ويتحجر ويتشقق بعد كل فيضان سنوى ، يحدث على أثر ذوبان الثلوج فى الربيع ، ثم يتلوه الصيف بجفافه . ولذلك استخدموا الثيران فى جر المحاريث ، التى تشق الأرض مرة بعد أخرى فى كل عام . إلا أن الطمى الذى يجلبه الفيضان سنوياً يضيف تربة جديدة غنية بالمواد العضوية ، ولذلك يمكن قيام الزراعة فى نفس المكان عاما بعد عام إلى ماشاء الله وكانت الفأس أيضاً أداة ذات فائدة كبيرة لحرث الأرض .

ولا نعلم علم اليقين متى بدأ استخدام المحراث أو خص الثيران وإن كانا خطوتين كبيرتين فى تقدم المدنية الزراعية . ولا ريب أن هذا بالإضافة إلى الرى على نطاق واسع قد ساعد على قيام المدنية الزراعية فى تل حلف وشمال العراق وسومر وإن كنا نحتاج إلى مزيد من البرهان على ذلك . وعلى كل فمن الصعب تصور حضارة الوركاء دون المحراث ، ومن ثم فلابد وأن عمر المحراث يرجع إلى الألف الرابعة قبل الميلاد على الأقل ، وربما كان أقدم من ذلك

أيضاً . وربما عرفت حضارة العبيد المحراث إذ كانت تعرف استئناس الأغنام والماشية والخنازير ، وكان أهلها يزرعون نخيل البلح والحبوب .

ويرى بعض دارسى حضارة الوركاء أنها قد وفدت على يد شعب جديد مهاجر وليست استمراراً لحضارة العبيد القديمة ، لأنها تمتاز بصفات مميزة خاصة عديدة . وهناك شئ من الحقيقة فى كل من وجهتى النظر هاتين ، إذ أن الفخار الرمادى الذى يميز حضارة الوركاء ينتشر فى تركستان وإيران ومن ثم إلى السند ، بل ووصل فيما بعد حتى الصين .

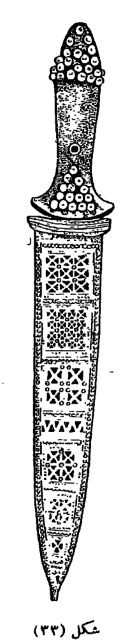
ولنا أن نضيف بعض الملاحظات فيما يتعلق بآناو فى تركستان ، وإلى الشرق من بحر قزوين وشمال حدود إيران . فأهل آناو قد زرعوا قمح الخبز من عهد بعيد ولكن مراحل الزراعة الأولى لديهم لا تدل على أنهم عرفوا استئناس الحيوان ، رغم أن الماشية ذات القرون الطويلة وذات القرون القصيرة قد عرفت عندهم فيما بعد ، إلى جانب الخنازير والأغنام ذات القرون الطويلة والقرون القصيرة . ثم استعملوا النحاس فى طور متأخر فيما بعد ، وعرفوا استئناس الأغنام (من نوع لا قرون له) والكلب وربما امتازوا أيضاً باستئناس الجمل . وكان الفخار الأحمر والرمادى يصنع فى هذه الفترة المتأخرة كما كان يصنع من قبل ، أى كان يطلى بأشكال تقليدية سوداء فوق الأرضية الحمراء الفاقعة .

وقد تقدم فن التعدين وفن الزراعة وصناعة الفخار معاً ، فاختراع الفرن الذى تمكن به الفنان من صناعة فخار أفضل من ذلك الذى يحرقه فى موقد مكشوف ، مكنه من تلوينه ورسم أشكال عليه . كما أن الفرن ساعد على اختزال بعض خامات النحاس ، وكان لذلك نتائج مختلفة ، فقد أصبح واضحاً للإنسان — مع مرور الزمن — أن النحاس المختلط بذرات القصدير

(الكاسيتريت Cassélerite) أفضل من النحاس الصرف . فهو لا يصبح إسفنجياً بالحرارة ، ويمتاز بأنه أشد صلابة من النحاس الصرف ، إذ أنه يصبح برنزاً من السهل تشكيله ، وشحـــذه ، وإن كان سرعان ما تثلم حافة سلاح البرونز بالاستعمال ، وقد حصل الإنسان على نتائج هامة عندما تعلم صهر خليط النحاس والقصدير فى أفران مرتفعة الحرارة (١١٠٠° م) وإسالة السبيكة المصهورة وصبها ، وكان الفنان يلجأ إلى الشمع فيصنع منه نموذجاً للشكل الذى يريد صبه بالبرنز ، ثم يضعه فى الصلصال الناعم ويزج به فى الفرن ، فيسيل الشمع من ثقب صغير ترك لهـذا الغرض تاركا مكانه شاغراً ، لكى يصب فيه سبيكة البرنز ، وكان الفنان يصنع النموذج الشمعى من قطعتين ، حتى يستطيع أن يفكهما ويستعملهما عدة مرات طبقاً لرغبته . وقد تطورت هـذه الطريقة المعروفة فى الوقت الحاضر بطريقة الشـمع Cire perdue على أيدى الصناع فى جنوب غرب آسيا ، من الألف الثالثة قبل الميـلاد ، واستطاعوا أن ينتجوا أدوات برنزية متعـددة الأشكال لمختلف الأغراض ولم تصل مدنية السند إلى ما وصل إليـه جنوب غرب آسيا ، كما أن صناع البرنز الأوربى لم يصلوا إلى درجة إتقان صناع جنوب غرب آسيا ، وإبداعهم إلا بعـــد ذلك بعدة قرون ، وسنشير فى الفصل الخامس بالصين إلى مهارة الصينيين الكبيرة فى صناعة البرنز ، ومقدرتهم الفائقة فى صب أشـكال برنزية دقيقة خـلال الربع الأخير للألف الثانية ق. م. وإذا كانت شمال الصين قد بلغت درجـــة فريدة فى صب آيات البرنز الممتازة ، فإن بلاد جنوب غرب آسيا ومصر وكانت وطن صناعة البرنز الأول ، حيث اكتشفت طرق صناعتـه الأولى . وقد توفر لمصر خام الملاكيت (كربونات النحاس) فى سيناء . كما توفر للعراق النحاس والقصدير فى تلال شرق الأناضول ، بالقرب من ديار بكر . كما أنها حصلت عليه من ماجان ، التى يظنها الاستربك عمان فى جنوب شرق بلاد العرب . ونحن نشك فى استمرار تدفق النحاس والقصدير

بانتظام إلى مركز الصناعة السورية والعراقية مما أضطر السكان إلى الالتجاء إلى الصخر مرة بعد أخرى يصنعون منه أدواتهم .

البحث على النحاس والقصدير ، وجلبهما إلى مراكز للصناعة ، وتنمية المهارة الفنية فى صنع نماذج الشمع ، وفى تشكيل القوالب ، كلها تدل على أن فن صناعة البرنز كان إضافة كبرى للمهارة الفنية والتنظيم التجارى والبحث عن المعدن لدى هؤلاء الناس .



شكل (٣٣)

خنجر محلى باللازورد والذهب ، الخنجر وغمده من الذهب أيضاً

انتهت مدنية الوركاء فجأة على يد غزاة نعرفهم من محلة جمدت نصر . حيث نجد الفخار يختلف اختلافاً كبيراً عن فخار الوركاء ، ويمتاز باللون الأحمر الغامق المزين بنقوش سوداء ويرى الأستاذ « وولى » أن غزاة جمدت نصر قد قدموا من الخليج الفارسى ، ولا نريد أن نمعن فى الحدس والتخمين ، ونرى فى هذا الفخار حلقة اتصال بالفخار الأحمر الذى كان يستعمل فى شمال بلوخستان قبيل المدن السندية أى من وقت قريب من وقت قيام جمدت نصر ، وكان هؤلاء الغزاة مهرة فى صناعة القواقع الكبيرة ، كما كانوا يصنعون أوانيهم من الصخر ، مستخدمين الحجر الجيرى والكالسيت الشفاف والستيتايت ، وهم فى هذا يختلفون عن مصريين الأسرات الأولى الذين كانوا يصنعون الأوانى

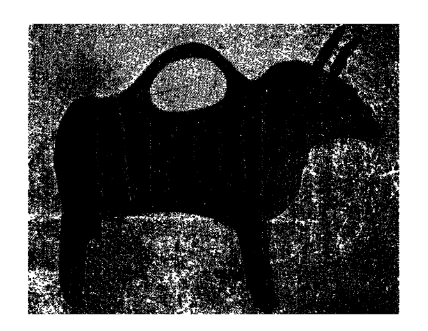
من الصخر النارى والألباستر (المرمر المصرى) ، إلى جانب الحجر الجيرى .
كما أنهم عرفوا نوعاً من الكتابة هو عبارة عن خطوط محفورة فى ألواح الصلصال ، وربما كانت هذه خطوات سابقة للخط المسمارى أو الإسفينى .
ويبدو أن الغزاة قد أفلحوا فى إخضاع مساحة كبيرة من الأرض ، وبذلك وضعوا حداً لفترة العمران البشر القديم الذى كان يمتاز بالاكتفاء الذاتى بل وبالاستقلال الذاتى إلى حد كبير . غير أن حضارة الوركاء عادت فأكدت نفسها مرة أخرى وطردت الغزاة وامتاز الفخار الذى تركته بعد ذلك بأنه كان بسيطاً ذا لون أسود أو أحمر إلا أن الكتابة الخطية التى تركها الغزاة بقيت بعدهم ، كما بدأ النزاع حول بسط النفوذ بين المحلات المختلفة ونشطت التجارة.
ووصلت فترة التوسع الكبير أقصاها حوالى ٣٠٠٠ ق. م. وقد وجد «وولى» فى المقابر الملكية بأور أدلة على قيام حكام محليين لم يستطيعوا بسط نفوذهم إلا على مساحات محدودة ، وهذه الأدلة معروفة ومشروحة فى كتب كثيرة ولا داعى لبسطها هنا . وهى تمتاز بالمصنوعات الذهبية والأدوات المصنوعة من الأحجار نصف الكريمة ، منها أحجار اللازورد المجلوب من بامير وهذا بدوره دليل على انتشار مدى التجارة . وأعجب تلك الآثار مقبرة الملكة شوباد البديعة . حيث نجد بقايا الوصيفات والخدم الذين لحقوا بها لخدمتها فى العالم الآخر ، ووجدت بجانب كل جثة من هذه الجثث كأس السم الذى تناولته صاحبته . وتدل هذه المقبرة على وجود نظام اجتماعى طبقى (هيراركى) دقيق وتلت ذلك أسرة «أور» الأولى (حوالى ٢٨٠٠ ق. م.) عندما احتلت مدينة الميناء مركز الزعامة فى العراق ، وكانت تلك الأسرة تستعمل عجلات حربية تجرها الحمير ويبدو أن العجلات كانت عبارة عن أسطوانات صلدة من الخشب (تتكون كل منها من نصفى أسطوانة مركبة فوق محور العربة) . وتدل الأبحاث الحديثة على أن «أور» القديمة كانت تقع على نهر صغير أو جدول ، وليست على ساحل الخليج تماماً كما كان يظن من قبل .

كانت الفترة التى تقع بين عامى ٢٨٠٠ - ٢٣٠٠ ق. م. بالتقريب ، كما يبدو فترة تمتاز بازدهار والتوسع الاقتصادى عامة ، وقد توج هذه الفترة ظهور سارجون الأكادى والغازى المنظم قرب انتهائها أى حوالى ٢٣٥٠ ق . م . بالتقريب ، ويبدو أيضاً أن ملك سارجون قد امتد شمال سومر وغربها ، أى من جارتها الشمالية أكاد إلى سواحل الإسكندرونة على البحر الأبيض المتوسط — وقامت فى هذه الفترة مدينة الميناء أو جاريت (رأس الثمرة) وميناء بيلوس التى كانت تتاجر مع مصر وغيرها من الأقطار .

كان السير « ليو نارد وولى » يحفر حديثاً ألالاخ ، وهى خرائب عاصمة إحدى دول الاصطدام الصغيرة بالقرب من خليج الإسكندرونة . ولهذا العمل أهمية خاصة لأن العراق وبلاد الميتانى وسوريا ومصر والأناضول كانت على صلات تجارية مع ألالاخ ، إذ كانت تستورد منها الخشب . ولذلك وجدت آثار من هذه الأنحاء جميعاً فى طبقات ألالاخ ، وهذا بدوره ساعد على الوصول إلى نتائج حسنة من حيث تعيين عصرها ، رغم أن بعض الآثار - مما لها علاقة بالعبارة — قد تؤدى إلى إفساد التاريخ كله ويبدو أن ألالاخ كانت تتاجر مع سومر منذ أوائل الألف الثالثة ق . م . ثم ساعد بعض الفنانين من هذه المدينة على نشأة كنوسوس بعد ٢٠٠٠ ق . م . مباشرة

كما أثرت ألالاخ أيضاً على قبرص . وكانت الالاخ تستخدم الميناء كثغر لها .

أصاب الاضمحلال والتدهور إمبراطورية سارجون بعد وفاته أى حوالى ٢٣٠٠ ق. م. فشملت الفوضى والتخريب أوجاريت وبيلوس وأور وحصارلك فى آسيا الصغرى . كما سقطت فى نفس الوقت المملكة القديمة فى مصر (الأسرة السادسة) مما سبب الأسى لشعبها . وليس معروفاً حتى الآن العامل الذى أدى إلى انتشار هذه الفوضى وهذا الخراب . وربما كان السبب



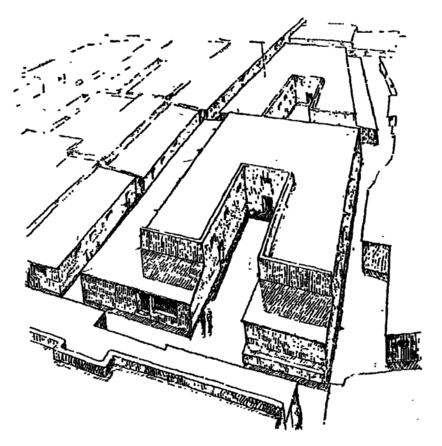
شكل (٣٤)



شكل (٣٤)

فخار من ألالاخ ، به بعض صفات الطراز القبرصى

هو عدم كفاية النظم السياسية الاستبدادية القديمة التى كانت تتخذ من الدين سنداً لها ، أمام مواقف جديدة نشأت من قيام التجارة الواسعة المدى ؛ مما جعل المجتمعات المختلفة أكثر اتصالا بعضها بالبعض الآخر وأكثر اعتماداً بعضها على البعض ، ومن ثم كان لا بد من قوانين أكثر ضبطاً وإحكاما من ذى قبل . وكانت وسط آسيا — فى ذلك الحين — قد بدأت تستيقظ وتنشط نشاطاً كبيراً داخل نطاقها الحشائش وخارجه ، وسنذكر شيئاً من ذلك فى الفصل الخاص بالصين . وربما كان السبب فى هذا تقدم صناعة الآلات المعدنية الدقيقة ، مما جعل فى الإمكان صناعة العجلات ذات



شكل (٣٥)
مخازن الميناء

البرامق الخفيفة ، ومن ثم ازدياد كفاءة العجلات الحربية ، إلا إن هذا جدير بأن يدفع المجتمع إلى فترة من الغزو والفتح والتوسع ، ولا يدفعه إلى التدهور والانحطاط ، وربما كانت وفاة «سارجون» وانهيار إمبراطوريته سبب هذه الفوضى . ويلاحظ من آثار هذه الفترة تغير فى طـــراز الفخار فى سوريا وفلسطين ، وانتشار طراز جديد يمتاز بالقاعدة الضيقة والفوهة العريضة بأنه مصقول صقلا تاما،أحمر اللون من الداخل وأسود من الخارج .ويرى بعض الأثريين أن ذلك الفخار دخل مع الغزاه القادمين من شرق القوقاز،وعرف هذا الطراز فى خربة الكراك بشمال فلسطين ثم فى طبارة غربى خشب .

ومهما كان وجه الحق فى هذه المسألة ، فإنه يبدو أن فترة الاضمحلال قد انقشعت،وقامت الأسرة الثالثة فى أور ، فترة من الزمن ، بينما نشطت أوجاريت وبيلوس مرة أخرى وأنشأتا علاقات تجارية مع الدولة الوسطى فى مصر ، كما نشطت حصارلك فى آسيا الصغرى ، فى فترة كان يطلق عليها فترة حصارلك ٢ ، عرفت بعد ذلك بحصارلك ٣ وقد سبق قيامها حين من الدهر سادت فيه الزلازل وعم الخراب ، وقامت فيه كنوسوس فى كريت لتحتل مركزاً ممتازاً فى التجارة الإيجية . واضمحلت أور فى أوائل الألف الثانية ق. م. وكان فى هذا الاضمحلال نهايتها . ويكاد يرتبط هذا ارتباطاً تاماً بامتلاء خليجها بالطمى ، فلم تعد الميناء تقوم بوظيفتها . كما ماتت أيضاً مدينة كيش Kish بسبب تغير فى مجرى النهر المتعرج . غير أن بابل — من ناحية أخرى — تطورت إلى أن أصبحت عاصمة مركزية وكان حاكمها — فى القرن الثامن عشر ق.م. — هو حامورابى الذى وضعت فى عهده القوانين المشهورة ثم تلى ذلك عصر اضمحلال آخر ، عاصره فى حصارلك فترة استمرت من ١٨٥٠ — ١٥٥٠ ق. م. لم تترك أى أثر لأى نشاط يعتد به ، وقد مرت أوجاريت بفترة فقيرة مشابهة من حوالى ١٧٥٠ — ١٧٠٠ إلى ١٥٠٠ ق . م .

وكذلك مرت بيلوس بنفس الفترة من ١٧٠٠ — ١٥٠٠ ق. م. ومن الممكن أن نستطرد فى ضرب الأمثلة لهذا الركود من محلات أخرى عديدة فى جنوب غرب آسيا . فهذه هى فترة الهكسوس أو ملوك الرعاة فى مصر ، وحلت فى أواخرها فترة الغزو الهندى الأوربى للهند . أى الفترة التى ظهر فيها البرابرة الغزاة ، فوق عجلات حربية تجرها الخيل وسادوا فى كل مكان من حصارلك حتى الهند ، ومن تركستان إلى النيل ، وكان غرضهم أن يتوسعوا وينشروا سلطانهم كطبقة ارستقراطية حاكمة ، ولكنهم سرعان ما فقدوا صفاتهم المميزة بعد أن تزوجوا من فتيات الأقطار المفتوحة وكان من نتائج غزوهم انتشار الحصان وإدخاله فى مصر وأجزاء من جنوب غرب آسيا وإيران و . . الخ . وبدء معرفته صهر الحديد — على ما يبدو — فى آسيا الصغرى ، حيث قام به الشالوبيون Chalybes وما لبثت أوجاريت وأور أن أفاقتنا من هذه الصدمة حوالى١٥٥٥ — ١٥٠٠ ق. م. كما أفاقت مصر أيضاً التى وجدت آثارها — من عهد تحتمس الثالث . فى بيلوس أى حوالى القرن الخامس عشر ق م.

وخرجت مصر من عزلتها القديمة وتحولت من بلد مكتف بذاته إلى قوة توسعية ذات طموح امبراطورى ، وبسطت نفوذها على فلسطين وما وراءها شمالا ، إلا أن هذه الفترة لم تطل كثيراً ، وإن حاول رمسيس الثانى إحياءها فى القرن الثالث عشر ق.م. وربما حدث زلزال فى منتصف القرن الرابع عشر أدى إلى إشاعة الفوضى والخراب فى آسيا وسوريا . وتأثرت بذلك حصارلك وأوجاريت وبيلوس وربما شمال العراق أيضاً .

خلال هذه الفترة الممتدة بين ١٥٠٠ — ١٢٠٠ ق. م. كانت الأناضول قد وقعت تحت سيطرة الحيثيين الذين استمدوا بلا ريب كثيراً من قوتهم وبطشهم من الحديد . وفن صناعة الحديد ، فى حد ذاته بسيط ، وما أسرع

أن انتشر إلى شعوب أخرى بعد ذلك . وكانت مصر قد وقعت تحت سلطة كهنة آمون بعد أن قضوا على الفرعون المارق إخناتون حوالى ١٢٠٠ ق.م. وبعد أن انتهت محاولات سيتي الأول ورمسيس الثانى للتوسع الحربى . وقد أدى حكم الكهنة إلى كبت الآراء وتقييد حرية الفكر والإبداع ، ومن ذلك الحين سارت مصر نحو الضعف . أما بابل فكانت بعيدة عن مصدر الحديد . بينما كان المستعمرون — على ما يبدوا من كريت — يؤسسون ملكا لهم فى أراضى خليج آرجوس الخصبة ذات التربة الحمراء التى تغل محاصيل غذائية وفيرة تكفى عدداً لا بأس به من السكان ، قدموا إليها من شمالها . وقد عاد هؤلاء المستعمرون — كما يبدوا — وحطموا كنوسوس التى ظلت ميناء كريت الأولى فى الفترة بين ٢٠٠٠ — ١٤٠٠ ق . م. ويبدوا أن سكان كنوسوس اضطروا إلى الالتجاء إلى ساحل الأناضول الجنوبى وبعضهم هيم على وجهه حتى استقر على ساحل فلسطين ، وكونوا شعب الفلسطين الذين واجهوا هضبة يهوذا من الغرب . كما هاجم سكان آرجوس — تحت قيادة « بيت ميكينيا » Mycenae الحاكم — مدينة حصارلك (التى أصبحت حصارلك ٧) التى ازدهرت وأثرت على حساب اضمحلال كنوسوس وزوالها . وهكذا انتشر الاضطراب والقلق فى شرق البحر الأبيض المتوسط . كما أن النيران والزلازل كانت قد التهمت الأجزاء القديمة من أوجاريت وبيلوس ، ويقال أن شعوب البحر هى التى أضمرت فيها النيران . واضمحلت قوة الحيثيين ، ومن ثم بزغ نجم آشور حوالى ١١٠٠ ق.م واتخذت نينوى على نهر دجله عاصمة لإمبراطوريتها . وفى هذا الوقت حطم الغزاة الدوريون قوة ميكينيا وحل السيف الحديدى محل البرنزى ، كما حل نظام النسب الأبوى محل النظام الأموى . وربما كانت قوة البحر الجديدة راجعة إلى أنه قد أصبح فى استطاعتها حوالى ١٢٠٠ ق . م . — بفضل استعمال الحديد — أن تشيد سفناً أكبر وأقدر على مواجهة البحر . فلقد بدأ عصر جديد يحل محل عصر قديم ، بآلات جديدة ، وأسلحة جديدة ،

وعادات جديدة ، فى إقليم حضارى عريق . ولقد تغيرت معايير القوى خلال الستة القرون التالية بين بابل ونينوى ودمشق فى جنوب غرب آسيا، بينما كان نفوذ الأناضول أو حصارلك محدوداً فى ذلك الحين . بل أن بيزنطة — على القرن الذهبى — قد حلت محل حصارلك ، حيث كان الإغريق يعدون سفنهم لعبور البوسفور إلى البحر الأسود . وأصبحت المستعمرات الإغريقية حول هذا البحر أهم من الأناضول القارية وتمكنت أثينا بمرفئها البديع فى بيرايس أن تتخلص من فقر بيئتها المحدودة الموارد ذات السفوح سريعة الانحدار ، بأن تغامر فى البحار ، وتحصل على غذائها من سواحل البحر الأسود .

وفى هذه الأثناء سار الفلسطين فى نفس الدورة . إذ ارتفعوا إلى شأن كبير من القوة حوالى عام ١٠٠٠ ق.م. ومنعوا وصول الحديد أو الحدادين إلى العبريين الذين كانوا يسكنون التلال من خلفهم وبدأ عصر طويل من الصراع من الفلسطين والعبريين ، كانت الغلبة فيه أول الأمر للفلسطين ولكن مالبثت الدائرة أن دارت عليهم إذ أنهم هبطوا ساحلا لا يصلح للنشاط البحرى واحتاجوا إلى قوة قاهرة لكى تحولهم من بحارة إلى زراع فى وطنهم الجديد. وفوق ذلك فقد كان معظم المهاجرين يتكونون من الرجال ، فاضطروا إلى التزوج من فتيات السكان الأصليين ففقدوا كثيراً من سماتهم الأصلية دون أن يأخذوا شيئا هاماً يعوضهم عن نشاطهم البحرى المفقود .

وكان العبريون ، فوق التلال ، يتكونون معظمهم من رعاه من طراز السواقة الذين يعيشون على أطراف الصحراء ، ثم تحولوا بالتدريج إلى زراع مستقرين « كل تحت كرمته أو تحت ظل تينته » فى وقت كان المطر فيه أكثر غزارة — كما يبدو — منه فى الوقت الحالى . وقد صحب ذلك ازدهار الحضارة تحت ظل سليمان فى القدس ، ثم عمرى فى سماريا (نابلس). وصحبه أيضاً مروق يتكرر من عبادة يهوه ، إله الرعاه الى عبادة بعل اله الزراع وعشطروت

إلهة الخصب وغيرهما من آلهة المنطقة . وقد أدى خضوع سماريا ، ثم القدس بعدها لقوة العراق إلى نتائج عميقة أثرت فى تطورهم الفكرى . إذ اتصلت الجماعات العبرية التى نقلت إلى بابل أو عاشت فيها بالفكر الزرادشتى ، رغم تمسكهم بتقاليدهم التى خلصها الملك يوشع من الشوائب البربرية . ويصور الفكر الزرادشتى العالم على أنه مسرح تتصارع فيه مبادىء الخير والشر ، بين أهورا مازادا وأهريمان بين النور والظلام ، وقد أخذت عقيدة يهوه كثيراً من هذا الاتصال الفكرى ، فظهرت — مع مضى الزمن — فكرة الشيطان لدى العبريين ، كتجسيد لفكرة الشر التى يمثلها أهريمان . ولا نعرف إلى أى مدى ساهمت فكرة زيت Set المصرية فى صورة الشر لدى العبريين .

بينما تقلص النشاط البحرى على الخليج الفارسى وساحل مَكران ، فى الألف الثالثة ق. م. إذ به ينشط ويتزايد فى البحر الأحمر . ويبدو أن هذا النشاط قد احتل أهمية خاصة فى مصر فى عصر الأسرة الثالثة ، عندما كانت السفن تحمل إليها البخور والمر واللبان وغيره من المواد من الأقطار التى تحف بخليج عدن ، وكانت هذه المواد تستعمل فى التحنيط وفى إطلاق البخور فى المعابد . واستمرت تلك التجارة عبر القرون أحياناً تزدهر وأخرى تضمحل ، ولدينا الدليل على ذلك فى نقوش معبد الدير البحرى قرب وادى الملوك فى مصر العليا . وهى تصور التجار ذاهبين إلى بلاد بونت وعائدين بالبخور وغيره من منتجات أيام الملكة حتشبسوت (فى أوائل القرن الرابع عشر ق. م.)

وقد أدى اضمحلال مصر والاضطراب السائد فيها حوالى ١٢٠٠ ق . م . إلى نشأة طرق تجارية جديدة . فاختفت أوجاريت وبيلوس من المسرح وحلت محلها صيدا ثم صور بعد ذلك ، وأصبح لها مكانة ممتازة فى التجارة ، واستخدم حيرام ملك صور سلطة سليمان فى تنمية تجارة البحر الأحمر . ولا نعلم إلى أى مدى جاء الفينيقيون (ونعنى بذلك التجار) من أوجاريت

أو من بيلوس ، وإن كان ثمت تجار أريحيون بينهم أو إلى أى حد كانت بعض أصولهم ترجع إلى العراق. ولكننا نتفق جميعاً على أننا ندين للفينيقيين بطريقة الكتابة التى تعتمد على حروف هجائية .

كما أدى اضمحلال نشاط ميكنيا وطروادة البحرى إلى فتح مجالات واسعة أمام الفنيقيين بعد عام ١٠٠٠ ق م فقد غامروا بالقيام برحلات بحرية جريئة طويلة المدى . ويدل على ذلك قرطاجه بالقرب من تونس الحالية ، وطرشيش فى بلاد الأندلس الحديثة، وقرطاجة جنوب شرق أسبانيا وايبيزا فى جزر البليار.

ويصور لنا الإصحاح السابع والعشرون أونبوءات حزقيال صوره شاملة لتجارة صور حوالى منتصف الألف الأولى ق. م.

وكان يعاصر الغزو الآرى لفارس فى أوائل عصر الحديد تغيرات مشابهة فى الهند وقيام أسرة تشو ونظامها الإقطاعى فى شمال الصين، وقيام الاسكيذيين فى عهد متأخر نسبيا فى جنوب روسيا . وهذه التغيرات جميعاً تصور ضغط سكان الاستبس فى داخلية آسيا وجنوب روسيا على السكان الزراعيين المستقرين ، وهى جميعاً متصلة بالمحاربين الذين يستخدمون الخيل والعجلات الحربية . إلا أن غزو فارس حمل معه تصوراً جديداً للقوة . فقد كان الغزاة من قبله يقتلون الشعوب المقهورة أو يستعبدونها أو ينقلونها قسراً من مكان إلى آخر ، غير أن قورس Cyrus القاهرة أختار أن يكون ملكا للملوك على أن يكون نائباً لها . أى أن نظام الحكم فى فارس عنى بإقامة نظام يعتمد على تعاون المغلوبين مع الغالبين ، ولذلك أطلق سراحهم ، فأعاد إليهم كراماتهم وأمنهم على تقاليدهم ومعتقداتهم وأعطاهم شيئاً من الحكم الذاتى . بل واعترف بآلهة الشعوب المختلفة الداخلة فى ملكه . فكان ملك الملوك على استعداد كى يقدم القرابين ليهوه وشموش (إله الشمس) أو آمون رع عندما تسنح له الفرصة لزيادة شعوبها .

وأهتم الغزاة الفرس بتحسين سبل المواصلات ، فعبدوا الطريق الملكى من سوسا على الحدود الفارسية حتى ساردیس فی آسیا الصغرى عن طريق وسط الأناضول . وقد عززهذا الطريق مزوداً بآخر يمر فى طورس القليقية جنوب الطريق الأناضولى الأوسطوكان هذا الطريق مزوداً بمحطات تستريح فيها القوافل ، وتستبدل فيها الخيول . ورغم أن فارس كانت مستبدة ، إلا أنها اختارت أن يستفصل إليها الشعوب المحكومة على أن تستعبدها ، وقد حاولت بقدر استطاعتها أن تنشر أفكارها عن التسامح وحكم القانون ، إلا أن هذا كان يعتمد على حكمة ملك الملوك المستبد وبعد نظرة .

ومن المحتمل أن الفرس هم الذين أشرفو على إقامة خزانات عدن ، وأن إعادة تعمير الواحة الخارجة بمصر بعد آلاف السنين قد تم أثناء الحكم الفارسى . إذ كان الفرس خبراء الهندسة المدنية ، وفى تدبير شئون الأرض وتدل خزانات عدن على أن الأمطار الساقطة وقتئذ كانت أغزر من الأمطار التى تسقط الآن .

ولا نحتاج لتكرار القصة القديمة عن الصراع بين الفرس والإغريق وهزيمة الفرس فى معركة سلاميس على يدالبحاره الأغريق.فطريق الاستبداد قد يؤدى إلى اضمحلال الحكومة المركزية وهذا يؤذن بالانهيار إذاتحداه من هو أبعد نظراً وأكثر حيوية . فقد استطاع الاسكندر المقدونى — فى حياته القصيرة — أن يبسط نفوذه لا على الإمبرطورية الفارسية من تركستان والهند إلى مصر فحسب ؛ بل على بقايا المدن الإغريقية القديمة أيضاً . وتدل المدن والأمصار على مقدار حيوية هذا الفاتح وقوة بصيرته .إذ سعى فى ربط البحر الأبيض بالهند وآسيا ، فأدى هذا إلى فتح طريق للحرير الصينى فبدأ يتدفق غرباً بكميات كبيرة ، فى أواخر أيامه أو بعد وفاته بقليل . وجدير بنا أن نلاحظ أن مجهودات الإسكندر المقدونى لم تكن بعيدة — من حيث

الزمن — عن مجهودات أزوكا Asoka المشابهة فى الهند أو مجهودات شن شيه هوانج التى أعقبها قيام أسره هان فى الصين . والغريب أن أمبرطوريتى الإسكندر وأزوكا كانتا قصيرتى العمر ، بينما كتب لأسرة هان الصينية أن تعمر طويلا إذ أنها قامت على أساس متين من تجانس السكان . ورغم قصر عمر إمبراطوريتى الإسكندر ، فقد أستطاعت الثقافة الإفريقية أن تؤثر تأثيراً أبق وأعمق فى ثقافات الشرق الأوسط ، وأنشأت ثقافات بلغ من تأثيرها بالإغريق أن سميت بالثقافات المتأغرقة (الهيلينستية) .

وتركزت جهود الرومان بعد الإسكندر فى الرغبة فى حماية البحر الأبيض المتوسط من الاغارت ، ومن ثم دفعوا حدودهم إلى ما وراء حدود هذا البحر الذى كان فى الحقيقة مركز لقوة برية . وقد سمحت نظم الرومان القوية ببقاء الطقوس والعبادات المحلية طالما لم تتطلب من الشعب أن يخلص لها وحدها ولاءه وبذلك يحجب ولاءه عن الإمبراطورية . وقد استخدمت الإمبراطورية الفكر اليونانى والمهارة اليونانية فى التجارة . ومدت حدودها الشرقية حتى نهر دجلة أو الفرات ولكنها قصرت عن جبال زاجروس ، التى بدأت عندها قوة الفرس القديمة تحت سيطرة البارثيين Parthians كما امتدت حدودها الشمالية إلى تخوم الاستبس الروسية ، عبر دبروجه ، كما أنشأوا ولاية من ولايات الحدود حكموها زمنا ما أسماها داشيا شرق نهر تيزا Tisza وسميت فيما بعد بترانسلفانيا . وعندما أصبحت هذه الولايات أهم الولايات من الناحية الاستراتيجية ، إنتقلت العاصمة إلى بيزنطة (التى سميت بالقسطنطينية فيما بعد) قريباً من منطقتى الخطر وقد تفوق الرومان على الفرس فى ميدان الهندسة المدنية ولاسيما بما أنشأوه من جسور وقناطر وطرق وكبارى كما أنهم كانوا فى غاية السخاء فى منح الجنسية الرومانية ، وأصبح القانون على أيديهم أكثر نزاهة وانتظاماً وموضوعية إلا أن الإغراق فى الترف واستغلال القسوة كانت أموراً لطخت النظام الرومانى فإذا أضفنا إلى هذا اتساع رقعة الإمبراطورية واختلاف أقاليمها ، التى جعلت

من الضرورى قيام أوتوقراطية عسكرية أدركنا كيف حلت الكارثة بالإمبراطورية ولاسيما عندما احتكت بشعوب الصحارى التى تتاخمها .

علينا أن نرجع القهقرى قليلا من الزمن لكى ندرس بعض معالم النشاط البشرى على طول الطرق القارية فى جنوب غرب آسيا . ويبدو أن التجارة بين الخليج العربى (الفارسى) وسوريا ، وشرق البحر المتوسط والأناضول والبحر الأيجى كانت مستمرة منذ الألف الثالثة ق . م . وربما كان للتجار العراقيين (من سومر) وكالات تجارية فى قارا أيوك Kara Enyuk فى الأناضول حوالى ٢٠٠٠ ق . م ، وكانت هذه الوكالات مثالاً قديماً لطراز من العمران اتخذ أهمية خاصة فيما بعد ، مع نمو التجارة فى العصور الهيلينستية الرومانية .

وقد ظهرت من بين محطات القوافل فى الداخل مدينة دمشق ، كعلم فرد ذات أهمية دائمة وسط عالم مضطرب من تذبذب القوى السياسية والتجارية . وقد ساعد على استمرار قيام دمشق موردها المائى الذى لا ينضب ، وهو نهر بردى الذى يشق طريقه فى خانق جبلى حتى يصب فى الغوطة ذات المراعى والحقول . وتقع دمشق على الطرف الجنوبى الغربى لطريق طويل يتبع سفوح التلال حتى نهر الفرات وهو طريق لا يعدم بعض العشب فى فصل الشتاء . ولا نعرف شيئاً عن دمشق قبل عصر الحديد ، فهذا موضع مستمر العمران ولا يمكن أن تجرى فيه الحفائر دون إزالة مبانيه العريقة . إلا أننا لا يخالجنا الشك فى أهميته فى بعض العصور ، وقد بلغت دمشق ذروة أهميتها فى صدر الإسلام تحت حكم الخلفاء الأمويين (حوالى ٦٦٥ — ٨٥٠ م) .

ونحن نعرف بعض المدن الأخرى مثل سلع (بترا) وبصره وجراش وتدمر معرفة تامة ، وهذه المدن بلغت ذروة قوتها فى العصر الهيلنيستى والرومانى ، بعد أن تأسست طرق القوافل تحت حكم الفرس . إلا أن هذه

الطرق كانت معروفة قبل الفرس ، ولا سيما بعد أن ظهر الجمل ذى السنامين (البكتيرى) فى أواخر الألف الثانية ق . م ، واستعمل كحيوان للحمل . ثم ازدادت أهمية الجمل ذى السنام الواحد فى أوائل الألف الأولى ق . م ، وحل محله فى الطرق التى تصل بين الخليج العربى (الفارسى) وشرقى البحر المتوسط ، ويرى بعض المؤرخين أن الأشوريين قد أصلحوا الطرق الصحراوية إلا أن الفرس — كما رأينا — هم الذين قاموا بخطوات هامة نحو هذا السبيل ، وتقع سلع (بترا Petna) فى منتصف الطريق بين خليج العقبة وشرقى الأردن تقريباً فى موضع دفاعى ممتاز ، محصنة بين شعاب الجبل وجروفه المرتفعة . وقد بلغت أهميتها تحت حكم الفرس ثم اضمحلت بانتهاء نفوذها ، وعادت أهميتها مرة أخرى تحت حكم الانباط فى القرن السابق للميلاد مباشرة وقد استمرت أهميتها فى أوائل عهد سوريا بالحكم الرومانى ، إلا أن بصرى ، فى شرق الأردن ، أصبحت مركز الطرق الرومانية كما قامت جيراكش جنوبها واضمحلت سلع (بترا) فى عهد تراجان . وقد اضمحلت هاتان المدينتان بدورهما فى القرن الثالث الميلادى وعادتا إلى الازدهار فى أوائل القرن الرابع باشتداد قبضة الإمبراطورية عليها . ولكنهما سرعان ماذوتا بأنهيار الإمبراطورية ، إلا أن بعض المدن ، مثل جيراش استعادت شيئاً من انتعاشها تحت حكم جستنيان (القرن السادس الميلادى) أى فى الدولة البيزنطية الرومانية .

قامت تدمر Palmyra فى موضع لايمكن الدفاع عنه ، كمركز تجارى قرب الفرات ، بين الإمبراطورية الرومانية والأمبراطورية البارثية ، ويبدو أن كلا الطرفين قد اعترف بمركزها الوسيط هذا . ومن ثم لم تخش شيئاً سوى الأغارات البدوية القليلة ، وازدهرت وأثرت ثراء كبيراً . ومن المعروف أنها كانت تتاجر فى الأقمشة الحريرية الصينية . وقد انتهت تدمر بعد صراع الملكة الزباء مع الإمبراطورية الرومانية ، صراعاً ختم باستسلامها ونفيها إلى روما حيث عاشت بقية حياتها كسيدة رومانية .

أما نصيبين فهى موقع ذو أهمية دائمة . وهى تقع شمال غرب الموصل وقامت بوظيفة قلعة تحمى التخوم بين الأمبراطورية الرمانية من جانب وبين المملكة الفارسية البارثية من جانب آخر . ولا تزال قائمة حتى الوقت الحالى .

وقد المدن القائمة على حافة الصحراء كلها — فيما عدا دمشق — تعتمد فى مورد مياهها على إنشاءات خاصة تحتاج لمهارة كبيرة لصيانتها ، ومن ثم كانت الفوضى تعنى الخراب لمثل هذه المدن ، إذا ليس من السهل إصلاح نظم الرى إذا أصابها خلل ، وكان لمعظم المدن — فيما عدا تدمر — قلعة Acropolis للدفاع عنها ، ولتكون حصناً يلجأ إليه سكانها وقت الخطر . ومن الخطأ أن نستنتج من انهيار هذه المدن أن المناخ قد تغير ، اللهم إلا إذا سلمنا باحتمال ازدياد الأمطار زيادة طفيفة وانتظام سقوطها فى العصر الفارسى والهيلينستى وأوائل العصر الرومانى . وتزداد الأمطار من إلى آخر ، مدة كلا خمس سنوات فى الوقت الحاضر ، فيؤدى هذا إلى اتساع مساحات الكلأ .

وكانت المسيحية وربما تتطلبه من ولاء كامل لها — أحد العوامل الهامة التى أدت إلى انهيار الأمبراطورية الرومانية . ومع مرور الزمن أدت إلى ظهور نزعات توحيد به مطلقة أشد عداء الإمبراطورية على حدود شبه جزيرة العرب[1] ، وقد انتشرت الدعوة الإسلامية التى لا تخضع إلا لله وحده ، والتى اعتمدت على الفتوح الإسلامية فى بقايا الأمبراطورية الرومانية

---

(١) لعل الكاتب يشير هنا إلى تأثر الدعوة الإسلامية بالمسيحية ، والمسلم يؤمن بالوحدانية المطلقة لله تعالى وحده لا شريك له . وأن الإسلام والمسيحية واليهودية وهى الديانات التوحيدية الكبرى التى ظهرت فى هـــذه المنطقة من أصل واحد (المعرب) .

فى جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا . وإن سرعة انتشار الإسلام فى فارس وتركستان لدليل على قوة تأثير الثقافة الهيلينسينة أيام الاسكندر وبعده .

وكان لانتشار الإسلام الواسع آثار عميقة هامة . فقامت بغداد عاصمة عراقية جديدة ، شمال اتصال نهر ديالا بنهر دجله بقليل . ويصل طريق نهر ديالا نحو كرمنشاه ، أى أنه طريق يخترق الجبال نحو شمال العراق ، ومن ثم عن طريق مشهد إلى تركستان وهو الطريق الذهبى إلى سمرقند . وقد تلت الخلافة العباسية الأمويين فى زعامة المسلمين . وقد امتازت الحضارة الإسلامية بالتأثر بالإغريق ، بالعلم الإغريقى ، والطب الإغريقى ، والفكر الإغريقى من نواح عديدة ، وشجع العباسيون الترجمة من الإغريقية إلى العربية ، وبذلك أنقذوا التراث الإغريقى الكلاسيكى للأجيال القادمة ، وتسلمت أوربا هذا التراث عن طريق مدرسة الطب فى ساليرنو . وعن طريق قرطبة فى أسبانيا الإسلامية .

وعلينا أن نلاحظ نحن فن الفخار الذى انتشر فى الصين فى عهد أسرة تانج غرباً إلى فارس ، ومن ثم وصل إلى بغداد ثم تابع انتشاره نحو الغرب عن طريق أسبانيا ، وعلينا أيضاً أن نتذكر أن تجارة المحيط الهندى قد تمت فى صدر الإسلام ، وأن هذه التجارة كانت مسئولة عن إدخال المواح إلى أراضى البحر الأبيض المتوسط .

وإذا تأملنا الحجاز وسوريا والعراق وفارس وتركستان لأدركنا فى الحال صعوبة تحقيق وحدة كاملة تضم هذه العناصر المختلفة ذات المواصلات الصعبة . ولا ريب أن الأمر ازداد صعوبة فى عهد الحكم المطلق الذى كانت بيد أسرات ، يتلو بعضها بعضا . وقد أدى الصراع للوصول إلى السلطة إلى اضمحلال بغداد وسقوطها ، ثم إلى الغزو المغــولى الكبير فيما بعد ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، مما جلب الخراب النهائى لجنوب غرب آسيا . فقضى على نظم الرى التى أصبح من الصعب حتى القرن العشرين الفنية إصلاحها .

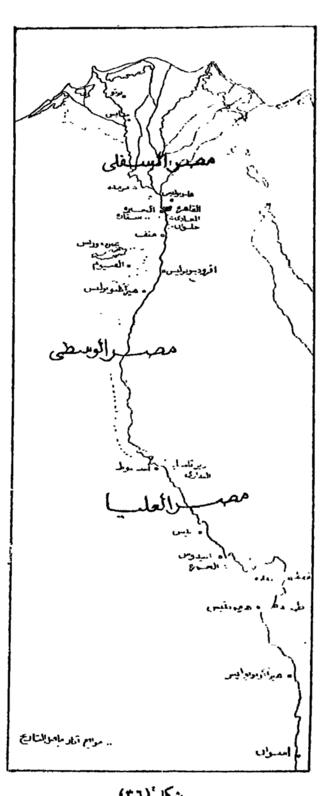
الفصل الخامس

شمال افريقية

امتاز العصر الحجرى القديم فى شمال غرب أفريقية بصناعة حجرية قزمية طالما أطلق عليها اسم الحضارة القفصية العليا ، ونسبة إلى قفصه فى تونس وقد طال الجدل حول العلاقة بين شمال وغرب أفريقية وشبه جزيرة أيبريا من حيث صناعات العصر الحجرى القديم ويتجه الرأى الآن إلى أنها انتشرت من أيبريا إلى أفريقية . ويبدو ان صناعات العصر الحجرى الحديث قد فرضت على هذه الصناعة الحجرية القزمية التى تمتاز بالنصال والسهام الدقيقة ويبدو الآن أن قصة تطور العصر الحجرى القديم المتأخر فى وادى النيل الأدنى مختلفة عن هذا . فآخر العصر الحجرى القديم ـ حسب حزين ـ يمتاز بصناعة آلات حجرية من نواة مشظاه من كل جانب (وتسمى عادة التشظية من الوجهين) ونسبة هذه الآلات المشظاة أكبر من نسبة آلات الشظايا أو النصال أو السهام التى تشظى من جانب واحد تفصل من النواة . ورغم أن النصال والسهام كانت تصنع فى ذلك العصر إلا أنها — حسب حزين أيضاً — ظلت غير متخصصة ، بينما تطورت صناعة آلات النواة . ومن ثم لم تكن الصناعات الحجرية قبل الحديثة Bre - neolithic أو طلائع العصر الحجرى الحديث Rroto - neotlihic المصنوعة من النواة . أو التى تمتاز بالفأس، صناعات قادمة من الخارج ومفروضة على صناعات قديمة محلية كما هى الحال بالنسبة للحضارة القفصية ، بل كانت تطوراً محلياً لم يمنع من تقبل صناعة شظايا صغيرة تسمى بالسبيلية فى فترة متأخرة فيما بعد . ويطلق حزين اسم الصناعة الفيومية على صناعة النواة الحجرية قبل الحديثة . ويرى حزين أيضاً أنها كانت من المعالم التى ميزت حضارة السكان الذين كانوا يعيشون على مستوى بحيرة قارون المرتفع الشمالى ، عندما بدأ المطر الغزير فى القلة ، فاضطر الانسان إلى الهبوط من حافتى الهضبة إلى أطراف وادى النيل الجافة ، قبل أن يبدأ فى تجفيف مستنقعات وحفر قنوات الرى . ولا بد وأن فيضانات النيل كانت شديدة الارتفاع ، نتيجة للأمطار الغزيرة التى كانت تسقط فوق جبال الحبشة،ومن ثم حمل النهر كميات ضخمة من الطمى الأسود

الخصب وأرسبها فى مصر السفلى . ونشأت محلات مرمدة غرب دلتا النيل ودير تاسا فى مصر العليا فى عهد مبكر، وربما عاصرتهما أيضاً محله البدارى جنوب أسيوط . وقد وجد فى دير تاسا بعض الأوانى الفخارية الجميلة التى تشبه زهرة الخزامى (التوليب) كما وجدت فى أوانى دير تاسا الفخارية بقايا حبوب . وتركت البدارى أيضاً بعض الأوانى الفخارية الجميلة ، ذات سطح أسود مصقول ، كما وجدت بها أوانى عادية . ومن مميزات هذه الحضارة أيضاً تماثيل نسوية صغيرة منحوته من العاج ورءوس سهام ذات قواعد مجوفة ومشرشرة ، وبعض نصال الصوان المصنوعة بالضغط ، وبعض ألواح الإردواز وإناء محفورة من العاج ، غير أنه وجد أيضاً دبوس نحاس ، وبعض الحلى النحاسية ولما كانت هذه الحضارات سابقة لما يسمى بعصر ما قبل الأسرات ، فقد قدرت لها تواريخ قديمة جداً وقد قدر أو بولنغ فى تقدير عصر ماقبل الأسرات بنحو ٢٠٠٠ سنة،وربما كان الأوفق أن يقدر له ١٥٠٠ سنة أو أقل من ذلك بقليل ، ومن ثم لا نحتاج أن نفترض أن دير تاسا أو البدارى أو مزامنه أقدم من ٥٠٠٠ سنة ق.م. ولا ريب أن فخار دير تاسا يوحى بفترة طويلة من التطور سبقت زهوره ، وربما كان ذلك فى جنوب غرب اسيا وليس فى حوض النيل .

الرأى السائد الآن حول أصل زراعة الحبوب والرى يؤكد أهمية نطاق يمتد من فيليقية إلى شمال فارس ، ولا تخلق اثار تيرتاسا أو البدارى فى مصر أى صعوبات فى وجه هذا الرأى،إذ أنها تدل بشكل واضح على أثر حضارى اسيوى . ولقد كانت تحف بالنيل مستنقعات واسعة، تنمو فيها الأقصاب والحشائش ، وكانت الفضيانات العالية لاتزال تغرق وادى النيل الأدنى كل عام وتجلب إليه الطمى والغرين من هضبة الحبشة ، وكانت الأودية الجانبية تصب فيه بالماء الفصلى كل عام من تلال البحر الأحمر . وكانت الدلتا غاصة بالمستنقعات ومن المحتمل أن ارتفاع مستوى الأرض ، سواء كان بفعل



شكل (٣٦)

مصر فى عصر الأسرات

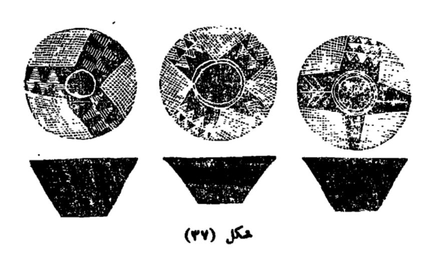
الأرساب أو بغيره خـلال عصر ما قبل الاسرات أدى إلى تقلص مساحة المستنقعات بزيادة تعميق النهر لمجراه . وكانت تلك المستنقعات التي تحف بالنيل الأدنى وتغطى دلتاه مليئة بحيوانات فرس النهر والتماسيح بينما كانت قطعان الحمير والضأن البريه والغزلان تمرح على جانبيه .

تمكن الأستاذ فلندرز بترى وهو يبحث جبانات ديوسبوليس بارفا Diosqol!o parva من أن يرتب الأوانى الفخارية ترتيبا متتابعاً حسب شكل الأوانى وطرق صناعتها ودرجة جودتها ورقم تلك الرتب المتتابعة من ١ إلى ١٠٠ . وقد ترك من رقم ١ إلى رقم ٢٩ لما عساه يظهر فى المستقبل وبدأ تاريخه المتابع من رقم ٣٠ ووضع أوائل عصر ما قبل الأسرات من ٣٠ إلى ٣٨ وأواسط عصر ما قبل الاسرات من ٣٩ — ٦٢ وأواخـر عصر ما قبل الاسرات من ٦٣ — ٧٨ . أما رقم ٧٩ فيتفق مع بدء عصر الاسرات .وتمتاز بعض المراحل بافتقار المقابر إلى الفخار.ومن الممكن أن نجد فى بعض المراحل مقابر غنية وأخرى فقيرة فى نفس الوقت دون أن يعنى هذا أى تتابع زمنى ، وربما غالى فلندرز بترى فى طول فترات عصر ما قبل الاسرات وفى أرقام التاريخ المتتابع . وقد كان الرأى السائد — وقتا ما — ان الزراعة وإستئناس الحيوان دخلا مصر أثناء عصر ما قبل الاسرات ، وربما فى أواسط هـذا العصر،ولكنه لابد من العدول عن هذا الرأى،إذا كان أهل ديرتاسا عرفوا زراعة القمح ، وإذا كانت ديرتاسا أقدم من عصر ما قبل الاسرات. إلا أنه مما لا شك فيه أن الزراعة أنتشرت واسعاً فى أواسط عصر ماقبل الاسرات ولاسيماوإن النيل كان نشطاً فى حفر مجراه،مما ساعدعلى تصريف المستنقعات واتساع رقعة الأرض القابلة للزراعة .

كان بعض فخار أوائل عصرماقبل الأسرات بسيطاً لونه أحمرأو أسود شبيها بما وجد فى البدارى، وكما وجدبعض أوانى تزينها نقوش متقاطعة ملونة باللون الأبيض بشكل يوحى بأنها صنعت على نمط السلال . ولم توجد هـذه

والأوانى فى الجنوب تجاه النوبه ، ومن ثم اقترحت حافة الدلتا كموطن نشأت هذه الصناعة ، ثم صعدت مع النيل إلى الصعيد . ويرى بترى أنها جاءت من ليبيا ، غير أن ليبيا كانت صحراوية لا تتفق ظروف بيئتها مع أنماط السلال إلا أن بعض دارسى تاريخ المناخ ، يقولون إن قدراً لا بأس به من المطر كان يسقط قبل ٤٠٠٠ ق . م . كما أننا نعرف أن أوديه المقطم كانت لاتزال تجرى بالماء على الأقل فى فصل واحد ، فى ذلك الحين .

ثم ظهر طراز آخر للفخار الأسود على نمط السلال ، قبل ان يختفى هذا الصنف فجأة ويبدو ان هذا النمط الجديد جاء من أطراف الدلتا أيضاً ، إلا إن هذين النمطين لا يمت أحدهما للآخر بأدنى صلة.وقد استمر النمط الجديد طوال عصر ماقبل الأسرات . ويبدو أن فترة عصر ماقبل الأسرات الأوسط يمتاز بتقدم كبير فى فن الصناعة . وقد ذكرنا من قبل ان النيل ربما كان قد نشط فى تعميق مجراه مما ادى إلى إنكماش المستنقعات واتساع رقعة الأرض القابلة للزراعة ويرى فرنكفورت ان جماعات من البشر هاجرت إلى وادى النيل عن طريق الحمامات بالقرب من قنا فى مصر العليا ، بينما يرى نيوبرى أن آخرين هاجروا من حافة الدلتا الغربية ، أى من منطقة مريوط التى ظلت أمدا طويلا منطقة وسطى بين الصحراء والريف المزروعة حيث تغرس أشجار التين فى رمال الصحراء الصفراء ، وحيث يزرع البدو — الذين يربون الإبل فى الوقت الحاضر — محاصيل الشعير الضئيلة ويحيون حياة نصف بدوية وقد ترك عصر ماقبل الأسرات الأوسط أراضى فخارية غير مزركشة ذات مقابض أفقية مموجة ويقال أنها سورية الأصل ، وربما وفدت من شمال سوريا ويظن إن اصحاب هذه الحضارة وقد جلبوا معهم زراعة الكتان. إن لم تكن قد عرفت فعلا فى مصر . ويذهب نيوبرى إلى أبعد من هذا فيظن أن هؤلاء المهاجرين قد اخترعوا الكتابة الهيروغليفية بعد أن استوطنوا مصر . أما المعدن — على شكل نحاس — فقد أصبح أقل ندرة من ذى قبل . إذ تركت لنا ادوات كالأزميل والخناجر مصنوعة منه . كما نمت صناعة الصوان المصقول بالضغط نمواً كبيراً ، وتميز العصر أيضاً بنمو صناعات الترف من الذهب والفضة والأحجار شبه الكريمة .



شكل (٣٧)

فخار مزين بخطوط متقاطعة

ويقال إن سكان جبال البحر الأحمر — بين مصر العليا والبحر الأحمر — كانوا أول من صنع الأوانى الحجرية وقد ذكرنا من قبل أن شعب وادى الحمامات — بالقرب من قنا فى الصعيد، هبط إلى وادى النيل فى أواسط عصر ماقبل الاسرات ، ولقد تطور فى صناعة الأوانى الحجرية تطورا كبيرا ، وربما فضل المصريون — فى ذلك العهد — المرمر (الألابستر) بعروقه الجميلة وشفافيته لصنع تلك الأوانى ، كما أنهم صنعوها من الحجر الجيرى والسيفيث والبازالت ، بل وبعض الصخور البللوريه . وقد تعلم الفنان أن يستفيد من عروق الصخر وتنوع الألوان والبللورات الموجودة بين الطبقات وغير ذلك ، ويدخلها فى نظام زخرفته . ويعتبر إناء بللورى ، ربما صنع فى عهد الأسرات الأولى وليس فى عصر ماقبل الأسرات ، أحد الكنوز الهامة التى عثر عليها اخيرا فى حفائر حلوان ، على بعد بضعة أميال قليلة من القاهرة وكانت الأوانى المصنوعة من الحجر تتطلب حذقا أكبر ومجهودا أشق من الأوانى الفخارية ومن ثم كانت قيمتها العظيمة ، وكان بعضها يشبه البرميل وبعضها منتفخاً قرب القاعدة ، وكان لكل من هذين الطرازين مقابض أسطوانة أفقية ذات ثقوب لتعلق منها . وكانت بعض الأوانى أسطوانية

الشكل ذات قاعدة مسطحة ، ولكن هذه لم تكن تعلق غالباً كما كانت تعلق الأوانى السابقة . وربما كانت تجدل حبال حول هذه الأوانى الثمينة لوقايتها من الكسرة وقد شهد عصر ما قبل الأسرات الأوسط إدخال الفخار الملون (وربما أيضاً الآتون) إلى مصر أو ربما كان هذا من جنوب غرب آسيا ، إلا أن كثيرا من نماذج هذا الفخار تختلف عن فخار جنوب غرب آسيا . وقد حدث كثيراً أن انتقلت فكرة عامة من مكان إلى آخر ، ثم اتخذت لها وسائل مختلفة للتعبير فى هذا المكان الجديد . فمن نماذج طلاء الفخار ، الشكل الحلزونى ،الذى يذكرنا بالحبال المجدولة الحلزونية التى كانت تلف حول الأوانى الحجرية ،ومن نماذجها أيضاً أشكال القوارب بالمجاديف ، وأشكال السفن ذات المقدمة والمؤخرة المرتفعتين ، ولما كانت السفن النيلية ليست مرتفعة المقدمة والمؤخرة ، وكانت السفن السومرية تمتاز كما يقال بهذه الصفة كان لهذه الصورة أهمية خاصة ، وكان النيل فى مصر وسيلة مواصلات ميسرة ، ومن ثم لم تتطور الطرق البرية أو النقل البرى فيها كما تطور فى جنوب غرب آسيا .

وقد أضاف المهاجرون الجدد القادمون من تلال البحر الأحمر شرقى قنا ومن حافة الدلتا الغربية ، ومن الاتجاه السورى ، إضافة هامة كبيرة لسكان مصر فى ذلك العهد . ويسجل هذا الصراع بين المهاجرين والأصليين ومن المهاجرين بعضهم والبعض الآخر فى عصر ما قبل الأسرات الأوسط نقش على يد مدية عاجية وجد فى جبل الأراك ويمثل صراعا بين مجموعتين من الناس .

ويرى فرانكفورت أن الأوانى السورية الأصل ، ذات المقابض المتموجة كانت تحمل زيت الزيتون من سوريا ، بينما يرى نيوبرى أنها كانت تحمل البخور والبهارات . ويقال إن شجرة الزيتون ليبية أكثر منها آسيوية ، إلا

أن هذا الفرض لا يزال فى حيز الحدس والتخمين . وقد توقف استيراد هذه الأوانى فى آخر عصر ما قبل الأسرات ، حتى إن هـذا ليفصل ما بين عصر ما قبل الأسرات الأوسط وعصر ما قبل الأسرات الأعلى .

وقد أشير كثيراً إلى أن المطر قد قل فى عصر ما قبل الأسرات الأعلى ، وكان من نتيجة ذلك أن دخلت الدلتا قبائل بدوية من الشرق ، كما أطبقت عليها قبائل بدوية من الغرب ، سميت فيما بعد بالتحنو ، وكانت أميل إلى الشقرة قليلا . ويبدو أنها استأنست الحمار ، ولا يزال الحمار فى مصر حيوانا مميزاً للحياة الريفية . وازداد استخدام الأوانى الأسطوانية ، كما كان الناس لا يزالون يستخدمون الأطباق الإردوازية التى لم تعد تشكل على هيئة طيور أو حيوانات واختفت الأمشاط العاجية ، وإن كان العاج يستعمل فى عمل الدبابيس . وربما كان فرس النهر أقل انتشاراً أو كان العاج يستخدم فى صناعة أشياء أخرى . وقد ظهرت حفائر حلوان الحديثة وأشكال عاجية تمثل بعض مظاهر الحياة المصرية فى بدء عصر الأسرات . كما أن المعدن أصبح أكثر شيوعا وآلات الصوان أقل شأنا ، وإن كانت لا تزال تستخدم فى صناعة المدى بكثرة .

شُغل مصطفى عامر طويلا بالحفر فى المعادى ، ما بين القاهرة وحلوان ، وعلى حافة الصحراء بين تلال المقطم والنيل ، ولا ريب أنه عندما ينتهى تماماً من تقريره عن هذه الحفائر سيضيف كثيراً إلى معلوماتنا . ونعرف الآن أن المعادى كانت آهلة بالسكان فى أواخر عصر ما قبل الأسرات. وكانت أودية المقطم على الأقل لا تزال نشيطة عندما سكن الناس المعادى لأول مرة . ووجد بها صوامع كبيرة ، وكميات كبيرة من الصوان ، معظمها مدى ومكاشط وقواقع ذات حافات قاطعة وملاكيت ونحاس وفخار ملون وخام الحديد وغيره . ويبدو أن الآثار التى وجدت فى المعادى تجعلها أكثر ارتباط بسوريا

وجنوب غرب آسيا منها بمصر العليا . ويهمنا أن نذكر هنا أن مقابر المعادى كانت لشعب قصير القامة (أنظر ما سنقوله عن هليوبوليس فيما بعد) . ولم يكن الصوان المصقول شائعاً بين الآلات القاطعة .

أما فى هليوبوليس ، وهى أيضاً على حافة الصحراء والأرض المنزرعة ، فقد أجريت حفائر حديثاً ، لم يكتب عنها تقرير واف بعد . وقد عثر فى مقابرها على هيا كل عظمية لرجال طوال القامة . كما وجدت مقابر أخرى لا تحتوى على آثار ، لهيا كل عظمية لنساء بالغات صغيرات . ويقال إن هذه المحلة تنتمى إلى عصر ما قبل الأسرات ، رغم أن كمية الكربون الإشعاعى بها يدل على أنها ترجع إلى ٣٠٠٠ ق . م وتحتوى المادة العضوية الحية على نوعين من الكربون وزنهما الذرى ١٢ و١٤ على الترتيب . وهذا الأخير ذو نشاط إشعاعى ويتحول بالتدريج إلى كربون ١٢ بعد الموت . ويظن أن تحليل كمية الكربون الإشعاعى المتبقية من المادة العضوية بعد موتها يعطينا تقديراً لعمرها به احتمال كبير للخطأ . وربما عثر فى هليوبوليس على محلة مصرية صميمة ، أسست على حافة الصحراء .

وستلقى حفائر حلوان [1] الحديثة — فى موضع اكتشفه مصطفى عامر أولا — ضوءا هاما على نتائج هامة فى المستقبل القريب . وقد وجدت بها مقابر عميقة ذات جدران مشيدة بالآجر أحياناً ، أو محفورة فى الصخر المنحوت أحياناً أخرى ، ومغطاة بأسقف خشبية وقد وجدت بها أيضاً أوان حجرية بديعة الصنع منها وعاء من حجر بللورى سبق ذكره ، وتماثيل عاجية بديعة ، منها تمثال لزوجة الملك نارمر منقوش عليه اسمها بالخط الهيروغليفى

---

(١) بالرجوع إلى الأستاذ مصطفى عامر (يولية ١٩٦٠) علمنا أن هذه الحفائر الحديثة تقع فى وادى دجلة قرب المعادى وليست فى حلوان كما يذكر المؤلف [المعرب]

ووجد فى حلوان أيضاً صوامع غلال كبيرة وكثير من أدوات الصوان واللعب والقوارب المكسورة نصفين ، وكثير من أدوات النحاس. وعلى وجه العموم فنحن بإزاء تقدم كبير فى المبانى والآلات ، لاتعادله أى آثار أخرى وجدت فى عصر ما قبل الأسرات ، إلا أنها أقل مما وجد فى عصر الأسرتين الثالثة والرابعة .

بدء فيضان النيل فى منف يتفق اتفاقا منتظما جداً مع بدء شروق نجم سوتيس (نجم الشعرى اليمانية أو Sirius) مع الشمس. وهذه السنة الشمسية أو السوتية لاتتفق اتفاقا تاما مع التقويم الذى يعتبر السنة ٣٦٥ يوماً ، إذ أن دورة الشمس حول الأرض تتم فى مدة أقل من ¼ ٣٦٥ يوما بقليل . ومن ثم فإن نجم الشعرى اليمانية لا يظهر مع الشمس فى الأفق إلا مرة كل ١٤٦١ سنة ، وهذه الدورة تسمى بالدورة السوتية وقد ذكر أحد كتاب القرن الثالث الميلادى أن الشعرى اليمانية أشرقت مع الشمس فى بدء رأس السنة عام ١٣٩ ميلادية طبقاً لحسابنا . ومثل هذا حدث أيضاً عام ١٣٢١ق.م. وهكذا كل دورة سوتية سابقة . وقد رأى بعض علماء المصرولوجيا (تاريخ مصر القديم وآثارها) أن بدء التاريخ السوتى طبقاً لهذا الحساب يتفق مع عام ٢٧٨١ ق. م. أو ٤٢٤١ — ٢ ق. م. ولما كان التاريخ الأول أحدث من أن يقبل ، فقد قبلوا التاريخ الثانى كبداءة للتقويم السوتى المصرى القديم . ولكن الرأى السائد الآن هو أن تقدير طول السنة بمقدار ٣٦٥ يوما أقدم من النظام السوتى ، وإن اختيار يوم مشرق نجم الشعرى اليمانية كبدء للعام، وإذن لبدء الفيضان قد تم أثناء حكم الدولة القديمة فى الألف الثالثة ق. م.

حجر بالرمو الشهير الذى نقش فى أواخر عصر الأسرة الخامسة ، يلخص تاريخ الملوك الفراعنة مع ذكر أسمائهم ومدد حكمهم . كما أن « برديه تورين » التى كتبت فى آخر فترة حكم الدولة أو الإمبراطورية الحديثة تتضمن قوائم بأسماء الملوك .وقد استخدمت تلك الوثائق لاستنباط تواريخ التاريخ المصرى .

وقد استخدمنا — فى المجلد الرابع لهـذه السلسلة — تواريخ برستد Breasted الذى يبدأ الأسرة الأولى بحوالى ٣٤٠٠ ق. م. إلا إن تواريخ ماير Meyer أدنى من ذلك بقليل إذ يبدأ تلك الأسرة الأولى بحوالى ٣٣١٥ ق. م. ثم راجع تلك الحسابات وبدأها بحوالى ٣١٩٧ ق.م. بينما يقترح بوركاردت ٤١٨٦ ق. م. ولـكننا أميل إلى قبول تواريخ ماير أو أقل منها بقليل .

كان يعيش شمال الوادى الأدنى — بالقرب من موقع القاهرة — فى أواخر عصر ما قبل الأسرات شعب يعبد أوزيريس ، وكان موطن هذا الشعب الدلتا ، ومنها انتشروا إلى الجنوب ، ويربط بعض الباحثين أصول هذا بالسوريين . وكان أوزيريس إله الموتى يبعث إيزيس آلهة الخصب ، وهى حامل ، مرة كل عام ، ضماناً لنمو المحاصيل .

وكان الليبيون — الذين أطلق عليهم اسم التحنو على الآثار — يعيشون غرب الدلتا ، ثم أصبح ملـكهم ملكا على مصر السفلى ، يضع على رأسه التاج الأحمر ، وربما كان يعيش على حافة الدلتا الشرقية وفى الصحراء أنصاف بدو ، يشتغلون برعى الماشية .

كما كانت هناك مملكة قديمة أخرى ، تمتد من جنوب القاهرة حتى أسيوط ؛ وكان ملوكها يضعون التاج الأبيض فوق رءوسهم . وربما كان الشعب الذى هبط الوادى من الصحراء الشرقية ووديان مصر العليا، ويصنع الأوانى الحجرية عبارة عن مجموعة أخرى تعبد الإله حوريس الذى كان شعاره الصقر. ثم حدث أن غزا الجنوب أرض الشمال ويبدو أن الملك نارمر أو مينا Menas قد تتوج بتاج مصر الوسطى الأبيض ، ثم بتاج مصر السفلى الأحمر، وتزوج الأميرة ابنة ملك التحنو المنهزم . وبذلك تم توحيد مصر، بتاج مزدوج ، وبدأ أول عهد الأسرات الثلاثين . ويتراوح تاريخ هذا التوحيد — كما ذكرنا — بين

حوالى ٣٤٠٠ — ٣٢٠٠ ق. م. كما يتراوح تاريخ الملوك والأسر المتتابعة طبقاً لهذا . ويبدو أن الأسرة الثانية قابلت صعوبات جمة ، أثارها أمراء الإقطاع المحليون فى وجه الحكم الموحد، إلا أن هذا لم يمنع اتخاذ الإجراءات اللازمة نحو ملاحظة النيل وأخذ مقاييسه على طول الوادى الأدنى من الجندل الأول نحو الشمال . ويبد أن الدولة كانت تأخذ بنظام الموظفين الملكيين وتدفق إلى البلاد النحاس (من سيناء) ، والذهب أما الفضة فكانت قليلة . وقد دفن كثير من الملوك السابقين فى أبيدوس ، إلا أنهم ازدادوا ارتباطاً بمنف، قرب الحدود بين أرض التاج الأحمر وأرض التاج الأبيض بعبارة أخرى قرب موقع القاهرة الحديثة .





شكل (٣٨)

ا — تاج أحمر ، تاج مصر السفلى ب — تاج أبيض ، تاج مصر الوسطى

وقد وصل آخر ملوك الأسرة الثانية أو أول الأسرة الثالثة إلى العرش عن طريق زواجه بابنة سلفه ، فهل كان هذا دليلا على وجود نظام أموى فى الوراثة ؟

وقد أصبح البناء بالحجارة المقطوعة فى الأسرة الثالثة فناً كبيراً متقدما، طبق أولا على مقابر الملوك ثم مقابر النبلاء فيما بعد . فقد اعتنق المصريون عقيدة حفظ أجسام الموتى استعداداً لليوم الآخر ، وقد ساعد على ذلك بلا ريب استيراد

الزيوت والراتنج والعسل ، والشمع . . الخ ، التي استعملت في التحنيط ، عن طريق التجارة مع البلاد الخارجية ومنها جنوب البحر الأحمر . ويدل العثور على فخار إيجى فى مقابر الأسرة الثانية بأبيدوس على انتشار التجارة البحرية . وقد عثر أيضاً على عينة ذهبية فى هذه المقابر ، مما أثار كثيراً من الحدس والتخمين. إذ أن هذه العينة كان يغطيها قشرة مكونة من الأنتيمون لا تتكون إلا مع وجود التلليريوم Tellerium ، والمكان الوحيد الذى يوجد فيه الذهب مختلطاً بالتلليريوم هى جبال الكربات فى ترانسلفانيا . ومعنى هذا أنه ربما وصل الذهب من ترانسلفانيا إلى مصر حوالى ٣٠٠٠ أو ٢٨٠٠ ق. م. ، إلا أن هذا الاستنتاج القائم على تحليل الذهب فى الوقت الحاضر قد لا يكون صحيحاً تماماً .

وقد نشطت التجارة البحرية نشاطاً كبيراً أيام حكم الأسرات الرابعة والخامسة والسادسة .

ويرى سير آرثر إيفانز أن الليبيين (التحنو) قد هاجروا إلى كريت أيام مينا ومن المحتمل أن هذا لم يتم إلا أيام الأسرة الثالثة التى حدثت فيها تغيرات كبيرة .

وقد ازدادت أهمية منف التى تقع غرب النيل جنوب القاهرة الحديثة بقليل، أيام الأسرة الثالثة ، ثم بدأت حافة الهضبة الغربية تصبح أهم الجبانات الفرعونية فقام زوسر ، ابن الملك الذى قلنا إنه ربما كان آخر ملوك الأسرة الثانية أو أول ملوك الإسرة الثالثة ، ببناء الهرم المدرج بسقارة وألحق به معبداً حجرياً كبيراً ، لا تزال بقاياه الهامة باقية حتى الآن . ويقال أن الملك مينا (الأسرة الأولى) بنى معبداً للإله بتاح ، الإله الخالق . أما تاريخ آخر الأسرة الثالثة فهو غامض مما يدل على قيام ثورات . ويبدو أن الملك سنفرو آخر ملوك الأسرة الثالثة أو أول ملوك الرابعة قد أعاد تنظيم المملكة المصرية

ويقال أنه شيد هرماً فى دهشور وآخر فى ميدوم ، وأنه جلب خشب الأرز من لبنان . وقد بنى ابنـــه وخليفته خوفو (المعروف أيضاً باسم خيوبس Cheops) الهرم الأكبر ، وبنى خفرع (أو خفرن Chepren) الهرم الثانى كما أنه بدأ نحت تمثال أبى الهول فى الصخر الناتىء قرب موقع هرمه . ثم بنى منقرع الهرم الأصغر بالجيزة .

وكان خليفة منقرع آخر ملوك هذه الأسرة الأقوياء ، الذين تم فى عهدهم بناء الأهرام ونحت أبى الهول ، وتشييد المعابد المتصلة بها ، كما أنهم تركوا عدداً من التماثيل الفخمة والصور المنقوشة التى تمثل الحياة فى ذلك العصر . ويمكن أن يعتبر تمثال خفرع المنحوت من الديوريت الأسود أحد أفخم تمثالين أو ثلاثة فى العالم .

وكانت الأسرة النبيلة تبنى مقابرها بالقرب من الأهرام . وكانت هذه المقابر إما غرفاً منحوته فى الصخر أو مبانى (مصاطب) تحتوى على عدة حجرات أو خليطاً من الإثنين . وربما كانت مقابر الفراعنة تحتوى على صور تعبر عن الطقوس والعبادات خاصة ، اما مقابر النبلاء ولا سيما فى عصر الأسرة الخامسة فكانت تزينها صور أو نقوش بارزة مستقاه من الحياة العامة ، ذات حس فنى بديع . وقد ازدادت قوة النبلاء على حساب قوة الفراعنة أيام الأسرة الخامسة ، غير أن فن الأسرتين الرابعة والخامسة لم يفقه ، بل ولم يعادله أى فن آخر فى تاريخ مصر الطويل .

نقل بيى — كما يبدو — أحد ملوك الأسرة السادسة ، عاصمته إلى منف نهائياً غير أن عهد المبانى الضخمة كان قد ولى ، وسادت الفوضى مملكة مصر فيما بين ٢٥٠٠ — ٢٣٠٠ ق . م ، (حسب التاريخ الذى اخترناه) . وتدل نقوش الحين على الإضطراب الذى ساد البلاد ، ويبدو أن مصر تعرضت للغزو من فلسطين والنوبة ، وربما من ليبيا أيضاً ، ويبدو أن هذا عاصر أيضاً



شكل (٣٩)

تمثال خفرع (شفرن)

انهيار المدنية فى جنوب غرب آسيا . إذ حدث هذا بعد وفاة سارجون الأكادى ، الذى اتبع فى تاريخه التاريخ القصير المتبع فى مصر . أى حوالى ٢٣٠٠ وليس ٢٥٠٠ ق.م. ، وبدأ نبلاء الأسرة السادسة يشيدون مقابرهم فى مقاطعاتهم ومحل حكمهم وليس فى حافة الصحراء بالجيزة ، ويبدو أن هذا التقليد الخاص بدفن الموتى من النبلاء فى مدافن أسرهم بمقاطعاتهم ، كان يقصد منه تقوية نفوذهم فى تلك المقاطعات ، وهم فى هذا يشبهون كثيراً من النبلاء فى كثير من البلاد خلال فترات كثيرة من التاريخ .

بعد سقوط الأسرة السادسة سادت فترة من الفوضى والتفكك ، كثرت فيها الحروب الأهلية بين الأسرات الإقطاعية الحاكمة ، ومن ثم لم يترك لنا إلا القليل من المبانى والتماثيل ، وربما شجعت أسرة هيراكليوبوليس الحاكمة (عند مدخل الفيوم) الأدب ، الذى أصبح أدباً كلاسيكياً فيما بعد فى مصر القديمة . ثم بدأ إعادة تنظيم الدولة بعد ١٥٠ — ٢٠٠ سنة ، أيام الأسرة الحادية عشرة ، التى قامت فى طيبه فى مصر العليا ، وكان إلهها آمون ، وربما كان نتيجة اتحاد إله طيبه ومين Min وإله قفط . ويفوق مقام آمون مقام رع إله الأسرة السادسة ، الذى كان يقوم معبده فى هليوبوليس ، شمال شرق القاهرة الحالية . إلا أن عبادة الإلهين اتحدت وسميت بعبادة آمون رع ، التى أصبحت العبادة الرئيسية فى البلاد ، وخلفها الإله الحاكم بتاح . وقد بدأت طيبه تاريخها العتيد كعاصمة للأسرة الحادية عشرة بينما احتلت منف مركزاً ثانوياً عدة قرون ، وقد بدأ تشييد معبد الكرنك على الضفة الشرقية للنيل فى مقابل طيبه ، أيام الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة .

وكانت هناك علاقة تجارية وحربية بين مصر وسورية ، وبينها وبين النوبة وبينها وبين بلاد بونت (الصومال أو اليمن ؟) عن طريق البحر الأحمر . إلا أن النقوش لم تذكر ليبيا كثيراً . وكانت تجارة كريت — التى كان يقوم بها على

ما يبدو البحارة الكريتيون نشيطة فترة من الزمن. وقد وجد سير ليونارد وولى رأس حربة من الحديد فى إحدى مقابر الأسرة الثانية عشرة فى بوهين ، شمال الجندل الثانى بقليل ، وتساءل ما إن كان هذا يعتبر دليلا على قيام صناعة الحديد ، فى الأرض التى تقع جنوب مصر ، والاتجار فيه مع مصر قبل ١٨٠٠ ق . م .



شكل (٤٠)

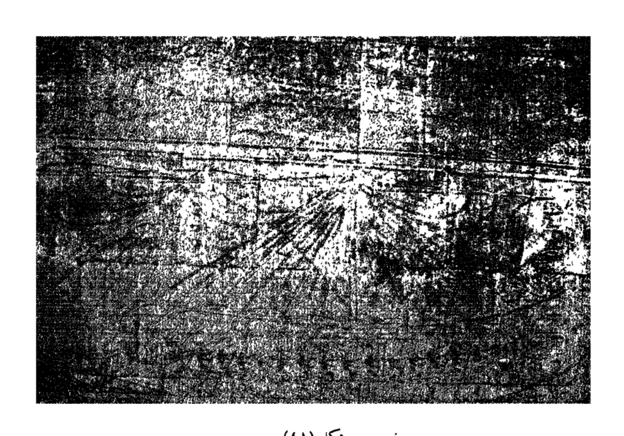
إناء كريتى وجد فى مصر

كان عصر الأسرة الثانية عشرة فترة نشاط هندسى فى مصر . إذ شقت قناة من وادى الطميلات تربط رأس خليج السويس بالنيل ، استخدمت من

ذلك الحين لحمل التجارة ومنتجات المناجم والمحاجر من سيناء إلى مصر . وحولت بركة قارون ، وهى البحيرة التى تحتل شمال منخفض الفيوم إلى خزان يغذيه فرع بحر يوسف بالماء ، ثم يصرف مياهه إلى النيل شمالاً بعد ذلك فى وقت التحاريق .

ثم سادت الفوضى بعد ذلك البلاد فى أواخر الأسرة الثانية عشرة ، أى أوائل القرن الثامن عشر ق . م. فاستمرت الحروب الأهلية زهاء قرن من الزمان وتلاها غزو الهكسوس أو الملوك الرعاة من جنوب غرب آسيا أو الأناضول فى فترة سادت فيها الفوضى وعم الاضطراب حوالى ١٧٠٠ ق.م أو بعدها ، كما ذكرنا فى الفصلين الخاصين بجنوب غرب آسيا والهند . ويرجع هذا إلى أن الحصان كان قد دخل جنوب غرب آسيا ، يركبه محاربون مغامرون غلبوا شعوب المنطقة على أمرها فى عصر ساده شئ من الجفاف النسبى . وقد ارتبط أحد آلهة هؤلاء الطغاة بالإله زيت ، الذى اعتبرته مصر فيما بعد تجسيما لروح الشر .

حوالى عام ١٦٠٠ ق . م. ابتدأ أحد أمراء طيبه الخاضعين للهكسوس حملة التحرير الكبرى التى انتهت بطرد الغزاة الأجانب . وقد ظن بعض الباحثين أن الأسرة الثانية عشرة الجديدة كانت أسرة هكسوسية متمصرة . والواقع أنهم يختلفون كثيراً عن ملوك الأسرات المصرية الأخرى . فقد أصبحت مصر فى عهدهم دولة حربية يحكمها موظفون وليس عائلات أرستقراطية ، أى أن المصريين تعلموا استعمال الخيل فى القتال . لقد كان المصريون فى عهود الازدهار السابقة يجلبون التجارة براً وبحراً وربما سيروا بعض الغزوات الحربية كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، إلا أن سياسة الغزو وبناء إمبراطورية لم تدخل من قبل نطاق الطموح المصرى .

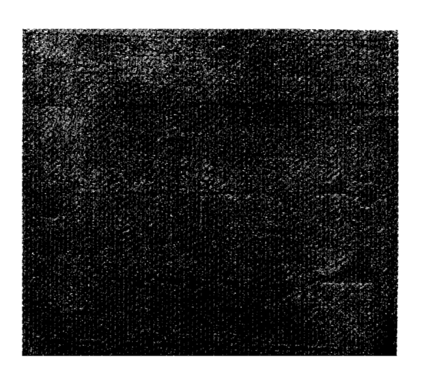


شكل (٤١)

سفينة مصرية منقوشة فى معبد الدير البحرى

منحت الأسرة الثانية عشرة مصر المجد والقوة والترف والرفاهية تحت حكم ملوكها من تحتمس الأول إلى تحتمس الرابع وملكتها الوحيدة حتشبسوت ويقال أنها تزوجت أخويها تحتمس الثانى والثالث ، الواحد بعد الآخر ، وكان من المفروض أن يحكما معها كزوجها ، تحت نظام الوراثة الأموى ، إلا أنها استأثرت بالحكم وحدها ، ورسمت نفسها فى صورة الرجال . ولقد أزال تحتمس الثالث عندما انفرد بالحكم إسم حتشبسوت من معابد كثيرة . وتظهر على جدران الدير البحرى — الذى بدأت الملكة حتشبسوت فى تشييده — صوراً لبعثة تجارية أرسلتها إلى بلاد بونت جلبت معها البخور . وقد كان تحتمس الثالث محارباً كبيراً انتصر على الأعداء فى موقعة مجدو (أرماجدون) وقادس فى جنوب غرب آسيا . وقد امتد سلطانه إلى الرافدين وحدود الأناضول ، كما ظهر ذكر الحيثين والميتانين مع ذكر فتوحاته . ويبدو أن الأسرة الثالثة عشرة حكمت ليبيا كما حكمت مصر وفى آخر ملك الأسرة حكم الملك أمينحوتب الرابع المعروف باسم أخناتون الذى حاول بمعاونة زوجته نفرتيتى أن يحل محل إله طيبه ، آمون رع ، عبادة أكثر تجرداً وروحية ، لإله رمز له بقرص الشمس الذى يرسل أشعته إلى كل مكان . ويرى الأستاذ «وولى» أن أخناتون كان شهوانياً أكثر منه مصلحاً دينياً . وقد كاد يتسبب فى تحطيم قوة مصر ، إلا أن كهنة آمون رع والجيش بدءوا فى إعادة توطيد دعائم النظام القديم فى عهد الملك الشاب توت عنخ آمون الذى ترك كنوزاً هائلة فى مقبرته . ثم استعاد النظام القديم سلطانه مرة أخرى تحت حكم الأسرة التاسعة عشرة ، التى كان من بين بين ملوكها الفاتح المشهور سيتى الأول ، والفرعون رمسيس الثانى الذى كان مغرماً بالأبهة ، والذى كان أقل حظاً من سلفه فى الغزوات الأسيوية ولكنه أفاض فى تمجيد نفسه ونحت لنفسه تماثيل ضخمة . كما أنه بنى جزءاً كبيراً من معبد آمون رع الكبير فى الكرنك على الضفة الشرقية للنيل أمام طيبه . وقد امتازت هذه الأسرة بفخامة المبانى وأبهتها مما لا مثيل له فى تاريخ مصر كما

أن الصناعة وصلت فى عهدها إلى درجة كبيرة من الدقة . إنها أدنى بكثير من حيث التصميم مما تركته الأسرات السادسة والخامسة والرابعة ، التى ذكرناها آنفاً . وتوضع الأسرات الثامنة عشرة وما بعدها عادة فى عهد واحد يسمى بعهد الإمبرطورية الحديثة بينما الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة تكونان المملكة الوسطى والأسرات من الأولى إلى الرابعة تسمى بالمملكة القديمة . وقد توسعت الإمبراطورية الحديثة فى استخدام الجنود المرتزقة من ليبيا وربما من آسيا كذلك ، وكان على هؤلاء أن يدفعوا غازات المغيرين على الدلتا.



شكل (٤٢)

وزن المعادن الثمينة

فقد حلت حوالى ١٢٠٠ ق.م. فترة أخرى من الاضطراب العام ، غير أن مصر استطاعت أن تحتفظ بهيبتها فترة من الزمن تحت حكم آخر الفراعنة

العظام رمسيس الثالث ، أحـد ملوك الأسرة العشرين . ثم بدأت السلطة المركزية فى الانهيار أيام الرعامسة من السادس إلى الثانى عشر . فأصبح كبير كهنة آمون رع فى طيبة هو أهم سلطة فى مصر العليا ، كما استأثر الإقطاعيون بالسلطة فى أقاليمهم المختلفة من الدلتا . وتدهور نفوذ مصر فى جنوب غرب آسيا حتى لم يعد شيئا ، وحلت محله قوة آشور . وقد خطبت يهوذا وإسرائيل ود مصر وقتاً ما لتحميها من آشور . ثم قهر الآشوريين فى القرن السابع ق.م. (الأسرة الخامسة والعشرون المصرية) منف وطيبه ، كما نجح النوبيون فى حكم البلاد فترة من الزمن . إلا أن مصر استعادت استقلالها مرة أخرى تحت حكم الأسرة السادسة والعشرين — أى أوائل القرن السادس ق.م وذلك بمعاونة الأيونيين Ionians وغيرهم من المرتزقة ، بل أنها بسطت نفوذها على فلسطين كذلك . وكان الأيونيون وغيرهم من الإغريق يستقرون فى مدن خاصة بهم فى مصر ، كما كانوا يقومون بمعظم النشاط التجارى للبلاد . ثم دخلت مصر فى الإمبراطورية الفارسية فى أواخر القرن السادس ق.م. وازدهرت البلاد بما فيها الواحات تحت حكم هذه الإمبرطورية فالواحة الخارجة مثلا كانت عاطلة عن أى نشاط يذكر منذ عهد ما قبل الأسرات ، وربما كان المطر أغزر أثناء تلك الفترة الفارسية ولاسيا ما بين ٥٠٠ — ٤٠٠ ق.م. إذا أنها عاصرت كما يبدو فترة امتازت بالصيف البارد المطير فى شمال غرب أوربا (الفصل السابع . غير أن مصر حكمت نفسها مرة أخرى فى ظل الأسرات الثانية والعشرين ، والتاسعة والعشرين والثلاثين حتى غزوة الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق. م. وبذلك انتهى الحكم الفارسى الذى لا ينظر إليه كثير من الكتاب بعين الرضا .

لم يكن نصيب شمال أفريقية غربى مصر من الدراسة وافراً . فقد درست الكهوف التى كان يأوى إليها الناس الذين كانوا يستعملون المدى الصغيرة والنصال منذ العصر الحجرى القديم ، كما حدث فى جهات كثيرة أخرى من

العالم، وفى بعض الحالات كانت الطبقات التى وجدت فيها آلات العصر الحجرى القديم يتلوها مباشرة طبقات أخرى تحتوى على فئوس حجرية مصقولة ذات قطاعات أسطوانية ، ولم يكن صقل بعض هذه الفئوس كاملا ولذلك فهى أشبه بآلات أوائل العصر الحجرى القديم ، إلا أنهـا جميعاً كانت ذات حافة حادة . كما وجدت رءوس سهام صوانية واسعـــة الانتشار ، وكان لبعضها قواعد مقعرة ، وللأخرى قواعـــد ذات أعناق . كما وجدت بعض الفئوس الحجرية المشطوفة المستوية السطح . وقد تدهور استخدام آلات الصوان الدقيقة مع مضى الزمن . واستخدمت قشور بيض النعاك الملونة فى بعض الأنحاء فقط. وكان المعدن نادراً فى عصر ماقبل التاريخ فى ليبيا وموريتانيا. وقد وجد أوريك بيتس Oric Bates فى خمسة مقـابر بمرسى مطروح أوان حجـرية ظنها قريبة من مثيلاتها فى آخر عصر ما قبل الأسرات فى مصر ، أى حوالى ٣٥٠٠ ق . م .

وتنتشر المقابر ذات النصب الحجرية الضخمة Megalithic فى أفريقية من تونس حتى مراكش . وهى تقوم منفردة متباعدة فى الشمال الغربى ، ولـكنها فيما عدا ذلك توجد متجمعة على شكل جبانات . وبعضها ليست إلا أكواما من الحجارة مهالة فوق حفرة تتوسطها جثة الميت، والآخر الدولمن Dolmen ذات شكل مستطيل، أى عدة جلاميد قائمة عمودياً، تحمل صخرة أو صخرتين فى وضع أفقى . وكان لبعض هذه المقابر الضخمة فتحات خاصة تقصد بها - فى رأى الباحثين — دخول الروح وخروجها عند البعث . وبعض هـذه المقابر لم تـكن سوى توابيت حجرية كبيرة ، داخل نطاق دائرى أو بيضاوى من الحجارة ، وهى فى هذا تشبه مثيلاتها فى أوربا . وكان بعض المقابر على شكل كثبان مرتفعة حتى مستوى سقف حجرة الدفن ، وكان فى هـذه الـكثبان طاقات منعزلة لا علاقة لها بهذه الحجرة وبعضها لها أسقف ذات نتوءات بارزة Corbellea ووجدت فى هـــذه المقابر أوان مفلطحة ذات صنابير ، تشبه

مثيلاتها التى كانت تصنع أيام الدولة القديمـــة فى مصر . إلا أنه ليس من الضرورى أن تـكون فى مثل قدمها من تونس وغيرها . ووجد بعض الحديد فى تلك المقابر الضخمة مما يدل على أنها ظلت تستعمل حتى القرون الأخيرة السابقة للميلاد — وهذا يذكرنا بالنصب الحجرية الضخمة التى عثر عليها فى السودان وبعض أنحاء الحبشة ،كما وجدت فى شرق الأردن وغيرها ، مما جعل بعض الباحثين يبحثون أو يتساءلون عن الصلة بين هـذه النصب الحجرية الضخمة فى شمال أفريقيا وشرق الأردن وغـيرها وبين تلك التى وجدت فى أوربا والتى توضع عادة فيما بين ٢٥٠٠ — ١٥٠٠ ق. م ولهم الحق فى ذلك . إلا أننا يجب أن نتذكر باستمرار بقاء أهمية تلك النصب الحجرية فى غرب أوربا ، حتى بعد عهد بنائها بمدة طويلة .

تصور نقوش المملكة القديمة فى مصر (أى حوالى ٢٥٠٠ ق . م .) الليبيين باللون الأصفر ، وتبينهم شقر الشعر ، زرق العيون ، وقد استمر هذا التقليد خاصاً بصور الليبيين فى العصور المتأخرة بعد ذلك . ومن المهم أن نلاحظ وجود صفات الشقرة حتى الوقت الحاضر بين البربر الحديثين . ومن الواضح أن بحارة صيدا الأوائل هبطوا إلى سواحل شمال أفريقية غرب مصر ، وهذا يعنى أن ذلك حدث فيما بين ١٥٠٠ وربما ١١٠٠ ق . م وكان الحدث الهام فى ذلك الإقليم هو إنشاء قرطاجة فى النصف الثانى للقرن التاسع ق . م . وترى القصص أن إيليسا Elissa ، التى سميت فيما بعد ديدو ـ أى اللاجئة ـ قاومت جماعة هاربة من وجه طغيان أخيها ملك صور . وقد ربط تجوالها فى البحر ، مع نمو الأسطورة، بتجوال اينياس Aeneas بعد أن غادرت طروادة عندما حطمها الإغريق الميكينيون . وكانت قرطاجة فى موقع ممتاز كقاعدة لتجارة البحر الأبيض المتوسط البحرية ، التى شملت استــــيراد زيت الزيتون من الساحل الشمالى المواجهة للبحر الأبيض المتوسط ،كما احتل الفينيقيون أيضاً مالطة فى ذلك الحين .

قبل إنشاء قرطاجة ، كانت صور تتاجر مع طرطيسون (طرشيش) وهى ساحل إقليم الأندلس الحالى، قرب ميناء قادس الحالية Cadiz ثم أصبحت قرطاجة أهم عامل تجارى فى هذا الاتجاه بعد القرن السابع ق . م وقد أدت منافسة الإغريق إلى وضع حد تقف عنده السفن الإغريقية ولا تتعداه غرباً ، وذلك فيما عرف بقرطاجة الحديثة أو قرطاجنة . ورغم هـذا فقد استمرت تجارة قرطاجة شمال شرقى هذا الحد ، بل أنها حاولت منع السفن الإغريقية من استخدام مياه البحر غربى سردينيا . وأنشأت محطات بحرية عديدة منها إبيزه Ibiza فى جزر البليار ، وميناء ماهون فى منورقة التى أسسها ماجو القرطاجى . ومحطات أخرى على الساحل السردينى وغرب صقليه وشمالها الغربى . ويحدثنا هيرودوت عن محاولات قرطاجة للإبحار فى السواحل الإفريقية غربى عواميد هرقل (جبل طارق) وعن تجارتهم « الصامته » مع الإفريقيين . وتتم التجارة الصامته بأن يضع أحد الطرفين البضاعة التى يريد أن يستبدلها ، ثم ينسحب إلى مواقعه ثم يأتى الطرف الآخر فيضع البضاعة التى يرى أنها تساوى ما وضعه الطرف الأول ثم ينسحب ، ويستمر هكذا عرض فانسحاب ، إلى أن يتم قبول الصفقة أو يعود المشترون دون أن يتجر منها .

ويحدثنا التاريخ عن المنافسة الكبيرة بين قرطاجة وروما فى أسبانيا وفى غرب البحر المتوسط عموما ، وعن تحطيم الرومان لقرطاجة عام ١٤٠ ق . م وبعد هذا التاريخ حاول الملوك النوميديون حكم شمال أفريقية .

أثناء هذه الفترة من الحروب الرومانية القرطاجية وقبلها ، كانت الأسرة التى أسسها بطليموس أحد ضباط الإسكندر ، تحكم فى مصر التى بدأ النفوذ الرومانى يتسلل إليها كما بدأ يتسلل إلى شمال أفريقيـــة عموماً ، فى القرنين الآخيرين السابقين للميلاد . واحتلت منطقة مريوط — غرب الدلتا — مركزاً

ممتازاً كمركز للملكية ، وربما كانت أوفر ماء مما هي عليه الآن . وقد جاء الإسكندر الأكبر إلى مصر عام ٣٣٢ — ٣٣١ ق . م . وأسس مدينة الإسكندرية وميناءها ، التي أصبحت من أهم مراكز التجارة والثقافة العظيمة في العالم ، واحتلت تلك المكانة الممتازة فترة طويلة من الزمن . وكانت الإسكندرية هيللينستية أكثر منها مصرية ، إلا أن التقاليد المصرية والعبادات المصرية ظلت باقية في الإسكندرية عدة قرون تحت الحكم الروماني . وكانت مصر وشمال أفريقية عموماً بالنسبة لروما مجرد أهراء قمح للشعب الروماني . وأسست المدن الرومانية في شمال أفريقية إلا أن العمارة الرومانية كانت محدودة في مصر ، رغم أنه لا تزال هناك قنطرة كبيرة بالقاهرة تقوم دليلا على قوة الرومان وحيويتهم . وانتشرت التعاليم المسيحية بعد ذلك في أواخر الحكم الروماني بين السكان الذين فقدوا جزءاً من تراثهم المصري القديم ، واستوعبوا عوضاً عنها بعض المعتقدات الإغريقية . وتلا ذلك فترة من الحكم البيزنطي الذي لم يكن في درجة كفاية الحكم الروماني ، ومن ثم كان من السهل على السكان الأصليين الذين انفصلوا عن جذورهم الحضارية المصرية القديمة أن يغلبهم الإسلام حوالي ٦٤٠ م. وانتقلت العاصمة الإسلامية إلى عدة مدن متعاقبة في نطاق القاهرة الحديثة ، يمكن تتبعها من الناحية الأثرية كما سارت الإسكندرية في طريق طويل من الانهيار ، بعد أن انكمشت تجارة البحر المتوسط ، بسبب العداء بين الإسلام والمسيحية ، إلى أن أحياها محمد علي في أوائل القرن التاسع عشر . وكان عدد سكانها المكونين من بعض الصيادين الفقراء ، يتراوح في أوائل محمد علي ما بين ٤٠٠٠ — ٢٠٫٠٠٠ نسمة . وهي الآن تزيد على المليون نسمة ، وتعتنق الأغلبية العظمى من المصريين الحديثين الإسلام ويعتزون بالثقافة الإسلامية كثقافتهم الأصلية ، وينظرون إلى التراث المصري القديم على أنه شيء يكاد يكون غريباً عليهم . وهم في هذا يشبهون شبهاً غريباً الشعب الإنجليزي ، الذي يربط نفسه بالتراث

الأنجلو ساكسونى ، وينظر إلى التراث السابق لعهد الرومان كأنه شيء غريب. وفى كل من الحالتين ، تلقى التراث القديم ضربة قاضية على يد الرومان (فى العهد الهلينستى فى مصر) حتى لقد أصبح من الضعف بحيث لم يستطع أن يصمد للغزو الثقافى الجديد ، الذى لم يعد مجرد غزو عسكرى أو سياسى . وقد حدث نفس الشيء فى شمال أفريقية حيث استوعب البربر الثقافة الإسلامية بسهولة ، فانتشر الإسلام بسرعة وسهولة فى شمال أفريقية غربى مصر ، حتى وصل سواحل أسبانيا حوالى ٧١١ ق . م . وأسس المسلمون مدينة القيردان المقدسة عام ٧٦١ ق . م . وجعلوها قاعدة لحكمهم . عدة قرون . وقد واجه المسلمون العرب عداء سكان التلال الأصليين الذين أطلق عليهم اسم البربر لغرابة لسانهم بالنسبة للفاتحين ، فترة طويلة من الزمن. وظل الاختلاف بين نظم العرب والبربر الاجتماعية رغم اعتناقهم للإسلام. وعندما احتل المسلمون جنوب أسبانيا ، استقر العنصر العربى من المسلمين الأرض الطيبة فى الوديان والوهاد ، بينما لجأت العناصر البربرية إلى سكنى الهضاب شبه الجافة التى أصبحت قشتيلة الجديدة فيما بعد ، ومارسو حياة الرعى والهجرة الفصلية وراء المرعى . ثم نشر الإسلام نفوذه إلى الصحراء ، واعتنق الطوارق أو الملثمون الإسلام وقد أيد هؤلاء الملثمون إصلاحاً إسلامياً تم فى القرن الحادى عشر ، وكان يهدف إلى بساطة العقيدة ويدعوا إلى الجهاد ، واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على أسبانيا فترة من الزمن بوقوفهم موقف التحكيم بين أمراء المسلمين المتخاصمين ، وأسسوا دولة المرابطين قصيرة العمر . ثم قامت حركة إصلاحية أخرى بسرعة بين بربر جبال الأطلس ، الذين كانوا هراطقة مل قبـــل . وهؤلاء أسسوا دولة الموحدين التى كانت فى بادىء الأمر شديدة العداء لليهود والنصارى فى أسبانيا ، ثم تحولت بعد ذلك وأصبحت أكثر تسامياً وأكثر علماً . واستمر حكمهم قرناً ونصف تقريباً وأخيراً تقهقر الإسلام من أسبانيا .

على كل حال فقد استمرت أحوال مصر تتأرجح بين القوة والضعف ، ولكنها على العموم كانت ضعيفـــة منذ أيام الرومان . حتى القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين ازداد عدد سكانها زيادة عظيمة وكانت نسبة تلك الزيادة هائلة ، وصحب ذلك انتشار زراعة محاصيل نقدية للتصدير ، وإنشاء الخزانات لتوفير الرى الدائم ، ورفع مستوى الصحة العام . وتبدو هذه الظاهرة فى مصر والهند والصين واليابان وجاوه ، وكلها توضح زيادة هائلة فى عدد السكان منذ عام ١٨٠٠ أو ما بعده . ومن الخطأ — رغم أن كل من هذه الأقطار تصدر محاصيل نقدية وتستفيد من تقدم الطب — أن نظن أن ظروف السكان واحدة فيها جميعاً . فهذه مشكلة عالمية تحتاج إلى كثير من العناية والتحليل وهى فوق جهود علماء النفس . وجدير بالملاحظة أن شمال أفريقية غربى مصر لم تسلك نفس الاتجاه السكانى ، كما أن أجزاء من جنوب غرب آسيا لا تزال مفتقرة إلى السكان ، وتستطيع أن تنتج محاصيل غذائية أكثر وفرة لو عادت نظم الرى كما كانت ، ولو عملت الحكومات على رفع مستوى المعيشة بين الفلاحين والحد من تكاثرهم .

الفصل السادس

بلاد البحر المتوسط الأوروبية

من أوضح الأمور المسلم بها أن أوربا تدين بنمو مدنيتها للمنطقة التى يطلق عليها عادة اسم الشرق الأوسط . ويميل الرأى السائد إلى أن يرجع الفضل فى هذا إلى جنوب غرب آسيا ، حيث بدأت زراعة الحبوب ، وحيث بدأت الخطوات الأولى فى عمل الفخار وطلائه ، وبدأ التعدين لأول مرة ، كما بدأت التجارب الأولى فى ميدان الرى .

إن طغيان الفيضان على السهل الفيضى ، مكن المزارعين من زراعة قطعة الأرض الواحدة التى غطاها الطمى سنة بعد أخرى ، ولم تكن الأرض القريبة من النهر تعانى كثيراً من نقص الماء ، بينما ينمو العشب — فى جنوب غرب آسيا — على حافة الأرض المنزرعة ، ترعاها الماشية والضأن والماعز . إلا أن هذه البلاد كانت تعانى كثيراً فى سبيل الحصول على حطب الوقود ، أو الخشب اللازم لاستعمالها أو الحجارة النادرة فى السهول الفيضية .

وقد تتضمن انتشار إنتاج القوت فى أوربا كثيراً من المشاكل التى لم يكن لها وجود من قبل . فقد وصلت الزراعة أولا إلى الإقليم الإيجى ، الملاصق لجنوب غرب آسيا ، حيث تهيأت فرص جديدة تتضمن كثيراً من المشاكل الجديدة لمن استطاع استغلالها .

وقد تهيأت الجزر الإيجية ، وسواحل بلاد الإغريق وآسيا الصغرى بمواضع فوق التلال ، يمكن أن يأوى إليها السكان بعيداً عن مستوى الفيضانات كما تهيأت لهم فرص صيد السمك كمورد من موارد الطعام . وكانت سفوح المنحدرات فى العصور القديمة تغطيها الأشجار ، التى تزودهم بالوقود ومادة بناء السفن كما أن الرياح الأتيزية المنظمة الهبوب فى الصيف ، كانت كافية لكى تدفع بتلك السفن — حتى الصغيرة منها — للإبحار من جزيرة إلى أخرى ، دون أن تبعد كثيراً عن الشواطئ ، ومن ثم نمت حركة التبادل بين المجتمعات ، واتصال بعضها بالبعض الآخر اتصالا لا يشوبه عداء .

وتمتاز صخور منطقة بحر إيجة بأنها إما أن تكون نارية أو جيرية . وهذه الصخور الأخيرة ذات مساحة كبيرة ، ما أسرع أن تتشرب مياه الأمطار الشتوية عندما تسقط عليها . وتتدفق بعـــد ذلك تلك المياه من الفوالق أو مفاصل الصخور ، أى أن موارد المياه مركزة تركيزاً شديداً فى مواضع معينة . وقد أدى هذا — فى أقطار البحر المتوسط الأوربية — إلى تركز السكان وتجمعهم حول الينابيع ، وكان من الطبيعى أن تنبثق تلك الينابيع قرب التلال المحصنة ، وهى فى نفس الوقت تشرف على الخلجان البحرية المستطيلة التى اجتذبت العمران من وقت طويل .

وأدى الجفاف الطويل وحرارة الصيف إلى نشاط البحر ، ومن ثم يتصاعد الماء مع المواد الذائبة فيه التى تكون غذاء النبات مثل الجير والحديد بحكم الخاصة الشعرية ، ويتعرض هذا المحلول للبخر ، فيترسب الجير والحديد ويكون قشرة صلبة فوق التربة . ومن ثم تتطلبت الزراعة حرث الأرض أكثر من مرة ، وكان محراث جنوب غرب آسيا الصغير مقيـــداً فى تلك العملية . إلا أن الأرض لم تكن تجدد خصبها كل عام بإرساب الطمى السنوى كما هى الحال فى أرض الرافدين والنيل ، ولم يكن من السهل زراعة قطعة الأرض الواحدة سنة بعد أخرى دون اتخاذ إجراءات خاصة . وكان لابد من الالتجاء إلى دورة زراعية ثنائية فى أرض البحر المتوسط الأوربى كقاعدة عامة ، وإن كانت بعض الأراضى تلجأ إلى دورة ثلاثية ، أى تزرع الأرض مرة كل ثلاث سنوات . ومن ثم تعرض الفلاح الأوربى الصغير فى حوض البحر المتوسط للفقر . كما كان عليه إذا أراد أن يستعيد قطعة أرض للزراعة أن يحرثها جيداً بالفأس لكى يحطم قشرتها الخارجية ويصل إلى التربة الهشة ، إلا أن هذه القشرة قد تحتوى على موارد غذائية للنبات وليس من السهل استعادتها مرة أخرى .

إلا أن أمطار الشتاء واعتدال درجة حرارته ، يشجعان على نمو الأشجار الدائمة الخضرة ، ذات الجذور العميقة ، ولا سيما إذا كانت من الأنواع المحبة للتربة الجيرية ، وهـذه الأشجار مزودة بأوراق صلبة أو ذات أهداب لـكى تحميها من جفاف الصيف ، وتنمو شجرة الزيتون التى دخلت فى زمن مبكر ربما من شمال أفريقية غربى النيـل ، نمواً حسناً فى ظروف البحر المتوسط الأوربى ، كما دخلت أوربا أيضاً فى زمن مبكر شجرة التين وهى ذات مقدرة على النمو فى التربات الرملية ، وربما كانت شجرة أصيلة فى حوض البحر الإيجى أو ما حوله . وكانت بيئة البحر الإيجى أيضاً صالحة تماماً لنمو الـكروم التى تفضل سفوح التلال المنحدرة حسنة الصرف وذلك منـذ أجيال كثيرة مضت ، وربما نشأت الـكروم فى أحد أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط . وهذا ممـا شجع الناس على إقامة المدرجات على سفوح المنحدرات ، حتى يحفظوا التربة من الانهيار ، وبذلك أسهموا فى التقدم الزراعى . وقد كان حفظ النبيذ مشكلة ولا سيما فى بلاد اليونان ، وربما وضع الراتينج فى النبيذ الذى أصبح يسمى بعـد ذلك رندزينا أما أنبذة جزر ساموس وسانتورين وغيرها فلم تعالج بالراتنج . ومن ثم كانت شهرتها الواسعة وقد استطاع الزارع فى هذا الإقليم أن يحصل كثيراً من خيرات أرضه ، طالما كان لديه ما يكفيه من أرض للزيتون والـكروم وأشجار التين وطالما استطاع أن يصبر حتى تنمو كما أن الظل الذى تسبغه هذه الأشجار على الأرض يساعد على نمو الخضروات الغضة . التى لاتتحمل أشعة الشمس القوية . ثم أضيف إلى أشجار البحر المتوسط هذه المشمش والخوخ وأشجار الموالح فى العصور التاريخية ، إلا أن التين والزيتون والـكروم ظلت أشجار البحر المتوسط العريقة .

جابهت رعاية الحيوان فى إقليم البحر المتوسط الأوربى صعوبات كان لا بد لها أن تحل . فـكثيراً ما كانت الحشائش التى تنمو على المنحدرات تجف ويصفر عودها تحت حرارة الشمس الجافة ، كما أن قطعان الماشية لاتستطيع أن تخترق الحقول فى فصل النمو ، كما قد ينمو محصول آخر فى فصل الصيف

الجاف بعد حصد محصول الربيع . ولذلك كان لا بد من أخذ الحيوانات إلى ارتفاع كبير فى الجبال بعد أن تذوب ثلوج الشتاء مباشرة حتى تستطيع أن تتغذى على الحشائش الغضة الغنية بالبروتين والتى تنمو بسرعة بعد أن تتشرب التربة بمياه الثلوج الذائبة ، وبعد أن تدفىء الشمس سطح الأرض وتمدها بمزيد من الأشعة البنفسجية وفوق البنفسجية . وقد يمتلك الزارع الصغير قطعة أرض لرعى حيوانات ، ومن ثم ينفرد الزارع الكبير بهذه الميزة . والوديان فى بعض أنحاء مقدونيا من العمق والضيق بحيث لا تصل أشعة الشمس إليها خلال الشتاء القارس البرد ، وبحيث تحددت أماكن العمران بارتفاع معين على جانبى الوادى ، حيث لا يمكن الحياة فى بطون الأودية المظلمة البعيدة عن أشعة الشمس . وفى هذه الأودية قد يستطيع الفلاح أن يسوق ماشيته إلى بطن الوادى بعد أن تزول قسوة الشتاء ، ولكنه يعود يسوقها إلى أعلا المرتفعات ثانية فى الصيف .

تستطيع الأحراج أن تقاوم الصيف الجاف الحار ، وهى تزدهر مع بقية الحشائش والنباتات وتملأ الجو بأريجها وأزهارها بعد أن تنتهى أمطار الشتاء ويحل الربيع . وهذه الأزهار والنباتات تجتذب النحل التى تكون حاشية الحياة فى إقليم البحر المتوسط ، الذى يعتمد فى غذائه على ما تمده به النحل من عسل ، وما تمده به الكروم وأشجار التين من مادة سكرية أيضاً ، وما تمده به الزيتون من مواد هيدركربونية ، كما أن الفواكه المجففة مثل التين والزبيب يوالى إمداد الناس بمادة سكرية طول العام . ويضاف إلى ذلك أنواع الأسماك مثل التونة والبنيتو الغنية بلحومها .

وعلينا أن نلاحظ الصخور البركانية مثل الأديسيديان فى ميلوس ، والسنباذج Emery فى ناكسوس ونلاحظ النحاس من باروس وكريت وبصفة خاصة من قبرص ، التى أعطته اسمه فى اللغات الأوروبية . وكان للإيسدبان أهمية فائقة فى صناعة الشظايا ذات الحافات الحادة أما السنباذج

(حجر الصنفرة) Emery فكانت له أهمية كبيرة فى صقل الصخور وصناعة الأوانى والآلات القاطعة منها . وكان النحاس معدناً فى غاية الأهمية ولا سيما بعد كشف القصدير فى كريسا قرب خليج كورنت أسفل دلف .

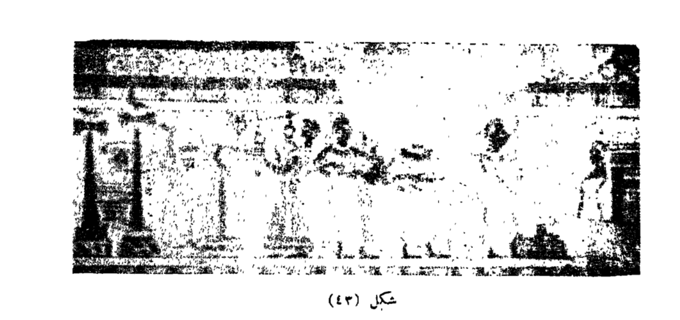
نحن لا نعلم متى بدأت الزراعة فى أراضى البحر المتوسط الأوربية . وقد كان العلماء يظنون أن سمك الطبقات المحتوية على قطع الفخار تحت موضع كنوسوس القديمة دليلا على قدمها العظيم ، إلا أنه تبين أخيراً أن هذا السمك يتراوح تراوحاً شديداً من مكان إلى آخر وأنه لا يقدم دليلا يوثق به على تقدير عمرها وقد وجد مع قطع الفخار المحطمة فئوساً حجرية مصقولة ، ذات قطاع بيضاوى وحادة المقطع عادة ، وهى من صفات حضارة العصر الحجرى الحديث الأصلية فى كثير من الأقطار . ولقد قيل إن الأوانى الفخارية المزينة بخطوط محززة لم تظهر إلا بعد فترة طويلة من الأوانى الفخارية غير المزينة ، وهى الأوانى البسيطة المصقولة ذات القاعدة المسطحة والفوهة الواسعة . ويقال أيضاً إن التماثيل النسوية الصغيرة المصنوعة من الصلصال ، قد ارتبطت بالطقوس الخاصة بالأخصاب . ويدل العثور على آلات مصنوعة من الأوبسديان فى طبقات قديمة من كريت على الاتصال البحرى بجزر ميلوس فى البحر الإيجى كما أن التماثيل النسوية الصغيرة المصنوعة من الصلصال المنتشرة انتشاراً واسعاً لا بأس به فى هذه الجزر تدل على الصلات التجارية التى كانت تربط الجزر بعضها بالبعض الآخر ، ولا سيما وأن بعض التماثيل التى وجدت فى كريت كانت منحوتة فى الرخام ، وهى شائعة فى جزر بحر إيجة ولا تمت لجزيرة كريت نفسها .

ويبدو أن قوقعة بكتونكولوس Pectunculus ذات دلالة خاصة بالطقوس ، وهى قوقعة ذات شقين ، وجدت بقاياها فى طبقات كريت الأثرية القديمة وقد وجدت هذه القواقع كما وجد بعض الفخار الشبيه بالكريتى أيضاً فى جزيرة سردينيا وعلى الساحل الإيطالى ومن ثم فنحن نميل إلى الظن ،

إن الزراعة انتشرت مبكراً فى سواحل البحر الأبيض المتوسط الغـــربية والشرقية معاً . ولقد كان العالم الإيجى على اتصال بجنوب غرب آسيا الذى كان يتقدم بسرعة كبيرة حوالى ٣٥٠٠ — ٣٠٠٠ ق.م . كما أن العالم الإيجى قد عرف الزيتون من زمن مبكر ، بينما هو لم ينتشر إلى الغرب إلا بعد ١٠٠٠ ق.م .

ضأن الموفلون Mouflon وأكثر من نوع من أنواع الماعز تعتبر من حيوانات العالم الإيجى الأصلية ، وربما أستأنست مبكراً فيه ، إلا أنه ليست لدينا أدلة مباشرة على ذلك. إلا أنه من العسير أن نتصور شعباً على اتصالات بحرية واسعة بين كريت وميلوس وربما بغيرها من الجزر لم يكن يعرف استئناس الحيوان كما عثر على تماثيل صغيرة للحيوانات . ولا تدل الطبقات الأثرية الأولى على معرفة هـذا الشعب بالزراعة ، إلا أنه قد وجدت فئوس حجرية مصقولة ، استعملت فى حرث الأرض فى كثير من البلاد ، كما عثر على آلات حجرية أخرى ربمـــا استخدمت فى دق الحبوب ، ومن ثم من الممكن أن نفترض ظهور الزراعة فيها .

ويجب ألا تظن أن الإيجيين القدماء كان لديهم طراز واحد من الزراعة أو الآلات الزراعية ، فكريت قد تميزت من بعض الوجوه بميزة خاصة نظراً لسهولها الخصبة نسبياً من جهة ولصلاتها بآسيا الصغرى عن طريق الجزر الصغيرة التى تفصلها عنها. كما أنها فضلا عن ذلك ذات اتصالات قديمة بمصر . فقد وجدت أوانى حجرية ترجع إلى الأسرة المصرية الثالثة (٢٩٠٠ — ٢٨٠٠ق.م) فى شرق كريت . وتدل طرق الدفن فى جزر السيكليد على اختلافهم فى التقاليد عن سكان جزيرة كريت إذ إن معظم الموتى كانوا يدفنون فرادى، بينما معظم الموتى فى كريت كانوا يدفنون فى مقابر جماعية . ويبدو أن شبه جزيرة اليونان كانت متخلفة عن كريت فى الحضارة . وقد قامت مدينة طروادة القديمة التى حطمتها قوات أجاممنون الميكينى حوالى ١١٨٤ ق . م فى موضع حصارلك ،



شكل (٤٣)

منظر طقـــوس دينية ويظهر فيه الكاهنات والفئوس المزدوجة ، هاجيا تريادا ، كريت

على الجانب الجنوبى للدردنيل . وكانت طروادة التاريخية تعرف عادة بحصارلك السادسة أما الآن فهى تسمى بحصارلك السابعة . وربما هدم زلزال حدث حوالى ١٣٠٠ ق. م. مدينة حصارلك السادسة بعد أن ظلت قائمة ما يقرب من خمسة قرون . أما حصارلك الخامسة والرابعة فكانت أقل أهمية . وقد سبقتهما مدينة هامة فى هذا الموضع يقال لها حصارلك الثالثة (كانت تظن من قبل مرحلة أخرى من حصارلك الثالثة) . وربما استمرت هذه المدينة من حوالى ٢٣٠٠ — ٢١٠٠ ق. م وربما قامت هذه المدينة بعد تحطيم حصالك الثانية ، فى زمن انتشرت فيه الفوضى واضطرب الأمن فى جنوب غرب آسيا كلها ومصر ، حوالى ٢٣٠٠ ق . م وربما استمرت هذه المدينة الثانية قرنين أو ثلاثة من الزمن . ويبدو أن سابقتها حصارلك الأولى، لم تكن ذات أهمية كبيرة . ويضعها بعض الأثريين فى تاريخ سابق لعام ٣٠٠٠ ق.م.

ويبدو من المحتمل موضع حصارلك كانت له أهمية كبيرة ولاسيما خلال فترات ازدهارها . فهناك تيار بحرى رئيسى يجرى باستمرار من الدردنيل إلى البحر الإيجى ، بينما يجرى تيار آخر أسفل نحو بحر مرمرة ، ولا يظهر على السطح إلا فى ظلال غاليو بولى .

ومن ثم كانت حصارلك محطة لعبور الدردنيل ، كما كانت محطة لنقل البضائع من سفينة أو أخرى ، دون معاناة عبور المضايق فى مواجهة تيار الدردنيل . ومن الممكن أيضاً نقل تلك من سفن بحر مرمرة إذا اقتضى الأمر ذلك وعندما استعملت سفن أكبر حجما فى عصر الحديد ، استطاعت أن تصعد الدردنيل إلى بحر مرمرة ففقد موضع حصارلك أهميته القديمة ، بينما قامت — فيما بعد — بيزنطة كرفأ للسفن الإغريقية المتجهة إلى البحر الأسود والخارجة منه .

ويرى سير أرثر إيڤانز ، الذى كشف عن كنوسوس القديمة (كريت) أن المهاجرين من شمال أفريقية هم الذين أيقظوا الجزيرة ونقلوها من حالة العصر الحجرى الحديث الذى كانت عليه إلى مرحلة أرقى من المدنية ، كما يرى أن هؤلاء المهاجرين من شعب التحنو Tehenu الذين كانوا يعيشون على حدود الدلتا الغربية ، والذين أفزعهم تكتل المصريين وانتظامهم فى مملكة واحدة شملت أجزاء الدلتا وحوض النيل الأدنى المختلفة ، ويرى بعض الباحثين أن هذا الانتظام قد تم حوالى ٣٤٠٠ ق. م. ويرى آخرون أنه ربما بعد ذلك بقرنين . ولكن من الواضح أن مصر القديمة اكتملت نظمها تحت حكم الأسرتين الثالثة والرابعة وسارت فى هذا السبيل شوطاً بعيداً ، كما نمت فى عهد هاتين الأسرتين التجارة وشيدت المبانى الشاهقة . ويؤرخ لهاتين الأسرتين بنحو ٢٩٠٠ — ٢٦٠٠ ق. م. وربما أنشأت مصر وكريت علاقات تجارية بينهما فى وقت ما خلال هذه الفترة . وقد تطلب هذا ، القيام برحلات بحرية طويلة ، ربما ساعد عليها انتظام هبوب الرياح صيفاً . وكان أهم مواضع الجزيرة فى الألف الثالثة قبل الميلاد خليج موخلوس Mochlos الصغير (شمال شرق كريت) وسهل مزارا Mesara جنوب كريت . ويسمى إيفانز هذه المرحلة بالحضارة المينوية القديمة Minoau وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام . وقد انتشر استعمال النحاس الموجود فى الجزيرة خلال تلك المرحلة وأصبح مهماً ، أما البرونز فلم يكن قد عرف بعد ووجدت أشياء من الذهب الرقيق فى مقابر ميزارا وفى موخلوس ، إلا أننا لا نعرف مصدر هذا الذهب . وصنعت أوان من الحجارة على طراز قائم إلى حد ما على النماذج المصرية . وقد ظن أن كثيراً من مقابر ميزارا كان بها حجرات ذات دعائم ، وقد ثبت أن هذا غير صحيح . وتشبه زينة بعض الأوانى القديمة عروق الخشب وهذا عجيب . وقد كان للفأس المزدوجة أهمية خاصة فى الطقوس فى هذه المرحلة ، وقد ظلت تحتفظ بهذه الأهمية خلال عدة قرون ثابتة بعد ذلك .

ويفترض إيفانز أن المرحلة الكبرى الثالثة ، وهى الحضارة المينوية

الوسطى (التى قسمها أيضاً إلى ثلاثة أقسام) تقع بين ٢١٠٠ إلى القرن السادس عشر ق.م. إلا أن القسم الثالث من هذه الحضارة الذى استغرق قرنين أو قرنين ونصفاً من الزمن كان فترة تدهور فى كريت ، وهى تعاصر فترة العصر المظلم الذى خيم على جنوب غرب آسيا فى ذلك الوقت ، بينما كانت مصر تعانى من حكم الهكسوس أو الملوك الرعاة وتعانى المدن السندية هجمات البرابرة الذين ربما كانوا من طلائع الهنود الآريين . وقبل ذلك كانت كريت أكثر اتصالاً بمصر منها بأوربا ، وكانت هذه هى الفترة التى احتلت كنوسوس فيها أهميتها الكبرى ، وهى تقع إلى الداخل من منتصف الساحل الشمالى . ويقدر تاريخها عادة بنحو ٢٠٠٠ ق.م. وقد شيد قصر كبير فى كنوسوس وضعت فيه صوامع فخمة للغلال، وأوان كبيرة لزيت الزيتون والنبيذ ، وهذه كانت جزءاً من ثروة الحاكم ، كما شيد قصر آخر فى فايستوس Phaistos ، ويجب ألا نظن أن كريت كلها كانت تحت حكم أمير واحد إلا أن السلم الذى استتب فى داخل الجزيرة يوحى بأنها كانت تسلم بسلطان أمير كبير ، وتحولت صناعة الفخار فى هذه الفترة من الصناعات اليدوية إلى استخدام عجلة الفخارى ، ورغم معرفة صناعة البرونز إلا أن الأدوات المصنوعة من هذا المعدن لم تكن عديدة ، وربما لاحظنا من هذا أن صناعات الحرب والدفاع كانت ضئيلة الشأن. ومن معالم آثار كريت الأختام التى رسمت عليها كتابة تصويرية Pictograph وهى طلائع الكتابة الخطية فيما بعد . ويبدو أن الانحلال الذى أصاب كريت والذى أشرنا إليه قد وصل إلى أدنى مراحله بتحطيم قصرى كنوسوس وفايستوس ، إلا أنه ما لبثت تلك الحضارة أن انبعثت من جديد على نفس النهج المينوى القديم . فقد شهد القرن السادس عشر حركة نهضة فى كريت (الحضارة المينوية الحديثة). ثم ظهرت بوادر تشابه حضارى بين كنوسوس وحدها وبين بلاد اليونان ، وقد حل فنتريس Ventris أخيراً كتابة يعرفها طلبة الآثار باسم الخط «ب» ، وجدها فى كنوسوس ، ويقال إنها إغريقية قديمة .

لقد استغلت ثروات جزر بحر إيجه من وقت بعيد جداً ، فقد وجد الأويسديان فى ميلوس وحدها ، ونقل منها إلى كريت ، حيث وجد فى مستويات أقدم — كما يبدو — من مستويات استخدام النحاس . كما نقل إلى تساليا ، ويبدو أن فيلاكوبى Phylakopi قد نمت وأصبحت ميناء فى مينوس حوالى نهاية الألف الثالثة ق.م. كما استخدم السنباذج (حجر الصنفرة) المستخرج من ناكسوس واستخدم الرخام المستخرج من جزر عديدة أخرى فى نحت التماثيل النسوية الصغيرة التى ربما كانت تقرنه بطقوس المخصب . وقد نحتت تلك التماثيل فيما بعد نحتاً تقليدياً مجرداً تجريداً بعيداً مع مضى الزمن . وقد قامت محلات محصنة ومسورة فى الجزر الإيجية ، وهذا بعكس الحال فى كريت . إلا أن أهمية تلك الجزر — فيما عدا كريت — قد قلت فى الألف الثانية ق.م. رغم أن الإبسديان ظل مهماً حتى حلت محله أسلحة الحديد الحادة . وليس هناك فى بلاد الإغريق شىء يمكن أن يؤرخ — عن يقين — قبل الألف الثالثة ق.م. وليس هناك دليل على استعمال المعدن فيها فى عصر مبكر . وتوجد المحلات القديمة الهامة فى أورخومينوس قرب بحيرة كوبايس وفى ديمينى قرب خليج فولو ، وربما كانت هذه المحلة أحدث بقليل فى نشأتها من سابقتها . وقد وجد فى ديمينى قليل من أدوات الذهب والبرونز فى مراحلها الأولى . أما أورخومينوس فقد نمت نمواً كبيراً فى أواخر عصر البرونز . وهى تمتاز بالتماثيل النسوية الصغيرة مثل تلك الموجودة فى الجزر ، وهذه التماثيل قد أصبحت هنا أيضاً تقليدية مجردة ، ووجد فى التل الكبير المشرف على كورنث (أكروكورنت) فخار وآثار تدل على قيام عمران قديم .

قبل أن نستمر غرباً علينا أن ندرس قبرص ، وهى حلقة الوصل بين جنوب غرب آسيا والبحر الأبيض المتوسط . وقد وجد فى خيروكيتيا

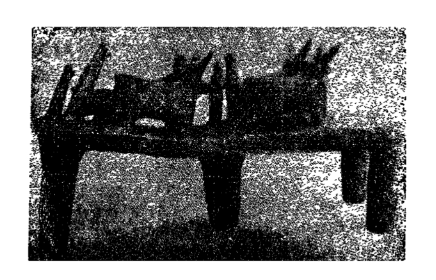
بقبرص أدوات حجرية ، منهـــا أوان حجرية وجـدت فى الأقبية المعروفه بالثولوس .

وهذه الأقبية عبارة عن حجرات دائرية إلى حد ما ، ذات سقف على شكل قبة مبنية بالحجارة بشكل خاص بحيث تعلو كل صخرة الأخرى نحو الداخل . ويقال إن أقبية خيروكيثيا تشبه أقبية أربشية فى شمال العراق ، وهى التى وجد فيها أقدم نماذج تلك المبانى . وتبنى الأجزاء السفلى من أقبية خيروكيثيا من الحجارة ، بينما الأجزاء العليا من اللبن . ويقال إن هذه المبانى قد شيدت فى تاريخ ما فى منتصف الألف الرابعة ق.م. رغم أن الأوانى الحجرية لا تدل إلا على تاريخ متأخر عن هذا ببضعة قرون قليلة . وقد وجدت أوان فخارية حمراء جيدة الصنع فى مستويات حديثة فى خيروكيثيا ، مما يدل على أنها دخلت إليها من الخارج .

وقد وجد فى أريمى فخار أيضاً من أقبية معدلة ، شيدت أعالى حوائطها من البوص المغطى بالطين ، ويبدو أن قبة البوص هذه أقل حاجة للعناء والمهارة من قبة اللبن القديمة ، وهذا يذكرنا بما حدث أيضاً فى أبنية غرب البحر المتوسط وغرب أوروبا ، وهناك أدلة من أريمى وغيرها من مواضع هامة فى قبرص ، فيما عدا خيروكيثيا ، على استعمال المعدن ، إلا أن المعدن لا يوجد إلا فى مستويات أريمى العليا فقط . ورغم أن هذه المحلة قديمة ، إلا أنها أحدث من خيروكيثيا .

ويرى الإخصائيون الذين درسوا قبرص أن النحاس استخرج من الجزيرة واستعمل فيها منذ منتصف الألف الثالثة ق.م. وفى أوائل عصر البرونز كانت قبرص على اتصال بالأناضول بصفة خاصة ، إلا أنها اتخذت لنفسها أسلوباً خاصاً فى صناعة الفخار فيما بعد . ولم تظهر فى قبرص حتى الآن أدلة على الاضطرابات العنيفة التى اجتاحت جنوب غرب آسيا ومصر





شكل (٤٤)

نماذج لمناظر عتيقة من قبرص القديمة

حوالى ٢٣٠٠ ق.م. (أى بعد الأسرة السادسة فى مصر ووفاة سارجون الأكاوى فى العراق) .

ومن مميزات قبرص الأثرية الأخرى التى ترجع عادة إلى أوائل عصر البرونز ، أى فى أواخر الألف الثالثة ق.م. عمل نماذج تصور مناظر من الحياة العامة ومن هذه النماذج مثلاً أزواج من الثيران تجر محاريث صغيرة ، ومنها نموذج لمكان من أماكن العبادة ، به ثلاثة تماثيل بارزة فى الحائط ، ذات رءوس ثيران ، وتتعلق من أذرعها الحيات . ويجلس فى مكان العبادة أمير أو كاهن وهو عار ، فوق عرش ، وحوله عدد آخر من التماثيل الصغيرة ، من بينها أم ورضيعها ويطل رجل من فوق حائط قرب المدخل على هذا الحشد من الناس ، ويبدو أن هذا النموذج الذى وجد فى مقبرة يصور بعض الطقوس ، وهو لا شك فيه أثر فريد فى نوعه ، وعلينا ألا نغفل عامل اللعب والدعابة فيه ، وازدادت الصلات حوالى هذا العصر مع الساحل السورى ، واستورد منها كثير من الخزف الأبيض . فقد كان أوائل الألف الثانية ق.م. فترة نشاط عظيم فى أوجاريت وبيلوس وغيرها من الموانى السورية وذلك أثناء حكم الأسرة الثانية عشرة فى مصر وفترة نشاط التجارة البابلية ولا سيما تحت حكم حامورابى . وقد مرت هذه الموانى بفترة تدهور — تشبه ما مر بمصر من حوالى ١٧٥٠ إلى ١٥٥٠ أو ١٥٠٠ ق.م. لا توجد فى قبرص أدلة هذه الفترة من التدهور ، كما لم توجد بها أدلة فترة التدهور السابقة التى حدثت حوالى ٢٣٠٠ ق.م.

إذا اتجهنا نحو غرب البحر المتوسط نجد المسرح مختلفاً تماماً عنه فى شرقيه فبينما كانت قبرص عريقة فى صناعة المعدن ، نجد أن مالطة ظلت أمداً طويلاً لا تعرفه . ومالطة فى الواقع غامضة جداً فى التاريخ القديم . فأقدم الآثار المالطية وجدت فى كهف ترلام حيث عثر على فخار إذا قورن بمثيله

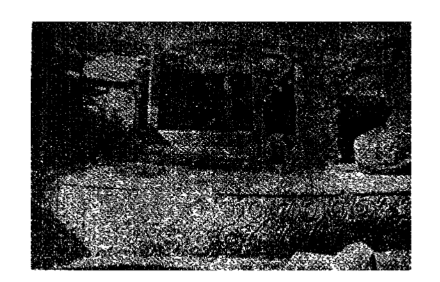
الصقلى فإنه يوضع فى القرون الأخيرة للألف الثالثة ق. م. ولم يترك هؤلاء الدلاميون أى دليل على أنهم شيدوا مبانى بحجارة ضخمة كما وجد فى محار Mgarr محلة ذات مستويات مستطيلة متوالية ،حيث عثر على فخار يرجع إلى عهد متأخر ، وبناء صخرى كبير (ميجاليش)فوق حجرات ثلاثية الشكل .ووجد نصب صخرى آخر فى جانتيجى Ogantji بجزيرة جوزو ، مشيد فوق حجرة بيضاوية مضافة إلى التصميم الثلاثى السالف الذكر أما النصب الصخرى الكبير الذى يميز مالطة فهو هال تاركسين Hal Tarxien فهو مثال رائع لهذه الأبنية الصخرية ، ويمتاز بأن له بهوا يطل على فناء أمامى قبل الدخول إلى حجرة بيضاوية ثم كوة كبيرة تقابل ممرا يؤدى إلى حجرة داخلية ، وتتكون الاجزاء السفلى لهذا البناء من كتل صخرية ضخمة مرصوصة بشكل رأسى ، وفوقها رصت صخور ضخمة أيضا ، وإن كانت أصغر على شكل صفوف أفقية ، وربما كان هناك شك فى أن الحجرات البيضاوية الكبيرة كانت مسقوفة ،أما الكوى فقد كانت مسقوفة . ووجد أيضا مبنى صخرى من هذا النوع المعقد فى هال سافلينى Hal Saflieni وربما استخدمت حجراته السفلية لدفن الموتى أو لجمع عظامهم ورفاتهم بعد ذلك .

وتدل التماثيل النسوية المنحوتة ، التى ربما كانت ذات دلالة بعبادة الآلهة الأم ، كما تدل أدلة أخرى مستقاة من أنواع الفخار التى عثر عليها، على وجود اتصال بين مالطة وبين جزر بحر إيجة حوالى ٢٠٠٠ — ١٥٠٠ ق.م. وهو فترة التوسع الكريتى أو الميكينى . إلا أن المميزات المحلية تغلب فى التماثيل والعمارة . ولما كان الاضطراب يسود مصر وآسيا فيما بين ١٧٥٠ — ١٦٠٠ ق.م. فربما اتجه التجار الإيجيون نحو الغرب ، فإلى الوقت الذى يقع حوالى ١٦٠٠ ق.م. يرجع تشييد النصب الصخرية الضخمة فى مالطة ولا سيما هال تاركسين. وقد كان كثير من هذه المبانى أقرب ما تكون للمعابد منها للمقابر، إذ كانت بها عواميد ومذابح للعبادة وربما دل الفناء الخارجى على وجود صلة ما

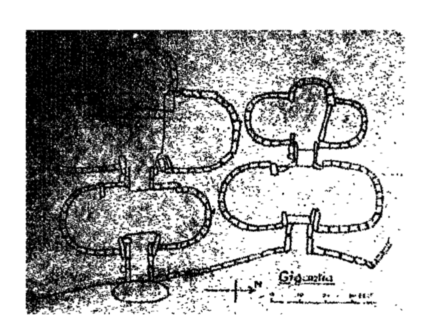
بين مالطة وبين أوروبا الأطلسية كما توجدأوجه شبه في الفخار بين فخار مالطة وفخار صقلية وأسبانيا . كما تشبه أدوات العقيق مثيلاتها الغربية عموما . أما الحلى الحلزونية وطريقة تشييد السقوف بحجارة بارزة Cerbelliug فهى حلقات تربط مالطة بقبرص من ناحية الغرب من ناحية أخرى ، ومن المحتمل أن تتحسن نظرتنا وتغيرنا للعلاقات الحضارة لمالطة على ضوء ما يجد من الكشوف ، وإن كانت الأدلة التى تشير إلى علاقات ميكينيا بالغرب تزداد يوماً بعد يوم .

إنتهت مدنية مالطة القديمة هذه فجأة حوالى ١٥٠٠ ق . م وربما تسبب غزاة يحملون أسلحة البرونز ويحرقون موتاهم ، فى هذا الانهيار أو جاءوا على أثره ويرى البعض أن هؤلاء الغــزاة قدموا من سردينيا ، ولم تستعد مالطة أهميتها مرة أخرى إلا بعد أن جاء التجار الفينيقيون فى الألف الأخيرة ق. م. ويقال إن المبانى الصخرية الضخمة عامة كانت طرازاً استعمارياً نشره البحارة التجار من شرقى البحر المتوسط. وبينما استعملت الصخور المنحوتة فى كريت ، إلا أنها كانت أبعد ماتكون عن الاستعمال السائد فى نصب غرب مالطة ، كما أنها لم تكن معروفة فى بعض المناطق إطلاقا .

تقع جزر بنتلاريا على بعد يزيد على ١٣٠ ميلا غرب الشمال الغربى لجزر مالطة ، علـى مرمى البصر من الساحل الإفريقى حيث لا تبعد عنه أكثر من ٥٠ ميلا وهـذه الجزر بركانية الأصل ، ذات فوهة خامده ترتفع إلى ٢٧٤٣ قدم فوق سطح البحر وتوجد فى بنتلاريا محلة قديمة يحيط بها سور مصنوع بعناية من الحجارة غير المهذبة ويزيد عرضة عند قاعدته على ٣٠ قدما وقـد وجد بها الأوبسديان الذى استخدم فى صناعة آلات معظمها خشن . أما الفخار فهو بسيط ، ولـكنه من نوع جيد إلى حـد ما ويدل علـى وجود صلات مع صقلية وجنوب شرق أسبانيا . وتوجـد بالقرب من المحلة فوق



شكل (٤٥)
منظر لحجرة فى هال تاركسيان بمالطة



شكل (٤٦)
رسم تخطيطى للحجرات البيضاوية لمعبد جانتجلى ، جزيرة جوزو قرب مالطة

أرض اللابة الوعرة عدد من السيس Sesi وهى عبارة عن أكوام بيضاوية من الحجارة غير المهذبة ينتهى إليها عدد من الممرات ، وينتهى كل ممر على حدة بحجرة سفلية تغطيها قبة داخل تلك الكومة ويزيد طول أكبر سيسى على ٢٠ قدما ، ويخترقها أحد عشر مدخلاً أو ممراً . ولم يوجد أى أثر للمعدن فى الجزيرة . وتشبه السيسى مبان مماثلة لها فى الساحل التونسى ، وقد قيل إن التونسيين جاءوا إلى تلك الجزيرة بحثاً عن الأوبسديان ، ولم تصل بنتلاريا إلى ما وصلت إليه مالطة ، رغم أنها فى موقع أفضل كحلقة اتصال بين شرقى البحر المتوسط وغربيه .

وربما شعرت إيطاليا وأيبيريا — كما اقترحنا فى مطلع هذا الفصل — بالحافز القوى نحو بدء فن إنتاج الطعام بالزراعة ، فى وقت يكاد يقارب الوقت المبكر الذى ظهر فيه هذا الفن فى شرقى البحر المتوسط . إلا أن الزراعة التى حدثت بعد ذلك تأخر ظهورها كثيراً عن شرقى هذا البحر التاريخى العظيم أما فى أسبانيا فقد استمر فن الرسم على سطح الصخور من العصر الحجرى القديم حتى أوائل العصر الحجرى الحديث ، الذى تعرفنا عليه من معرفة الإنسان للزراعة وإنتاج الطعام ، وهذه هى أطول فترة حضارية مستمرة فى أوروبا كلها . ورغم أن أسبانيا كانت ذات أهمية خاصة فى كثير من مراحل العصر الحجرى القديم إلا أنه ليس هناك دليل على أن الزراعة قد نشأت فيها ، وترجع يقظة الغرب إلى مؤثرات قادمة من شرقى البحر المتوسط ، بينما حمل هذا الفن شعوب هاجرت من حوض الدانوب نحو إيطاليا .

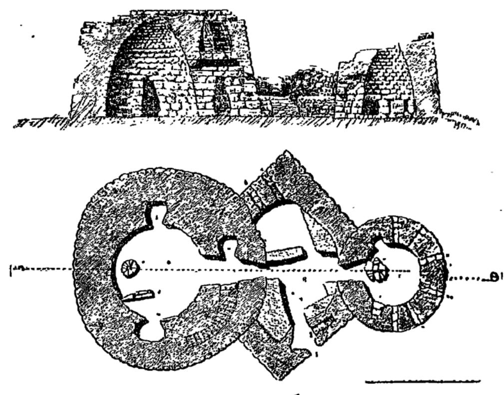
لنا أن نصف طراز النصب المشيدة من الحجارة غير المصقولة بأنه استعمارى ومن ثم سميت ميجاليث Megalils ، ومن الجدير بالذكر أن هذه النصب الحجرية موجودة بالقرب من ساحل البحر المتوسط الشرقى فى فلسطين والقوقاز كما هى موجودة فى جهات بعيدة مثل جنوب الهند وأجزاء من أندونيسيا واليابان وبعض جزر المحيط الهادى . وهى توجد جنوبى مصر

فى السودان والحبشة ، ومن الصعب أن نقول إنها جميعاً تنتمى إلى تراث حضارى واحد . ويدل توزيع النصب الحجرى وغيرها من مبانى دفن الموتى فى غرب البحر المتوسط على أن بناتها لم يكونوا المهاجرين الوحيدين الذين حضروا من الغرب وحملوا اليه الحضارة .

وتوجد النصب الحجرية فى كتب إيطاليا كما تسمى آبوليا ، ولا سيما فى تيرد واترانتو Tere d'Otranto إلا أن صقلية خالية منها ، بينما وجدت فيها قبور قديمة منحوتة فى الصخر ، وهذا أمر يميز لهذه الجزيرة تمييزاً ظاهرا . بينما توجد فى سردينيا أصناف عديدة من النصب الحجرية ، ومن بينها صنف يختلف اختلافاً كبيراً عما هو موجود فى أرض أوترانتو ، وهذا أمر آخر هام . ففى سردينيا تمتاز مقابر العمالقة — كما تسمى تلك النصب الحجرية — بفناء خارجى نصف دائرى يمتاز بأن نصفه الدائرى مسقوف ، ونصفه الآخر غير مسقوف . وينتهى هذا الفناء بدهليز طويل مبنى من الحجارة ومن ثم سميت بمقابر الدهاليز وتوجد مقابر تشبهها فى أنتريم ، جنوب غرب اسكتلندة ، إلا أن دهاليزها الطويلة مقسمة إلى أقسام . وتوجد هذه أيضاً فى جزيرة مان . وغرب ويلز ، وشمال غرب انجلترا ، فالى أى حد تشترك هـــذه جميعاً مع سردينيا فى تراث حضارى واحد ، هذا أمر لا يزال مشكوكا فيه . ويبدو أن قبور العمالقة فى سردينيا كانت جبانات متصلة بقلاع محصنة ، يحرسها مايسمى بالنوراجى Nuraghi وهى عبارة عن مبان حجرية بيضاوية أو دائرية الشكل ذات جدران سميكة جدا مثل المخروط الناقص . ويصل ارتفاع بقايا تلك المقابر إلى ٣٠ قدم ولها فتحات وكوى فى حوائطها . مما لا يسمح بأى دخيل بالعبور نحو الداخل دون اعتراض الحراس أو دون التعرض للهجوم وهو يسير فى ممرات ضيقة . وربما كان المدخل الخارجى إلى هذه القلاع مرتفعاً عن الأرض ارتفاعاً كبيراً ، كما أنه يمكن اغلاق ذلك المدخل من الداخل . ويدل ترتيب هذه القلاع الصغيرة حول الأماكن المحصنة ، على تنظيم دقيق وصل اليه

هؤلاء القوم مبكراً فى التاريخ ، كما يدل على ذلك ما عثر معهم من آثار ولا نزال نتساءل ما إن كانت هناك علاقة بين النوراجى فى سردينيا وبين السيس فى بنتلاريا .

ولا يوجد فى سردينيا فخار ملون ، كما هو موجود فى جنوب إيطاليا وصقلية . وأن وجد فيها بعض أوان ذات خطوط محززة ، ملئت بمادة ملونة . ومن الممكن أن نفهم سر وجود النصب الحجرية فى أرض أوترانتو ، عندما تتذكر أنها فى الجانب الغربى للأدرياتى حيث يشتد ضيق هذا الممر ، أى فى مقابل خليج كورنث الذى تحرسه جزر أتاكاوليوكا ، وهو طريق سلكته الحضارة الإيجية نحو الغرب . وكان على السفن التى تريد أن تعبر مدخل الأدرياتى الضيق أن تمر بخليج كورفو نحو الشمال . إلا أنه من المحتمل أن هذا الطريق لم يكن مطروقاً فى فجر التاريخ ، وأن النصب الحجرية على ساحل الأدرياتى حديثة العهد .



شكل (٤٧)
منظر أفقى ورأسى لقطاع المقابر فى سانتا بربارا ، سردينيا

من الممكن تفسير حالة سردينيا على ضوء أهمية النحاس والرصاص فى الجزيرة ، وهنا ليس من الضرورى أى تكون نصبها وقلاعها قديمة العهد ، كما يظن من قبل . وربما استمر استخدامها أمداً طويلاً فيما بعد، وتوجد فى أنجيلو روجو بشمال غرب سردينياوفى مواضع غيرها بالجزيرة مقابر عميقة فى الأرض تختلف تماما عن مقابر النصب الحجرى . ويرى بيجوت Piggott أنها نشأت أولاً فى أسبانياومنها انتشرت غرباحتى وصلت إلى «ميكينيا»، ولا يزال عدم وجود النصب الحجرية فى صقلية بينما هى منتشرة فى مالطة واوترانتو وسردينيا من ألغاز التاريخ . فمن مميزات آثار غرب أوروبا اشتراك منطقة واحدة فى طراز واحد من المقابر. ويوجد فى صقلية تولوسات Tholoi متأخرة فى جانبها الشرقى كما وجدت بها بعض مقابر عبارة عن صناديق حجرية مبنية من قطع ضخمة من الحجارة إلا أن معظم مقابر صقلية منحوتة من الصخر ، ولا سيما فى الصخر الجيرى، ذات مداخل تشبه الكوى، تغلق أيضاً بقطع من الحجارة كما توجد قبور محفورة على شكل عمودى فى الأرض. ومن أحسن المواضع الأثرية المعروفة فى الجزيرة سنتنيللو Sentinello وهو غنى بالفخار الجيد إلا أن آلاته الحجرية ليست جيدة الصنع ، وإن كان بعضها مصنوعاً من الأبسديان المستورد . ولا تزال أصول وتواريخ مراحل هذه الحضارة ضئيلة ولم تعرف بعد ، وإن كثر عنها النقاش . ويجب أن نحترس ونتذكر أن الناس كانوا متفتقى الأذهان فى مراحل الانتقال من استعمال الحجارة إلى استعمال المعدن وفى فترات التوسع التجارى عندما احتاجوا إلى الدفاع عن أنفسهم ضد المغيرين . وربما تأثر هؤلاء الناس فى غرب البحر المتوسط بمؤثرات قادمة من شرقى الحوض، حملت معها أساليب طلاء الفخار وبناء المقابر ، وربما وصل مهاجرون من شمال إفريقية كما اقترح بعض الباحثين، الا أن الرأى السائد كان ضد اعتماد صقلية فى مراحل حضارتها الأولى على شبه جزيرة إيطاليا. ولقد أشار الكتاب الكلاسيكيون إلى السيكانى Sicani والصقليين Siculi باعتبارهم السكان السابقون للإغريق فى الجزيرة ، إلا أن البحث الأثرى لم يفلح بعد إلى التعرف عليهم تعرفاً مرضياً .

وجدت فى كاستلكوشيو Casteluccio بصقلية قطعتان من قطع الزينة المصنوعة من العظام ذات حلى بارزة مستديرة ، كما وجد فى صقلية فخار على شكل الساعة المائية . وهذه الأشياء تشير إلى علاقات مع بحر إيجه ، وعلى أية حال فتفاصيل الآثار تدل على وجود علاقات مع شمال بحر إيجة وجنوبه . كما يدل على ذلك أيضاً الأباريق ذات الصنابر المرتفعة التى وجدت فى كل من إقليم بحر إيجة وسردينيا . وهناك أدلة قليلة أخرى تدل على اتصالات بحر إيجة بالبرتغـــال . ونميل فى الوقت الحاضر إلى أن نرى أن العلاقات كانت قائمة بين جزر بحر إيجة الشمالية والغـــرب عن طريق خليج كورنت والجزر الأيونية . وعندما أصبح المعدن أكثر شيوعاً — حوالى منتصف الألف الثالثة ق. م. ارتبطت صقلية والغرب مع أهم المراكز الميكينية .

ووجدت فى غرب صقلية نحو الشمال ، أوان تشبه ناقوس البيكر Bell-beaker فى فيـلافرانتى Villafranti وفى جيراس Gerace وفى بوليرى Puleri إلى الشمال من ذلك بقليل . ووجدت فى سردينيا فى سانت بارتولوميو قرب كاجليارى ، وفى انجيلوروجو . وربما انتشرت هذه الآنية من أسبانيا عند بدء عصر المعدن أو قبله ، فأوانى البيكر ذات أهمية كبرى فى الأندلس .

فى بدء عصر المعدن ، حفزت إيطاليا هجرات عديدة من شمالها الشرق القارى ، ومن شرق البحر الأبيض المتوسط . وقبل وصول تلك المؤثرات كان الشعب هنا يسكن الكهوف ، ويستقر بالقرب منها ، ويقال إن هذا الطراز من الاستقرار فى مواضع قليلة فى أوروبا حتى العصور التاريخية نفسها — ولم تشجع الســـواحل الشرقية — شمال كعب إيطاليا ، أو أوترانتو الاستقرار القديم كثيراً . فراقها قليلة والمعدن فيها نادر والتربة فقيرة . أما السفوح الغربية لجبال الإبنين فكانت أكثر اجتذاباً للسكان ، حيث أنها

تحتوى على بعض النحاس بل والقصدير ، فى نصفها الشمالى ، ثم أصبحت بعد ذلك مركزاً لتعدين بعض الحديد قرب البا . وفوق هذا فالتربة أجود والماء أغزر ومواضع الاستقرار التى يمكن تحصينها تقع بالقرب من أراض زراعية ومورد ماء أكثر توفراً . ولابد وأن حوض البو حيث يصب نهر البو وروافده العديدة المنحدرة من الألب كان معرضاً للفيضانات العالية، ومن ثم فإن المجتمعات الإيطالية القديمة كانت تفضل سكنى الركامات الصخرية جنوب البحيرات الإيطالية أو فيما بينها ، كما كانت تفضل سكنى سهول أميليا بعيدا عن نهر ألبو .

جلبت الهجرات الرئيسية التى دخلت إيطاليا من الشمال الشرقى ، وربما أيضا من شرقى سويسرة فكرة بناء القرى فوق أكوام مرتفعة ، كما جلبت معها فكرة حرق الموتى . وربما عرف الوافدون الذين بنوا قرى تيراماری Terramare شيئا عن المعدن . وكانوا يحبون حفر الخنادق حول قراهم وتحصينها كما شرحنا فى المجلد السابع من هذه السلسلة . وربما استمرت تلك القرى المحصنة فى بعض المواقع حتى عصر الحديد ، إلا أن بعض الكتاب يظن أنها تدهورت حوالى منتصف الألف الثانية ق . م إلا أننا لسنا واثقين مطلقاً من وجود علاقة بين هذا التدهور وبين فترة الخسوف التى مرت بحضارات جنوب غرب آسيا ، وربما أيضاً فى بعض حضارات شرقى البحر المتوسط والتى حدثت حوالى هذا الوقت . وما دمنا نتحدث عن شمال إيطاليا فلابد من أن نذكر آنية ناقوس البيكر التى وجدت فى رمديللو Remedello وبعض المواضع القليلة فى بريشيا Brescia فى لومبارديا . وهذه أشياء مبعثرة مثل أوانى البيكر القليلة التى وجدت فى سردينيا وصقلية ، ونرى أنها نتيجة بعض الاتصالات مع أسبانيا وربما مع مقاطعة المبريه بها التى بدأت فيها صناعة أوانى البيكر ومنها انتشرت إلى بقية الأندلس ومن ثم انتشرت غربا بعد ذلك .

وجدت أعداد كبيرة من النصب الحجرية فى أسبانيا والبرتغال ، كما وجدت بقايا أخرى تدل على استقرار قديم وتبادل حضارى يمكن أن يؤرخ بالجزء الأخير من الألف الثالثة والجزء الأكبر من الألف الثانية ق . م وهذا التاريخ مبدئى تماماً . فلقد كان العلماء يميلون ميلاً كبيراً إلى أن يضعوا الموضع الذى وجدت فيه آلات حجرية دون معادن فى تاريخ سابق لتاريخ ظهور المعدن فى المنطقة التى يدرسونها . وقد تأثرت دراسة حضارات العصر الحجرى الحديث وبدء استعمال المعدن تأثيراً أكثر مما ينبغى بنظرية الأصول المحلية للحضارة ، وليس بنظرية التأثير بمؤثرات خارجة ولا سيما من شرقى البحر المتوسط وقد وجدت فى الأندلس أيضاً قبور على شكل حجرات مبنية من الحجارة ذات أسقف حجرية ، كما وجدت قرب مصب نهر تاجه فى البرتغال ، وقد تمثل هذه عنصراً ثقافياً دخيلاً من شرقى البحر المتوسط . وإلا فهى تعتبر مثلاً فريداً لامتزاج الآراء . وعلينا ألا نظن أن هذه الحجرات التى كانت تستعمل كقبور كانت نتيجة لما أوحت بها النصب الضخمة الموجودة فى ميكينيا وأرخومينوس . فهذه كانت قمة تطور معين فى بناء المقابر ، بدأ خطواته الأولى فى خيروكيثيا بقبرص وفى أربشية فى العراق . ويتساءل بيجوت ما إن كانت هذه الحجرات الكبيرة (Corbels) الموجودة فى ميكينيا تعبيرا عن فكرة مستوردة من الغرب .

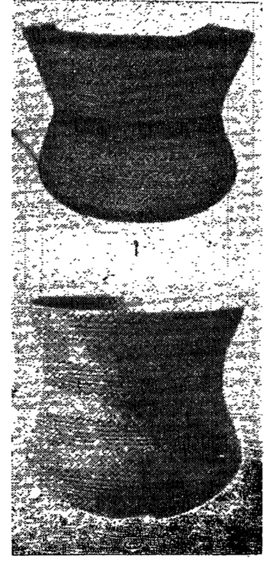
وجدت فى أسبانيا والبرتغال ، بدلاً من الأسقف الحجرية من طراز Corbel أسقف مكونة من قطع ضخمة مسطحة من الصخر تزن عدة أطنان وربما استعملت هذه الطريقة كبديل لبناء السقف على هيئة قطع صخرية ذات طنف لصعوبة ذلك الفن ، أو لوجود قطع صخرية ضخمة يمكن أن تغطى الممر من البهو الخارجى إلى حجرة الدفن ، وإذا نقص طول الممر فإن النصب يتكون حينئذ من عدد من الصخور القائمة ، يحمل كل منها صخرة كبيرة تسقف الممر ، وهذا هو شكل حجرة الدفن التى لا ممر لها أو الدولمن dolmen

البريطانية . ويظن دكتور « لسنر » وزوجته أن حجرات الدفن ذات السقوف الحجرية التي تشبه الطنف أمر دخيل على المقابر الصخرية الأيبيرية الأصلية.

وقد نشر الدكتور « لسنر » وزوجته نتائج حفائرهما فى منطقة النصب الحجرية بجنوب أسبانيا ، ويرى هذان الباحثان أن المقابر ذات الحجرات الدائرية أكثر شيوعاً فى جنوب شرق أسبانيا ، بينما ذات الحجرات المستطيلة شائعة فى جنوبها الغربى . ولاحظنا أن المدافن الأخيرة ذات ممرات ودهاليز أطول . وأخيراً فإنهما يريان أن فكرة المقابر الحجرية الضخمة ربما قد دخلت كلا من جنوب شرق أسبانيا (الميرية) وغرب البرتغال حوالى ٢٢٠٠ — ١٨٠٠ ق . م . ويريان أيضاً أن المدافن ذات السقوف الحجرية دخلت شبه جزيرة أيبيريا متأخرة إلى حد ما ، كما أن أى مدفن وجدت فيه أوانى البيكر دخيل على الحضارة الأيبيرية .

كانت أسبانيا فى أوائل عصر المعدن تصنع أوانى من نوع جميل على هيئة ناقوس البيكر . وقد نظر إليها على اعتبارها نتيجة تطور فى صناعة الفخار الأسبانى الجنوبى. ومن المحتمل أن تكون قد دخلت أسبانيا من الخارج . فشكل أوانى البيكر قد نشأ أولاً فى شرق البحر المتوسط. ووجد فى الأندلس فى كرمونا وكورونيل كما وجد فى سيمبوزيلوس Ciempozuelos وفى شمال نهر تاجه أى فى قشطيلة الجديدة ، كما انتشر فى الساحل البرتغالى غرباً وإلى الميرية شرقاً ومن ثم ربما انتشر إلى جزيرتى سردينيا وصقلية وإيطاليا . ولم يدم زمن صنعها فى البرتغال طويلا ولكنها استخدمت طويلا فى أسبانيا حيث كانت أوسع انتشاراً مما كانت عليه شمال البرانس أو جنوبها . وقد انتشرت فكرة أوانى ناقوس البيكر إلى بريتانى إما من الساحل البرتغالى أو من البرانس وسنناقش أوانى البيكر مرة أخرى فى الفصل السابع .

يقال إن الميرية فى جنوب شرق أسبانيا قد استعملت النحاس مبكراً فى



ناقوس بيكر الأسباني

التاريخ ، وكان السكان فى لوس ميللاريس وغيرها من الأماكن يبنون النصب الحجرية ، كما أنهم فى مواضع أخرى كانوا يدفنون موتاهم فى حفرات فى الصخور أو فى كهف أو فى لحد عميق تغطيه قطعة صخرية ، وإذا بطنت حوائط اللحد بالحجارة تكون صندوق صخرى Cist . وبينما شاع استعمال رءوس السهام من شظايا الصوان الدقيقة ذات القاعدة المجوفة فى أسبانيا عند بدء عصر المعدن ، أى أنها ذات حافات مشرشرة ، فإن سهام الميرية كانت ذات عنق مستطيل وحافات مشرشرة معـاً . وكان عنق السهم فى بعض الحالات عريضاً حتى ليعطى السهم شكلاً معيناً مضلعاً . وتنتشر الميرية فى شرق أسبانيا حتى قطالونيا كما تنتشر فى منطقة البرانس بشكل عام .

ومن الممكن أن تذكر هنا أن رأس الدبوس العاجية المزينة التى وجدت فى فورا بالبرتغال تشبه ما وجد فى أنقاض مدينة حصارلك الثالثة وأنه وجد فى آثار البرتغال ١١٠٠ قطعة من خرز الكالية Calais وهو صخر شبه كريم ، كما وجد ٢٧ قطعة من هذه المادة فى قاضى كيوى قرب البوسفور إلى جانب ٨٠٠ خرزة فى موربيهان ببريتانى ، كما وجدت خرزة صخرية مطعمة شبيهة بما وجد فى جزر السيكليد فى بالميلا بالبرتغال .

ويظهر أن نماذج الميرية ولا سيما فى صناعة البرونز قد انتشرت مع مضى الزمن إلى بقية أنحاء أسبانيا ، إلا أن هناك اتفاقاً عاماً على أن ازدهار أيبيريا انتهى بسرعة فى أواخر الألف الثانية ق. م.

لقد حاولنا أن نبين أنه حوالى منتصف الألف الثانية ق . م . انتشرت موجة من الفوضى والاضطراب فى جنوب غرب آسيا وشمال أفريقية والبحر المتوسط . وقد جد البحث عن النحاس والقصدير فى كل مكان قبل ذلك بعدة قرون ، إلا أن كمية خام المعدن لم تكن كافية فى كثير من الأقاليم ، كما أن استعمال الفرن المكشوف لم يكن قد عَمَّ بعد ، ومن ثم كان صهر البرونز غير كامل . وكان المتبع آنذاك هو طرق البرونز اللين لعمل الأسلحة ، بينما

كان جنوب غرب آسيا قد سار خطوة أخرى فى صناعته وذلك بصهر المعدن وصبه على شكل السلاح المطلوب ، وعمت فيه هـــذه الطريقة ، ثم انتشرت منه إلى شرقى البحر المتوسط على الأقل .

من الصعب أن نقول إنه وجدت فى البحر المتوسط مايمكن أن يسمى بالمدن كاملة النمو فى الفترة التى نتحدث عنها حتى الآن ، إلا أنه كانت هناك مجتمعات للسكان حول قصور أو حصون أو مواقع دفاعية . ولم تقم هذه إلا فى الميرية فى الفترة التى نتحدث عنها .

سبب الفرسان المحاربون الذين اندفعوا من منطقة تركستان الاضطراب والهلع فى شرقى البحر المتوسط وفى حوض نهر السند أيضاً حوالى ١٧٥٠ — ١٦٠٠ ق. م . وكان هؤلاء الفرسان يتحدثون اللغة الآرية ، إلا أن هذه اللغة كانت قد ظهرت من قبل فى بلاد اليونان وكريت كما يدل على ذلك أبحاث مستر فنتريس . ومالبثت تلك الموجة من الاضطراب أن انحسرت ، ثم ازداد صنع أسلحة البرونز بعد ١٥٠٠ ق . م . على طريقة صب المعدن المنصهر . ومعنى هذا انتشار أفران صهر المعدن حوالى ١١٠٠ ق . م . وتمكن الصانع بذلك من إعادة صهر الأسلحة المستعملة مرة أخرى ، وهذا يغنى عن البحث عن مزيد من النحاس والقصدير . ونضيف إلى هذا أن مالطة فقدت أهميتها قبل ذلك التاريخ ، أى ربما بعد ٢٠٠٠ ق. م. مباشرة . بينما ازدادت أهمية قبرص كمصدر للنحاس .

وقد استقر مستعمرون منهم العنصر الكريتى وعنصر وفد من شمال اليونان فيما بعد قرب رأس أرجوس باليونان وذلك حوالى القرن السابع عشر أو السادس عشر ق . م . وقد وجد المستعمرون فى هذا المكان أرضاً خصبة ذات تربة حمراء صالحة لنمو المحاصيل الغذائية ، كما أنه قريب المنال من البحر ، وقريب من رأس خليج كورنت ، ومن ثم يمكن أن يشقوا طريقهم إلى الغرب

دون المخاطرة بالدوران حول رأس ماتابان . ومن المحتمل أن يكون هذا الطريق نحو الغرب بحذاء خليج كورنت قد استعمل من قبل كما سبق أن ذكرنا . ولا نزال نجد أدلة على العمران الميكيني القديم في تل اكروكورنث الكبير الذي يطل على كورنث ، المدينة الرومانية الحديثة .

أهم مركزين للعمران في هذا المكان هنا ميكينا Mycenae وتيرنز Tiryns وقد كانت للأولى أهمية خاصة بقلعتها التي تطل على السهل والتي يصعب منالها على العدو . وربما كانت مركزاً للحكومة من القرنين السادس عشر إلى الثاني عشر ق . م . وكانت ميكينا قلعة أكثر منها مدينة ، أو قصراً محصناً تلحق به مبان أخرى وجبانة من لحود ، ويدور حول الجميع سور ، وتظهر بوابتها الشهيرة المعروفة بباب الأسد في كثير من المطبوعات . وقد قامت مناقشات عديدة حول التواريخ النسبية لكثير من مبانيها ولا سيما لكنوز أتريوس المشهورة التي وجدت بعيداً عن القلعة . ويتكون ذلك المبنى من واجهة ذات نقش بارز لأسد متحفز داخل إطار مثلث ، مقام على الباب الخارجي الذي يؤدي إلى قبة صخرية كبيرة ، ذات حجرة جانبية إلى يمينها . وقد ظن بعض الباحثين أن هذا المبنى قد شيد على مرحلتين ، مرحلة الممر والواجهة الخارجية ثم مرحلة القبة ، وعلى هذا فأحد الجزئين أحدث من الآخر ، إلا أن الدراسة التفصيلية التي تلت ذلك أثبتت أن هذا المبنى قد تم بناؤه جميعاً في القرن الرابع عشر ق. م. وقد وجد الأستاذ ويس Wace ألواحاً منقوشة يمكن أن تؤرخ بالقرن الثالث عشر ق. م. تحمل لنا تفاصيل عن التجارة ، وتبين أن معرفة الكتابة كانت شائعة في ذلك الوقت . كما أن هناك أدلة وفيرة على عظمة ميكينا في القرن الرابع عشر ق. م. بعـــد أن انتهت سيادة كنوسوس إثر تحطيمها . وكانت السلطة في ميكينا في يد الإغريق ، الآخيين ، وما لبثت طريقة النسب الأبوية أن ظهرت ، وأن حلت آلهة الأولمب الذكور محل الآلهات القديمة ، اللائي انحدرن من الآلهة الأم القديمة ، أو آلهة الخصب كما كان

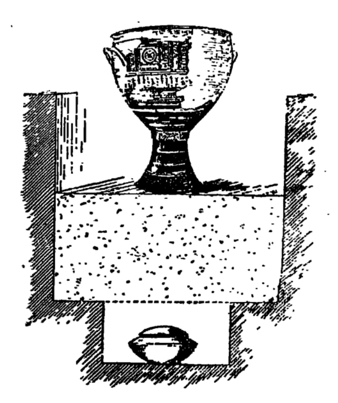
يعتقد الناس قديما . إلا أن فكرة آلهة أنثى ، وهى هيرا ، وطريقة النسب الأموية كانت باقية فى ميكينا . وكان معنى النسب الأموى — من الناحية العملية — أن من يتزوج امرأة من الأسرة المالكة ، يمكن أن يدين له الناس بالولاء فى كل مكان ويجلس على العرش . وهذا يذكرنا باستغلال داود اسم ميخال ابنة شاول لأغراضه السياسية فى القصة العبرية المشهورة (صمويل الثانى ، الفصل الثالث ، ١٣) .

وقد توجت قصة حروب طروادة الفريدة ميكينا بالنصر المبين ، إذ انتهت بتحطيم طروادة (حصار الك السابعة) عام ١١٨٤ ق . م . طبقاً لأحدث تاريخ .

ثم انتشرت الفوضى وعم الاضطراب حوالى ١٢٠٠ ق . م . فسقطت راس شمرا (أوجاريت) وبيلوس ، ودخلت مصر فى أحد أدوار ضعفها ، وتحطمت قوة الحيثيين فى الأناضول ، ثم أعقب تحطيم طروادة انهيار ميكينا أما تدهور قبرص فلم يكن ملحوظاً ، كما كان الحال فى فترات التدهور السابقة إلا أنه قلت فيها المعادن النفيسة .

ولقد كان من عوامل إشاعة هذا الاضطراب ، تحرك المحاربين من جنوب شرق أوربا إلى مناطق المدنية الراقية فى حوض البحر المتوسط ، وتحرك هجرات أخرى إلى جنوب غرب آسيا ، وقد لاحظنا من قبل قيام أوتوقراطية حربية فى نينوى تحارب القبائل الآرامية فى أوائل القرن الحادى عشر ق . م . وبدء استعمال الجمل فى جنوب غرب آسيا .

ومن عوامل ذلك أيضا انتشار طريقة صهر الحديد من الأناضول وما يتبع ذلك من انتشار أسلحة الحديد . ولقد حام الشك فى الوقت الحاضر حول دخول الغزاة الدوريين إلى بلاد اليونان بأسلحة الحديد حوالى القرن



شكل (٤٩)
جرة فى قبر ـ مقبرة ديبولون

الثانى عشر أو الحادى عشر ق. م. وربما كان الأقرب إلى الصواب أن نقول إنهم اكتسبوا تلك الأسلحة بعد أن وصلوا إلى تلك البلاد . وقد أصبحت تجارة النحاس والقصدير والأوبسديان والسفباذج (حجر الصنفرة) معرضة للذبذبة بعد أن دخل الحديد إلى هذه المنطقة . ولابد وأن الأدوات الحديدية قد أثرت فى صناعة التجارة ، ومن ثم بدأ الناس يبنون سفناً أكبر وأقوى . وقد أثرت كل تلك العوامل المتداخلة فى تلك المنطقة التى وطدت منها الزراعة أركانها ، وكثيراً ما كانت تتعرض التربة فى بعض أجزائها إلى الانهيار ، كما يحدث كثيراً حيث تستعمل آلات بسيطة فى الزراعة . ومن ثم أصبح المزارعون فقراء ، فتغلبت جماعة ذات تقاليد حربية شمالية وقتاً ما على الأرستقراطية الآخية الميكينية القديمة ، وحطمت قليلاً من تراثها السابق للإغريق .

ويذكرنا ثيوسيديد بأن أتيكا القديمة كانت لا تزال تعتمد على الحبوب التى تنتجها ، إلا أن فخار ديبلون Dipylon الذى وجد فى أثينا ويرجع إلى القرن التاسع يدل على المهارة والثروة . وربما استعاد السكان الأصليون الذين تجمعوا حول عبادة الآلهة أثينا واتخذوا البومة شعارا لهم ثقتهم بأنفسهم مرة أخرى . إلا أن كتاب المسرح المتأخرين قد تركوا لنا بصيصاً هاماً مما كان يحدث من تغير فى أثينا ، وهو تفسير يتعلق بإحلال النظام الأبوى محل النظام الأموى فى الوراثة .

فأثناء غياب أجاممنون الطويل عن ميكينا ، استولى ابن عمه وغريمه آيجستوس على كليتمنسترا . ولما عاد آجاممنون أخيراً لم يجد حلاً لهذه المشكلة إلا بقتله وقتل كاسندرا التى أعطيت له بعد سقوط طروادة . وبذلك أصبح آيجستوس ملكا — كما أصبح زوجاً لكليتمنسترا . إلا أن أورستيس وهو ابن آجاممنون وألكترا ابنته عارضا فى شرعية ملكه وطلبا الانتقام من القاتل ، فقد كان أورستيس الوريث من ناحية الأب ، فقتل كليتمنسترا وآيجستس . وقد عرض الروائى الإغريقى الموضوع مستعيناً بالآلهة والآلهات الذين أشركهم فى هذا النزاع ، فكان أبولو بطبيعة الحال مؤيداً للتسلسل الأبوى ، بل إن أثينا أيضاً أيدت الذكور ، إذ لم تحملها أنثى ، بل هى خلقت من رأس زيوس ، أما الأيومنيد أو إلهات النقمة (Furies)(١) فقد طلبن الانتقام من أورستيس عقاباً له لأنه قتل أمه ، إلا أن الآلهة هزمتها واختفت إلى الأبد ، غير أنه كتب على أورستيس ألا يقر له قرار قط . ومن النقط المهمة فى هذه الأساطير أن أثينا التى ربما كانت آلهة ميكينية إغريقية

---

(١) Furies إلهات النقمة الإغريقية التى تخرج من طارطاروس لتعاقب الجناة (المعرب)

قد منحت نسباً جديداً ، يربطها بزيوس والبانثيون (مجمع الآلهة) الأولومبي . فهذه أدلة توضح الصراع الطويل بين النظامين الأبوى والأموى فى الوراثة .

كان الحاريون الآخيون والدوريون من أكثر الشعوب حباً لأكل اللحم إذ انحدروا من أصلاب الرعاة الذين وصلوا إلى بلاد اليونان قادمين من الشمال . أما العنصر القديم ، وهو العنصر الإيجى الأصلى فكانوا يأكلون السمك أكثر مما يأكلون اللحم . وعلى مر الزمن ، وتوالى الأجيال ، وضآلة شأن القطعان فى حياة الإغريق ، احتل السمك مكاناً كبيراً على الموائد ، حتى موائد الأغنياء ، بينما لم يكن لهم إلا نصيب ضئيل من اللحم ، وهكذا أثر السكان الأصليون فى الوافدين حديثا ، وانتشرت زراعة شجرة الزيتون ، ولا سيما فوق سفوح الجبال المنخفضة فى أتيكا منذ أيام صولون (أوائل القرن السادس ق . م .) ، وهذا أدى إلى وجود فائض للتصدير يدفعون به ثمن ما يستوردونه من سلع . ويبدو أن الفينيقيين قد قاموا بجزء كبير من هذه العملية فى أوائل أيام أثينا ، إلا أنها بعد ذلك بنت أسطولها الذى كان يأوى إلى خليج بيرايس (بيريه) ، وزادت من ثروتها بعد استغلال الفضة فى سونيوم وبذلك خرجت أثينا من حياتها القديمة الأقرب إلى البساطة عند ما كانت تقنع بكفاية نفسها اقتصادياً إلى مركز للتجارة البعيدة المدى ، وتأسيس المستعمرات فى مرافىء بعيدة عديدة . ومن أهم حقائق تاريخ الإنسانية أن أثينا وضعت حكمها فى يد مجلس يتكون من رءوس الأسر الهامة العديدة فيها — أى ديموقراطية مباشرة أو أوليجاركية فى بعض الأحيان ، رغم استبعاد العبيد الذين كانوا مصدر اليد العاملة .

أثناء فترة نمو أثينا كانت الغالبية العظمى من سكانها يشتغلون بالزراعة ، إلى جانب أى عمل آخر ، إلا أن ذلك لم يدم طويلا ، فسرعان ما لجأ السكان إلى التخصص فى العمل ، إذ أصبح من العسير أن ينتج رب كل أسرة طعامه

بنفسه ، ومع ازدياد عدد الأسر ، أصبح نظام الديموقراطية المباشرة مستحيلاً من الناحية العملية .

وكان النظام الإغريقى المثالى ، هو نظام المدينة Polis الذى نسميه بنظام دولة المدينة city-state ، ويحتل النضال والمنافسة الكبيرة بين المدن الإغريقية جزءا كبيراً من تاريخها . وهذا هو الذى أدى أخيراً إلى خضوعها لفليب المقدونى . إلا أن المدينة شجعت الشخصية والعبقرية كما لم يشجعها أى نظام من قبل .

انتشرت فكرة المدينة فى كل مكان فى حوض البحر المتوسط ، البحر الأسود فى القرنين السابع والثامن ق . م . فقامت مدن الموانى فى أماكن عديدة على الساحل ، فى الأناضول ، وفى شرقى صقلية وجنوب إيطاليا وفى ساحل فرنسا على البحر المتوسط وشمال شرق أسبانيا . وبذلك دخلت إيطاليا أولاً ، ثم بقية مناطق جنوب غرب أوروبا فى نطاق المدينة . وفى نفس الوقت عمل الفينيقيون الذين أخرجتهم منافسة الإغريق من تجارة المدن الإغريقية ، على تنمية صور ثم قرطاجة ومالطة وموتيا فى غرب صقلية ، وطرشيش (فى الأندلس) وقرطاجنة (قرطاجة الجديدة Carthago Nova) .

أما فى إيطاليا فقد حمل الإغريق والأوترسكان من منطقة بحر إيجه زراعة الزيتون وشيدوا مدنهم على الموانى وفوق التلال ، وقابلوا بل وتحالفوا أحياناً مع اللاتين والأمبريان Umbrians الذين وفدوا من منطقة الدانوب . وبينما نمت المدينة فى بلاد اليونان عن طريق امتصاص الغزاة الجفاة وامتزاجهم فى السكان الأصليين ، فإننا نجد الصدام أكثر مما نجد الوفاق فى إيطاليا بين المهاجرين الوافدين من مختلف الجهات وبين الأصليين ، لا سيما وأن بعض المهاجرين لهم نزعة تجارية وبعضهم لهم نزعة حربية . ويبدو أن الميراث الأصلى القديم

للسكان الأصليين أقل ظهورا فى المدن الإيطالية ، رغم أن سلالة السكان الأصليين كانت تكون الجزء الأكبر من عامة الشعب . فقد ظل الساحل الأدرياتى شمال كورفو وأوترانتو أقل تأثيراً فـــترة من الزمن بالمؤثرات الإغريقية . أما فى شرق البحر المتوسط فقد ظلت مصر — إلى حد ما — فى معزل عن تلك المؤثرات ، إذ كانت تحت سيطرة الفرس ، هى وأجزاء عديدة من جنوب غرب آسيا . كانت روما أهم المدن التى قامت فى البحر المتوسط فى العصر الكلاسيكى ، فقد تأسست عام ٧٥٣ ق. م . كما تروى التقاليد وقد قامت روما على هضبة متقطعة من اللافا على جانبى نهر التيبر الأدنى ، تحيط بها عدة تلال ، وقد استقر فيها تصنيف من شعوب شتى من الأوترسكان واللاتين والأمبريان . وكانت تلك الشعوب تتقابل لكى تناقش مسائلها فى ساحة تقع بين التلال ، أصبحت تعرف فيما بعد باسم النادى الرومانى Forum romanum قلب الإمبراطورية الرومانية . وقد ربط هذه الجماعات المختلفة قانون موضوع ، تطلب من الجميع التماسك التام فى وحدة واحدة ، ولم يرتبط بأى جماعة معينة سواء كانت أسرة أو تقليداً أو ديانة . واتسعت المدينة لعدد كبير من الديانات طالما لم تتطلب من أتباعها الولاء الكامل لها ، فقد أصبحت إدارة المدينة وقوانينها دنيوية صرفة أو علمانية . وقد اضطر الرومان تحت حكم بيئتهم أن يتوسعوا فى الهندسة المدنية ، ببناء الطرق عبر المستنقعات التى تحف بمدينتهم ، وتشييد الجسور فوق نهر التيبر ، ومع مضى الزمن فى أماكن أخرى عبر الطرق . وكان القانون الرومانى سارياً فوق الطرق كما كان سارياً فوق المدن التى تربطها هذه الطرق . وكان هذا القانون عرفا مقننا يوفق بين وجهات نظر التقاليد المختلفة ، ولم يكن كالمدينة الإغريقية التى أثرت فى التقاليد المحلية تأثيراً خلاقاً . وكان هم القانون الرومانى هو حفظ الأمن والنظام وليس حرية التعبير الخلاق الجديد ، وقد تزايدت ثروة الرومان فى العدد والأدوات ، وانتشر الرخاء حيث انتشر الحكم الرومانى ، ومع مضى الزمن ازداد الترف

والرفاهية وازدياد الخمول فى روما ، وهـــذا كان من عوامل إضعاف النظام الرومانى فيما بعد ، ولا سيما وأن وسائل اتصال العاصمة بأطراف الإمبراطورية قد ضعفت باتساع رقعتهـا وصعب أمر الدفاع عنهـا ، وتعقدت أمور ولاية أمرها ، وتوارث عرشها كما يضاف إلى هـذا وقوعها فى أخطاء مالية ، أدت إلى إنهيار عملتها ، وتدهور التجارة والمدن ، وقـد بدأت المدن الرومانية فى فى بريطانيا فى الانهيار بعد منتصف القرن الثالث ق. م. رغم احتفاظ أصحاب الضياع فى الأرياف بشىء من الرفاهية . وكانت ثروة الإمبراطورية وبهاؤها عوامل إغراء تجتذب اليها المحاربين المرابطين عـــلى حدودها ، الذين كانوا يتوجسون خيفة من بطش الإمبراطورية ومحاولتها السيطرة عليهم وجذبهم إلى منطقة نفوذها . ومن ثم كان الدفاع يحتـل جزءاً كـبيراً من نشاط الإمبراطورية ، فتفاقمت مشاكـل الدولة الاقتصادية وتهـددت وحـدة الإمبراطورية باستمرار . ولما كان أهم مصدرين من مصادر تهــديد الإمبراطورية يأتيان من جنوب روسيا وبارثيا (فارس) فقد شيدت بيزنطه واتسعت اتساعاً كبيراً فى القرن الرابع الميلادى عندما سميت بالقسطنطينية وأصبحت عاصمة جديدة على مقربة من أهم مركزين من مراكز الخطر على الإمبراطورية وفرضت المسيحية كديانة وحيدة للإمبراطورية كمحاولة لربط الإمبراطورية برباط واحد . وكانت بيزنطة مستعمرة إغريقية فى القرن الثامن ق . م . لاقت حظوظاً متفاوتة تارة تحت يد اسبارطة وتارة تحت يد أثينا . ثم أصبحت مستقلة إلى حد ما ، ثم خضعت لروما ، وتحطمت أجزاء منها مرتين على يد الجيوش الرومانية ولـكنها أصبحت أخيراً عاصمة للإمبراطورية وكان مرفؤها البديع مركز السفن فى العصر الإغريقى ، فى موقع ممتاز كمركز لتهيئة السفن التى تحمل القمح وهى غادية ورائحة من البحر الأسود .

وقد انهارت كل محاولات توحيد البحر المتوسط تحت روما أو تحت القسطنطينية وذلك بعد محاولة جستنيان القوية فى أواسط القرن السادس

الميلادى . فقد انهارت العملة وتدهورت التجارة وفقدت المدن عدداً كبيراً من سكانها ، كما ازدادت سيادة الدويلات الصغيرة المحلية ، وهرع الناس يبحثون عن الأمن تحت هذا الحاكم أو ذاك . سواء كان دينياً أو زمنياً ، ولم تفلح أعمال القمع والاضطهاد لمحاولة توحيد الشعور العام وتوحيد المذاهب الدينية إلا فى إشاعة التذمر والشعور بالظلم ولا سيما فى جنوب غرب آسيا حيث التقاليد والآراء الدينية عريقة عميقة الجذور شديدة التعقد . وكل هذا منح أتباع محمد فى القرن السابع الميلادى فرصة نشر عقيدة التوحيد الذى لا يقبل أى شريك بالله ، عقيدة الإسلام ، التى حملها المجاهدون المنبعثون من حافة الصحراء .

فقد ظهر فى ذلك الحين تناقض كبير واضح بين بيئتين فى داخل حوض البحر المتوسط ، فالبلاد التى تقع جنوب خط يمتد من أرمينيا أو حلب إلى القيروان فى تونس جافة بصفة عامة ، وتعتمد فى زراعتها على أعمال الرى ، وتعتبر تونس وفلسطين وسوريا منطقة انتقال بين الجزء المطير والجزء الجاف من هذا الحوض . وقد أصبحت تلك المناطق الجافة وحافة الصحراء أساس نظام الحياة الإسلامية (١) ، ومن ثم انتشر النظام من تلقاء نفسه إلى تركستان من ناحية ، حيث سبقته عملية الأغرقة من قبل ، وإلى شمال أفريقية وآسيا من ناحية أخرى . وهكذا حدث انشقاق فى حوض البحر المتوسط فانقسم إلى قسمين يعادى أحدهما الآخر ، ولم تعد إيطاليا مركزاً للوحدة ، بل جزءاً ناتئاً من أوروبا فى قلب عالم معاد غير مأمون . وقد أدى هذا إلى ازدياد

---

(١) لا يوضح المؤلف ماذا يقصد بنظام الحياة الإسلامية . ومن الغريب أن يحاول ربط الإسلام بإقليم مناخى أو نباتى معين . وربما قصد إلى القول إن الإسلام انتشر فى عروض معينة داخل أقاليم متشابهة ومن ثم كانت الحضارة الإسلامية تمتاز بتجانس إقليمى معين . غير أنه فات المؤلف انتشار الإسلام فى جهات أخرى مثل الهند وأندونيسيا (المعرب) .

تدهور التجارة والحياة الحضرية ، بل إلى تدهور نظم الصرف فى الريف فهجر الناس زراعة الأرض ، واتسعت المستنقعات وانتشر وباء الملاريا فى الأماكن التى تدهورت نظم الصرف فيها ، وانتشر الفقر فى أوروبا بينما انتشرت تعاليم الإسلام وبعض التراث الإغريقى ومظاهر مدنية جنوب غرب آسيا إلى صقلية وإيطاليا وأسبانيا .

وقد بدأت الصلات التجارية بين البحر المتوسط الإسلامى والبحر المتوسط الأوروبى تعود فى القرن العاشر الميلادى ، ولعبت رافينا فى إيطاليا الإدرياتية دوراً على شىء من الأهمية أثناء العصور المظلمة وبدأت أهمية البندقيـــة وتورشيللو ، إلا أن الأولى فاقت الثانية بسرعة ، وانتقلت بعض المعرفة بالطب الإغريقى إلى سالرنو عن طريق الإسلام . وبهذا بدأ البحر المتوسط الأوروبى فترة جديدة من الازدهار وتفتح الحياة الحضرية وازدياد الثروة . ويمكن أن يقال إن الفترة الأولى استمرت من حوالى ٣٠٠٠ ق . م إلى حوالى ١٢٠٠ — ١١٥٠ ق . م . وإن الفترة الثانية أو الكلاسيكية استمرت من حوالى ٨٠٠ ق . م ، إلى حوالى ٥٠٠ ق . م . أما الفترة الثالثة فقد سبقها عهد من تنظيف الغابات وزراعة الممرات فى غرب أوروبا أى وراء منطقة البحر المتوسط ومن ثم بدأت الحاجة للسلع الاستهلاكية تظهر فى أوروبا حوالى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر ومن ثم نشطت التجارة التى عبرت البحر المتوسط فى الغرب وبهذا أصبحت لمدن البحر المتوسط التجارية أسواق بعيدة فى أوروبا .

بالإضافة إلى هذا أصبحت قرطبة، عاصمة أسبانيا الإسلامية، مركزاً للعلوم والفنون، يهرع إليها شبان أوروبا المسيحية النبلاء . وربما وصل فن الخزف المزجج اللامع إلى غرب أوروبا عن طريق قرطبة أو عن طريق غيرها من مدن أسبانيا الإسلامية .

إلا أن العداء المستحكم بين أسبانيا المسيحية وأسبانيا الإسلامية ، وما اعترى الأخيرة من تدهور فى القرن الثانى عشر قلل من شأن قرطبة كمركز للحضارة ، وما لبثت أن فقدت أهميتها فى ذلك الميدان . أما فى البحر الأدرياتى فقد كانت كل من البندقية وراجوزا ، المبتعدتين عن نفوذ الكنيسة على استعداد لتبادل التجارة مع الأقطار الإسلامية ، وقد أعطت راجوزا اسمها للأسطول التجارى فى اللغة الانجليزية حيث عرف باسم أرجوسى Argosy غير أن جبال البلقان المرتفعة خلفها قد حد من نموها بعكس البندقية ، التى حمتها جزرها الصغيرة من الغزو البرى خلال العصور المظلمة ، بينما كانت على اتصال منظم بلومبارديا حتى ترنتينو ومن ثم إلى ممر برنر ومنها إلى الأقطار الجرمانية . التى كانت تتزايد فى عدد السكان ، ويزداد بذلك استهلاكها للأسماك المملحة شتاء . ولما كان الملح نادراً فى أغلب الأحيان فإن تمليح السمك لم يكن تاما ، وهذا فتح مجالا للفلفل وغيره من بهارات الشرق ، التى كانت البندقية تشتريها من التجار العرب ، وتبيعها كسوق هامة . ومن ثم أصبحت البندقية أهم مدن العصور الوسطى التجارية الأولى . أما جنوة التى كانت تنافسها ، فقد كانت تقع فى ظل جبال الأبنين ، ومعرضة لهجمات الأمراء الإقطاعيين المحليين ، وكانت تقاسى من عبور حافة الجبال الوعرة حتى تصل إلى سهل لومبارديا ، ومن ثم كان عليها أن تجتاز ممرات الألب الوعرة ولذلك كانت جنوة أضعف عادة من البندقية فى العصور الوسطى ، هذا إلى إلى جانب عامل آخر لعب دورا كبيرا فى هذه المنافسة .

لقد كان لموقع البندقية على جزيرات صغيرة أثر فى تنمية الشعور بشخصيتها المنفردة الخاصه ، ومن ثم نما لدى سكانها شعور وطنى نحو مدينتهم وكان هذا من الأسباب التى جعلها زاهدة وقتاً طويلاً فى امتلاك أراض على البر الإيطالى ، رغم أن هذا الأمر تغير فى القرن الخامس عشر . أما تجار جنوة فربما وقعوا تحت إغراء الدخول فى محالفات مع الأمراء المحليين ، وربما

أغرت جنوة بدورها بعض الأمراء للانضمام إليها كى يمنحوها الأمن والسلام .

وكانت بيزا وأمالفى مدينتين هامتين وإن كانتا أقل منافسة للبندقية من جنوة ولقد حد من نمو كل من سالرنو وأمالفى اختيار نابلى عاصمة للصقليتين فى القرن الثانى عشر . وبينما كانت نابلى مدينة ساحلية تحكمها أسرة مالكة ، فإن البندقية وجنوة كانتا أوليجاركيتين تحت حكم كبار التجار ونمت ميلانو كمدينة تجارية ، وملتقى طرق تعبر ممرات الألب . ونمت فلورنسة كمدينة أوليجاركية تجارية داخلية تتجمع فيها الطرق التى تعبر أهم معابر الأبنين وأكثرها فائدة ، وقبل أن نستطرد فى الحديث عن المدن التجارية الداخلية يجب أن نتحدث عن أحد عوامل نمو المدن فى ذلك الحين .

أثناء العصور الوسطى وبعد أن سقطت الإمبراطورية الرومانية اشتعل خيال الناس بالقانون الرومانى ، ومن ثم ازدادت هيبة قساوسة الكنيسة الرومانية ، الذين أصبحوا ورثة التراث الإمبراطورى القديم وفى بدء عصر النهضة فى أواخر القرن الحادى عشر أصبح القانون الرومانى وعلوم اللاهوت موضوعاً هاماً للدراسات الجديدة ، وكان لابد لتلك الدراسة من تعلم اللاتينية وكان على طلبة العلم أن يمروا فى طريقهم إلى روما بمدن شمال إيطاليا بمدينة بولونيا عند المدخل الشمالى لأهم ممر يخترق الأبنين نحو الجنوب، وبذلك أصبحت مكان ملتقى طلبة العلم الذين كانوا يتلقون دروس اللاتينية والقانون على أساتذتهم فى هذه المدينة . وكان هذا هو منشأ أم الجامعات الأوروبية الغربية ، ويؤرخ ذلك بحوالى عام ١١٠٠ ق . م. ولقد أضافت عوامل أخرى لنمو هذه المدينة ، كما نمت مدن جامعات أخرى على غرارها فى شمال إيطاليا ، وتزعم بافيا أن جامعاتها ترجع إلى القرن العاشر إلا أنها لم تصبح جامعة بالمعنى التقليدى إلا عام ١٣٦١ . وقد نمت بافيا عند ملتقى الطرق من الشمال والغرب قرب نهر

بتشينو وقبل أن يلتقى هذا النهر بنهر البو ويغرق سهله الفيض ونشأت بادوا على الطريق من البندقية الذى يصعد نهر برنتا إلى وادى ترنتينو ، وهو الطريق المؤدى إلى ممر برنر شمالاً . ومن ثم نشأت جامعة بادوا التى لا تزال قائمة حتى الآن . ومن الصفات الهامة لهذه الجامعات التى بدأت كديموقراطيات للطلبة أنها كانت أقوى نمواً فى مدن شمال الآبنين عما كانت عليه فى مدن جنوبها الغـــربى .

وقد وصلت فلورنسه إلى مركز مرموق بين المـدن التجارية فى العصـور الوسطى . وكان من منتجاتها الرئيسية الأقمشة الفـاخرة ذات الصبغـة الأرجوانية التى أنتجتها بكميات كبيرة ، وكانت بعض هذه الأقمشة تستورد من انجلترة لتصبغ وتعد نهائياً فى فلورنسه . إذ كان البابا فى ذلك الحين يأخذ الجزية من انجلترة ، وعقدت فلورنسة اتفاقيـة مع روما على أن تدفع من تلك الجزية لعمـــلاء فلورنسة فيشترون بهـا منسوجات وصوفاً ويصدرونه إلى فلورنسة . وكانت فلورنسة بعد ذلك تبيع الأقمشة المصبوغة وتدفع من ثمنها ما يستحقه البابا ، وبهذه الطريقة حلت إحدى مسائل تحويل العملة . ولقد نمت ثروة كل من فلورنسة وروما فى أواخر العصور الوسطى لمثل هذا السبب ، وأضافت روما إلى عمارتها مبانى عديدة ضخمة ، من أهمها كنيسة القديس بطرس .

أما فى شبه جزيرة البلقان فقد أدى الصراع مع تركيا إلى تدهور البلاد ، فضلاً عن إعاقة نمو المـدن ، ولم تنج من هذا التـدهور إلا أجزاء ضئيلة من شبه الجزيرة .

وكانت أسبانيا مشغولة تمـاماً بالصراع بين المسيحيـة والإسلام خـلال العصـور الوسطى وابتداء من القرن الثـانى عشر زمناً ما ، وفقـدت أسبانيا الإسلامية جزءاً كبيراً من تراثها الثقافى الذى كونته فى قرطبة الإسلامية منذ

قرون مضت تحت حكم المرابطين ثم الموحدين . وقد حاولت الثقافة اليهودية أن توفق بين الديانتين المتنافستين إلا أن نمو التعصب الديني أدى إلى محاولة طرد اليهود من أسبانيا بعد أن انهزم المسلمون فيها نهائياً على يد فردناند وإيزابيلا فى القرن الخامس عشر . ولقد استطاعت سلامنكا رغم هذا ، وهى تقع عند الطرف الشمالى (أو المسيحى) لممر يخترق سلاسل الجبال الوسطى فى أسبانيا ، أن تنشىء جامعة فى القرن الثالث عشر ، ذات اهتمام كبير بالرياضيات ، وهذه إشارة لحلقة الوصل التى ربطت أسبانيا المسيحية بأسبانيا الإسلامية ، أما فى بلاد المسيحية الشمالية فقد أنشئت الكاتدرائيات فى مواضع مثل بورجوس وليون على الطريق إلى معبد القديس جيمس (سانتياجو دا كبو ستيلا) وهى قاعدة مقاومة الإسلام . وأصبحت طليطلة ، قلعة الإسلام الأمامية التى كانت أسبانيا المسيحية ، مدينة لها ، ترقب انهيار قوة الإسلام فى أسبانيا . أما برشلونة فكان من حسن حظها أنها ابتعدت عن الصراع بين الديانتين الكبيرتين ، ونمت فيها التجارة مع مرسيليا نمواً كبيراً ، ونمت فيها أيضاً اللغة القطالونية التى دخلت فيها عناصر لغوية أسبانية وفرنسية . وهكذا نمت فى أسبانيا وكذلك فى البرتغال حياة حضرية ، ولكنها لا تقارن بما حدث فى إيطاليا . ولقد بقى فى أسبانيا جزء كبير من التراث الإسلامى فى الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، فلا يزال الرعاة يتحركون حركات فعلية فى قشطيله الجديدة وفى إسترمادورا ، حيث كانت تعيش عناصر بربرية من شمال أفريقية ، متميزة عن الزراع المسلمين الذين كانوا يروون حدائق بلنسية .

وقد أدت الرحلات البحرية واقتحام المحيط وكشف الطرق البحرية منذ أواسط القرن الخامس عشر إلى بدء تدهور المدن الإيطالية . ولكنها منحت الثروة لوقت ما لكل من أسبانيا والبرتغال . فأصبحت لشبونة مدينة هامة ، وبعثت مدريد من جديد واختيرت عاصمة متوسطة لأسبانيا ، إلا أن

الأسبان كانت تنقصهم المهارة التجارية ، وكانت البلاد تجتاحها حركات التفتيش والاضطهاد التي عرقلت نموها ، كما وجدت البرتغال نفسها منعزلة عن القارة ، تمزقها حركات الاضطهاد والتعصب الديني أيضاً . فانتقلت سيادة البحار إلى فرنسا وهولنده ، وبريطانيا ، وقد عانت فرنسا أيضاً زمناً ما من اضطهاد الصفوة المختارة من مفكريها بتهمة الهرطقة ومن حركات الاضطهاد والنفي التي أصابت بعض عناصر الأمة .

وقد استمرت العلاقات قائمة بين البرتغال وبين أفريقية وجزر الهند الشرقية كما بقيت بعض العناصر الأفريقية الأصل في جنوب البرتغال من ذلك الحين .

لقد انطفأت شعلة الحماس الأولى في أسبانيا بسرعة ، وتدهورت التجارة وركدت المدن ، ودخلت مدريد في صراع طويل مع المدن الهامة في الأقاليم ولم تكد تصل إلى مقام العاصمة المركزية الحقة إلا بعد عصر السكك الحديدية التي ربطتها بالأقاليم في القرن التاسع عشر . ورغم هذا فقد ظلت برشلونة أكثر من منافس لها .

وعلى العموم فقد مر البحر المتوسط في فترة اضمحلال من أوائل القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر ، وذلك بسبب نجاح الطرق المحيطة من ناحية ، وبسبب عجز السلطنة التركية والمملوكية في مصر . إلا أنه ينبغي لنا أن نلاحظ ظاهرة هامة من نوع مختلف . فقد أصبحت قلاع العصور الوسطى عديمة الجدوى أمام اختراع المدافع ، كما أن ازدياد التجارة جلب مزيداً من الثروات مع ما تتطلبه من الرغبة في الرفاهية والأبهة ، وازدياد المهارة الفنية في صناعة الخشب . فكان من نتيجة ذلك تقدم الاختراعات الخاصة بالأدوات الموسيقية وتفوقت مدن شمال إيطاليا مثل بريشيا وكريمونا من إتقان صناعة الفيولين من أداة موسيقية قديمة تسمى الفيول . ولا تزال أسماء أجيال عديدة

من أسرة أماتى وتلاميذهم ستارديفاريوس مقدسة فى كل مكان . إلا أن تقدم الموسيقى الحقيقى حدث بلا شك فى بلاد شمال الألب ولاسيما بين الجرمان، من أمثال ج . س باخ ، ومن أبناء فينا مثل جلوك ، هيدن ، موزارت ، بيتهوفن ، فيبر ، شوبرت ، برامز ، وستراوس . وفى نفس الوقت كان التدهور يلحق بالرسامين فى البحر المتوسط ، وانتقلت زعامة الرسم والتصوير إلى فرنسا وهولنده التى تخصصت فى الرسوم الدينية والموضوعات التى تعالج مظاهر الحياة اليومية ، ورسم حياة الأشخاص العاديين منذ أيام بيتر بروغيل الأكبر ، والاهتمام أيضاً بمناظر الطبيعة التى لم تعد مجرد حاشية للموضوعات الرئيسية ، بل موضوعات للرسم قائمة بنفسها .

لقد وجد القرن التاسع عشر البحر المتوسط فى موقف لا يحسد عليه ، ينقصه الفحم والحديد ، ويتنازعه عدد من الدويلات الصغيرة فى إيطاليا ، ونظم عتيقة فى الحكم والزراعة والتربية فى أسبانيا ، وتتمثل فيه نتائج انهيار السلطنة التركية . إلا أن هذا القرن أيضاً شهد شق قناة السويس [1] على يد المهندس الفرنسى دى لسبس سنة ١٨٦٩ وكان هذا أكبر حدث اقتصادى فى مصر التى بدأت تنهض على يد محمد على الكبير . فنمت مارسيليا وبرشلونة وجنوة ونابلى والإسكندرية نمواً كبيراً ، كمدن موانىء تعيش داخل وحدات حكومية أقلية . وليست كوحدات منفردة

---

(١) لقد فات المؤلف أن يذكر فضل مصر فى شق القناة ، فحكومة مصر هى التى منحت امتياز حفر القناة ، وكانت صاحبة أكبر عدد من أسهم شركتها ، والعمال المصريون هم الذين شقوها بفئوسهم ، قبل اختراع آلات الحفر الحديثة ، فاستشهد منهم الآلاف ، وهى فوق ذلك تجرى فى أرض مصرية ، وتديرها أيد مصرية لصالح العرب والعالم أجمع منذ أممها الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٥٦ وبذلك دخلت القناة فترة جديدة من تاريخها . (المعرب)

ذات شخصيات مستقلة لها سيادة كما كانت تعيش جمهوريات مدن إيطاليا المستقلة فى العصور الوسطى .

وفى نهاية القرن التاسع عشر حدثت الثورة الصناعية الثانية التى أدخلت القوة الكهربائية واستخدمت آلات الاحتراق الداخلى التى تدور بالزيت ، والتى امتازت بمشاريع الرى الكبرى ، ويسكن القاهرة الآن أكثر من ٥ر١ مليون نسمة ، ومثل هذا العدد أيضاً يسكن فى برشلونة وميلان وروما وأثينا ولاسيما بعد جلاء الإغريق عن آسيا الصغرى . أما نابلى والإسكندرية فقد وصلت الى حدود المليون نسمة ، ويزيد عدد سكان كل من مارسيليا واسطنبول وجنوه وتورين وبالرمو على نصف مليون نسمة .

إن ازدهار البحر المتوسط فى عصور ماقبل التاريخ . وفى العصر الكلاسيكى وفى العصور الوسطى . يمكن أن يستأنف مرة أخرى على نطاق لا نستطيع أن نتنبأ به فى الوقت الحاضر . وربما لم يعد هناك الآن محل للمدنية اليونانية المستقلة ، وربما كان الاتجاه أميل إلى سيادة الدولة الإقليمية . وربما عوض الزيت عن عدم وجود الفحم . غير أن الهوة التى تفصل الفلاح الفقير عن ساكن المدينة لا تزال عائقاً دون تقدم هذا الإقليم .

---

(١) بلغ عدد سكان القاهرة فى التعداد الأخير منذ نحو سنة أكثر من ثلاثة ملايين نسمة ، وكذلك زاد عدد سكان الإسكندرية عن مليون نسمة (المعرب)

الفصل السابع

أوروبا شمال البحر المتوسط

يختلف تطور الحياة الاجتماعية فى أوروبا شمال البحر الأبيض المتوسط اختلافاً كبيراً عنه على سواحل هـذا البحر الأوروبية اختلافاً كبيراً . فبينما بدأت تظهر فى حوض بحر إيجه حوالى ٣٠٠٠ ق . م إذا بها لا تزال وقت الفتح الرومانى تحبو فى مراحلها الأولى فى شمـال البحـر المتوسط وقد امتد سلطان روما شمالاً حتى الراين والدانوب ، ولربما وجد برابرة أوروبا خلال فترات الهدنة والسلم ، أنفسهم ينتقلون فجأة من فيافى وسط أوروبا إلى شوارع مدينة مخططة ذات مبان عامة مشيدة من الحجـــارة . ومن مظاهر الاختلاف الأخرى بـين مدن البحر المتوسط الأوروبية ، ولاسيما ثغورها الـكبرى منفصلة عن سكان الريف ، الذى يعيش فى مستوى أدنى فقير ، إذ بمـدن أوروبا شمال البحر المتوسط تقـوم بوظيفة مركز يتجمع فيه سكان الريف لتفى بحاجيـاتهم كما أن الوحدات الإقليمية قد تبلورت حول لغتهـا المشتركة ، وقـد قوى شأن هـذه اللغات بدرجة كبيرة ، عندما ضعف شأن روما الذى استمر تحت البابوية فى القـرن السادس عشر ، وحلت اللهجـات المحلية محل اللغة اللاتينية، بينما تأثرت عقول الناس بالفكر الإغريقى الحر .

غير أن الفروق ليست شاملة بطبيعة الحـــال بين دولة المدينة فى البحر المتوسط الأوروبى وبين الدول الإقليمية فى الأراضى التى تقع شماله ، إذ أن حالة لوبيك فى أواخـر القرن الثانى عشر والقـرن الذى يليه لاتزال عالقـة بالأذهان فالفرق إذن فرق فى الدرجة وليس فى النوع .

وهناك فرق آخر يتعلق بالموارد المعـدنية ، إذا استثنينا أسبانيا . فلقد كانت مناطق إيطاليا واليـونان لا تزال فقيرة بالمعادن ، بينما كانت بوهيميا وأيرلنده غنية بالنحاس فى العصور القـديمة ، كما كانت بوهيميا وكورنوول معروفة بمعدن القصدير ، إلى جانب استخدام خشب الغابات فى صهر الحديد

فى بلاد الشمال وما اكتسبته وراء ذلك من مكانة زادت ازدياداً كبيراً فى العصور الحديثة بعد استخدام الفحم .

يمكن أن نقسم أوروبا شمال البحر المتوسط بطرق مختلفة يكمل بعضها بعضاً كما يصحح بعضها البعض الآخر .

فأوروبا هى القارة التى تتخللها البحار بعمق ، ولقد لعب البحر البلطى وقتاً ما دوراً شبيهاً بدور البحر المتوسط نفسه وإن كان بطبيعة الحال على مستوى أدنى بكثير . فيمكن إذن أن نقسم القارة إلى السواحل من ناحية وداخلية القارة من ناحية أخرى .

وأوروبا قارة ذات بنية متفاوتة تفاوتاً كبيراً ، فبعض صخورها مسامى والآخر قليل المسامية ، وأحياناً يغطى الصخور الصلبة غشاء من التربة الرقيقة وفى بعض أجزائها الأخرى تغطيها غطاء سميك من المواد المفتتة المكونة فى الغالب من جلاميد وطين جليدى حملتة الثلاجات والغطاءات الجليدية السابقة وربما لاتنمو فــوق الصخور المسامية سوى أحراج متباعدة . بينما تنمو الغابات فوق التربة غير المسامية . إلا أن هذا القول يقبل الاستثناء . فربما تنحدر المياه فوق الصخور المسامية وتتجمع عند حافتها ، مما يمكن الأشجار من النمو . مثل غابات الزان التى تنمو على الحافات الطباشيرية الحادة فى جنوب انجلترة . كما أن كثيراً من الصخور غير المسامية ذات التربة الرقيقة لا تمكن الغابات من النمو . وتفسر هــذه الاعتبارات توزيع العمران وخطوط المواصلات فى العصور القديمة .

ولا يزال تقسيم القارة حسب التربة عظيم الأهمية لارتباطه بالتطور الاجتماعى .



شكل (٥٠)
خريطة توزيع اللويس فى وسط أوروبا

كانت الرياح تهب فوق غطاءات الجليد التي تغطي القارة في عصر البلايستوسين ، وتعرى المواد المفتتة الدقيقة من فوق الركامات التي تحف بحافات الجليد وتحملها إلى أن تضطر الى إرسابها ، أما بعد أن تنتشر فوق مساحة كبيرة في جنوب روسيا أو بعد أن تقابل عقبة مرتفعة مثل جبال الكربات . وقد سمحت تلك المواد الرسوبية للحشائش بالنمو فوقها ، إلا أن هذه الحشائش كانت لا تلبث حتى تطمر كلما ازداد تراكم المواد الرسوبية ، فإذا كان هناك قليل من الحديد أو الجير في تلك المواد الرسوبية ، كما حدث في الغالب ، فإنه يساعد على تكوين قشرة حول عيدان الحشائش أو أوراقها وهي مطمورة . فإذا تحللت الحشائش بعد ذلك تركت محلها فجوات اسطوانية عمودية الشكل . ومن ثم كانت الرواسب دقيقة الحُبَيْبات غير أنها مسامية بسبب تلك الفجوات الإسطوانية . وتسمى هـــذه التربة اللويس Loess وتختلف في صفاتها حسب اختلاف ظروف تكوينها . فتربة اللويس الروسية التي جلبتها الرياح من اسكنديناوة وفنلندا كانت ولا تزال تتجمد في الشتاء ، كما أنها جافة في الصيف ولم تكن هناك عقبات مرتفعة تعترضها في طريق إرسابها . ومن ثم أرسبت التربة فوق مساحة واسعة تمتد في نطاق عريض جنوبي ، تمتد حافته الشمالية على طول خط يمتد من جبال الكربات والدنيستر حتى ما وراء قازان في آسيا ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن تجمد التربة شتاء وجفافها صيفاً عمل على تعطيل عملية تحلل الحشائش وتصريف ما يتخلف عن هذا التحلل ، ومن ثم كانت التربة غنية بالمواد العضوية في طبقاتها العليا وسميت بالتربة السوداء أو تربة التشرنوزيوم Chernoziom

أما إلى الغرب من ذلك فلم تكن فترة تجمد التربة طويلة ، كما أنها لم تعانى من الجفاف في الصيف . بل أن معظم الأمطار تسقط صيفاً على شكل أمطار إعصارية . ولذلك لا نجد التربة السوداء . وتمتد شمال الكربات تربة اللويس

فى نطاق متوسط الاتساع . وتغطى معظم المجر تربة اللويس وذلك بين نهرى الدانوب والتيزا Tisza ، ومن ثم فإنها تتخللها المياه ، ولا تتكون بها فجوات تهوية كافية ، وقد تكون اللويس المجرى ، كما تكون بعض تربة اللويس التى تغطى جنوب ألمانيا من فتات صخور الركامات الآلبية وأغطية تاترا Tatra الجليدية . ويزداد تأثير تربة اللويس بالمطر كلما اتجهنا غرباً ويتحول إلى ما يسمى طين الهضاب limon des Plateaux فى شمال فرنسا والتربة الطوبية brick earth فى جنوب شرق انجلتره .

خواص اللويس التى تتلخص فى أنها هشة سريعة التفتت ، غنية بالموارد العضوية سهلة التهوية ، محتوية على حديد وجير ، كلها تجعلها صالحة الزراعة وكان من السهل تنظيفها من الأحراج والأشجار الصغيرة التى لا تعود غالباً للنمو فيها . ومن ثم كانت مهيأة للعمران المبكر ، وقد صلح لها المحراث الصغير من أواسط عصر البرونز أو أواخره لأنها هشة ، وقد تركت آثار التعمير منذ أوائل الألف الثالثة ق . م . إلا أن أراضى اللويس شرقى الدنيبر ذات الشتاء القارس ، والصيف الجاف ، والتى تقترب اقتراباً خطراً من نطاق الإستبس الكبير ، إقليم الرعاة المغيرين ، فقد تأخر استغلال أراضيها حتى العصر الحديث .

تغطى تربة اللوم Loam مساحات واسعة من غرب أوروبا حتى خط عرض ٦٠° ش ، وهذه التربة تحتوى على قدر كبير من الطين ، ومن ثم لم تكن مسامية ، بل إنها غالباً مصمتة . وقد يسقط المطر فى هذا الإقليم طول العام ، ولما كان البخر غالباً بطيئاً ، فإن الأملاح الذائبة فى التربة تنتشر فى جميع مستوياتها بدلاً من أن ترتفع إلى السطح فقط كما هى الحال فى التربة الحمراء فى كثير من أنحاء البحر المتوسط ، وتحتفظ التربة بجزء كبير من المادة

العضوية البُنية اللون ، ويزداد هذا اللون البُنى إذا كانت التربة أكثر مسامية وأكثر تهوية ، ويخفف لونها البُنى إذا كانت مساميتها أقل وتهويتها أقل ، وقد غطت الغابات معظم أجزاء التربة البُنية فى نطاق مناخ غرب أوروبا بعد أن انسحبت منها أغطية الجليد وتقهقرت الثلاجات ، وقد غطت غابات الصنوبر فترة من الزمن هـــذه البلاد ، ثم انتشر بعد ذلك البلوط والدردار وبعض أشجار الزان وكان معظم هذه الأشجار ضخمة من الصعب أن يقطعها الإنسان قبل أن يستعمل الفئوس الحديدية . ولذلك لم تجتذب سهول غرب أوروبا التى تغطيها التربة البُنية العمران من زمن مبكر ، ولم تقطع غاباتها قبل عصر الحديد ، رغم أن أودية الأنهار التى تغطيها الحصى كانت مساحات مكشوفة كما سمح ذلك بتعمير ضفاف الأنهار التى أصبحت أيضاً مسالك للهجرة والحركة . وقد عرقلت غابات غرب أوروبا تطور الحياة الاجتماعية ، بعكس الحال فى حوض البحر المتوسط وفى وسط أوروبا الشرقى ، وقد بينت ستونهنج Stonehange وافبرى Avebury فى بريطانيا ما يمكن أن يحدث فى إقليم غير كثيف بالغابات . وحتى لو أزيلت الغابة من هنا أو هناك فستظل هناك صعوبة أخرى . ففى التربة البُنية يتوزع الغذاء فى كافة مستويات التربة ، ولا يتركز فوق المستوى العلوى فقط كما هى الحال فى تربة البحر المتوسط الحمراء . ولذلك لا يفلح لها المحراث الصغير الذى يقلب الأرض فى حوض البحر المتوسط ، ويمنع سطحها من التشقق ، بل إنه لم يظهر فى وسط أوروبا إلا فى أواخر أو أواسط عصر البرونز . وتربة وسط أوروبا البُنية تحتاج لمحراث يستطيع أن يشق الأرض حتى مستوى التربة العميق ، ويقلبها إلى السطح ، ومثل هذا المحراث لا يصلح إلا إذا كان مصنوعاً من سلاح الحديد ، وكان ضخماً يجره عدد من الحيوانات ، وربما صنعت محاريث كبيرة فى بعض الأماكن قبل عصر الحديد ، كما تدل على ذلك نقوش الصخور الليجورية ، ولكن عملية الحرث على نطاق واسع لم تتم إلا فى عصر الحديد عندما أزيلت مساحات واسعة من الغابات التى كانت تغطى

الأرض الطينية . وقد اجتذب هذا مزيداً من السكان الذين تركزوا فى بقع معينة ، وتكونت مدن القلاع البربرية لتجابه الغزو الرومانى الذى بدأ ينتشر فى بلاد الغال وبريطانيا . ولكن رغم بدء ظهور المدن وانتشارها فى الإمبراطورية الرومانية ، فإن استعمال المحراث الضخم ونتائج ذلك الزراعية والاجتماعية كانت عوامل أساسية لنمو الحياة الأوروبية فى غرب القارة وشمالها الغربى ، نمواً ريفياً إقليمياً فى أساسه ، رغم أنه امتاز فى العصور الحديثة بنمو المدن الضخمة مثل لندن وباريس وبرلين .

فى شمال أوروبا ، ما بين خط عرض ٦٠° والدائرة القطبية الشمالية ، يغطى الثلج الأرض معظم شهور السنة ، وعندما يبدأ الثلج فى الذوبان ، تتصرف مياهه فى التربة وتحمل معها غذاء النبات ويكاد البخر يكون منخفضاً باستمرار ، ولذلك لا يرتفع إلى سطح التربة إلاقدر ضئيل من المادة المذابة، ومن ثم كان سطح التربة بُنِى اللون ، ولاسيما بعد سقوط المطر ، ولا يوجد الحديد أو الجير إلا أسفلها ولذلك كانت الحاجة أشد ما تكون إلى المحراث الضخم ، غير أن المناخ أبرد من أن يسمح بنمو القمح . ولم ينتشر النظام الإجتماعى الدقيق إلا بعد زراعة الشيلم فى الإقليم المعتدل الممطر شمال غرب أوروبا ، والشوفان شمال شرقى القارة ، ولم يحدث هذا إلا بعد الدخول فى عصر الحديد . وقد أدت صناعة قطع الأخشاب والتعدين فى الوقت الحديث إلى تغييرات أخرى فوق ذلك . ومنذ أن تعلم الناس بناء السفن من الخشب، والمخاطرة بها فى البحار التى تجتاحها الأعاصير وهذا فى عصر الحديد ، وإن سبقته محاولات أخرى ، أصبح صــيد السمك شيئاً إضافياً فى صراعها الاقتصادى . وقد لعبت السفن دوراً هاماً اجتماعياً كذلك ، فربان السفينة هو أفضل من فيها Poimus inter pares وليس رئيساً أوتوقراطياً ، له الطاعة ولكنه يعتمد على معاونة رفاقه . كما أن السفينة يمكن أن تكون وسيلة فرار

من وجه المستبد ، وفوق ذلك فإن النساء كن يدربن عقولهن على التفكير باتخاذ القرارات أثناء غياب أزواجهن فى رحلات الصيد . ويمكن أن نجمل القول بأن صيادى السمك الفلاحين على قدر كبير من المبادرة فى العمل وعلى استعداد للثورة فى وجه المستبد والفرار من وجهه . ونستطيع أن نستشهد فى ذلك برحلات النورز إلى اسكوتلندة ، وأوركنى ، ففى النرويج لا يمكن تقسيم بقع الأرض الصغيرة القابلة للزراعة إلى ما لانهاية كما تقسم مساحات أرض اللويس ، ومن ثم كانت النرويج وطناً لنظام وراثة الإبن الأكبر للأرض ، أما غيره من الأبناء فلهم السفن يصطادون بها أو يغامرون بالهجرة والاستقرار فى بريطانيا أو أيسلنده أو جرينلند . أو جنوبها إلى سواحل أوروبا كما فعل الفايكنج .

لم تكن فى استطاعة أوروبا القطبية بثلجها الذى يجثم على التربة وقتاً طويلاً وصقيعها الدائم الذى يجمد تربتها حتى أعماق بعيدة فترة طويلة من الزمن أن تنتج محاصيل زراعية دون مجهودات علمية فائقة . فالرنة تتغذى على الطحالب والنباتات ذات الجذور القصيرة التى تنمو فى الصيف ، ومن ثم كانت أوروبا القطبية أقرب إلى أن تكون حواف شمالية لأوروبا ، وليست امتداداً شمالياً لشمال آسيا رغم أن العلماء لم يتفقوا بعد على أصل شعب اللاب . وإن كاد يكون من المؤكد أنهم سلالة مختلطة مثل غيرهم من الشعوب .

سنرى من هذه المقدمة القصيرة أن أرض اللويس غربى الدنيبر قد لعبت دوراً فى المراحل الأولى لتطور المجتمع الزراعى الأوروبى ، إلا أنه يجب أن نؤكد أن هذه الحالة خاصة بمجتمع ريفى به مناطق قليلة لتركيز السكان . إذ لم تنم المدن الأوروبية فى نطاق اللويس — باستثناء المدن

الرومانية القليلة — إلا بعد القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين . فالفرق شاسع بين هذه الحالة وبين حالة المدن الإيجية التى قامت منذ الألف الثالثة ق . م .

اجتذبت سواحل كثيرة فى غرب أوربا الانتباه من وقت مبكر نظراً لأنها كانت تنتج من المعادن ما كان له قيمة . وهناك أنواع كثيرة من الصخور الصلبة التى كانت تستعمل فى الطحن والصقل . كما كان الصوان الذى يستعمل فى التشظية شائعاً ولا سيما فى الدنمارك ، هذا إلى أن الكهرمان كان يوجد على شواطىء الدنمارك والبحر البلطى ، وكان للكهرمان خواص كهربية وينظر إليه لهذا السبب كأنما به قوة سحرية ، ووجد النحاس والقصدير والذهب فى مواضع كثيرة ، ومن ثم كانت أهمية الجزر البريطانية فى عصور ما قبل التاريخ ، إذ كان النحاس والذهب أهم منتجات أيرلندة .

لذلك يجب علينا فى دراسة تطور أوربا الاجتماعى بعد بدء تعلمها فنون إنتاج الطعام أن نهتم بصفة خاصة فيما يتعلق بمراحل تطورها الأولى إلى مناطق اللويس ، وإلى مناطقها الساحلية ، ولنتذكر فى نفس الوقت أن شطآنها النهرية التى تغطيها الحصى والحصباء كانت تستعمل كأماكن أولى للاستقرار البشرى منذ أقدم العصور ، وربما احتفظت بعض قمم التلال العارية من الأشجار بأهميتها التى كانت لها أيام مرحلة الصيد والجمع والالتقاط . . .

لقد كان فى مستهل الألف الثالثة ق . م . عندما شعرت جماعات جنوب غرب آسيا المنتجة للطعام بزراعة الحبوب بأهميتها وبقية نظامها الاجتماعى بشكل دفعها إلى أن تحاول نشر هذا النظام كما رأينا فى الفصل السادس إلى أنحاء البحر المتوسط ، وإلى نطاق اللويس فى أوربا كما ذكرنا فقد

انتشرت الملاحة الساحلية خلال خمسة قرون من حوض البحر المتوسط إلى شواطىء أوربا الأطلسية .

وزحفت معها الزراعة أيضاً نحو الغرب ، مع نطاق اللويس فى وسط أوروبا . ويبدو أن الزراعة الأولى هذه كانت من النوع المنتقل ، أى استخدام قطعة الأرض فى نطاق اللويس غرباً . كانت أبسط من الزراعة التى انتشرت فى سواحل أيبيريا وغرب أوربا .

وتمتاز سواحل أيبيريا وغرب أوربا بتشييد النصب الحجرية الضخمة من حجارة لم تقطع أو تهذب بعد ، فربما يصل وزن الصخرة الواحدة إلى خمسة عشر طناً أو أكثر ، فلا بد أن الأمر احتاج لمهارة كبيرة ونظام دقيق لكى يتم تشييد تلك النصب الحجرية ، وقد بين «استن ايفانز» فى شمال شرق أيرلندة ، أن شعباً بسيطاً لا مهارة له كان يعيش قرب بناة هذه النصب الحجرية الضخمة ، وربما كانوا مجرد قوة عاملة للمهاجرين ، الذين جاءوا جماعات ملء السفن ، ولم يهاجروا كعائلات كاملة ، وقد سبق لنا وصف تلك النصب فى الفصل السادس ولا داعى لتكرار ماسبق شرحه ، ولكن الإشارة هنا إلى الأمور ذات الأهمية الخاصة .

من الأمور الشائعة فى طقوس كثير من الشعوب وجود طقوس خاصة لتأمين ولتسهيل الولادة ، وربما قيل إن طقوس الخصب مرتبطة بنصب غرب أوربا الحجرية على الأقل ، ويرجع معظم تلك النصب إلى ما بين ٢٣٠٠ ، ١٣٠٠ ق . م . غير أن هناك أدلة تشير إلى تقديس تلك النصب فى عصر الحديد السابق للرومان وفى العصور المسيحية ، ولذلك لا ندهش إذا وجدنا أدلة على تشييد تلك النصب بعد الألف الثالثة ق . م . بكثير ، ومن المعروف أيضاً أن طقوس الخصب مرتبطة بهذه فى الأزمنة الحديثة ، فنحن إذن لسنا بإزاء شىء

قديم عفى عليه الزمن تماما ، بل إزاء شيء بدأ منذ عهد قديم جدا ، ثم احتفظ بأهميته للأوربيين الغربيين .

ويمكن أن نفترض تكملة لهذا أن عادة حرق الموتى فى عصر البرنز قد غيرت المعتقدات فترة ما ، ثم عاد الناس إلى عادة دفن الموتى فى أوائل عصر الحديد . وعند ما نتحدث عن الدفن أو الحرق ، علينا أن نذكر أنه ربما لجأ الناس إلى حرق جزء من الجسم ودفن جزء خاص من الجسم يعتقد أن فيه سرا حيويا ، وقد حدث — فى حالات كثيرة — فى أوروبا الوسيطة بل والحديثة أن كان للقلب مثلا أهمية خاصة فاحتفظ به وعولج معالجة خاصة .

ليس لدينا سوى أدلة قليلة على أن بحارة من البحر المتوسط قد وصلوا إلى شمال غرب أوربا فى الألف الثالثة أو الألف الثانية ق. م. غير أنه وجدت أصنام برتغالية من الشست الداكن فى أيرلندة وجزيرة مان وغيرها، ذات علاقة بالنصب الحجرية . ويبدو أن العلاقات الساحلية مع الغرب كانت تتم من حين إلى آخر كما وجدت قطع من الكهرمان البلطى مرتبطة بالرحلات القديمة حتى فنستير فى بريتانى ، إلا أنه لم يجمع أى كهرمان من النصب الحجرية المشيدة بالقرب من موربيهان التى ربما كانت أهم مركز للرحلات القديمة فى غرب أوربا ، وقد وجدت فى موربيهان ما يقرب من ٨٠٠ قطعة من مادة اسمها كاليه Callaïs قريبة الشبه بالفيروز ، بينما لم توجد فى فنستير أو جزر المانش أو الجزر البريطانية أو غربى البحر البلطى . وهذا الفرق الكبير فى توزيع الأحجار شبه الكريمة يدل على اختلاف فى العقائد ، مما يدل على وجود اختلاف فى الشعوب نفسها . وتوجد الكالية فى البرتغال (حوالى ١١٠٠ قطعة خرز) وفى جنوب أسبانيا مع بعض الكهرمان المجهول الأصل، وفى جنوب فرنسا (أكثر من ١٠٠ خرزة) دون كهرمان ، وفى المارن أيضاً دون كهرمان ، وربما جمع من جزيرة بر نكيبو فى بحر مرمرة قرب البوسفور ٢٧

قطعه من هذه المادة ، وما زلنا نجهل منشأ هذه المادة ، وما كان يرتبط بها من طقوس وما تشير إليه من دلالة .

كانت الرحلات الساحلية تتبع أولا سواحل أيبريا وغرب فرنسا ، وربما عبرت شبه جزيرة بريتانى لتتحاشى خطر منطقة أوشانت مع مايكتنفها من ضباب وعواصف وموجات المد المرتفعة . وربما لعبت جزر المانش دوراً كبيراً فى المرحلة الثانية للرحلات المتجهة شمالا ، فى طريقها إلى كورنوول وبحر سانت جورج والبحر الإيرلندى ، وقد وجدت على طول هذا الطريق صخور يمكن أن تصنع منها أدوات حجرية كما وجد فيه ماهو أثمن من ذلك ، وهو معدن النحاس والذهب الذى كان يجمع تبره من مجارى الأنهار الأيرلندية ثم استمر الطريق شمالا عبر بحر الشمال ، وخليج كلايد (مع اختراق برزخ كانتير Cantire) والمِنْش ، وأوركنى ، وشتلند ، وكيثنس حتى جريت جلن . وهكذا استمر الطريق إلى دنمارك . فلم يعد البلطى الغربى مجرد مكان ناء ، وإن توافر النصب الحجرية والآثار فيه يجعلنا نميل إلى أنه كان محط الرحال ، هدفا لرحلات كثيرة ، ولا نبعد عن الصواب إذا أرجعنا هذا إلى وجود مادة الكهرمان على الشواطىء الدانماركية والبلطية وماارتبط بها فى الأذهان من قوة سحرية .

من المحتمل أن طرازاً واحداً من طرز النصب الحجرية وهو المكون من دهليز تغطيه قطعة صخر واحد ويؤدى إلى حجرة مسقوفة ، قد انتقل عن طريق الملاحة الساحلية . وكانت الحجرة الداخلية أحياناً تغطى بقطعة صخرية كما كان الدهليز أقصر . كما وجد فى انتريم بجنوب غرب اسكتلندة ، وجزيرة مان وشيشر وغيرها طراز آخر يمتاز بفناء خارجى تحيط به صخور قائمة ويؤدى إلى عدد من التوابيت الحجرية المرصوصة فى خط مستقيم . وقد يحدث تحسين أو تبسيط مختلف على كل من هذين الطرازين . وقد كانت القبور

المسقوفة بالصخر (١) هامة فى أسبانيا القديمة ، كما عرفت النصب ذات الفناء الخارجى فى سوديفيا ، إلا أنه يجب ألا نستنتج الكثير من أوجه الشبه بين النصب الحجرية فى سردينيا و بريطانيا .

وكانت النساء يصنعن الفخار ما دامت طريقة صنعه يدوية . ولم تكن نساء المجتمعات المختلفة يختلطن بعضهن والبعض الآخـــر نظراً لاختلاف اللغات والطقوس والعادات ، ولذلك تنوعت طرز الفخار . والأدلة المشتقة من الفخار هامة جداً ، حيث إن قطع الفخار ظلت باقية آلاف السنين ، وقد عثر منها حتى الآن على عدد لا بأس به من قطع الفخار الكاملة التى ترجع إلى عصر ماقبل التاريخ .

لما كانت أوربا شمال البحر المتوسط مجـــرد حافة برية للشرق الأوسط والحضارة الإيجية ، فقد كان من الطبيعى أن يصنع فخار الشرق الأدنى الملون مع مرور الزمن ، فى الألف الثالثة ق . م . فى أراضى اللويس بالمجر وغرب الدنيبر . ورغم أن المهارة فى صناعة الفخار قد انتشرت غرباً ، إلا أن فكرة صناعته لم تتوغل بعيداً . وبدلا من هذا كان الفخار يحزز وهو لين بخطوط أو توضع عليه بصمات الأصابع أو تخدش وكانت الخطوط ترسم على الفخار بعصا مدببة أو بضغط خيط حول الإناء . وهناك أوان فى المتحف الدانماركى زينت بضغط قوقعة معينة على سطحها قبل أن تحرق وتعتبر إحـــدى هذه الأوانى تحفة فى الواقع من صنع صانع ماهر ، أو دعنــا نقل صانعة ماهرة ويتتبع الأثريون انتشار أنماط الفخار ، وحلول أنماط محل أخرى فى أنحاء أوربا باعتبار ذلك أهم دليل على هجرة الشعوب والعناصر الثقافية .

ومن الحقائق ذات الأهمية أنه حوالى ٢٠٠٠ ق.م. أو بعد ذلك مباشرة

---

(١) corbelled

ظهرت فى أسبانيا وفى وسط أوربا أنواع جيدة من الفخــــار أفضل مما كان معروفا فى تلك الأنحـاء حتى ذلك الحين . وكانت هذه الأوانى عبـارة عن كئوس للشراب أو بيكر ، مصنوعة من طينة ممتازة وجيدة الحرق . وطراز البيكر هذا له أهميته خاصة ، فرغم أنه بأنواعه المختلفة — لا يعيش أكثر من أجيال قليلة ، إلا أنه يمكن تتبعها فى جهات واسعة من أوربا ، فى أسبانيا وفى أرض اللويس بوسط أوربا ، إلى جانب البيـكر جيد الصنع الذى وجـد فى بريطانيا . ومن الممكن أن نستنتج من هذا أن شعب البيكر كان كثير الحركة والانتقـال ، وأنه كان فى حركته لا يصطحب معه إلا عدداً قليلا من النساء ومن ثم اضطر إلى التزاوج من الشعوب التى يحل بينها ، وهذا أدى إلى تدهور صناعة الفخار البيكر . إذ لوحظ وجود فخـار مصنوع من نوع خشن من الصلصال فى بريطانيا بصفة خاصة .

لقد نوقشت مسألة منشأ صناعة فخار البيكر وانتشارها منذ عدة سنوات ومن المتفق عليه — كما يبدو — أن إناء البيكر الذى يشبه الناقوس وكانت له قاعدة عريضة ، دون أن يكون كبير الارتفاع مع قطاع طولى يشبه حرف D كان هو الطراز الأساسى . وقد وجـد هذا الطراز فى بعض المقـابر الحجرية الضخمة فى البرتغال وأسبانيا وبريتانى . كما وجد فى أراضى اللويس بوسط أوربا . بل إنه وجد بعد ذلك فى داخل أسبانيا ، حيث عثر على هذه الآنية مرتبطة بأدوات أخرى بسيطة ، كما يمكن أن نستدل من الأشياء الباقية والتى لم تتحطم حتى الآن . ويرى بعض الكتاب أن آنية البيكر انتشرت من مكان ما بوسط أسبانيا إلا أن دون ذلك عدة صعاب . فمن العسير تصور انتشار صناعة دقيقة الصنع من حيث لم توجد سوى أدوات بسيطة ، كما أنه لا توجد سوى أدلة ضئيلة على انتشار آنية البيكر من وسط أسبانيا إلى أرض اللويس فى وسط أوربا ، كما أن افتراض نشأة تلك الصناعة فى وسط أوروبا الشرقى وانتقالها من ثم إلى أسبانيا دونه صعوبات أخرى ، خاصة بالطرق التى يمكن

أن تكون هذه الهجرة قد سلكتها ، وإن لم تكن هناك صعوبات كبيرة فيما يتعلق بنشأة صناعة تلك الآنية ، حيث إنه وجدت هذه الآنية فى وسط أوربا مرتبطة بعدد وفير من الأدوات والآلات ولاسيما أسلحة معدنية ذات صفات بوهيمية . وهناك افتراض ثالث هو أن كلا من سواحل أسبانيا والبرتغال ووسط أوربا قد عرفت نوعا ممتازاً من الصلصال وطريقة صنعه على هيئة ناقوس البيكر من شرقى البحر المتوسط . إلا أن التشابه بين آنية ناقوس البيكر فى وسط أوربا وأسبانيا لا يدل على أصل مشترك . وأخيراً فإن احتفاظ هذه البلاد البعيدة بعضها عن البعض الآخر بطراز واحد معين من الأوانى أمر من الصعب تصوره .

من الممكن أن نستنتج من الأدلة الأثرية أن صناع آنية البيكر كانوا شعبا كثير الحركة ، وربما كانوا رعاة محاربين وتجاراً ، وكانت لهم طقوسهم الخاصة فى وسط أوربا . ومن الممكن أن تكون آنية البيكر التى انتشرت كعناصر حضارية ، والصناع البيكر كعنصر اجتماعى خاص ، كانوا هؤلاء الذين طوروا صناعته فى وسط أوربا والبلاد المنخفضة وبريطانيا تطوراً خاصاً ، وصنعوا آنية بيكر ذات عنق طويل مما يميز آنية شرقى بريطانيا .

وبينما كان سكان السواحل يدفنون موتاهم فى مدافن مشتركة تقوم عليها نصب حجرية ضخمة خشنة ، فإن شعب البيكر كانوا يدفنون موتاهم فرادى فى مدافن يهيئون عليها تلال مستديرة الشكل . وربما كانت هذه المدافن خاصة بزعمائهم ، وإن كانت هذه المدافن قد تتسع لدفن شخص آخر فيما بعد . وهذا يدل على اختلاف فى المعتقدات بين سكان السواحل وشعب البيكر . فهل كان الزعماء يدفنون وحدهم فى مقابر منفردة ، لأنهم أشخاص تحيط بهم هالة خاصة من القدسية ، ولأنهم وحدهم لهم صفة الخلود الروحية ؟ وعلى كل حال فإنه يبدو أن شعب البيكر قد أقلع عن فكرة الدفن الجماعى . وتمتاز مدافن

شعب البيكر فى الأراضى المنخفضة (هولندة) بأنها محاطة بدائرة من الأعمدة الخشبية .

وربما كان فى بريطانيا اتصال ثقافى وتبادل حضارى ولا سيما فى صناعة البيكر أو ما يتصل بهـا من آنيـــة بين الملاحين الذين كانوا يطوفون حول السواحل وبين الشعوب التى كانت تتحرك فى نطاق اللويس ، لأنهـا تقع فى الطريق نحـو النحاس والذهب الأيرلنديين ، وفى طريق الكهرمان جنوب البحر البلطى وغربيه . ولا شك أن هذا الالتقاء الحضارى كان مسئولا عن التقدم الحضارى الكبير الذى حدث فى هذين الإقليمين . فلدينا فى بريطانيا نصب أيفبورى Avebury وستونهنج Stonehenge ، التى صممت على أساس دائرة الأعمدة الخشبية، واستعيض عنها بنصب حجرية، جلبت من عبروكشير وصخور أخرى وجدت فى تلال ولتشير . ولا نعلم ما إن كان قد سبق أيفبورى دائرة من الأعمدة الخشبية أم لا ، إلا أنه يمتاز بدهليز طويل من الصخور القائمة ،ما يرتبط دائرة أيفبورى من النصب الحجرية القائمة بما يعرف بالمعبد المقام فوق أوفرتون هل ، على مقربة من أيفبورى . قد أعاد «ستيوارت بيجوت» تفسير تصميم حفر الأعمدة التى تحيط بالمعبد ، على أنها تدل على بناء من الخشب أعيد بناؤه عدة مرات بعد تهديمه ، وأنه بعد ذلك عدل تعديلاً جزئيا عندما استخدمت الحجارة فى البناء . Sancturary

وتوجد فى الدنمارك هياكل ضخمة من الصخر غير المصقول. تضم رفات شخص واحد ، أو أكثر من شخص ، إلا أننا لا نجد امتزاجاً فى المعتقدات كما نجده مثلا فى استونهنج أما حفرات أوبرى Aubrey والخندق الذى يحيط بها فإنها يمكن أن تؤرخ فى حدود ثلاثة قرون قبل أو بعد ١٨٥٠ قبل الميلاد، أو فى هذا التاريخ نفسه . وقد تمكن القدماء من بناء دائرة مزدوجة من صخور زرقاء وصخور بركانية أخرى مجلوبة من برزيلى وبرومبكشير وقطع من

الصخور الرملية من كشستون : ويبدو أن هذا مرتبط بشعب البيكر . ثم استخدمت الصخور المحلية فى إقامة النصب الحجرية على هيئة دائرة مزدوجة . وتدل نقوش الفئوس البرنزية فوق الصخور على أنها ترجع إلى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد . إذ أنها تمثل خنجرا ميكينيا ، وتطلق على طريقة إقامة الصخور المزدوجة الدائرية طريقة Y و Z ولاتزال تفاصيل تلك النصب الحجرية تجمع حتى الآن (١٩٥٤) ، وتدل هذه الأبحاث على أن استونهنج يمثل مزيجاً من آراء الشعوب البحرية التى جاءت مع السواحل الغربية آراء سكان نطاق اللويس الذين تحركوا أيضاً نحو الغرب كما أن دلالتها الفلكية تدل على ازدياد أهمية التقويم لهذا الشعب .

وهكذا أصبح من معالم تاريخ بريطانيا القديم اختلاط حضارتين اختلاطاً جزئياً . ولا ريب أنه اقترن بتزاوج بين المهاجرين وفتيات السكان الأصليين وما تبع ذلك من صهر الآراء الوافدة الجديدة بالآراء القديمة . إلا أننا يجب أن نلاحظ أنه لم يكن هناك عمران بشرى مستقر قد ظهر بعد ، يشبه العمران الذى ظهر على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط .

تضمن استخدام المعدن القيام بتجارب جديدة لم يكن للناس عهد بها من قبل . فقد كان يشوب الخامات التى تستخدم شوائب لم تكن معروفة ، وبعض هذه المواد مثل القصدير والزرنيخ كانت ذات قيمة خاصة ، إذ أنهـــا منعت تكون فقاقيع الأكسجين فى النحاس المنصهر ، ومن ثم لم تعد سبيكة المعدن اسفنجية والقصدير والنيكل يعملان على تقسية النحاس ، ومن ثم يمكن أن تشحذ أسلحة بطريقة أفضل ، إلا أن استعمال المعدن قد جلب معه تجارب اجتماعية جديدة ، منذ أن عرف خلط النحاس بالقصدير — أى منذ معرفة البرونز . فقد وجد تبر القصدير فى غاليســـيا الأسبانية وعلى ضفاف فيلين Vilaine فى بريتانى ، ووجد النحاس من عهد مبكر فى جنوب أسبانيا وفى

أيرلندة . وكان لابد من خلط النحاس والقصدير معا ، وجمعهما من أماكن تعد فيها لكى تصهر سبيكة البرنز . وهذا كان يعنى إقامة نظام المواصلات وتبادل المعادن . وعندما وجد النحاس والقصدير معاً أحدهما قرب الآخر فى جبال الأرز، بيوهيميا ، اكتسب هذه المنطقة أهمية خاصة فى التعدين، ويبدو أنها نظمت التبادل التجارى بينها وبين غرب البحر البلطى ، الشهير بكهرمانة. وهكذا بدأ ازدهار صناعة البرنز أزهاراً كبيراً فى البحر البلطى ، الذى استخدم فى بادئ الأمر نماذج صناعية بوهيمية . وتستخدم حبات الخرز كأدلة على طرق المواصلات القديمة، حيث إنها سهلة الحمل، وقد وجد فى ٣٦ قبر فى وسكس حبات من الزجاج الملون Fiance التى جلبتها التجارة الميسكينية والتى يرجع تاريخها إلى حوالى ١٣٥٠ قبل الميلاد ، وقد وجد بعضها فى بريتانى وجنوب شرق أسبانيا ، كما وجدت حبات الخرز المطعمة فى ساتون فينى (بولتشر) ووجد عقد فى أودورن ، ووجد فى درنت بهولندة أربع خرزات من الزجاج الملون ، و٢٥ خرزة من القصدير . وأخيراً فقد عثر فى تارا بأيرلندة على رءوس من الزجاج الملون المطعم . وقد تعرف تشايلد إلى خنجر وجد فى بلينت Pelynt عام ١٨٤٥ وقال إنه من طراز ميسكينى ويرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر ق . م .

عندما تعلم الإنسان حفظ سطح الأتون ملتهبا بحيث يكفى لهيبه لصهر المعدن صهراً تاما ، واكتسب المهارة اللازمة فى خلط النحاس بالقصدير بالنسب المضبوطة (تقريبا ٩ : ١) وبذلك تحاشى تكوين فقاقيع الأوكسجين فى المعدن المذاب ، فإنه بذلك تقدم خطوات كبيرة أخرى لها نتائجها الاجتماعية الهامة . فبعد أن كان يصنع أدوات معدنية بوساطة طرق المعدن الساخن ، تقدم خطوة أخرى وصنعها بوساطة صب المعدن المذاب فى قوالب من الطين لكى يحل محل الشمع الذى يتسرب من ثقب خاص فى القالب . وتسمى هذه الطريقة بطريقة الشمع المذاب cie perdue . إذ يصنع مثال من الشمع لما

يراد صنعه ، ثم يوضع هذا المثال فى الطين أو الصلصال المبلل ، ويصنع قالبه من الطين يشطر نصفين . ثم يوضع القالب الشمعى مع قالب الصلصال فى فرن لكى يحرق الصلصال ويصبح صلبا ، بينما يذوب الشمع ويتسرب من ثقب خاص لهذا الغرض . وبعد ذلك يملأ قالب الصلصال بالمعدن المنصهر فيتخذ الشكل المطلوب ، وقد تمكن الصانع باستخدام طريقة صب القوالب هذه أن يصنع ثقبا فى الفأس البرنزية لكى يضع فيها اليد الخشبية ، أو أن يصنع تجويفاً فى آخر رأس الرمح ليركبها فى قناتها الخشبية ، وهذه طريقة أفضل من ربط الفأس أو رأس الرمح بوسيلة ما فى قطعة الخشب التى يمسكها بها .

وتمكن الصانع أيضا باستخدام وسيلة الصب هذه من إعادة صهر الآلات المستعملة القديمة ، وبذلك استمر استخدام سبيكة البرنز مرة بعد أخرى واستغنى عن استيراد كميات كبيرة من خامات المعادن . ووجد عمل للباعة المتجولين الذى كانوا يجمعون قطع البرنز المستعملة . وقد تمكننا من استعادة قصة عصر البرنز بعثورنا على تلك القطع البرنزية القديمة . ووضع المرحوم هارولد بيك قائمـة بأكثر من ١٧٠٠٠ قطعة برنزية عثر عليها فى بريطانيا ويمكن دراستها .

ثم تطور بمضى الزمن — الخنجر إلى رمح وسيف وهما من أسلحة القتال التى يستخدمها المحاربون فى المركبات الحربية أو على متون الخيل ، وتزداد بعد ذلك أدلة استخدام الحصان فى الركوب ، وفى جر عربات القتال التى يمتطيها محارب يستعمل القوس . غير أنه لا يوجد فى بريطانيا — وهى بلد متأخر فى ذلك الحين — أية أدلة على استخدام الحصان ، أو أى حيوان آخر فى جر العربات ، حتى أواخر عصر البرنز . إذ عثر فى جلاستون برى على أدلة تشير إلى وجود صناعة العجلات والعربات التى تجرها الخيل ، التى يبلغ طول محورها ٤٫٥ — ٥ قدم ، وذلك منذ عصر الحديد ، فى أوائل العصر

السابق للرومان . وقد ظل طول محور العجلات ثابتا ، إذ أنه الاتساع المطلوب الذى يكفى لربط الحصان المستخدم فى جر العربة ، (والغريب أن اتساع قضبان السكك الحديدية هو ٤ أقدام و٨½ بوصة) . وقد حل حصان داخلية آسيا (المسمى بحصان برتسفالسكى Przewalski) محل الحصان الأوروبى الغربى المسمى بحصان تاربان Tarpan (الذى كان يستعمل قديما فى جر الأثقال) . كما انتشر ضأن اليوريال Urial وهو من أنواع غرب آسيا ، فى أوربا فى عصر البرنز ، ويرى بعض الباحثين أن هذا النوع حل محل نوع شمال أفريقيا الموفلون Mouffion المستأنس ، ولاتزال بعض أمثلة هذا النوع باقية فى سواى Soay بجزر الهبردين . كما انتشرت أنواع الماشية الآسيوية فى أوربا . وهذه الحقائق الهامة تدل على العلاقات الهامة التى كانت تربط أوروبا بالإستبس الأرواسى الكبير فى عصر البرنز المتوسط . أى فى العصر الذى غزا فيه الهكسوس أو ملوك الرعاة مصر ، وأدخلوا فيها الحصان ، والعصر الذى شهد اضطرابات عنيفة فى بلاد الرافدين (العراق) والعصر الذى غزا فيه — كما يبدو — برابرة يتحدثون لغة آرية وادى السند .

وإن عدم دخول اللغة الآريه إلى الصين مع غزاتها فى ذلك الحين ليدل على أن اللغات الآرية نشأت فى أراضى الاستبس المنخفضة وليس هضبة منغوليا المرتفعة فسكان الاستبس هم الذين حملوا اللغات الآرية إلى الهند وإيران ، كما أنهم أيضا حملوها إلى أوربا . ويرى بعض الكتاب أن اللغة الآرية قد دخلت أوربا فى أواخر العصر الحجرى الحديث ، إلا أنهم لايعتمدون فى ذلك على أدلة قوية .

ويرى أســـاتذة القرن التاسع عشر أن الموجات الكلتية والتيوتونية والسلافونية المتتابعة قد دخلت أوربا مندفعة نحو الغرب الواحدة إثر الأخرى وتدفع آخرها أولها نحو الغرب . ويبدو الآن أن الآريين القدماء قد استوطنوا

فى مناطق مختلفة من أوربا واختلفت لهجاتهم بعضهم عن بعض، بعامل العزلة إذ فصلت الغابات والجبال والمساحات المائية بعضهم عن بعض كما اختلفت أيضا بتزاوج هذه الموجات الآرية بالعناصر الأوربية القديمة . وقد وجد «سير جون موريس جونز» عناصر سابقة للآرية فى لغة ويلز ، كما أن «إدوارد لويد» E. Lhuyd منذ ٣٠٠ سنة بين أن الأسماء السابقة للكلت لا تزال باقية فى بعض أسماء الأماكن بويلز .

كانت لغة الكلت منتشرة فى جنوب ألمانيا ، كما انتشرت اللاتينية القديمة فى بعض أنحاء إيطاليا حوالى عام ١٠٠٠ ق.م. ولقد نوقشت مسألة الكلتية منذ خمسين عاما ، على أساس افتراض انتشار موجتين آريتين غربا . وقد افترض أن الموجة الأولى كانت تؤكد حرف القاف (١) والكاف بينما تؤكد الموجة الثانية حروف الباء (٢) وقد رأى بعض الكتاب حديثا أن لغة كلتية أصلية أقرب إلى لغة ويلز انتشرت نحو الغرب حيث تأثرت بلهجات أيرلندة القديمة ومن معالم أيرلنده واسكتلنده الغالية Gaelic استعمال حروف القاف والكاف ، بينما الباء والفاء من معالم لغة ويلز وبريطانيا Breton . أما لغة المانكس فتنتمى إلى مجموعة القاف الكلتية ولغة كورنوول تنتمى إلى مجموعة الباء ومن السهل على الأشخاص ذوى الشفاة العليا الطويلة أن ينطلقوا حروف الباء ، والفاء . ويلاحظ شيوع أسماء الأماكن التى تبدأ بحرف القاف فى جنوب بريتانى ، وهو حرف هام كان شائعا فى اللغة السابقة للكلتية ومن أمثلة ذلك :

Quimper, Quimperle, Quinberon, Questenbert, Queven, Locambriquan, Quinipily.

وتوجد أسماء أماكن عديدة فى شمال بريتانى التى أحيت اللغة الكلتية عندما

---

(١) مجموعة القاف والكاف تنطق حرف c كافا إلى جانب حرفى q، k (المعرب)

(٢) مجموعة الباء والفاء تشمل ب ، ف b, p, f, v (المعرب)

عاد الكات إليها من بريطانيا بعد الغزو الرومانى ، تبدأ بحروف الباء مثل بلو — لان — بول — تر — بين Plou, Lan, Pol. Tre, Pen ويقابلها فى لغة ولز بليف — خان — بغل — ترى — بين Plwyf, LLan, Pwll, Tre, Pen(١) وهذه أيضاً توجد فى جنوب بريتانى . وأسماء الأماكن التى تبدأ بترى — بول — بين ، معروفة تماماً فى كورنوول . إلا أننا بعدنا كثيراً عن الموضوع بمناقشة ما طرأ على اللغة الكلتية بعد العصر الرومانى ، وعلينا أن نعود إلى ما كنا نناقشه.

أشرنا من قبل إلى بدء زراعة القمح والشعير فى نطاق اللويس فى وسط أوربا ، ولاسيما فى المجر ، حيث كان الفلاحون ينتقلون من بقعة إلى أخرى ، ينظفون الأرض ويزرعونها ، ثم يهاجرون منها إلى غيرها وهكذا . وكان هؤلاء الفلاحون يعيشون فى قرى تبلغ عدد منازل كل منها إثنى عشر منزلا أو أكثر ، إلا أن مساحة المنزل تدل على أنه كان يضم أسرة كبيرة ، ويبدو أن كل قرية كانت تحتفظ بمخازن للغلال وحظائر للماشية والخنازير ، وقليل من الضأن والماعز ، ثم أصبح الصيد وتربية الحيوان فيما بعد أكثر أهمية ، كما تدل تحصينات القرى على نشوب الحروب بين الجماعات المختلفة ، وتكثر التماثيل النسوية الصغيرة فى هذه القرى القديمة ، كما وجدت قواقع سبوندیلوس S pondylos التى تكثر فى البحر الأبيض المتوسط فى أراضى الدانوب ، وبعد ذلك أصبح الضأن أكثر عددا (وربما شاع استعمال الصوف) وربما استعمل المحراث الصغير ، إلا أن بعض الكتاب يرى فى هذا تقدما حدث فى وقت متأخر قد يكون عصر البرنز الحديث أو المتوسط . وكانت الخيل (التى ربما كانت من نوع تاربان) تستعمل فى المجر ، ولم يعد للتماثيل النسوية

---

(١) من الصعب علينا نطق كثير من حروف لغة الويلز مثلا حرف ll فهما ينطقان شيئاً بين الخاء والشين المخففة (المعرب) .

الصغيرة وجود فى ذلك العهد ، وفى المرحلة التالية استعملت آلات المعدن ونشطت التجارة مع شواطىء الكهرمان على البحر البلطى ومع مواطن المدينة الراقية فى البحر الأبيض المتوسط ، ولما انتشرت طريقة صب البرنز بدأ تعدين النحاس بصفة جدية ، وبدأت صناعة السيوف، وإقامة التحصينات وتشييد المنازل القروية الكبيرة ووجدت أوان لحفظ رفات آلاف الموتى إلا أنه لا توجد أى آثار للمعابد . وليس لدينا أدلة مباشرة على ركوب الخيل فى وسط أوربا وغربها قبل أوائل عصر الحديد .

ويبدو أن الشعوب البدوية التى جلبت الضأن إلى وسط أوربا وغربها حوالى فجر عصر المعدن ، قد نشروا معهم فكرة حرق الموتى ، ولم يكن مما يلائم هذه الشعوب البدوية أن تبنى صروحاً ضخمة لدفن الموتى انتظاراً ليوم البعث غير أن المعتقدات القديمة ظلت باقية فى غرب البحر البلطى . وظلت فأس ثور Thot التى يستخدمها للقتال تحتل مكاناً كبيراً فى الميثولوجيا (الأساطير) رغم سيادة عبادة أودين Odine برمحه وسيفه وحصانه . ويبدو أن صراعاً نشب فى وسط أوربا بين رعاة الجبال وفلاحى السهول.

وقد تغير السكان القدماء وتغيرت لغاتهم بأسرع مما كان يتوقع عندما بدأت الكتابة والحياة الأكثر استقراراً فى الانتشار . ويدلنا سفر العدد (من العهد القديم) على أن الغزوات القديمة كانت تتضمن ذبح الرجال والنساء المتزوجات ، وسبى البنات فى يد المنتصرين. وقد كان وراء تلك العادة البربرية فكرة استمرار أثر الزوج الأول فى رحم المرأة Telegony وهى خرافة تزعم أن المرأة أو الأنثى التى تحمل عن رجل (أو حيوان ذكر) أول مرة ، يتأثر نسلها بعد ذلك . فكان ذبح النساء المتزوجات إذن وسيلة يركن إليها الغازى المنتصر للإبقاء على نسله فقط ، والاحتفاظ به نقياً دون اختلاط أو تأثير برجال آخرين . فالذكر حسب هذه العقيدة — هو الذى يضع بذرته فى

أرحام البنات لترعاها . وكانت البنات اللاتى يقعن سبايا فى أيدى المنتصرين يحفظن فى بيوت سادتهن بعيداً عن الاختلاط ، وكان عليهن تعلم لغة هؤلاء السادة ، إلا أنهن — دون شك — كن يعلمن أبناءهن لغة آبائهم كما تنطقها أمهاتهن بشىء من التحريف ، كما كن يلقنهم أساطيرهن ومعتقداتهن القديمة ، مع شىء من التعديل .

وقد صحب التحول من استعمال البرنز إلى استعمال الحديد صعوبات أدت إلى تأخر استعمال الحديد — رغم أن حديد الشهب وخام الماجنتايت المستخرج من رمال الأنهار كان قد استعمل فى وقت متقدم ، منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد فى مصر وجنوب غرب آسيا . وقد اعتمد التوسع فى صناعة الحديد على العثور على الهاميتايت (الذى استخدم فى بادىء الأمر كمسحوق للزينة والتلوين) أو أحد أكاسيد الحديد الأخرى . وكانت أفران حرق الفخار فى جنوب غرب آسيا صالحة تماماً لصهر خامات الحديد ، إلا أنه كان لابد من إخراج كتلة الخام الإسفنجية من الفرن وطرقها وهى حامية ، وكان من المستحسن أن يصهر خام الحديد مع الكربون ، الذى يسهل الحصول عليه من وقود الخشب . ويبدو أن الحصول على المطرقة والكماشة اللازمتين فى صناعة صهر الحديد والاحتفاظ بحرارة الفرن وقتاً طويلا كانت من صعوبات صناعة الحديد . وكانت أكاسيد الحديد متوافرة فى الأناضول ، وما إن وافى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد حتى كانت عملية صهر الحديد شيئاً منتظما فى هذه البلاد . وقد أدى سقوط دولة الحيثيين بعد ذلك بمائتى عام إلى انتشار معرفة صهر الحديد وصناعته فى البلاد المجاورة. فوصلت إلى حوض بحر إيجة وبلاد اليونان حيث اكتسبها الغزاة الدوريون ، حسب الآراء السائدة اليوم . وكان الرأى القديم يرى أن الدوريين جاءوا بلاد اليونان وهم يحملون معهم الآلات الحديدية من بلاد الشمال ، إلا أن الأدلة على هذا الرأى ليست كافية . وقد انتقلت معرفة صناعة الحديد إلى إيطاليا

ومن ثم إلى هالشتات Halstatt بالنمسا فى القرن السابع ق . م . وهذه كانت ذات أهمية خاصة كمركز للملح.

وكانت الفئوس الحديدية تستخدم فى قطع الحطب ، كما كانت مفيدة فى قطع أشجار البلوط . ومن ثم أمكن توسيع رقعة الأرض القابلة للزراعة ، وربما لم تتسع فى بادئ الأمر اتساعاً كبيراً، ولكنها ازدادت اتساعاً بعد العصر الرومانى وأمكن تربية الخنازير التى ترعى أوراق الأشجار بين غابات البلوط ، وبذلك أمكن الحصول على مزيد من لحوم الخنزير المملحة . ولنا أن نتساءل ما إن كان ذلك أحد أسباب الجد فى البحث عن مصادر الملح فى عصر البرنز الحديث أو أوائل عصر الحديد . وقد تحسن فن النجارة مع توفير خشب البلوط وأزاميل الحديد وغيرها من الآلات الحادة ، وربما نشأت فكرة البيوت ذات الهياكل الخشبية فى أوائل عصر الحديد. كما أمكن صناعة سفن أكبر حجماً وأكثر احتمالاً بحيث أمكن القيام برحلات مثل رحلات البثيا ، وانتشرت المستعمرات الإغريقية فى حوض البحر الأسود ونطاق اللويس جنوب روسيا . وحلت رماح الحديد وسيوفه محل أسلحة البرنز الأضعف شأناً ، التى سرعان ما تنثنى وتصبح عديمة الفائدة. ونستطيع أن نقول إن طرق الحديد مع شىء من الكربون قد أوجد الصلب فى زمن مبكر بعد بدء عصر الحديد. وتتصل بهذا القصص الشعبية عن السيف السحرى، وهى قصص ظهرت مرة أخرى فى العصور الوسطى بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية. إلا أن تحسين المحراث كان أهم تطورات ذلك العصر.

وقد ذكرنا من قبل أن غذاء النبات ينتشر فى التربة البنية الأوربية شمال البحر المتوسط ويتخلل سمكها كله . إلا أن الأعشاب التى تنمو على السطح تمتص هذا الغذاء من التربة العليا ، كما أن آخر محصول غذائى يمتصه من التربة ذاتها . ويقل البخر من هذه التربة البنية ، مما يقلل من احتمال صعود المواد الغذائية الذائبة فى التربة السفلى إلى أعلى . ومن ثم كان من المستحسن قلب

التربة بمحراث كبير ، بحيث يظهر المستويات السفلى من التربة ويرفعها إلى أعلى. كما أن الحرث العميق أكثر ضرورة فى البلاد الباردة حيث تترسب المواد الغذائية فى التربة الرمادية إلى أسفل ، نظراً لازدياد تساقط المطر وقلة البخر.

أمكن إذن صنع محاريث أكبر ذات أسلحة أطول بعد توافر الحديد والخشب الجيد . فأمكن صناعة أسلحة محاريث حديدية تستطيع أن تتعمق فى التربة. وقد أضيف إلى المحراث إضافة هامة هى قاطع يشبه السكين يوضع عمودياً أمام سلاح المحراث لكى يقطع الأرض أمام المحراث ، وذلك فى أوائل عصر الحديد . ولا نعلم ما إن كانت العجلات قد أضيفت إلى المحراث فى ذلك الحين أم لا . وكان لابد من حرث الأرض بالمحراث ، ثم تسوية الأرض بعد ذلك على جوانب خطوط الحرث ، ولذلك كان لابد من إضافة تحسينات أخرى المحراث ، بإضافة ألواح رأسية للمحراث تعيد التربة المحروثة بعد قلبها مرة أخرى إلى الأرض ، وقد أضافت المحاريث الكبيرة وعمليات تنظيف الغابات وقطعها مساحات كبيرة أخرى إلى الأرض المنزرعة ، إلا أنها كانت أرضا رقيقة التربة ، ومن ثم لم تتمكن عملية البخر فيها أن ترفع غذاء التربة (من المحاليل الذائبة) إلى السطح . ولهذا احتاجت الحقول إلى فترات راحة منتظمة ، أو فترات تترك فيها الأرض بوراً . وكان لابد من تنظيم عمليات الحرث والزراعة ولا سيما فى حقول المحصولات التى تنهك التربة مثل القمح . وسنناقش الآثار الاجتماعية الكبيرة الأهمية التى ترتبت على هذا فيما بعد . وقد تحسنت المحاريث فى بريطانيا ، وهناك أدلة على وجود تحسينات فيها من الأزمنة البلجيكية أى فى القرن الأخير السابق للميلاد . ولكن هذا كان جزءاً من عملية طويلة بدأت قبل ذلك الحين واستمرت بعد ذلك بعدة قرون ، كما بين ذلك «ف.ج. بين» Paine . وقد قيل أحيانا ان الألواح الرأسية قد أدخلها الرهبان السسترسيين Cistercians فى القرن الثانى عشر ، وأن

هؤلاء الرهبان قد قدموا الكثير للزراعة والحياة الريفية ، إلا أنه من الواضح أن هذا التحسين وغيره من التحسينات التى أدخلت فى المحراث لتسوية التربة بعد حرثها ذات تاريخ أقدم من ذلك بكثير ، وربما ساعد الرهبان السسترسيين والبنديكتيين Benedictines على نشر هذه التحسينات من مكان إلى آخر .

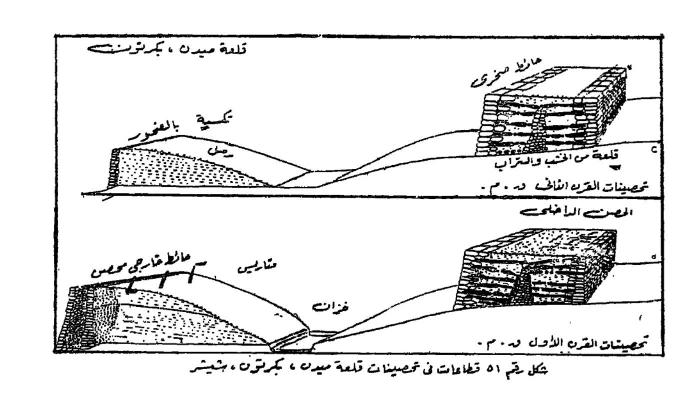
وقد اخترع المنجل الكبير scythe لقطع سنابل الحبوب ، بدلا من الشرشرة sickle الصغيرة فى أوائل عصر الحديد ، وقد استخدم هذا المنجل بصفة خاصة لقطع الحشائش الجافة التى كانت تستخدم علفاً للماشية ، وذلك طبقاً لعدة طرق كانت تحاول المحافظة على حياة حيوانات المزرعة فى فصل الشتاء . وقد قابل التحسينات التى أدخلت على صناعات السفن والمحاريث والمناجل وبناء المنازل وما إليها ، تدهور الأحوال المناخية فى هذه المنطقة فى أوائل عصر الحديد ، عندما حلت فترة انخفضت فيها درجات الحرارة صيفا وازداد تساقط الأمطار مابين عامى ٧٠٠ — ٥٠٠ ق . م . تقريباً . فانتشرت المستنقعات الراكدة فى غابات اسكنديناوة وبريطانيا وفرنسا ، وأصبحت أشجار الزان أكثر انتشاراً من أشجار البلوط عامة فى الدنمارك ، وأغرقت القرى التى كانت تقيم مساكنها فوق أعمدة الخشب على ضفاف البحيرات السويسرية بعد أن ارتفع مستوى الماء فى البحيرات فى أواخر عصر البرنز ، كما سدت الثلوج بعض ممرات الألب التى كانت تستعمل من قبل ، وحل الفقر والبؤس محل الازدهار والثروة فى سهول ترانسلفانيا التى كانت ذات نشاط تجارى مع شمال إيطاليا ، كما تعرضت البلاد لغزو الشعوب الرعوية التى تعيش فى نطاق الاستبس التى نشطها المناخ اللطيف المشبع بالرطوبة ، وقد وصف هيرودوت أسلوب حياة هذه الشعوب من الاسكيذيين وصفا شائقا . وأصبح من مظاهر الحياة الأوربية بدء ارتحال الشعوب نحو الجنوب الدافئ ، وساد فى الشمال البارد فترة الشتاء الدائم Fimbulwinter كما سميت فى الأساطير ، عندما كان الشتاء يتلو الشتاء دون فترة دفء تذكر بينهما ، وفترة فجر الآلهة

Twilight of Goods عندما انهارت الثقافات الأوربية القديمة .

أدى استمرار ضغط الشعوب نحو الجنوب إلى تقوية الاستحكامات الدفاعية التى تشبه استحكامات أواخر العصر الحجرى الحديث أو أوائل عصر البرنز ، وكانت تقام من جلاميد الصخر وأكوام التراب . ثم أضيف إلى هذه الاستحكامات هياكل قوية من الخشب تسمى بالحوائط الغالية murus gallicus تساعد على تماسك قطع الصخور بعضها بجانب البعض الآخر . وقوى شأن سادة الأقاليم المختلفة الذين يتركزون فى حصونهم ، وأصبحت تلك الحصون أحيانا مراكز للسكان ، أى بذور لمدن قادمة ، بينما ترك السكان - تحت ظروف أحسن ، كما حدث فى «روان» بنورمانديا — الأماكن المرتفعة المعرضة للرياح العاتية (تل سانت كاترين) ، وهبطوا إلى السهل المنخفض (مكان مدينة روان Rouen المقبلة التى أضاف إليها الرومان ووسعوها) ، وكانت لوتيتيا Lutetia محلة قبل رومانية على إحدى جزر نهر السين بباريس ، كما كانت شارتر Chartres مركزاً سابقاً للرومان فوق تل يطل على نهر إيور Eure .

وقد أفادت هذه الفترة من المناخ البارد الممطر إقليم البحر الأبيض المتوسط . ولقد كانت الشعوب المتكلمة بالكلتية قد بدأت فعلا فى الهجرة من جنوب ألمانيا الى شمال شرق أسبانيا ، إلا أن هجرة كلتية أهم من ذلك قد بدأت بعد القرن السابع ق . م . عندما اجتاحت جموع الكلت فرنسا واخترقتها إلى أسبانيا ، ولاسيما شمالها الشرقى . حيث أقاموا استحكاماتهم الدفاعية فى كيتانياس Citanias . وخرجت من شمال غرب أسبانيا جماعات محاربة لغزو بريتانى وكورنوول وسواحل البحر الإيرلندى وما يليه شمالا فى القرنين الثالث والثانى ق . م .

وتجد ذكريات هذا الغزو طريقها فى كتاب جوفرى المونموثى Geoffrey of



شكل رقم ٥١ قطاعات فى تحصينات قلعة ميدن ، بكرتون ، هشير

Monmouth عن تاريخ ملوك بريطانيا الذى ظهر فى العصور الوسطى ، ويذكر هؤلاء الغزاة فى كتب الآثار البريطانية على أنهم غزاة عصر الحديد «ب» . ويفترض أنهم بناة استحكامات كثيرة ، أو على الأقل أعادوا بناءها مثل قلعة ميدن ، فى دورسيت وقلعة ميدن أيضاً فى إديزبرى (بيكرتون) شيشر . وهى من أهم قلاع ذلك العصر التى درست جيداً . وقد وجد « فارلى » فى إديزبرى Eddisbury بقايا خشب استعمل فى تشييد ما يسمى بالحائط الغالى ، ولكنه كان أقل إتقاناً ، ويبدو أن غزاة عصر الحديد «ب» قد شيدوا أو أعادوا تشييد بعض طرق الحافات ، وبعض المسالك أيضا ، كما شيدوا جسوراً خشبية فوق أراضى المستنقعات Fens وفى الأراضى الرطبة قرب جلاستونبرى Glastonbury وربما كانوا يستخدمون قوارب كالسلال المستديرة والقوارب الجلدية فى عبور الماء ، وقد وجدت بعض قطع العملة وبعض قطع جرار النبيذ من إقليم البحر المتوسط فى قلعة تشون Chun (التى ترجع الى أوائل عصر الحديد) بكورنوول ، وهى دلالة جيدة على التجارة من سواحل البحر المتوسط إلى بريتانى عبر فرنسا .

ولا تزال العلاقة بين هذه الهجرات وبين مشكلة توزيع اللغات الكلتية تحتاج إلى مزيد من البحث . فحروف الثاء th الإنجليزية والدال dd فى لغة الويلز كثيرة الانتشار فى جزيرة جرسى وفى أسبانيا ، وتنتشر الثاء فى سواحل البحر الإيرلندى فى بريطانيا وفى الوسط والشمال (فى انجلترا) أما فى لندن فهى تتحول إلى حرف V ، وفى غرب إيرلندة إلى حرف الدال ومن ثم تنطق كلمة mother مثلا muvver من ناحية muder, من ناحية أخرى ، ويستخدم الدانماركيون صوتا يشبه الثاء .

ولا ريب أن الصيف المائل للبرودة الرطب لايساعد على نضج القمح ، إلا أنه قد أدى إلى آثار أخرى ترتبت عليها نتائج كثيرة . وربما وجد الشيلم والشوفان أولا كأعشاب وحشية فى حقول الشعير . وقد انتشرت زراعة

الحبوب فى أراضى الشمال الباردة وحرثها حيث كان الشعير وحده هو السائد ، كما أدى إلى انتشار تعمير أراضى اللويس فى غاليسيا البولندية وتعمير أراضى اللويس فى روسيا ، وزراعته فى الأراضى التى كانت تغطيها الغابات والصلصال الجليدى فى بولندة ولتوانيا وغيرها . وأدى ازدياد السكان هـذا إلى نشر اللغات السلافونية .

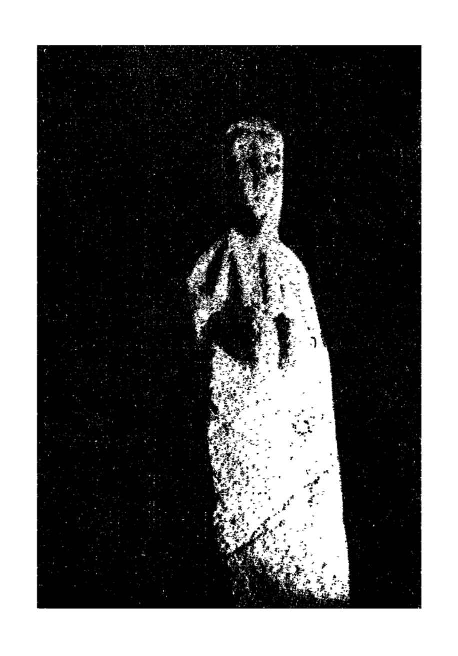
وقد ظلت أدوات الزينـة تصنع من البرنز فى أوائل عصر الحديد ولاسيما المشابك الكبيرة Fibulae التى تظهر فى حليها مدى تأثير ذوق البحر المتوسط فى العصر الكلاسيكى أى منذ حوالى ٤٠٠ ق. م. فانتشرت الانثناءات الحرة فى الفن ، وأصبحت بعد ذلك من مميزات الفن الكلتى الإيرلندى فى العصور السابقة للرومان . وقد تغيرت كثيراً أنماط المشابك فى العصور السابقة للرومان . ومن ثم استخدمت لتحديد أعمار الآثار التى ترجع إلى تلك الآثار .

وجعلت هجرات الشعوب نحو الجنوب ، وانتقال الثقافة من إقليم البحر المتوسط نحو الشمال غرب أوربا وبعض أجزاء شمالها الغربى حافات تشرق عليها أضواء شاحبة من مدنية البحر المتوسط الكلاسيكية . وقامت فى الغرب شيعة كهنوتية معينة هى شيعة الدرويد Druids واتخذت لها المكان الذى قامت فيه شارتر فيما بعد كمركز للعلم والحكم فى بلاد الغال . وتروى الأساطير أنه كان يوجد فى هذا المكان كهف فى التلال ، وهب منذ أزمنة ما قبل المسيح لعذراء تحمل ابناً . ونصل إلى هـذا الكهف الآن عن ممر سرى من كاتدرائية مريم العذراء التى بنيت فيما بعد . وقد وصف «سير سيريل فوكس» جزيرة لين كريج Llyn Cerrig فى إنجلزى ، وكانت هذه الجزيرة مركزاً للعبادة الدرويدية ، وتتقبل الهدايا من جميع أنحاء بريطانيا . وهذا يدل على أن تلك الشيعة الدينية

كانت تحاول أن تكون عامة فى جميع أنحاء البلاد ، وليست شيعة محلية فحسب .

وقد حفظ تمثال فريد للأم الكبيرة أو الجدة Grand'mere فى سانت مارتان بجرنزى . ومن المحتمل أن يرجع عهده إلى أوائل عصر الحديد ، ويبين شكل (٥٢) صورة أخذتها مسز آيسكوف Ayscough فى ليلة مظلمة ، بطريقة تسليط الضوء عليها من أسفل بشكل خاص .

وإذا أردنا أن نذكر بإيجاز شديد بعض الأمور المتعلقة بالعصر الرومانى، فعلينا أن نذكر أن بلاد الغال كانت أكثر تأثراً بالرومان من بريطانيا ، وأن أجزاء بريطانيا التى تقع شمال حائط هادريان إلى جانب بعض أجزاء ويلز كانت أقل تأثراً من جنوب شرق بريطانيا بالحضارة الرومانية ، بينما لم تمس تلك الحضارة إيرلندة إطلاقاً . وبذلك استمرت حضارة ما قبل الرومان بعد خروجهم من بريطانيا فى الشمال والغرب . واعتبرت تلك الحضارة امتداداً — فى بعض نواحيها — لحضارة عصر الحديد قبل الرومان . وكانت التنظيمات الرومانية مهتمة بالدفاع عن حدودها التى تقع على طول نهرى الراين والدانوب ضد هجمات المتوحشين الذين لا يفتئون يهجمون على الإمبراطورية ويطرقون أبوابها لكى ينفذوا منها إلى أرض أفضل فى الجنوب والغرب ، ويتربصون بها الدوائر وينتهزون كل نقاط ضعفها ، وكانت المدن الرومانية تنتشر حتى بلاد الغال الجنوبية وأسبانيا حيث يمكن أن تنمو الكروم وفى بعض الأنحاء أشجار الزيتون كذلك ، ومع تقدم الفتح فى بلاد الغال ، تحولت المعسكرات الرومانية فى حوض باريس إلى مدن . مثل مدن: روان ، وباريس ، وسنس Sens ، وتور إلى آخره . وقد كان بعضها مثل باريس وروان محلات غالية قبل قدوم الرومان . وعندما وصل الرومان إلى نهرى الراين والدانوب أصبحت كولين (كولونيا) ، وبون وكوبنز ، وبنجن ، وهينز ، وفورمز ،



شكل (٥٢)

تمثـــال « لاجراندمير » ، سانت مارتن ، جرنزى

وسبير،واستراسبورج ، وبازل،وريجنز بورج،وباساو،وفين (فينا)معسكرات هامة ، ثم تحولت مع مضى الزمن إلى مدن . ولابد وأن هذه المدن ذات الأبنية العامة الكبيرة مشيدة فى خطوط منتظمة من الصخور المنحوتة ، والشوارع المخططة ودور المحاكم ، والتى يسودها النظام والفنون قد بهرت البرابرة الذين لسبب ما ربما مروا بالحدود فى فترات السلام ، فوقفوا أمامها مشدوهين . والواقع أن المدن الرومانية كانت إحدى دعائم الهيبة الرومانية التى ظلت باقية بعد سقوط الإمبراطورية عدة قرون ،

قبل سقوط الإمبراطورية الرومانية سادت ديانة رسميـــة فى أنحاء الإمبراطورية ، وأصبح لكثير من المـدن أساقفتها الكبار (المشرف العام Episcopus) وكان لابد لمثل هذه المدن أن تحتفظ بكل ما تستطيع من مهابة مستمدة من التقاليـد الإمبراطورية بعـــد أن سقطت الإمبراطورية الرومانية نفسها .

ولم تستطع الإمبراطورية الشرقية ، وعاصمتها القسطنطينية وهى لا يزيد عمرها على القرن الرابع الميلادى أن تنافس روما سلطانها وهيبتهـا فى عقول الناس ،فقد كان من تأثير اللغة اللاتينية فى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا أن أصبحت أم لغاتها الحديثة . أما وراء ذلك فقد فرضت اللغة اللاتينية كلغـة العبادة ، مهما ضؤل فهم الناس لها . كما تم إحياء القانون الرومانى — إلى حد ما — فى جنوب فرنسا فى أوائل العصــــور الوسطى ثم اقتبس فى بعض أنحاء ألمانيا كبديل للنظم المحلية الصغيرة . أما الإغريقية فلم تنتشر من القسطنطينية إلا على نطاق محدود جداً ، وترك لكل شعب من الشعوب أن تستخدم لغته ويطبق شريعته .

بل إن ضعف الإدارة المركزية وزوال النظام أدى بالتجارة والمدن إلى

الانهيار فى الغرب ، وزاد الأمر سوءاً غزو المسلمين للبحر المتوسط وتعرض البلاد لهجمات النورديين المخربة . فضئول شأن مدن الغال والراين والدانوب وبلدانها إلى حد كبير ، وتوقف استخدام الحجر المصقول فى البناء عدة قرون ، ولم تصنع غرب أوربا القرميد فترة وصلت إلى ٥٠٠ سنة أو أكثر . ولم تمهد الطرق ولم تجد الطرق الرومانية الصيانة الكافية ، وأهملت كما أهملت ، القوانين وتدهورت الفنون والصناعات إلا فى نطاق صنع أدوات الزينة للرؤساء .

إن الكنز الذى وجـــد أخيراً فى ستون هو ، سفولك ، فى تل أقيم تخليداً لذكرى أحد الملوك الإنجليز فى أواسط القرن السابع الميلادى ، ليدل على درجة كبيرة من الفن والمهارة والجمال . ويرى بعض الأخصائيين أنه من صنع بعض الكلت ، وربما من الإيرلنديين . وقد استعمل فيه الذهب والفضة المطلية بالميناء الحمراء كما أن بعض نقوشها تشبه الأنماط الإيرلندية .

ولم تثبت دعائم المـــدن الرومانية فى بريطـانيا ، فأضاعت فوضى الإنجلوساكسون نظـام القساوسة . وقد كانت اللغـة الكلتية البريطانية قد تعدلت بتأثير اللاتينية إلا أن كلا منهما كانت ضعيفة ، وزادهما ضعفاً أيضا فرار البريطان المتأثرين بالحضارة الرومانية إلى بلاد الغال فى القرن الخامس ، ومن ثم فرض الأنجلوساكسون لغتهم . كما يجب أن تتذكر أن الأنجلوساكسون كانوا قد وفدوا إلى البلاد فى عائلات كاملة ، أى كانت السفن تحملهم وتحمل نساءهم وأطفالهم معهم . إلا أن التقاليد الكلتية ظلت قوية فى غرب بريطانيا ولاسيما فى إيرلندة ، حيث تطورت بعض فنونهم ولاسيما فنون الخط . ويعتبر «كتاب كيلز Kells» من أجمل المخطوطات المصورة فى العالم كما يعتبر مشبك تارا وكأس ارداغ قطعتين فنيتين من أروع المصنوعات الرقيقـة ، وقد بسط مسيحيو إيرلندة ، بزعامة قادتهم الذين أطلق عليهم ألقاب القديسين تأثيرهم إلى حد ما

فى القارة الأوربية ، ومن الممكن تتبع تأثيرهم فى بلاد الغال وسويسرة والنمسا وحوض الراين .

وقد أسس الغزاة البرابرة ملكيات محلية فى غرب أوربا ، وكانت هذه الملكيات قائمة على أساس الحياة الريفية التى نمت نمواً كبيراً فى عصر تدهور المدن ، ومن ثم ظهر النظام الإقطاعى المعروف والذى لا نحتاج لوصفه هنا . خلال العصر الرومانى شاع فن صهر الحديد ، واستطاعت الفئوس الحديدية أن تغزو الغابة وأن تزيد من مساحة أراضى المحصولات الغذائية والمراعى . فأصبحت إزالة الغابات وتشييد القرى من معـــالم الحياة الأوربية فى هذا العصر .

وقد تقبل الغزاة الفرانك اللغـة اللاتينية فى بلاد الغال ، بعد أن بهرتهم عراقة التقاليدالرومانية فيها ، ولاسيما وأنهم قدموا فى أعداد كبيرة من المحاربين الشبان دون أن يصحبوا معهم نساءهم ، وأخـذوا فى التزاوج من البـلاد التى فتحوها . كما أن الغزو الصقلى وإزالة غابات وسط أوربا الشرقى نشر عائلة اللغات السلافية غرباً حتى نهر الأودروبوهيميا ، وشرقاً حتى روسيا وجنوبا بغرب حتى شبه جزيرة البلقان . إلا إننا نلاحظ أن اللغة السلافية اضطرت إلى أن تتحد مع إحدى اللهجات اللاتينية فىولاية داشيا ، حيث استقر الجنود الرومان فى القرن الثالث الميلادى ، ومن ثم نشأت اللغـة الرومانية ، وهى لغة لاتينية سلافية . وربما كان ضغط الصقالبة على الجرمان أحد العوامل فى هجرة عائلات الإنجليز والساكسون إلى بريطانيا .

وعلينا الآن أن نتتبع بعض النتائج الاجتماعية التى تترتب على استخدام المحراث الكـبير وعلى إزالة غابات البلوط من السهول المنخفضة التى ذكرناها من قبل :

أولا : تحتاج التربات البنية ـ كما ذكرنا ـ إلى حرث عميق يرفع إلى السطح مستويات التربة السفلى ، كما أن تربات البـودسول أو التربات الرمادية فى أشد الحاجة إليه . ولهذا كان من الضرورى أن يكون المحراث كبيراً ، كما أن المحراث ذا السكين الإمامية التى تقطع الحشائش أمامه ، وذا الألواح الجانبية التى تساوى التربة أصبح أفضل من المحراث الصغير المعادى ، وكان هذا الحرث يجعل الأرض عبارة عن خطوط عميقة وحواف جانبية مرتفعة ، مما يسهل عملية الصرف وتقسيم الأرض إلى شرائح . وكادت خطوط الحرث أيضاً أن تصبح دائمة ، ونمت فيها الحشائش وملأتها المستنقعات .

ولم يكن فى استطاعة كل فلاح ، فى الجماعات الريفية الصغيرة ، أن يمتلك محراثاً كبيراً مع مايلزمه من ثيران تجره ، ولم يكن من المفيد عمليا أن تستخدم المحاريث الكبيرة فى الحقول الصغيرة التى كانت تنقسم إليها الأرض فى عصر ما قبل الرومان ، عندئذ عرف الناس أن الأرض يجب أن تترك بورا لتستريح فترة من الزمن ، ويجب أن تغذى بالسماد الحيوانى وأن يترك الحيوان يرعى فيها ويلقى فيها مخلفاته .

ومن ثم نشأ نظام الحقول المفتوحة ، حيث يمتلك صاحب المزرعة شرائح من الأرض مع جيرانه ، وحيث يمكن إعادة تقسيم الأرض مرة أخرى من وقت إلى آخر . وقد استخدم هـذا النظام فى الدوره الزراعية ، واتبعت دورتان زراعيتان أساسيتان .

كانت الحقول تزرع عاما وتترك بوراً عاما آخر حيث توجد التربات الخفيفة ، ولاسيما تلك التى تغطيها الحشائش التى تصلح للماشية ومعنى هذا أن نصف الأرض ينتج محصولات كل العام .

أما فى السهول التى تغطيها تربة اللوم ولاسيما إذا كانت قليلة الحشائش Loams

التى تصلح للماشية وكانت الماشية تتكاثر باستمرار فى الأراضى البور ، ووجد أنه من الممكن أن تزرع الحقول مرتين كل ثلاثة أعوام ، فيستريح الحقل عاما ، ثم يزرع القمح الذى ينهك التربة ، ثم ترعى الماشية فى الأرض بعد أيام الحصاد حتى يحل الشتاء ويصبح البرد قارساً . وتحرث الأرض فى أواخر الشتاء وتزرع الأرض شوفانا أو شعيراً (وهى من حبوب الربيع) وتحصد فى الصيف القادم قبل أن تدخل الأرض فى عامها الثانى الذى تستريح فيه وتترك بورا . وهذا النظام يسمح بأن تغل ثلثا الأرض محصولات كل العام وربما يستبدل الفول بحبوب الربيع ، وربما لم تنتشر طريقة الحقول المفتوحة حيث تمتلك الأسرة شرائح من الأرض فى كل مكان . بل ربما بقيت بعض المزارع الخاصة بالأسر هنا أو هناك .

وتتطلب أية طريقة من طرق الزراعة هذه وضع نظام خاص يفرض على الفلاحين . ويسمى الجرمان طريقة الزراعة هذه بالزراعة الجبرية (الزفانجفلور Zwangflur ومعنى Zwang القسر أو الإجبار) . فلا بد وأن يتم الحصاد فى ميعاد معين حتى تستطيع الحيوانات أن تساق إلى الحقول ، ولابد من تنظيم عملية الحرث والبذر حتى تقوم كل أسرة بنصيبها من العمل ، بل لابد أيضا من تحديد عدد حيوانات الرعى وهكذا .

كل هذا أدى إلى تقوية نظام السلطة ، ولاسيما إذا كانت هذه السلطة تمتلك المحراث الكبير وأحيانا تمتلك الثيران التى تجره ، كما تمتلك الطاحونة التى تطحن فيها الغلال ، ولذلك نستطيع أن نقول إنه حيث تتبع دورة ثنائية أو ثلاثية فى غرب أوربا لابد من قيام سيد لتنظيم العملية . سواء كان موجودا من قبل ، أو يظهره استعمال تنظيم العمل . وفوق ذلك فقد كان على الجماعة الريفية أن تكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن نفسها ، فاقتضى الأمر وجود قائد . ومن ثم أصبحت السيادة أو الإمارة Lordship من معالم الحياة

الريفية ، إن لم تكن من ميزاتها وتكون نظام هرمى (هيراركى) من السيادات يجلس على قمته ملك إقليمى .

وقد تعدل نظام الدورة الثنائية والثلاثية فى بعض مناطق التربة الرمادية (البودسول) ذات الرطوبة شديدة الارتفاع أوالتى لاتتمتع بقسط من أشعة الشمس يكفى لنضج محصول القمح ، فازداد الاهتمام فى غرب بريطانيا الممطر واسكنديناوة بالماشية التى يمكن أن تساق إلى التلال أو الأراضى المقفرة Moorland ، وقت نمو محصولات الحبوب ولاسيما الشوفان والشعير . ويختلف نظام الهجرة الفصلية Transhumance هذا من مثيله فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، إذ قد تترك الماشية فى أيرلندة مثلا ترعى الأرض ، المعدة لزراعة الشوفان والشعير فى الصيف القادم حتى شطر من الشتاء ، وقد أصبح من الممكن زراعة قطعة الأرض الواحدة سنة بعد أخرى ، ماذا دامت تستفيد من السماد الحيوانى الطبيعى ، وتسمى هذه الأرض بالحقول الداخلية in-fields وهى غير الحقول الخارجية out-fields وهى قطعة من الأرض تنظف من الحشائش والأحراج تزرع عدة سنوات متتابعة ، وتقع عادة بعيدة عن القرية أو المزرعة ، ومن الممكن أن تقوم أسرة واحدة أو عدة أسرات تربطها صلة القربى أو التزاوج بهذا العمل . وتسمى هذه المجموعة بالكلاشان Clashan فى أيرلندة ، وكان يسمح للكلاشان أو الأسرة الواحدة أن تزرع من الأرض بقدر ما تستطيع .

وقد تكون الكلاشان المتجاورة أعضاء فى قبيلة واحدة ، ولاسيما فى إسكتلندة ، تحت زعامة قائد حربى ، الذى لم يكن يشبه تماما سيد الإقطاع Lord of the manor إذ يجب عليه أن يحصل على رضاء وولاء أتباعه ، إذ كان القانون فى الغالب يعتمد على المسئولية الجماعية Vendetta ، وكان من المهم فى ذلك الوقت الذى كثرت فيه الحروب الصغيرة وحوادث أخذ الثار

أن يجمع الزعيم عدداً من الأتباع الموالين له ، بينما كان سيد الإقطاع فى أراضى الدورة الثلاثية أقرب ما يكون لسيد اقتصادى يبسط نفوذه على عدد من رقيق الأرض أو الأتباع على الأقل . وعندما حل النظام وحكم القانون محل الفوضى والمشاحنات فى اسكتلندة بعد منتصف القرن الثامن عشر لم يكن الزعماء فى حاجة إلى عدد كثير من الأنصار . وعندما ازدادت حوادث طرد الفلاحين من أرضهم اضطر هؤلاء الضحايا أن يستقروا على السواحل التى تغطيها المستنقعات ، وعملوا فى زراعة البطاطس والصيد ، وهذا لم يكد يمدهم بالقوت الضرورى حتى أتت أمراض البطاطس على محصولهم الرئيسى واقترن ذلك بفتح باب الهجرة على مصراعيه إلى أراضى العالم الجديد ، وخرجت جموع الإيرلنديين عبر المحيط ، فى أواسط القرن التاسع عشر واستمرت موجات الهجرة لمدة سنتين . ويجب أن تذكر أن برد الشتاء فى مرتفعات اسكتلندة بل وفى جزر هبرديز كان من القسوة بحيث لم يسمح ببقاء الماشية طويلا فى العراء . وكان علف الماشية قليلا . ومن ثم كان لابد من حمل الماشية المشرفة على الهلاك جوعاً إلى المراعى فى الربيع المبكر . وقد زاد الأمر سوءاً أن حجزت غابات خاصة لصيد الغزلان ومساحات معينة من البرارى ليقضى فيها زوار مرتفعات اسكتلندة وقتهم فى الصيد ، مما أدى إلى انخفاض عدد السكان فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

أما فى النرويج فقد أدت العوامل الطبيعية إلى توجيه العادات وجهة أخرى ، فمن الممكن استعمال المرتفعات فى فصل الصيف ، عندما ينمو النبات بسرعة بعد أن يذوب الجليد وتتشرب التربة بالماء . وتكون الفيوردات خلجاناً طويلة عميقة تطل عليها المرتفعات الشاهقة ، وتحف بها قطع قليلة من الأرض التى يمكن أن تزرع هنا وهناك . وبعد أن تعلم الناس بناء سفن أكبر بمساعدة الآلات الحديدية تكونت مجتمعات من صيادى السمك الفلاحين حول الفيوردات ، إلا أن هذا يتضمن وضع قيود معينة على تقسيم الأرض المزرعة الضئيلة

المساحة . فتأسس نظام توريث الابن الأكبر ، وكان على الأبناء الآخرين أن يغامروا (i-viking) فى البحر . وقد ساعد على هذه المغامرات بناء سفن قوية خاصة ، يغطى كل لوح فيها ما يليه ، ونشر الشماليون (النورزمن Norsemen) الرعب على طول سواحل غرب أوربا ، ثم اتحدوا بعد ذلك تحت نظام الهانزا وقتا من الزمن ، ثم كونوا فى المائة سنة الأخيرة أسطولا تجاريا كبيراً ، وقد أدت محاولات هارولد فيرهير (فى أواخر القرن التاسع) وغيره لتنظيم سكان الفيوردات الى كثير من المقاومة والتذمر ، وكان نتيجة ذلك نزوح كثير من النرويجيين نحو شتلند ، وأوروكنى وكيثنس وهبرديز ومان وشرق أيرلندة وأيسلندة وجرينلندة ، وقد تركت ممالك النورز فى هبرديزومان بعد ذلك للسيادة الإنجليزية والإسكتلندنية ، إلا أن النورز قد تركوا فى أماكن سودر (سودرتير أو هبرديز) ومان ذكرى أيام حكمهم .

وقل نجاح زراعة الشوفان الى الشرق من ذلك ، فى شمال أوروبا ، بصفة عامة ، وأصبح الشيلم هو المحصول الرئيسى منذ أوائل عصر الحديد حتى الوقت الحاضر ، وهو أقل حاجة للشمس من القمح ، وللمطر من الشوفان ، ويمد دقيق الشيلم الجسم بحرارة كبيرة ، ومن ثم كان مفيداً فى هذه المناطق ، إلا أن نمو السكان كان بطيئاً بسبب ظروف البيئة القاسية ، مثل الشتاء البارد الطويل والغابات الصنوبرية والحيوانات المفترسة (ولاسيما الذئاب) ، فقد كان الجليد يغطى الأرض فترات طويلة كل عام ، ثم يذوب الجليد فتغطى فيضاناته الأرض بالمستنقعات والطين ، وما يصحب ذلك من تكاثر الحشرات الحاملة لجراثيم المرض ، فى فصل الصيف القصير . وقد لعبت طوائف الرهبان الأرثوذكس فى شمال أوربا الشرقى دوراً كبيراً ، يعادل ما قامت به طوائف الرهبان الأخرى فى غرب أوربا .

هذا التخطيط العام المختصر لتاريخ أوربا قد أوصلنا إلى حدود التاريخ

المكتوب ، ولا يبقى إلا أن نضيف بعض نقط هامة فى عقد المقارنات مع الظروف السائدة فى الأزمنة الحديثة .

ولا بد أن نقول إن انفصال الكنيسة الرومانية نهائياً عن الكنيسة الأرثوذكسية كان حدثا كبيراً على قدر عظيم من الأهمية ترتبت عليه آثار جسيمة . فقد أوجد نطاقا من الصراع الدائم بين شرق أوروبا وغربها، وسهل تغلغل الإسلام فى هذا النطاق . ويجب أن نلاحظ أن بولندة والمجر وإلى حدما بوهيميا ، فى نطاق اللويس كانت ضمن نطاق الغرب فى العصور الوسطى.

وقد ذكرنا من قبل تدهور المدن الرومانية فى غرب أوربا خلال العصور الوسطى ، وقد نمت التنظيمات الإقليمية الإقطاعية فى العصور الوسطى إلى وحدات أكبر بالتدريج ، وقل خطر غارات النورزمن ، كما بدا للناس إمكان التبادل الحضارى مع المدنية الإسلامية بعد أن زال خوفهم منها . وهذا كله أدى إلى نمو المدن مرة أخرى . ولم يكن مقصوراً على بلاد البحر المتوسط فحسب ، بل حدث أيضاً فى البلاد التى تقع شماله ، ابتداء من أواخر القرن العاشر ، ثم ازداد نمو المدن فى القرن الحادى عشر والثانى عشر بصفة خاصة ، وقد نمت المدن الفرنسية أساساً كمراكز لأقاليم زراعية أو pays كما يقول الفرنسيون فى حديثهم الدارج ، ولاسيما إذا كانت للمدينة أسقفا أو مطراناً فى أثناء العصور الوسطى ، عندئذ تصبح الكاتدرائية هى محور المدينة ونواتها ، وحولها أرض فضاء يعقد فيها السوق ، وربما تطلق أسماء الحرف المختلفة على الشوارع ، إذ يتركز أصحاب كل حرفة فى شارع ويعملون على تلبية طلبات الزبائن ، وليس للسوق العامة . وأحياناً تشرف قلعة على المدينة ، مثل قلعة فاليز Falaise النورماندية إلا أن قلاع النبلاء فى فرنسا كانت أميل إلى أن تحمل التقاليد الفرنك الريفية. وكانت الكاتدرائية مكانا للمجتمعات العامة ، وتقوم بدور اجتماعى آخر

غير الطقوس الدينية ، إذ قلما كانت توجد فى فرنسا — إلا على حدودها الفلمنكية — قاعات بلدية قديمة .

ولعبت التجارة البعيدة المدى دوراً أكبر فى الفلاندرز وأرض الراين عما لعبته فى كثير من المدن الفرنسية، ومن ثم وجد بها كثير من التجار الأثرياء أصحاب النفوذ الذين كانوا على استعداد لإقراض المال للنبلاء المحتاجين له ، أو للقساوسة ، ويحصلون فى مقابل ذلك على امتيازات عديدة . وقد أدى عدم وجود أحجار البناء ولاسيما فى الأراضى المنخفضة إلى إعادة فكرة حرق القرميد ، وما لبثت هذه الصناعة أن انتشرت بسرعة . ونجد فى الفلاندرز قاعة المدينة townhall كما نجد دار النقابات guildhall او دور نقابات تجار الصوف woolhalls شامخة جنباً إلى جنب مع الكاتدرائية، ويصور ذلك بوضوح وعظمة أيضا القصر الكبير فى بروكسل رغم أنه حديث النشأة نسبيا ولا يرجع إلا إلى القرن الخامس عشر ، ونلاحظ هنا أن كاتدرائية سان جوديل الجميلة بعيدة شيئا ما عن هذا القصر الكبير .

كما أن الكاتدرائية فى كولن تبعد أيضاً عن مركزها القديم ، الذى كان يوجد به عدد كبير من المبانى ذات الأهمية التاريخية الكبيرة ، حتى تهدمت فى الحرب العالمية الثانية ، وقد أدى الخلاف بين القس والتجار فى كولن إلى أن ينتقل مركزه إلى بون فترة طويلة من الزمن ، وتقل سيطرة الكاتدرائية كثيراً على المدينة فى إقليم الراين عنها فى حوض باريس .

كان الماء الساقط يستخدم كمصدر للقوة الميكانيكية فى بريطانيا الرومانية كما كان أوسع استخداما فى القارة ، ولم يضف سوى القليل إلى هذا بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية بعدة قرون ، ثم استعيدت الآلات التى تدور بقوة الماء الدافعة فى أثناء حركة النهضة العامة فى أواخر القرن العاشر وما بعده ،

وكان معظمها عبارة عن طواحين الغلال ، إلا أنه استخدمت هذه القوة فى أواخر القرن الثانى عشر لإدارة منافيخ كبيرة ، تدفع تيار هوائى دائم مستمر إلى أفران الصهر . ومن ثم أصبح من الممكن صهر الحديد ، وإن ظل الصناع يعمدون إلى طرق الحديد المحمى إلى أن أمكن صهر الحديد على مقياس كبير فى القرن التاسع عشر .

ومن مظاهر التقدم الصناعى فى القرن الثانى عشر والثالث عشر بناء المداخن التى أصبحت تشيد بالقرميد ، وتعتبر المداخن خطوة هامة فى إمداد الحجرة بالدفء والنظافة ، وهى فى هذا تفوق كثيراً طريقة ترك فجوة للدخان فى الحجرة كما كان يتبع قديماً . وكان يعنى هذا أيضاً إمكان تشييد مدافىء فى كل حجرة ، مما شجع على حب العزلة فى حجرات خاصة ، هذه كانت خطوة نحو الرقى الاجتماعى .

كانت مدن فرنسا تنمو بصفة خاصة عندما كان السسترسيون يساعدون فى إزالة الغابات وتأسيس القرى ، فنشأت المدن والقرى حيث يمكن القيام بكل أعمال الزراعة طول الشتاء . وكانت الصناعات الريفية أقل تقدما فى هذه الأقاليم منها فى الأقاليم ذات الشتاء الطويل الذى يتساقط فيه الصقيع ، ومن ثم كانت القرية والمدينة أكثر ارتباطاً بعضها بالبعض الآخر فى فرنسا منها فى معظم أنحاء ألمانيا .

نمت المدينة الألمانية وراء الراين شرقا ، ووراء الدانوب شمالا منذ القرن العاشر . وكانت المدينة تقوم أحيانا فى ظل حماية قلعة ، حيث كانت تهتم بصناعة الحدادة وتجارة الأسلحة . وأحيانا تقوم المدينة حول مركز دينى أنشأه أسقف أو راهب من الإرساليات التبشيرية . وأحيانا كان التجار يستخلصون امتيازات من بعض النبلاء لتشييد مدينة بقصد التجارة خاصة . ونشأت متاهة من الدويلات الصغيرة التى لا حصر لها فى الأرض ذات التضاريس

المعقدة من الوديان والتلال والممتدة شرق الراين من ميتز إلى كولن، وانتشرت فكرة المدينة شرقا على طول نطاق اللويس، فقامت براغ وكراكاو، ونشأت فيها أول وثانى جامعة على الترتيب شمال الألب وشرقى فرنسا. وكانت مدن براغ وكراكاو وبوزنان وغيرها من المدن التى قامت فى المحيط السلافى تميل إلى أن تكون شيئا مختلفا عن المحيط القروى من حولها. وقبل أن تنشأ المدن كانت تتناثر فى السهل الأوربى ولا سيما فى نطاق اللويس البولندى تحصينات ترابية يلجأ اليها الفلاحون، ثم أصبحت بعض هذه التحصينات نويات لقيام مدن كاتدرائيات، جلبت إليها التجار الألمان كما جلبت إليها المهاجرين اليهود، ووضع التجار تخطيط مدنهم الكبرى، بما فيها من المبانى العامة مثل قاعة المدينة townhall فى ميدان فسيح يعقد فيه السوق، وكانت الكاتدرائية تقوم فى الجزء المخصص من المدينة (الفافل Wawel فى كراكاو). وكانت هذه المدن تجتذب اليها اليد العاملة بين الريف الصقلبى، ومن ثم نشأت فى المدن عدة أحياء مختلف بعضها عن البعض الآخر، حى استقراطى ومركز تجارى، وحى صقلبى، ومعزل (جيتو ghetto) يهودى.

ولم يكن نمو المدن فى البحر البلطى مختلفاً كثيراً — فى بعض نواحيه — عن نموها فى البحر الأيجى من زمن بعيد. فقد كون صيادوا السمك التجار عصبة مدن الهانزا التجارية وأصبحت لوبيك زعيمة تلك المدن، ويرجع الفضل فى ذلك إلى موقعها الممتاز: على بعد ٢٠ ميلا من مصب نهر ملاص، وفى مأمن من غارات القراصنة من ناحية، وإلى أنها كانت تمتلك مورداً كبيراً من الملح فى لوينبورج هايدة، وفى جنوبها من ناحية أخرى، ومن ثم استطاعت أن تقوم بتمليح الرنجة التى يصاد معظمها من جنوب شرق السويد، وكانت لوبيك فى مركز حسن يمكنها من أن تبيعه للمدن الألمانية كى تستهلكه فى موسم الفصح. إذ كانت الكنيسة حكيمة فى تحريم أكل اللحوم فى هذا الموسم حتى تمنع الفلاحين من ذبح الحيوان فى ذلك الموسم. وكانت قاعة المدينة

وكنيستها تشرفان على لوبيك ، وكانت الكاتدرائية الجميلة تقع على Rathaus أحد أطراف المدينة يحيط بها خندق مائى ، وقد حاولت مدن الهانزا الأخرى تقليد هذا التخطيط الذى أصبح من معالمها . ومن أهم الحقائق الهامة فى هذا الموضوع أن المدينة أصبحت مستقلة استقلالا ذاتياً إلى حد ما ، إلا فيما يتعلق بدخولها فى عصبة أو اتحاد مع المدن المماثلة الأخرى ، وكانت كل مدينة تعج بالحركة التجارية البحرية ولا سيما فى تجارة السمك والفراء والملح .

ولنذكر تدهور عصبة المدن التجارية هذه باختصار — إذ يرجع هذا التدهور إلى وقوع نوفوجورود مركز فراء مدن الهانزا فى قبضة سلطة موسكو ، ولذلك أضحت تجارة الفراء تتحاشى العصبة ، ومالت إلى إرسال بضائعها براً وعن طريق الأنهار إلى ليبزج ، التى بدأت تعتنى بسوقها الدولية الشهير ، وبجامعتها الكبيرة وبنشاطها فى نشر الكتب منذ القرن الخامس عشر .

ونشطت تجارة الملح أيضاً فى جزيرة أوليرون على خليج بسكاى فى فرنسا وذلك بتبخر ماء البحر . وكان هذا الملح ينقل إلى البحر البلطى بحراً عن طريق كوبنهاجن ، التى ازدادت أهميتها بينما ضؤلت أهمية لوبيك وغيرها من مدن عصبة الهانزا . ويضاف إلى هذا هجرة الرنجة التى كانت تتكاثر جنوب غربى السويد إلى سواحل هولندة وجزرها منذ القرن الخامس عشر . فنمت المدن الهولندية خارج تقاليد الهانزا . وفى القرن السادس عشر أصبحت الملاحة المحيطية أكثر أهمية ، ففقد كل من البحر المتوسط والبحر البلطى جزءا كبيرا من أهميته ، ورغم أن هامبورج وبريمن وهما من مدن الهانزا السابقة قد نمتا فيما بعد ، إلا أن هذا النمو كان راجعاً إلى التجارة المحيطية التى ساهمتا فيها ، كما كان خارج نطاق الهانزا . وأخيرا فقد

تحرر الحكام المحليون — ولا سيما ملكة إنجلترا إليزابيث الأولى — أنفسهم من سيطرة الهانزا . وهكذا لم يكتب لفكرة مدينة الدولة إلا عمر قصير مزدهر على البحر البلطى ، إذا ما قورنت بازدهارها السابق فى حوض البحر المتوسط .

لقد ذكرنا توا الملاحة المحيطية ، التى صحب تطورها الأول تطور آخر ، وهو اختراع الطباعة ، التى جددت معرفة الناس بآداب الإغريق وأعطتهم بصيرة جديدة فى التراث الكلاسيكى . وقد أدى انتشار معرفة القراءة والكتابة ولو انتشاراً محدوداً ، مع انتشار الكتاب المطبوع ، وازدياد الحاجة إلى الكتاب المطبوع ، وازدياد الحاجة إلى الوثائق التجارية المكتوبة إلى تسليط النقد على نظم العصور الوسطى . فقد أصبحت خرائط العصور الوسطى قديمة لا تصلح للاستعمال ، وأثبت كوبرنيكوس وأتباعه خطأ النظريات الفلكية القديمة ، وأدى سوء استخدام الكنيسة الرومانية للسلطة إلى ثورة دينية كبرى ، أعظم انتشاراً وأقوى أثراً من الانتفاضات الثورية التى كانت تظهر من حين إلى آخر فى العصور الوسطى . وقد استخدمت تلك الثورة الجديدة سلاحاً جديداً ماضياً ، وهو ترجمة الكتاب المقدس إلى اللهجات المحلية العديدة . ومن الشيق — من وجهة نظرنا — أن نلاحظ أنه لم يبق فى نطاق الكنيسة الكاثوليكية فى أوروبا إلا الأقطار التى كانت داخل نطاق الإمبراطورية الرومانية القديمة ، بينما تخلصت كثير من الأقطار التى كانت خارج الإمبراطورية الرومانية قديماً من ولائها للبابوية . ورغم أن إنجلترة كانت داخل الإمبراطورية إلا أنها كانت أقل تأثيرا بالرومان من بلاد الغال ، ولذلك فقد قطعت علاقتها بالبابا ولكنها اقتبست نظاماً كنسياً قومياً يختلف عن الكنيسة الرومانية بدرجة أقل من اختلاف الكنيسة الاسكتلندية عنها مثلا . أما فى أيرلندة فقد اقترن الولاء للبابا بمقاومة الحكم البريطانى .

وظلت هناك جزر قليلة متناثرة من الكثلكة فى ألمانيا شرقى الراين وشمال الدانوب ، ولاسيما حيث نشأت مراكز الإرساليات التبشيرية القديمة فى القرنين العاشر والحادى عشر وقد قوى توزيع مراكز الكثلكة واللوثرية ، هذه بعد انتشار مبدأ « أن لكل إقليم دياناته » ubi regio, ibi religio الذى يمكن أن يقال إنه كان أحد أسباب حرب الثلاثين عاما (١٦١٦ — ١٦٤٨) العامة والتى تركت أسوأ الأثر فى الحياة الألمانية . وقد احتفظ البابا بسلطته فى جزء كبير من نطاق اللويس ، وهى الآن تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندة وسيليزيا العليا التى ظلت كاثوليكية ، أما بولندة فقد احتفظت بكثلكتها بسبب الدور الكبير الذى لعبته فى مقاومة المغول والأتراك .

ورغم هذه الاستثناءات ، فإن استقلال شمال غرب أوروبا من سلطة الكنيسة الرومانية ، وفناء هذه السلطة فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية السابقة ، حقيقة كان لها أكبر الأثر حتى فى التطورات الهامة التى حدثت فى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية .

ولا نستطيع أن نضيف إلا القليل عن التطورات الأوروبية الحديثة . فقد انتشرت طواحين الهواء فى هولندة بصفة خاصة فى القرن السادس عشر ، وذاع استعمالها فى كل مكان وتنوعت طرق استخدامها ، ولاسيما فى رفع الماء من الأرض . فاستصلحت مساحات كبيرة من الأرض وزرعت بالمحصولات الدرنية فى أوائل القرن السابع عشر . وقد فتحت هولندة أبوابها للفارين من وجه الاضطهاد والكاثوليكية ، ومن ثم دخلتها نخبة من المفكرين ، الذين يمتازون بقوة الإبداع ، فازدهرت الفنون الجميلة فى هولندة فى القرن السابع عشر ، كما ازدهرت العلوم والآداب وتقدمت البلاد تقدما اقتصاديا كبيراً . وقد بدت على وسائل الدورة الزراعية الثلاثية والثنائية القديمة دلائل الضعف وظهرت عليها نتائج القسر الوخيمة ، واستمر حكم العادة على هذه

النظم استمرار اليد العجفاء الهزيلة ، وتخلص الفلاحون من هذه النظم وبدءوا في استغلال أراضيهم استغلالا يلائم أغراضهم الخاصة ، وكان الجزر يزرع في غرب أوربا في العصر الروماني كمحصول حدائق، ولكنه انتشر بعد ذلك، ونظرا لأنه كان يبقى في الحقول حتى الخريف فقد عطل انطلاق الماشية للرعي في الحقول بعد الحصاد . ومن ثم فرض سادة الإقطاع عرفا يقضي بأن يحصل الفلاحون على إذن خاص من السيد قبل أن يخصصوا قطعة أرض لهذا المحصول . ومن ثم فقد انتشرت زراعات الجزر واللفت المختلفة مثل Mangel wurzels وهي النباتات الجذرية الألمانية ، مما أدى إلى تدهور رعي الحقول بعد الحصاد ، وكان لهذا أثره على صغار الفلاحين ، ولكنه منح كبارهم حرية كبيرة في التصرف واستغلال الأرض . إلا أن النظام الزراعي القديم بقي في أوروبا - بشيء من التعديلات - حتى أوائل القرن التاسع عشر.

وقد ساهم الهولنديون والبريطانيون في تحسين صناعة السفن،وفي تسهيل الملاحة ، وحرية حركتها في الأقاليم ذات الرياح المتغيرة الاتجاه ، (وذلك ببناء سفن لها شراع للمقدمة وآخر للمؤخرة) ، وفي تقليل المياه الآسنة التي تتجمع أسفل السفينة والتي كانت مصدر خطر فتاك في الرحلات البحرية الكبيرة وهكذا أحرزت كل منهما قصب السبق في الرحلات العابرة للمحيطات وبدأتا تتعلمان كيف تمدان البحارة بالغذاء المناسب الذي لا يصيبهم بالأسقربوط ، وقد نشط الفرنسيون أيضا نشاطاً كبيراً في الفترة الواقعة بين عامي ١٦٢٥ و ١٦٥٠ وأسسوا مستعمرات جواديلوب ومارتينيك وكندا الفرنسية وسان لويس في السنغال والرنيون وماوريتيوس،إلا أن نظام البوربون الاستبدادي عرقل من تقدم الفرنسيين، فقد كانت جهود البوربون متجهة إلى أوروبا بصفة خاصة ، رغم جهود دوبلكس (١) Dupliex في القرن الثامن عشر، كما عرقلت

(١) جوزيف فرانسوا دوبلكس ١٦٦٤ - ١٦٩٧ حاكم الممتلكات الفرنسية العام في الهند، حاول توسيع رقعة الممتلكات الفرنسية في الهند وحارب تقدم البريطانيين في هذه البلاد ولكنه فشل .

الاضطهادات الدينية قوى الإبداع وساقت النخبة الممتازة من المفكرين إلى النفى أو زجت بهم إلى غياهب السجن . وكانت التجارة تجلب السلع من كل أنحاء العالم إلى القارة — ولاسيما بريطانيا — لكى تصنع فى أواسط القرن الثامن عشر ، ومن ثم قامت تجربة الثورة الصناعية الكبرى ، التى جمعت شمل المستضعفين من الفلاحين فى مدن المصانع . ونمت تلك المدن نمواً كبيراً ، حتى عفت يد النسيان على الأسس الريفية التى قامت عليها المدن فى كثير من مناطق بريطانيا ، وطغت المدن الكبرى فى مناطق أصلها ريفى .

الفصل الثامن

الهند

لقد ازدادت معرفتنا عن الهند فى ربع القرن الأخير ، حتى أصبح من المحتمل جداً أن تتطور آراؤنا بعد ذلك عن هذه البلاد . وتقع المنطقة الهندية جنوب النطاق الجبلى العظيم الذى يمتد من الشرق إلى الغرب ، فى النصف الشمالى للعالم القديم ، كما أن معظم شبه جزيرة الهند يقع جنوب مدار السرطان. وقد عرفت جبال الهملايا خمس فترات جليدية فى عصر البلايستوسين غير أن سهل السند والجانج وشبه الجزيرة الهندية لم تعرف الجليد . وتدل قطع الحصى والشظايا الخشنة على أقدم آثار إنسانية فى الهند . ومعظم هذه الآثار وجدت — حتى الآن — فى مدرجات نهر سوان Soan فى شمال شرق البنجاب ، ومن ثم تسمى بالحضارة السوانية ، وقد وجدت خلال الفترة غير الجليدية الثانية أو الكبرى، وهى تعادل إلى حد ما فترة « مندل رس » غير الجليدية فى أوربا ، غير أنها استمرت فترة طويلة . كما أجرى البحث عن آثار الإنسان القديم فى منطقة بومباى شمال ناربادا ، وأجزاء من وسط الهند وجنوبها الشرقى . إلا أن كثيراً من هذا الحصى وآلات النواة من صنف ردىء . ثم تطورت الصناعة الحجرية، واستعمل ضغط الخشب والعظام وقرون الحيوان فى تشكيل آلات النواة ، مما يدل على تشابه مواز بالصناعة الأشولية فى غرب أوربا وأفريقية ، وربما دل أيضاً على وجود علاقة بينهما . كما استخدمت فى عصر أحدث من هذا الآلات المصنوعة من العظام ، وأحيانا من عظام حيوانات بائدة لا وجود لها فى الوقت الحاضر . وقد كان منجن Menghin يظن يوما ما أن الهند وطن آلات النواة ، ولكنه عدل عن هذا الرأى فيما بعد ، والرأى السائد الآن هو أن شمال أفريقية والأقطار المجاورة لها مباشرة فى آسيا هى الوطن الذى بدأت فيه صناعة آلات النواة بمهارة . ومن المحتمل أن يكون هذا الفن قد وصل الهند من الغرب ، مرتبطاً ، من عهد بعيد ، بنوعنا البشرى ، الإنسان العاقل ، وليس بأى نوع بشرى آخر . غير أنه لم يعثر بعد فى الهند على جماجم أو عظام بشرية قديمة .

ولما كانت الهند — فيما عدا شواهق الهملايا — لم يجثم عليها كثير من الجليد خلال عصر البلايستوسين ، فإن هذا يعنى أن الإنسان استطاع أن يعيش فى هذه البلاد فى أثناء الفترات الجليدية التى اجتاحت غيرها ، ومن هنا ننتظر أن نجد بقايا جماعات قديمة هاجرت إلى شبه جزيرة الهند من أقدم العصور وظلت معمرة بها . ومن الحقائق الأخرى الأساسية عن الهند أن غاباتها كانت كثيفة وضخمة منذ زمن مبكر جداً، ومن ثم استطاعت الجماعات البشرية التى لا تزال تحتفظ بمستوى حياتها البسيط البدائى أن تجد فى هذه الغابات أماكن تتقهقر إليها . ولا سيما وأنها بيئات لا تشجع على اجتذاب الشعوب القوية الغازية التى تتسلح بأدوات وآلات أفضل ، والتى تفضل الجهات المكشوفة . ومن ثم تمثلت فى الهند أنماط متناقضة لأساليب الحياة ، والفكر ، بين الجماعات المنحطة التى تعيش عادة فى الغابات والأحراج والجماعات الأخرى التى تعيش على مستويات أعلى مختلفة فى الأراضى المكشوفة . ويبدو أن البحر والملاحة البحرية لم تكن — إلا فى فترات قليلة — ذات أهمية تذكر فى تشكيل نمو الهند .

عندما تقهقرت الثلاجات وانكمشت غطاءات الجليد نهائيا فى أواخر البلايستوسين طغت مياه الطوفان على السفوح الجنوبية للهملايا ، وتركت بلاشك آثارها ، إذ حملت كميات ضخمة من الحصى والحصباء والطين وأرسبتها على قاع ما هو معروف فى الوقت الحاضر بسهول السند والجانج ، مكونة طبقات غاية فى السمك ، وغطت الغابات الكثيفة هذه السهول كما غطت سفوح الجبال المنخفضة ، ومن ثم فمن المحتمل أن عدد السكان كان ضئيلا جداً .

وتنهض فى شبه جزيرة الهند مساحات صخرية فوق السهول ، وهذه الصخور لم تغطها الغابات مطلقاً . وكان يسكنها بعض الشعوب التى تصنع آلات حجرية من الشظايا الصغيرة . من طراز واسع الانتشار فى إفريقية

وآسيا وأوربا ، حيث يسمى بالصناعة التردنوازية أو حضارة الشظايا القزمية . وربما كانت هـذه الآلات الصغيرة (الصوانية أو الكوارتزية أو الكوتزيتية) تركب فوق قطع من الخشب أو العظام أو القرون . والرأى السائد أن هذه الآلات الصوانية ظلت سائدة فى شبه جزيرة الهند كلها حتى حل محلها الحديد خلال الألف الأخيرة السابقة للميلاد . وعلى كل حال ، فإنه لم يعثر إلا على قليل من الآثار تدل على وجود حضارات متوسطة بين الشظايا القزمية وأوائل عصر الحديد . ومثل هذه الآثار لم توجد إلا فى إقليم أوريسا الذى يقع فى الشمال الشرقى للهند ، فهناك من الأدلة ما يربطها بالشرق ، وأما عن باكستان فالأدلة تربطها بالأراضى التى تقع قربها .








وكانت الآلات الحجرية تصنع فى الهند(١) البعيدة وأندونيسيا وتشظى فيها من جانب واحد ، ويرى البعض أن هذا الطراز من الآلات قد ظل واسع الانتشار فى هذه البلاد حتى



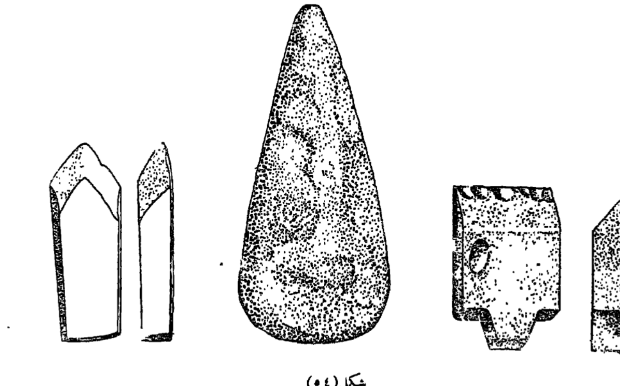
(شكل رقم ٥٣)
آلات ترجع إلى أواخر العصر الحجرى القديم من الهند

(١) يسمى المؤلف هذه الانحاء البعيدة Further India ويعنى بها شبه جزيرة الملايو والصين الهندية كما يظهر فى سياق الحديث فى هذا الفصل (المعرب) .

الألف الثانية أو الأخيرة قبل الميلاد، مع وجود درجات انتقالية نحو طراز يتكون بوساطة الضغط أو الصقل ، وقد وجدت فئوس حجرية مصقولة ، تكاد تكون أسطوانية الشكل ذات قطاع عرضي بيضاوي فى أماكن عديدة من شمال الهند وجنوب الصين. وهذه الأداة الحجرية الحديثة أصلا ، قد انتشرت إلى اليابان عن طريق فرموزة ، كما انتشرت إلى الفيليبين ، وشرقى أندونيسيا وميلانيزيا ، ولكنها قليلة الانتشار فى الهند البعيدة ، ولم تصل جاوة مطلقاً ، ومن الجائز أن تكون قد انتقلت من جنوب غرب آسيا إلى شرق آسيا وجنوبها الشرقى ، كما أنها كانت واسعة الانتشار فى أوربا فى العصر الحديث .

وقد ظهرت فى الهند البعيدة قرب منتصف الألف الثانية ق . م . فأس حجرية مصقولة ذات عنق طويل، ومنها انتشرت إلى جنوب الصين ، ويسمى الألمان هذه الأداة بالفأس ذات الكتفين Schulterbeil ثم انتشرت هذه إلى الهند فوصلت أوريسا Orissa ؛ ووصلت جودافارى Godavari (حيث عثر على عينة واحدة منها) وأسام وشوتا ناجبور والبنغال ووجدت عينة واحدة منها أيضاً فى الله آباد .

وهناك بعض أدلة - ليست قاطعة - على ارتباط زراعة الأرز بالشعوب التى كانت تستعمل هذه الفأس . فإذا صح هذا فإن الأرز يعتبر أصيلا فى الهند البعيدة كنبات يزرع . ثم تطورت بعد ذلك الفئوس الحجرية الجيدة الصنع ، وهى مصقولة صقلا تاما ، ولها قطاع عرضى مثلث . ويرى بعض الباحثين أنها انتشرت من الصين نحو الجنوب أو الجنوب الشرقى. ومن ثم تسللت إلى سانتال بارجاناس وشوتا ناجبور ، ويقال إن هناك علاقة ثقافية بين هذه الفئوس الحجرية وبين الشعوب التى تتحدث لغة الموندا Munda فى شتوتا ناجبور حتى الوقت الحاضر .



شكل (٥٤)

رؤوس فئوس حجرية هنـــدية:

ا ــ ذات مقطع مستطيل . ب ــ ذات مقطع بيضاوى. حـ ــ فأس ذات حافة

وقد وجدت فى باكستان أدلة أوفر عن الحضارات القديمة القائمة على إنتاج القوت كما هو متوقع من موقعها بالنسبة للوطن الأصلى لزراعة الحبوب والقمح والشعير وربما الدخن أيضاً ، فى جنوب غرب آسيا . ويبدو أنه بعد أن تمت معرفة إقامة فرن مقفل لطهى الطعام ، ولحرق الفخار الملون ، وصهر النحاس والبرونز صهراً بدائياً . بدأت ممارسة زراعة الحبوب فى الانتشار إلى تلال شرقى بلوخستان ومن ثم وصلت إلى سهل السند وفى ذلك الوقت كانت جنوب غرب آسيا قد تقدمت كثيراً فى فنون الصناعة وعرفت صب البرونز وطرقه ، وعرفت طريقة صنع الرماح بحيث تركب فيها العصى. ويبدوا أن الذين هاجروا من هذا الإقليم نحو الشرق لم يحملون معهم كل ماوصل إليه وطنهم الأول من تقدم صناعة ، إذ ظلت صناعة صب البرونز عملية غير دقيقة فى باكستان . وقد كانت لحضارات عصر البرونز فى غرب آسيا آثار عميقة على كل من الصين وأوربا إلى جانب حوض البحر المتوسط أيضاً ،غير أن أفريقية جنوب الصحراء الكبرى والحبشة لم تعرف قط عصر البرونز وهذه حالة متطرفة لم يحدث لها مثيل بالضبط فى الهند رغم وجود بعض أوجه المقارنة بين الهند وأفريقية الإستوائية ، التى ترجع إلى نقص الخبرة السابقة بالنحاس والقصدير ، وإلى وجود غطاءات الغابات الكثيفة وإلى موقعها الجنوبى بالقرب من خط الأستواء فأننا نجد بها بعض أساليب الحياة البشرية القديمة التى لم يعد لها وجود فى غرب آسيا أو أوربا أو الصين. غير أنه وجدت فى الهند آثار عمرانية وحضارية راقية ، لاتقل شأن عما وجد فى أوربا أو الصين.

خلال سنوات الحرب العالمية الثانية افتتح فصل جديد فى تاريخ الهند القديم . فلقد كانت خرائب مدينة هارابا قد اجتذبت إليها الانتباه فعلا منذ عام ١٩٢٢ . وفحص مستر ر. د. بانرجى هيكل بوذى فى خرائب مدينة أخرى ووجد انها قائمة على بقايا شىء أقدم بكثير من اثار بوذا . وهذا أعطى

سيرجون مارشال بصيصا من النور ، فبدأ عملية الحفر العلمى المنظم التى استمرت بعد ذلك تحت إشراف المرحوم أرنست ماكى Mackay فى مكان اسمه موهانجودارو . ثم أمتد الحفر بعد ذلك إلى جهات أخرى ، باشراف المرحوم بريجادير روس وستيوارت بيجوت وسير مورتمر هولير ، بينما زار جوردون تشايلد هذه المنطقة وساعد فى تفسير بعض الآثار .

ويبدو الآن أن منتجى القوت كانوا يسكنون عددا من القرى فى حوض السند الادنى وشرقى بلوخستان ، وربما كان ذلك قبل عام ٣٠٠٠ ق . م . ، ثم تكون بعد ذلك تنظيم اجتماعى سياسى على نطاق أكبر فى السند ، واتخذ هارابا عاصمة له فى البنجاب وتنظيم آخر فى الجنوب وعاصمته موهانجو دارو على بعد ٣٥٠ ميلا منها ، وذلك حوالى ٢٥٠٠ ق . م .

ووجدت آثار الحضارة قديمة ريفية قرب ممر بولان ، وسميت بحضارة كوتا Quetta نسبة إلى مدينة قامت بعد ذلك قرب الطرف الغربى للبر ، وقد وجد فى مواضع هذه القرى القديمة فخار صقيل ملون بخطوط هندسية بنية قرمزية اللون . وهذا الفخار أقرب إلى فخار فارس (المرحلة الثالثة لسيالك) وجنوب العراق (المرحلة الأولى لسوسا) أى إلى ٣٠٠٠ ق. م . ، منها إلى فخار منطقة السند . وتدل نقوش الفخار وغيرها من التفاصيل على وجود علاقات بين هذه القوى القديمة وبين السند الأدنى وشرق بلوخستان منذ زمن مبكر ، أما العلاقات وبينه وبين مدن السند الأخرى فقد تمت فيما بعد . وربما تمت تلك الصلات القديمة بحـــرا عن طريق مكران وأور . وقد تتبع روس تتابع الحلات فى رانا فوانداى (وادى زوب Zhob) وقد ظهر منها أن أقدم مستوى يحتوى على هشيم يدل على مواضع مواقد النار ، كما وجد فيها أوانى مصنوعة باليد (وهى فيما عدا إناء واحد غير ملونة) . ونصال صوانية ورؤوس سهام عظيمة . غير أنه لم توجد آثار مبان ، وربما دل هـذا

على أنها كانت محلات مؤقتة يسكنها شعب نصف بدوى ، يرعى الثور ذا السنام والضأن والحمار ، ومن الغريب أنه وجد فى ذلك المكان أربعة اسنان لحيوان وجد أنه حصان مستأنس ، ولا نستطيع قياسا على تاريخ المراحل الأحدث لرأينا عند أى أن نؤرخ هذه المحلة إلى ماهو أحدث من أوائل الألف الثالثة ق . م . وربما كانت أقدم من ذلك ، ومن ثم فهذه هى أقدم أسنان لحصان مستأنس عرفت حتى الآن .

ووجدت فى مواضع قرى فى جنوب بلوخستان والسند أوانى ناعمة الملمس ، معظمها مصنوع بعجلة الفخارى ، جيدة الصنع جدا ورقيقة ومغطاة بشريط أبيض دقيق ، تزينه فى بعض المواضع « نوندارا » رسوم حمراء اللون ذات تصميمات متنوعة . وكانت الألوان المرسومة على الأوانى فى موضع آخر « وهونال » إلى الشمال من ذلك فى جبال براهوى ، تتضمن الألوان الزرقاء والصفراء والخضراء إلى جانب الحمراء . إلا أن هذه الألوان الإضافية لم تثبت تثبيتا جيداً . وتستوحى أشكال أوانى «نال» تصميماتها من النباتات والحيوانات والدوائر المتداخلة .

ووجدت فى كولى Külli وغيرها من المواضع فى جنوب بلوخستان تماثيل نسوية صغيرة أعتنى بها الفنان بحلى النساء مثل الحلقان والاساور والعقود وغيرها أكثر مما أهتم بتقاطيع وملامح الأشخاص أنفسهم . كما وجدت أوانى صغيرة منحوتة من الصخر اللين ، وربما كانت خاصة بحفظ المحتويات الثمينة مثل العقاقير ومواد التجميل . وربما استمرت القرى فى كثير من الحالات حتى أيام قيام مدينتى هاربا وموهانجودارو ، حيث أننا نجد فى بعض القرى مثلا قطع من نماذج « أو لعب » لعربات ، وهى من معالم آثار المدن .

أما فى مواضع وادى ذوب فقد كانت الأوانى الفخارية ناعمة الملمس فى بادىء الأمر ، أو مصنوعة من الصلصال « الطين النضيج » ، ثم بعد ذلك بوقت

طويل أصبحت حمراء اللون ، وهذه الأوانى الحمراء التى وجدت فى المواضع الشمالية تختلف كثيراً عن الأوانى الناعمة التى وجدت فى قرى السند وجنوب بلوخستان . ولما كانت هذه المواضع تصنع أوانى حمراء ، فلا بد أنها كانت أكثر اتصالا بقرى بولان والزوب منها بقرى الجنوب ،

ولا يزال — على أية حال — قيام المدن محفوفا بالغموض ، وليس من الحكمة الآن أن نعتمد اعتمادا كبيراً على قيام أية علاقات معينة .

ووجد فى القرى القديمة أيضاً قدر لا بأس به من البرونز الى جانب النحاس. ويدل تحليل قطعة اخـــذات من فأس عثر عليها فى نال على أنها لم تحتو على القصدير ، بل كانت تحتوى على النيكل والرصاص . ويوجد النيكل مختلطاً بخام النحاس فى شمال الهند وأفغانستان ، إلا أنه من المحتمل أن تكون نال قد حصلت على مايلزمها من معدن من بلوخستان . وكانت أدوات البرونز التى وجدت فى المدن غنية بالنيكل ، إلا أنها أيضا كانت تحتوى على الزرنيخ الذى وجدت منه بقايا ضئيلة فى فأس «نال» التى سبق ذكرها. كانت الأختام التى كانت تختم بها الأوانى الفخار على مايبدو مهمة جدا فى المدن ، الا أنه لم يوجد فيها فى نال سوى خاتمين ، أحدهما من الصخر اللين (ستيتاميت) والآخر من النحاس ، إلا أنه من المحتمل أن يكون حديثا جداً ، ولاصلة لم مطلقا بأية آثار وجدت فى المدينة . هذا إلى أن المدن استخدمت القرميد استخداما واسعاً ، وهو غير موجود فى القرى القديمة التى نتحدث عنها ، حيث يسود استعمال الحجارة واللون ، وقد كانت القرى القديمة على صلات تجارية بالمدن ،عندما نمت فيما بعد ولكن المدن لم تبسط نفوذها الحضارى عل القرى .

ويبدو — بصفة عامة — أن أقاليم السند وشرق بلوخستان كانت أقل جفافا فى الألف الثالثة ق. م. عنها فى الوقت الحاضر ، ويتقدم ستيوارت بيجوت بفكرته الرائعة عن احتمال اتساع نطاق الرياح الموسمية التى استطاعت

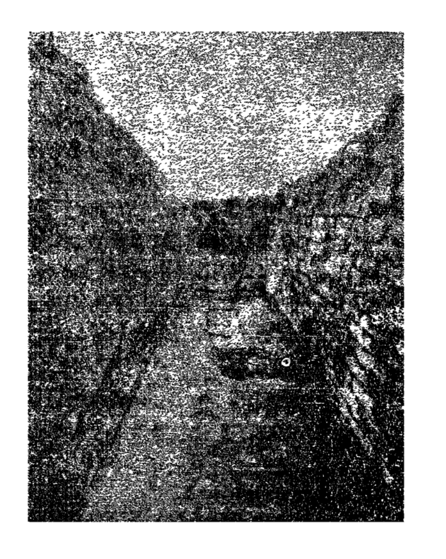
أن تتوغل مسافة أكبر الى الغرب مما تصل اليه الآن ولاتزال مسألة الرياح الموسمية قيد البحث سواء أكانت أقوى مما هي عليه الآن، أم كانت قد تزحزحت شرقا . إلا أنه من الجائز أن يكون الاحتمال الأول صحيحا ، وكانت المدن السندية تستخدم الآجر استخداما واسعا ، وهذا لايدل على وجود أخشاب لازمة لحرق اللبن فقط ، بل يدل على قيام الحاجة الى حماية المنازل من الأمطار الغزيرة الساقطة أيضا ، التى كانت جديرة بأن تجرف المنازل المبنية من اللبن . كما أن نظام المجارى فى المدن يدل على سقوط المطر وارتفاع فيضانات الأنهار ، التى تغلبوا على خطرها باقامة السدود . وأخيراً فإن وجود النمر وليس الأسد فى الاختام يدل على أن البيئة كانت بيئة أحراج وليست بيئة حشائش مكشوفة شبه جافة . وربما وجدت فى بعض أنحاء هذا الاقليم غابات قديمة نشأت تحت ظروف البلايستوسين أو أعقابه الممطرة، واستمرت دون أن تستطيع تجديد نفسها عندما أتلفت . وهذه حالة معروفة فى بعض مناطق اللويس الأوربية ، رغم أن الآجام والأشجار الصغيرة تنمو مرة أخرى بعد إزالتها فى بعض المناطق.

إن هاربا وموهانجودارو هما أكبر مدينتين ، نالتا حظا كبيراً من الدراسة والاهتمام . ولاتزال هناك بعض المدن القديمة الأقل أهمية لم تدرس بعد وهى تقع فى منطقة جافة جنوب غرب البنجاب تسمى منطقة باهاولبور Bahawalpur قرب مجرى نهر قديم جاف وهو نهر ساراسفاتى Sarasvati المشهور فى الآداب الهندية القديمة .

وتبعد كل من المدينتين الكبيرتين عن الأخرى بنحو ٣٥٠ ميلا . وتقعان معا على نهر السند ، حيث لكل منهما واجهة نهرية كبيرة ، وكانت يتبع كل منهما عدد من البلدان والقرى ، غير أنه لايوجد أى عمران آخر على طول المسافة النهرية الطويلة التى تفصل بينهما . ويبدو أن كلا من موهانجودارو

وهارابا كانت تكمل الأخرى أكثر مما تنافسها . ويرى هويلر وبيجوت أنهما كانتا عاصمتين للسند إحداهما فى الجنوب والأخرى فى الشمال على الترتيب . وهنا لا نجد الاستمرار فى الأرض المنزرعة الذى نجده فى مصر بين عاصمتى مصر العليا ومصر السفلى . وتشبه كل منهما الأخرى فى التخطيط ، إذ تمتازان بشوارع متعامدة ، شمالية جنوبية ، وشرقية غربية ، ولكل منهما قلاع بقى مكانها فى الوقت الحاضر أكوام وتلال على مستوى أعلى من مستوى بقية المدينة . وقد نهبت هارابا للأسف واقتلع منها الآجر والطوب لتمهيد الطرق ومد السكك الحديدية . كما بنى هيكل بوذى حوالى ٣٠٠ ميلادية بوذية فوق تلال موهانجودراو ، ومن ثم لا نستطيع أن نعرف الآن ما كان موجوداً أسفل منه. وكانت قلعة هارابا تتكون من مصطبة كبيرة من الطين ، يتوسطها مركز مشيد من اللبن ، تحيط به أسوار من الآجر ، وكان للقلعة مدخلان أحدهما شمالى والآخر غربى ، تؤدى إليهما الطرق الواسعة التى كانت تسلكها المواكب . وقد وجد هويلر أن واجهة المسطبة وحوائط القلعة تجددت بعد ذلك خلال تاريخ المدينة وحينئذ أغلقت البوابة الغربية ، وربما دل هذا على مرور المدينة بفترة اضطراب فى ذلك الحين ، ووجد فى موهانجودارو قرب المنطقة التى بنى فوقها الهيكل البوذى حمام كبير مجهز بحجرات لخلع الملابس . ومبنى كبير حول فناء واسع ، يقول عنه هويلر إنه ربما كان معهداً أو مجمعاً كبيراً . ورغم أننا لا نزال فى انتظار ما يستخرجه الحفار تحت الهيكل البوذى ، ألا إننا لا نشك فى أن القلعة كانت مركز السلطة فى المدينة . وقد وجد هويلر ما يمكن أن يكون مخزناً للغلال تحت رقابة الدولة ، مجهز برصيف طويل للشحن والتفريغ . وكانت أحسن البيوت مجهزة بحمامات ، كما كان بعضها مكون من طابقين وله سقف مسطح . كما كانت مزودة بمزاريب تحمل الفضلات والقمامة وتلقى بها فى عناديق خاصة فى الشوارع ، ثم تجمع منها بعد ذلك . وكانت أنابيب تصريف المياه القذرة توضع داخل جدران المنزل ، وتنتهى بمجارى مبطنة بالآجر ومغطاة تسير تحت الشوارع حيث تلقى بما تحمله من فضلات فى حفر خارج

المدينة . وكانت المجارى ذات أغطية يمكن ازاحتها لتأمين نظافتها مما لا مثيل له مطلقا فى أية مدينة قديمة ، وكانت الشوارع موازية للجهات الأربع الأصلية ، ومن ثم كانت مربعاتها ذات أشكال متوازية الأضلاع أو مستطيلة . وكانت المنازل تولى ظهرها للشوارع ، أى ذات حوائط لا نوافذ لها إلا فى الطوابق العليا وقد ظل هذا الطراز المعمارى باقياً لم يتغير عدة قرون . ووجدت قرب أهراء الغلال مساكن صغيرة ذات حجرتين ، تشبه الثكنات ، وربما كانت مساكن للعمال المستعبدين ، الذين كان بعضهم يعمل فى طحن الغلال ، فى مطاحن ذات هاونات ضخمة ثقيلة وجدت عصيها فى موهانجودارو . ونحن نعرف أنه سبقت هارابا محلة صغيرة وجد فيها أوانى فخارية حمراء أقرب الى قرى بلوخستان الشمالية منها إلى قراها الجنوبية . ربما كان الشعير أهم محصول حبوب ، الا أنه استخدمت أيضا حبوب قمح الخبز . وليس ثمت دليل على زراعة الأرز بينما زرع القطن ، ووجدت أدلة على نسجه ، وربما كان سلعة تجارية ، غير أن نسيجه المعرض للفناء والتلف بسرعة ، لم يبق لنبحثه . وكانت الماشية مهمة جداً ، وكان منها الثيران الخصية المخصصة للعمل . وكانت هذه الماشية من النوع ذى السنام المألوف فى الهند ، إلا أنه وجدت أيضاً أنواع قصيرة القرون غير ذات سنام . وعرفت أيضا الضأن والماعز والخنازير والجاموس والحمير ، وربما عرف أيضاً استئناس الفيل ، وربما استؤنست الدواجن أيضا أو تركت فى حالة شبه وحشية . ووجدت بعض عظام للجمل ذى السنام الواحد وللحصان ، وهذا على عكس ماوجد فى الألف الثالثة ق.م فى العراق ، التى لا توجد بها أية دلائل على وجود هذين الحيوانين . وهذا يدل على أن الجمل استؤنس أولا فى مكان ما بوسط آسيا الداخلية وليس فى بلاد العرب الذى أصبح فيما بعد من معالمها الرئيسية . ويرى بعض الباحثين أن الجمل البكترى Bactrian ذا السنامين استخدم فى العمل فى العراق قبل ظهور الهجين ذى السنام الواحد .



شكل (٥٥)

شارع مزود بمجار من الطوب — موهانجودارو

ويبدو أن سكان المدن الهندية قد خرجوا للبحث عن النحاس شرقا والرصاص فى راجبوتانا ، حيث تعلموا شيئاً عن صهر النحاس والقصدير لعمل البرونز ، إلى جانب قليل من فن صب المعـــدن ، وكان النحاس الذى يجدونه يحتوى على كميات لا بأس بها من الزرنيخ وهذا يسهل عملية الصب ، حيث أن قليلا من هذه المادة أو من القصدير يمنع تكون فقاعات الأوكسوجين فى القالب المقفول الملىء بالنحاس المذاب بعد صهر خام النحاس . وكان يظن أن الصناع لم يكونوا واثقين من الحصول على ما يكفيهم من مادة القصدير . وقد أعلن أول باحثين فى هذا الموضوع ، وهما مارسال وماكى أنهما وجدوا ١٩ فأساً برونزية فقط بينما وجدا فى مقابل ذلك ٣٤ فأساً نحاسية . إلا أن الآثار البرونزية التى عثر عليها فيما بعد تحتوى على النسبة الصحيحة من القصدير . ومعظم الفئوس النحاسية مسطحة ، كما أن رؤوس الحراب والسنانير ورؤوس الرماح بسيطة فى الغالب . غير أنه توجد إلى جانب هـذا أشياء أكثر تعقيداً فى صناعتها ، مثل مرآة ذات يد على شكل جسم امرأة ، بينما سطح المرآة المعدنى نفسه يكون رأسها على مقياس كبير بالنسبة للجسم . ونموذج لعربة مقفلة تجرها الثيران ، وعدد من الأوانى ، وتمثال لفتاة راقصة ذات ملامح بلوخية جنوبية . ورغم هذه الآثار ، فلازلنا محقين إذا قلنا بصفة عامة إن فن المعدن لم يصل مطلقاً إلى درجة كبيرة من الإتقان فى حوض السند . فلم تعرف طريقة عمل حلقات لتركيب الأيدى ، إلا فى حالة نموذج من الطين فقط ، كما أنه لم تعرف طريقة عمل تجوات لتركيب العصى (فى الرماح مثـلا) رغم أن العراق عرفت تلك الطرق فى الوقت الذى ازدهرت فيه مدن السند . وكان معظم الأشياء المصنوعة بطريقة الصب غير جيـدة الصنع ، كما كان الصانع يعدل بعد ذلك ما صنعه بطريقة الطرق .

وصلت العلاقات الخارجية لمدن السـند إلى مواد أخرى غير المعادن والخشب التى ذكرناها حتى الآن . فمن المعتاد أن نعـثر فى الحفائر القـديمة على

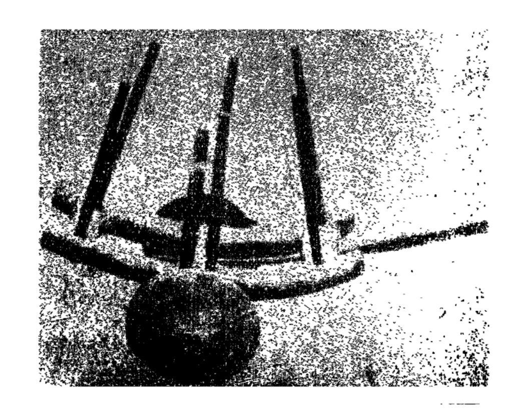


شكل (٥٦)

تمثـــال برنزى صغير لفتاة راقصة

كثير من أنواع الخرز الذى كان ينبغى أن يحتل جزءاً أكبر من مناقشتنافقطع العقيق ، وبعضه مهذب ، يدل على مايبدو على وجود صلات بالعراق، حيث أنه لم يهذب العقيق كما يبدو إلا فى هذه المنطقة وفى السند . ويبدو أيضاً أن اللازورد جلب من فارس والبامير أو بادكشان شمال شرقى سلاسل جبال أفغانستان إلى كل من العراق من ناحية والسند من ناحية أخرى ، ولكن السند كانت أقل من العراق بكثير فى استعماله . أما اليشم فربما جاء من التبت أو شمال بورما كما جاءت الفضة من فارس ، والفيروز وغيره من الحجارة شبه الكريمة من أفغانستان وأحيانا من شبه جزيرة كاثياوار Kathiwar التى كانت مصدر القواقع البحرية أيضاً . وربما جلبت بعض هذه الحجارة أيضاً من جنوب الهند ، كما جلب منها صخر أخضر كان يستخدم فى صنع الكئوس . ويقال إن الذهب كان يجمع من مجارى المياه الفارسية ، كما كان يجلب حجر الدم (الهيماتيت) الأحمر الذى كان يستخدم فى الصباغة ، من الخليج الفارسى . ويبدو أن قرون الوعل التى كانت تستعمل فى العقاقير كانت ترد من كشمير . وتحتل دلتا السند الساحل ، ولذلك لم تكن صالحة للعمران أو التجارة ، ولذلك كان التجار يقطعون جنوب بلوخستان ويتخذون من سوتكا جندور Sutkagendor محطة محصنة على مقربة من مكان هبوطهم بالساحل . وتوجد محطات شبيهة لذلك فى غرب أوربا ، وهى سانتياجو دا كومبوستيلا وكانتربرى وسانت ديفيد . ولابد أن وصل التجار براً إلى فارس وأفغانستان وتركستان وربما إلى التبت أيضاً كما ذهبوا إلى راجيوتانا ويحتمل أن يكونوا وصلوا إلى جنوب الهند . وقد تعرف الباحثون إلى محلات تدل على اتجاه هذه الطرق بصفة مبدئية .

وليس معروفا طرق نقل البضائع بالتفصيل . فربما استخدم الحالون كما استخدم حيوان النقل ، وربما استعملت العربات التى تجرها الثيران فى المسافات القصيرة القريبة من المدن . ويبدو أنهم كانوا يستعملون عجلات مصمتة، تجرها



(شكل ٥٧)

نموذج لعربة — ربما كانت لعبة

أزواج من الثيران . فقد وجدت نماذج لهذه العربات ، أو لعب على هيئة نماذجها فى موهانجودارو وعلينا أن نفسح المجال فى تفكيرنا ونحن فى انتظار الأدلة الأثرية للمدى الذى استخدمت فيه الخيل والجمال كحيوانات للعمل . إذ يبدو أنه لا يوجد براهين على استعمال الخيل كحيوان للجر فى مدينة السند .

وكانت الأوانى الفخارية غير الملونة وغير المزينة تصنع بعجلة الفخارى بكميات وفيرة فى مدن السند ، أما عندما تلون فكانت تلون باللون الاسود فوق أرضية حمراء وهى بذلك أكثر صلة بقرى شمال بلوخستان منها بقرى جنوبها . غير أن أوانى المدن أقل انتظاما وأقل إتباعا للمألوف فى زينتها من أوانى القرى القديمة ، وكانت تحلى بصور النباتات والحيوانات . ولكنها لم تكن جيدة التكوين . وهناك حالات قليلة من الأوانى متعددة الألوان والتى يدل على اتصال بنال فى سلسلة جبال براهوى البلوخستانية كما ذكرنا من قبل . ويدل بعض الفخار غير الملون على وجود اتصالات مع مواطن الفخار الرمادى المعروف فى غرب آسيا (تركستان) . ولم يتغير الفخار فى هذه المدن السندية إلا قليلا سواء فى الطراز أو النوع طوال تاريخها — ويبدو أن قمائن الفخار كانت تصنع خارج المدن ، وهذا طبيعى خوفا من خطر الحريق ؛ إلا انه فى أيام الأزمات والتدهور كانت تقام القمائن داخلها ، اما لضعف السلطة وإما خشية المغيرين ، وهذا مالا نعلمه . ووجدت تماثيل صغيرة عديدة معظمها لنساء أو ما أشبه ذلك ، وبعضها ذات رؤوس أو أجزاء أخرى منفصلة ويمكن تركيبها على بقية التماثيل ، وبعضها كان لعبا أو تمائم لجلب الخصب أو دفع الحسد . وتمتاز تلك المدن أيضا بالأختام المنقوشة ، ورغم أنها وجدت فى محلات بلوخستان متصلة بالمدن ، إلا أنه وجدت أختام عديدة فى سومر فى أماكن أمكن تحديد تاريخها ، ومعظمها يقع فى القرنين أو ثلاثة القرون الأخيرة من الألف الثالثة ق . م . وقد تدل هذه الأختام على أن التجار الهنود أو عملائهم

كانوا يتأجرون مع أور وغيرها من المدن السومرية ، وربما يكون عدم وجود أختام من بلوخستان على أنهم فى بلوخستان كانوا ناقلين للتجارة السندية دون أن يكونو تجاراً ، إلا أنه من الأوفق ألا نرتب نتائج كثيرة على عدم وجود آثار . وكانت الأختام فى الغالب مستطيلة ومعدة لختم مواد لينة ، وهذا يشبه طريقتنا فى وضع علامات بحبر خاص على الممتلكات المختلفة . وكان الخاتم عادة محلى بنقش خاص محفور بعناية ، سواء كان صورة جانبية لثور ذى سنام أو ببر أو فيل . وإلى جانبه نقش يقتصر على علامات قليلة . ولم تتغير أنماط صناعة الأختام أو اللغة المنقوشة عليها ـ وهى لم تقرأ بعد ـ طوال القرون . ولم يكن بالمدن نقوش طويلة أو تماثيل عامة أو نصب كبيرة تشبه ماهو معروف فى الوقت الحاضر . ولم يوجد بها معبد أو هيكل كما هو معروف الآن ولكننا لا نعرف ماهو موجود تحت هيكل بوذا فى موهانجودارو أو ما حطم تماما فى سبيل الحصول على الآجر من هارابا .



(شكل ٥٨)

خاتم تظهر به صورة ثور

ويبدو أن المدن كانت تراعى غاية الدقة — بدرجة غير مألوفة — فى مسائل الكيل والميزان . وكانت تستخدم فى الغالب تكرار أرقام ٢ و ١٠ و ١٦ وهذا أيضاً لم يتغير خلال القرون .

وهذا يدل على إتباع المدن السندية نظم الإنتاج والتجارة بمنتهى الدقة ، دون أن يسمح بأحداث أى تغيير ، وربما كانت هذه المحافظة الدقيقة على النظم والقوانين أمراً مقترناً بحكم الملوك الكهنة الذين يفرضون على قوانينهم شيئاً من القداسة الدينية .

ومعظم السكان ، خلال القرون الأولى على الأقل ، كانوا من السلالة التى يسميها سيرجى بسلالة البحر المتوسط ، أو كما أطلق عليها إليوت سميث السلالة السمراء . وهى تمتاز بصفة خاصة بالرأس الطويل والوجه البيضاوى والأنف البارز إلى حد ما ، والأجسام النحيلة . ويختلف هذا الطراز فى الوقت الحاضر فى لون البشر ، من البشرة الشاحبة البياض عند الأوربيين إلى البشرة السمراء فى لون شمال إفريقية وبلاد العرب والهند ، كما يمتاز بالشعر المموج . وتنتشر فى غرب آسيا ، ووسط أوربا فى الوقت الحاضر سلالة عريضة الرأس ، كما توجد أيضاً فى الهند . وكانت موجودة كذلك فى مدن السند .

وقد جمعت جماجم من طراز آخر من مدن السند ، وهى من طراز يمكن أن يسمى بالأصليين وتمتاز هذه الجماجم بالرأس البالغ فى الطول والحاجب البارز ، والجبهة المتقهقرة والأنف الصغير العريض ، والفم الواسع . ويبدو أن هؤلاء الأصليين كانوا يمتازون بالبشرة السوداء الداكنة ، والشعر المموج أو المجعد ، وهذا الطراز كما تدل الآثار ، كان موجوداً فى مدن السند أيضاً . وتمثل هذا الطراز تمثال صغير لراقصة بلوخية . وربما عرفنا الكثير عن هذه

الأنماط البشرية عندما تنشر تقارير حفائر الجبانات الحديثة . غير أن طراز السكان الأصليين شيق جداً فيما يتعلق بنهاية مدن السند . ويمهد ستيوارت وهويلر الطريق لإعادة تفسير قصائد ريج فيدا Rig Veda التي يعرف عنها في الوقت الحاضر أنها لمدنية السند ، وقد تكون هذه القصائد ميداناً شيقاً للبحث عند طلبة اللغة السنسكريتية في مقتبل الأيام . وقصائد ريج فيدا تحتقر شعب الداسيوس Dasyus المغلوب وتعيره بسواد بشرته ، وبأنوفه الفطساء . فهل معنى هذا أن هؤلاء الأصليين كانوا وفيري العدد في السند في ذلك الوقت ، أم أن الشاعر ركز همه على أوجه الخلاف بين الغالب والمغلوب وجعله موضعاً للاحتقار والامتهان . وتذكر الريج فيدا أيضاً أوجه الخلاف في المعتقدات والطقوس بين الغالبين والمغلوبين . وإذا لم تكن في مدن السند فعلا معابد أو هياكل فلابد وأن طقوسها كانت تتم عائلياً في المنازل . ويقول مارشال إنهم عرفوا إلهاً له ثلاثة أوجه على الأقل ، وربما كان هذا الإله شكلا قديماً للإله سيفا الهندوكي . وقد اتخذت طقوس سيفا ، والآلهة الأم ، وعبادة الأشجار والحيوانات وفكرة اليوجا Yoga أو التأمل وتركيز الفكر ، أشكالها الحالية في الهندوكية بعد الفتح الآري . وربما بعثت الآراء والعقائد القديمة بعد انتهاء موجة الغزو واستقرار الغزاة إذ أن إندرا Indra سيد الحرب في الريج فيدا الذي يشبه ياهويه في سفر يوشع ، يترك مكان الصدارة زمناً طويلاً ، كما فعل ياهويه في إسرائيل ، عندما تنافست طقوس الزراع الخاصة بطلب الخصب والنماء للزرع مع طقوس الرعاة الذين قدموا من قبل كغزاة فاتحين .

وكان من الطبيعي أن تؤكد مدنية السند ، مثل المدنيات الزراعية الأخرى ، طقوس الإخصاب والجنس . فكانت أشكال الذكر والصخور المخروطية الشكل المشتقة منها رموزاً هامة ، أما من ناحية الأنثى فكان يرمز لعضو التناسل بحلقة صخرية كبيرة . وتنتشر تلك الحلقات الصخرية في الطقوس إذ تعتبر من معالمها الرئيسية . وهي غالباً توضع في ممر وتستخدم في طقوس التطهير ، إذ كان المتعبد

يزحف ويمر من تحتها (رمزاً لولادته من جديد) . وكان الغزاة الفاتحون يحبون أكل لحوم البقرة ويقدمون القرابين من الحيوانات للإله لنـــدرا وغيره ، (مثل إلهة النار ، والسماء ، والعاصفة... إلخ) وكانوا أيضا يحتقرون طقوس الزراع ، وسكان المدن ، ولكنهم رغم ذلك كانوا يتخذون من بناتهم زوجات ، وعن هذا الطريق ، وبعد أن استقرت عدة أجيال منهم فى الأرض وقعوا تحت تأثير شكل جديد من الديانة القديمة .

وكانت تلك الديانة السندية القديمة غنية بالصور الكثيرة التى كانت ترمز للنساء،والحمل وما شابه ذلك ، كما كانت لديها إلهة أم ، تختلف على ما يظهر عن آلهة الأرض التى تسمى بريثيفى Prithivi ، والتى كان يعبدها الغزاة البرابرة ، من المتحدثين بالآرية .

طغى الغزو البربرى الذى لم يعرف تاريخه بعد على مدن السند ، وربما وقع هذا الغزو فيما بين ١٧٠٠ — ١٥٠٠ ق.م. وهى فترة اضطراب الشعوب فى جنوب غرب آسيا ، كما عادت فترة الفوضى والاضطراب مرة أخرى فيما بين عامى ١٢٠٠ — ١٠٠٠ ق.م.

وتدل أنقاض مدينة شانهودارو فى إقليم السند على تعرضها للاحتلال البربرى عدة مرات متعاقبة . ويبدو أن هؤلاء القادمين قد استوعبوا بقايا من الحضارات القديمة ولاسيما من عناصرها البلوخية الأقرب إلى الصفات الريفية . ولكنها تدل أيضا على وجود اتصالات ثقافية بجنوب غرب آسيا تظهر آثارها فى الأختام وغيرها من التفاصيل . ويؤكد الأستاذ هاينى جلدرن فى محاضراته غير المنشورة (١٩٥٢) العلاقة بين هذه الأختام وأختام أخرى كان يستخدمها الحيثيون فى الأناضول حوالى ١٢٠٠ ق.م. ويشير أيضا إلى أوجه التشابه بين آثار متفرقة وجدت فى شمال غرب الهند وأخرى وجدت فيما وراء القوقاز والأناضول وكوبان وغيرها ، وهى يمكن أن تؤرخ بنحو ١٢٠٠ — ١٠٠٠ ق.م.

حتى لو كانت الغزوات البربرية قد بدأت تحطم حضارة السند قبل عام ١٥٠٠ ق.م. فإنها استمرت أو تكررت مرة بعد أخرى خلال عدة قرون سبقت عام ١٠٠٠ ق.م. بوقت طويل . وخير لنا ألا نحاول أن نخمن فى الوقت الحاضر إلى أى مدى بدأت اللغات الهندية الآرية تطورها . وقد جاء الغزو البربرى ومعه قرائن من قوس القتال ذات الحلقة التى تمسك بها العصا. وعجلات القتال التى تجرها الجياد . وقد ذكرنا أن الجياد عرفت من وقت طويل ، ولكن يبدو أنها اكتسبت أهمية أكبر ، وأصبحت أوسع انتشاراً ، عندما استعمل الرماة العربة فى القتال ، وقد وضع المقاتلون الذين كانوا يركبون العربات الحربية حدا لحياة مدن السند ، وخلفوا وراءهم آثار القتال والتخريب .

وكان الغزاة البرابرة سريعى الحركة ، وإن لم يكونوا بدوا تماما ، ولم يتركوا وراءهم إلا القليل الذى ينبىء عن تاريخهم القديم ، إلا أنهم دون شك تخصصوا فى صناعات نسج الصوف ، والفراء ، والجلد ، وكلها أشياء قابلة للتلف .

وكانوا قد بدءوا يعرفون شيئاً عن السيف كسلاح ، وعلى وشك معرفة الحديد . إلا أن انتشارهم من منطقة الاستبس الكبيرة ما بين بامير ودنيبر كانت له آثار لغوية هامة . فمن المحتمل أن يكون قد شاع بينهم تشابه لغوى كبير ، لم يشبه أى تعقيد إلا فى وقت متأخر ، ونحن نلاحظ وجود تشابه كبير بين اللغات الآرية القديمة فى الهند (السنسكريتية) ولغات أوربا، وبعض لغات الأناضول وإيران فهى جميعاً ترجع إلى أصل واحد مشترك أو ترجع إلى مجموعة لغات ذات أصول مشتركة . ولدينا بالنسبة للهند آراء أحد علماء القرن الثامن عشر سير وليم جونز، وأحد علماء القرن العشرين سير جورج جريرسون الذى يضع اللغات الآرية فى قسمين : العائلة الداردية ويتحدث بها بعض سكان جبال الحدود الغربيـــة ، وسكان نطاق يمتد فيما بين سهول الجانج وبين شبه جزيرة الهند والعائلة الفيدية Vedic فى حوض السند والجانج . أما

اللغة الداردية Dardic فهى غير واضحة ، هل تعتبر لغة آرية الأصل أو تعتبر نتيجة تأثير متبادل بين اللغات الآرية واللغات الأقدم منها مثل العائلة الدرافيدية أو عائلة لغات الموندا . واذا صحت النظرية القائلة بأن الغزو البربرى قد تكرر عدة مرات خلال قرون طويلة ، فهذا معناه احتمال حدوث موجتين أو ثلاث من الموجات الآرية ، وهذا يؤيد افتراض جريرسون .

وقد افترض أن شعب المدن السندية كان يتحدث لغة درافيدية، ولا تزال إحدى لغات هذه العائلة باقية حتى الآن فى تلال شرقى بلوخستان ، وهى اللغة البراهوية فى تلال براهوى Brahui . ولا تزال اللغات الدرافيدية موجودة فى شبه جزيرة الهند التى لم تتأثر كثيرا على ما يبدو بحضارة السند . ومن ثم يمكن أن نفترض أن اللغات الدرافيدية التى يبدو أنها ذات أصول عراقية ، وصلت بحرا إلى شبه جزيرة الهند فى الألف الثالثة ق.م. ولما كانت بلوخستان مهتمة بالتجارة بين المدن السندية وبين العراق ، فمن الممكن قيام علاقات لغـــوية بين العراق، وكل من بلوخستان فى تاريخ مبكر وبين شبه الجزيرة الهندية بعد ذلك . ويجب أن يوقف كل حكم فى هذه المشكلة إلى أن تحل رموز الكتابة السندية ، وحتى لو تم ذلك فإنه لن يلقى ضوءا كافيا على المشكلة ، لأن مدنية السند لم تترك نصوصاً طويلة أو أدبا . بل تركت نصوصاً قصيرة فوق الأختام . ويبدو أن معظم الغزوات الآرية لمنطقة السند كانت تحركات محاربين برابرة ، فى جحافل كاملة من الرجال والنساء والأطفـال . يغيرون على جمـاعات من التجار والمزارعين الذين كانوا يعيشون فى مـدن فقدت مجدها القديم من زمن طويل ، ويبدو أن هؤلاء المحاربين البرابرة كلما توغلوا فى داخل الهند وجاسوا خلال قرى الفلاحين ، وطرقوا مدن شرقى السند ، تمزقت جماعتهم وتفتتوا إلى أسر تهيمن على الفـلاحين وتبسط سيادتها عليهم ، ولـكنهم فى نفس الوقت احتاجوا إلى مراعاة تقاليد سكان القرى الهندية ومعتقداتهم . ونلمح بعض أحداث الفتح فى المهابهاراتا مثـلا ،

عندما اقتحم أحد المحاربين مرآة لم ير لها مثيلا من قبل . ونسمع عن تكيف الغزاة لظروف البيئة الاجتماعية الجديدة ، بينما كان من الواجب تضحية الحيوانات ولاسيما الماشية على مذابح الآلهة ، إلا أنه لم يبق شيئا ضروريا اتقاء لغضب الشعب .

وقد اعترف الغزاة الآريون بالكهنة ، والجنود والشعب الآرى نفسه أى البراهما Brahmin ، والكاشتريا Kastriyas والفايسا Vaisyas أما الشعب المحكوم فهم عبيد ، سودرا Sudra . ولم يأت الغزاة بنظام طوائف كامل النمو ، ولكنهم جلبوا معهم بذوره فى هذا التقسيم ، ولاسيما إذا تذكرنا ازدراء الآريين لسواد البشرة الذين لا أنوف لهم، وإشفاق الغزاة ، بعد أن أصبحوا معزولين فى عشائر صغيرة متفرقة ، من أن يغمرهم طوفان التزاوج بالسكان الأصليين . وهذا الخوف هو الذى قوى قواعد منع الاختلاط والتزاوج مع الأصليين ، والذى وضع قوانين انتقال المهنة بالوراثة .

وتظهر فى الأدب الهندى بعد انقضاء عهد الفتح بوقت طويل ، معتقدات عن إله مثل سيفا الهندى ، وإلهة أم ، وعبادة الشجرة ، واليوجا (التأمل) والذكر والأنثى وتناسخ الأرواح . وهذا كله إحياء — بشيء من التعديل — للمعتقدات الهندية السابقة للفتح ، وهى معتقدات أكبر الظن أنها كانت موجودة فى المدن السندية .

وطبقة البراهما أو الكهنة تتكون كما يحدث كثيرا فى بقاع العالم الأخرى من هؤلاء الناس الذين استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على كل من الحاكم والمحكوم ، وذلك بتكييف مالم يستطيعوا طرحه من المعتقدات والطقوس القديمة المحلية ، ومن ثم أصبحوا سدنة التقاليد القديمة والحديثة معا ، وربما تسلل بعض كهنة الديانات القديمة فى كهنوت الديانات الجديدة التى جلبها الغزاة

معهم . وقد ظلت طائفة الكهنة قوية ، عملت على تقوية مركزها ، لدى كل من الآريين والسابقين لهم من السكان القدماء . ولا ريب أنه كانت توجد جماعات منعزلة فى الأحراج — كما هو موجود فى الوقت الحاضر — وهؤلاء وغيرهم هم البارياه Pariah كما يسمون الآن . ، وبعض السكان كانوا فى منأى تام عن هذا النظام حتى إنهم سموا « بالآخرين » .

أما الكاشتريا أو المحاربون فقد فقدوا صفاتهم كطبقة ، وأصبحوا مجموعة من العشائر الحاكمة ، تعرف فى التاريخ بعشائر الرجبوت Rajput وكانت أكثر الطوائف تعرضاً لفقد صفتها كسلالة ، هى عامة الشعب الآرى ، الفاسيا الذين خرجوا سريعا من عزلتهم واختلطوا بالصناع والشعب المحكوم وتزاوجوا معهم ، ولاسيما وأن بعضهم كان أرقى منهم فنا وصناعة . ثم فقد الفاسيا صفاتهم كمجموعة بعد ذلك مع تطور المجتمع الهندى .

وكان مطلوب من الشبان أن يتزوجوا من داخل جماعات محددة ، أى أن يتزوجوا داخل الطائفة Gnyat[1] التى تقوم أساساً على المهنة أو الدين أو كليهما معا فى نطاق القرابة . وفى الوقت نفسه كان زواج الأقارب الأقربين محرما فالشاب يجب ألا يتزوج داخل الجوترا Gotra . أما الفتاة فعليها ألا تحط بقدر أسرتها وتجلب لها العار بأن تتزوج من هو فى طائفة أدنى منها . فكانت عملية الزواج إذن أمر أمن الصعب ضبطه ومن ثم كان المثل الشائع « زوجة من الشرق وزوج من الغرب » ومعنى هذا أن سلالة الغزاة كانت تميل إلى أن تختار زوجاتها من سلالة المغلوبين . أو من سلالة سبقتها فى الاختلاط . وتتجه البنات عادة إلى أن يغالين فى شروطهن ، بل إنه من العسير أحيانا على طبقات البراهما العليا أن تجد لفتياتها أزواجا يناسبونهن .

لقد لجأ الهنود إلى هذا النظام الهرمى الاجتماعى مع مايلزمه من محاولة

لتثبيت درجات الناس فى المجتمع بالوراثة لكى يتحاشوا النتائج المكروهة أو الخطرة للاندماج . وتميل الطبقات الدنيا إلى إهمال النظافة فى مساكنها الحقيرة . ومن ثم يتحاشى جيرانهم من الطبقات الأعلى الاختلاط بهم خشية أن تصيبهم عدوى الأمراض التى قد تنتقل من الآبار التى يشربون منها أو من وسائلهم القــــذرة فى إعداد الطعام أو من طعامهم . وهناك خطر خاص من تناول اللحوم فى مثل هذا المناخ الحار ، ذى الفصل الطويل حار الرطب .

ثم امتازت الهند بظهور بعض أفراد من الطبقات العليا يمتنعون عن تناول اللحم عامة ، وقد نجحت هذه المقاطعة عندما عمت زراعة الأرز وأنتجت الهند منه كميات وفيرة وأصبح من الممكن إعداده بشكل نظيف دون اللجوء إلى وسائل الطهى المعقدة .

ارتفعت إذن الجماعات التى تراعى طقوس النظافة والعناية التى حرمت اللحم على نفسها فى السلم الاجتماعى ، ولاسيما عندما صحب ذلك القيام بأعمال لاتدعو إلى قذارة الأيدى . ومن ثم اكتسب الهرم الاجتماعى ، بطريقة ما ، نوعا من المرونة ، رغم أن الهند تعانى من محاولة تثبيت المهنة التى يقوم بها الفرد فى النظام الوراثى ومن تحديد التآخى تحديداً شديداً ومن تقييد فرص الزواج .

تعيش خارج طوائف البراهما والكاشتريا والفاسيا والسودرا المعترف بها ، كما ذكرنا ، طائفة البارياه أو المنبوذين وهؤلاء هم الذين جلبوا العار لأنفسهم بشكل ما أو سلالة سكان الأحراج الأصليين ، ولكنهم يحومون حول من هم أفضل منهم . ولا ريب أن أصل تقسيم الناس إلى طوائف قديم جداً ، إلا أنه أصبح بعد ذلك نظاما موضوعا بعد تفكير واع ، إثر الفتوح الآرية ، عندما ظهر للناس اختلاف السحن والألوان ، وبروز الفلك وشكل

الأنف . وقد اعترف فى هذا التنظيم الاجتماعى بمركز البراهمى الكبير ، رغم تقسيمها بعد ذلك إلى أقسام كثيرة معقدة طبقاً للمهنة والطقوس الدينية ، وقد قسم السودرا أنفسهم أقساماً ، متدرجة أيضاً فى السلم الاجتماعى لاحصر لها إلا أن التأثر بالأوربيين جلب فرصاً كثيرة للتعليم أمام بعض أفراد المنبوذين ، وأصبحوا فيما يختص بأصول النظافة والصحة أفضل بكثير من بعض أفراد الطوائف العليا أنفسهم .

ولم تقل آثار الفتح الآرى من ناحية الفكر عن آثارهم الكبيرة فى تقسيم الناس إلى طوائف اجتماعية . فقد وجدت عقيدتان تواجه إحداهما الأخرى :

(١) عقيدة أبناء الفاتحين الرعاة ، الذين وطنوا أنفسهم على تقبل النظام الزراعى والاستقرار فى الأرض ، دون ان يستخدموا الحصان الذى لعب دوراً كبيراً فى حياة أسلافهم .

(٢) عقيدة الزراع التى فرضت نفسها على الأمراء والحكام المحليين . وكان لابد من الصدام بين العقيدتين ، بين عقيدة الزراع وعقيدة الرعاة ، إلا أننا نجد فى الهند — كما هو موجود فى غيرها من الأماكن — حافزاً على التفكير ، ومحاولة التوفيق بين وجهتى النظر المتعارضتين . فبدأ ظهور طبقة من المفكرين المتنبئين خلال خمسة أو ستة قرون من الفتح الآرى ، فبعضهم كان يميل إلى أن يقتبس كثيراً من التقاليد القديمة ، وبعضهم كان يقلل من هـذا الاقتباس . وكان أشهر هؤلاء المعلمين ، هو جاوتاما بوذا Gautama Buddha ، الذى لم يفكر فى الآلهة والإلهات وإنما ركز تفكيره فى النوع البشرى ، وانتهى إلى تصور فلسفة كاملة ، وصل إليها

باسم النرفانا Nirvana . وقد قبل بوذا استخدام الاعتقاد القديم عن تناسخ الأرواح ، بما فى ذلك تناسخ الأرواح فى أجساد حيوانات أو أجساد بشر. وكان الشكل الذى يتجسد فيه روح الشخص يتوقف على سلوكه فى الحياة . ويستطيع كل الناس أن يصل إلى مرحلة النرفانا[1] فى النهاية ، ولذلك كان على المؤمنين ألا يقوموا بفعل مايعوق الروح من التسامى فى طريقها العلوى ، وهذا يتضمن أن يمتنعوا عن قتل الحيوان أو أكل لحمه ، وربما كان هذا الامتناع عن أكل اللحم مما قوى الهنود على الامتناع عن قتله ، وقد أصبح الامتناع عن أكل اللحم أحد معالم الحياة الهندية بغض النظر عن الاعتقاد فى البوذية أو القيام بطقوسها فى الوقت الحاضر .

وحكم الهند بعد ظهور بوذا بقرنين حاكم عظيم يسمى أسوكا الذى بسط نفوذه على شبه الجزيرة كلها ، فيما عدا ترافانكور والشمال ، وحاول أن ينشر تعاليم بوذا السلمية . فأمر بتشييد بناء شامخ تخليداً لذكرى بوذا فى سانشى Sanchi الذى تزوج منها زوجته المحبوبة . وهذا البناء الشامخ المكون من تل تغطية قطع الحجارة الضخمة ، ويقوم قوته بناء مقدس ، وتحيط به قلعة صخرية ذات بوابات ، شيق من نواح كثيرة ، فهو يشبه أعمال النجارة منفذة بالحجارة ، إذ تدخل أعمدة الصخر فى فجوات خاصة كأنها عروق الخشب ومما هو جدير بالذكر أن هذا البناء يشبه من هذه الناحية نصب ستونهنج ، إلا أن قطع الصخر فى سانشى مصقولة بعناية كبيرة ، والبوابات

---

(١) النرفانا هى مرحلة هدوء الروح وسكينة النفس التى تصل إليها روح المؤمنين فى الآخرة ، وإن كان البوذى يستطيع أن يصل إليها فى الحياة الدنيا إذا حافظ على عفاف النفس ولم يسرق ولم يقل باطلا ولم يقتل ولم يغتصب شيئاً ، ولم يقل فحشاء وامتنع عن ملذات الحياة الدنيا ولم يتعطر ولم يتزين بالذهب والفضة ولم ينم على سرير عريض أو مرتفع . [المعرب]

ذات مجسمات منحوته فى الصخر أحياناً تشبه رعاة الاستبس بملابسهم التقليدية، وربما قصد منها أن تمثل الرعاة الآريين ، إلا أن هذا البناء الذى يسمى ستوبا (أو هيكل بوذا) أقيم بعد الفتح الآرى بنحو ألف عام . فلاريب أنه أقيم فى القرن الثالث ق م. فهل سبقته ستوبات أخرى كانت مشيدة من الخشب ؟ هذه أسئلة نتركها للبحث فى المستقبل . إلا أننا فى الوقت الحاضر نستطيع أن نفترض أن الناس أيام أسوكا كانوا على شىء من العلم بشعوب الاستبس ، وربما ببعض التقاليد الباقية من أيام فتحهم للهند قبل ذلك بوقت طويل .

علينا الآن أن نعود القهقرى فى الزمن لندرس شبه جزيرة الهند . ويبدو أن الشعوب المنحطة كانت تعيش فى شبه الجزيرة فى أسلوب العصر الحجرى القديم الأعلى Epi - palaeolithic ، يستخدمون آلات صوانية صغيرة مركبة فوق قطع من الخشب أو العظم ، وقد استمرت تلك الالآت — كما كانت الحال فى أوربا مستعملة أمداً طويلا . وليس ثمت قرائن على اتصال هؤلاء الناس بشعوب وادى السند وحضارته ، أو بحضارة عصر البرنز رغم وجود معادن النحاس والقصدير والذهب فى شبه الجزيرة . غير أن قدوم الحديد إلى البلاد أحدث تغيرات كبيرة فيها ، ولا سيما النصب الحجرية الضخمة ، إلا أننا يجب ألا نجزم بأن هذه النصب الضخمة لابد أن كانت ذات علاقة بالنصب الحجرية التى وجدت فى غرب أوربا فاستخدام قطع حجرية ضخمة أمر طبيعى واكتشاف بسيط يمكن أن يظهر فى جهات مختلفة من العالم مستقل بعضها عن البعض الآخر .

ولاسيما أن الطقوس المتصلة بها بدأت فى الظهور فى أوقات مختلفة جداً بعضها عن بعض فى الالف الثالثة ق . م . فى الغرب وأوائل الألف الأولى ق.م. فى الهند . وعلينا أن نتذكر فى نفس الوقت أن الطقوس المتعلقة بالمقابر الحجرية الضخمة استمرت فى الغرب حتى بدء عصر المسيحية بل وبعد ذلك فى

بعض الجهات . وربما ظهرت قرائن جديدة تدل على استمرار تشييد النصب الحجرية فى الغرب بعد بدء عصر تشييدها بوقت طويل .

وربما كان من الضرورى هنا أن نشير إلى النصب الحجرية الضخمة المشيدة عند خاسيا Khasia وغيرهم من شعوب أسام، وهى عبارة عن مجموعة من الأحجار القائمة ، ولاسيما الدوائر الصخرية ، ومن ثم فهى لاعلاقة لها بالنصب الحجرية التى كانت تستخدم كمقابر فى شبه الجزيرة .

وتقص إحدى الأساطير قصة «فوران المحيط» على يد إله يتسلح بالحجارة الضخمة . وهذا يدل على أنه ربما وصل إلى شبه جزيرة الهند عن طريق البحر إلى حد ما أقوام يحملون معهم شعائر النصب الحجرية ، ونشروا بها استعمال الحديد والفخار .

ونستطيع أن نقول إنه عندما وصلت هذه الآراء الجديدة إلى شبه الجزيرة، اتصلت شعوبها بالشمال واكتسبت قدراً كبيراً من تقاليده الدينية، أو على الأقل قدراً من العناصر الدينية القديمة الأولى . فانتشرت فى الجنوب فى ذلك الحين أو ربما بعد ذلك الهندوكية السايفية ، وقد ذكرنا من قبل أن أسوكا بسط نفوذه على شبه الجزيرة كلها فيما عدا ترافانكور حيث كان الناس — طبقاً لوثائق معاصرة — يعملون فى التجارة عن طريق البحر ، وربما حاول نشر البوذية فى الجنوب كما حاول نشرها فى الشمال ؛ وربما كانت الهندوكية السايفية (أى عبادة سيفا Siva بوجه خاص) رداً مضاداً لجهوده هذه ، إلا أنه ليس لدينا قرائن حتى الآن عن هذا .

ومع مضى الزمن كان عهد النبوة قد انتهى من الهند ؛ وهو عصر يمثله بوذا أوضح تمثيل، وحل محله عصر الطقوس والشعائر ، ويمثله رجال يحترفون الدين أى نظام كهان ورهبنة . وقد تسلحت البوذية بهاتين الأداتين وانتشرت

إلى سيلان وبورما والهند البعيدة كما انتشرت إلى التبت وداخلية آسيا والصين واليابان، ويسمى انتشار البوذية إلى سيلان وبورما والملايو بالبوذية الصغرى (هينيانا Hinayana) بينما يسمى انتشارها الآخر بالبوذية الكبرى (ماهايانا Mahayana) . إلا أن البوذية ذات الطقوس والشعائر لم تستطع أن تصمد فى الهند ذاتها أمام الطقوس الزراعية القديمة ، ولذلك اختفت فعلا كعبادة مستقلة غير أننا نجد أن بوذا يحظى بالتقديس فى كل مكان بالهند، رغم اضطهاد البوذية نفسها بضعة قرون فيها .

بعد ظهور الإسلام فى جنوب غرب آسيا انتقل الفتح الإسلامى إلى الهند نتيجة للنزاع على السلطة بين بعض الأمراء والمسلمين ، وكانت أهم الغزوات الإسلامية هى غزوة محمد الغزنوى (من أفغانستان) التى دخلت الهند من الشمال الغربى فى القرن الحادى عشر الميلاد وقد تأثر الفتح الإسلامى بالغزوات المغولية فى أوائل القرن الثالث عشر . الا أن هذه الغزوات المغولية لم تتوغل فى الهند ، غير أن الموجه الثانية من الغزوات المغولية ، التى حدثت فى أواخر القرن الرابع عشر أدت إلى تأسيس إمبراطورية المغول التى استولت على مدينة دلهى قرب مدخل حوض الجانج من الشمال الغربى واتخذتها عاصمة لها. وقد كان أول الغزاة المغول وثنيا ، ولما كان الثانى مسلما فالإمبراطورية المغولية فى الهند إذن كانت إسلامية ، ومن ثم قامت إدارة إسلامية فى حيـــدر آباد الدكن ، أهم الإمارات الصغيرة فى الهنـد . وأصبحت رئاسة الدولة فى حيدر آباد وراثية ، كما قام أمراء مسلمون آخرون على حكم ولايات أخرى فى الهند ، إلا أن معظم الأمراء كانوا من الهندوس ، الذين حافظوا على سلطتهم أو استعادوها عندما ضعف شأن الإمبراطورية المغولية . والغريب أن يحكم حاكم هندوكى ولاية معظم سكانها من المسلمين وهى ولاية كشمير ، وقد انتشر الإسلام انتشاراً كبيراً فى بنغال الشرقية ، ونشأ عن تعدد الأديان فى الهند أن قام تعارض شديد فى الطقوس الدينية بين الطوائف الدينية المختلفة .

وأسس الأوربيون منذ القرن السادس عشر موان تجارية فى الهند ، وأصبحت التجارة البحرية مع البرتغال وفرنسا وبريطانيا جانباً هاماً فى الحياة الهندية ، التى ظلت أمدا طويلا منطوية على نفسها ، مكتفية بذاتها ، أو تستقبل مؤثراتها القوية عن طريق البر .

أصبحت الهند تحت هذه الظروف الجديدة منتجة إلى حد كبير للمواد الأولية ومصدرة لها ، إلى بريطانيا واليابان فى القرن العشرين حيث تصنع ، وأصبحت موانى كالكتا ، وبومباى ، ومدراس أكثر المدن الهندية ازدحاماً بالسكان ، ولا تزال هكذا حتى الوقت الحاضر .

وأدت نهضة الهند الحديثة إلى إعادة تأسيس دلهى كعاصمة لإحدى الدولتين المستقلتين اللتين قامتا فى شبه القارة ، وهى الهند . بينما أصبحت ميناء كراتشى عاصمة الباكستان الغربية وميناء دكا عاصمة لباكستان الشرقية . وقد قامت فى البلاد صناعات حديثة على النمط الأوربى ولم يعد تصدير المواد الأولية أهم ما فى الحياة الهندية .

وإن تقدم المواصلات الحديثة بالسكك الحديدية والعربات إلى جانب السفن البخارية والطائرات ، وازدياد العلاقات التجارية على نطاق واسع ، قد أثر تأثيراً كبيراً فى بناء المجتمع الهندى وفى نظام الطوائف فى الهند ، مما أدى إلى حدوث تغيرات بعيدة المدى من ناحية ، ورد فعل عدائى من أصحاب العقول المحافظة فى الهند وباكستان من ناحية أخرى .

الفصل التاسع

الصين

كان الرأى السائد إلى وقت قريب من هـذا القرن ، حتى فى الصين نفسها أن تاريخ الصين قبـل عام ٨٥٠ ق . م . ليس إلا خرافـة أسطورية . إلا أن تيريان دى كوبيرى Terrien be le Couperie قد أعلن من قبل اعتمادا على أدلة ضئيلة ، أن الصين قد تقبلت أصول حضارتها من جنوب غرب آسيا، وأن دراسات ف . فون ريتشوفن Richtofen الشهيرة للصين قد أعطانا ملخصاً لتاريخ الصين الأسطورى منذ قبل ٢٠٠٠ ق . م . وقـــد علق هذا المؤرخ أهمية كبيرة على هـذه الأساطير ، كما أيدت الحفـائر الأثرية منذ عام ١٩٢٨ وجهة نظره هـذه . وهكذا ظهر من الصين كما ظهر من كريت وطروادة والهند وبريطانيـا قبل التاريخ وغرب البحر البلطى ، أن الأسطورة تتضمن جانباً كبيراً من الحقيقة مختلطاً عادة بالخرافات .

ويرى كثير من الباحثين أن فن الزراعة أو على الأقل زراعة الحبوب نشأ فى مكان ما ، أوفى عدة أماكن ، بين بحر قزوين والصحراء الغربية فى مصر ، وأنه انتشر من هذه المنطقة إلى كل مكان قامت فيه الزراعة بعد ذلك ، ويتفق رأى الباحثين جميعاً على أن الزراعة قامت فعلا فى وقت مبكر جداً (قبل ٥٠٠٠ ق. م) فى هذه المنطقة ، وأن قيامها فى غيرها من المناطق قد تأخر إلى حوالى ٣٠٠٠ ق . م . على الأقل ، غير أنه لا ينبغى أن نمعن فى فرض نظرية الأصل الواحد للزراعة ، ، انتشارها من هذا الموطن الأصلى الواحد إلى غـيرها من الأقاليم فالقرائن على ذلك قليلة .

ويبدو أنه فى أثناء عصر تقهقر غطاءات الجليد فى فترة البلايستوسين ، بل ربمـا أيضاً فى العصر غير الجليدى الأخـير ، بدأ الناس ينتشرون فى مختلف الأقاليم . وتعلم هؤلاء المهاجرون فى المناطق المشجرة كيف يقطعون فروع الشجر بفئوس حجرية ذات حافات حادة ، وكيف يشكلون الآلات الحجرية بوساطة الضغط ، وربما استخدموا تلك الأدوات فى نبش الأرض لاستخراج جذور



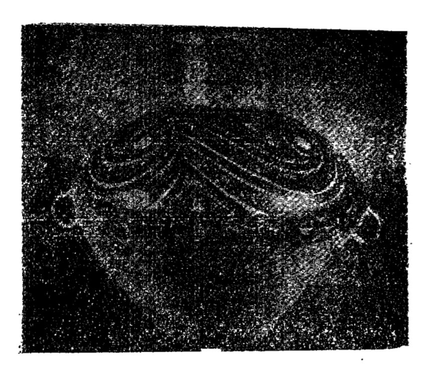
(شكل ٥٩)

شمال الصين

النبات الذى كانوا يأكلونه (انظر الفصل الخامس) . ويسمى هذا الدور الاجتماعى بأواخر العصر الحجرى القديم Epi-palaeolithic أو العصر الحجرى المتوسط Mesolithic . ومن المحتمل أن حاول هؤلاء النابشون عن الجذور أول محاولات فى الزراعة ، وربما نشأت الزراعة إذن فى مواطن كثيرة ، ومن الأفضل إذن أن نقول إن إقليم مصر وجنوب غرب آسيا كان وطناً لزراعة معينة ، هى زراعة القمح والشعير ، اللذين ظلا أهم حبوب غذائية فى العالم منذ أمد طويل . ومن الأمور المسلم بها أن زراعة الحبوب فى أوربا بدأت نتيجة وصول مؤثرات ثقافية من مصر وجنوب غرب آسيا . وربما كان هذا أيضاً صحيحاً بالنسبة لحوض السند ، أما بالنسبة للصين ، فالأمر ليس بمثل هذا الوضوح ، إذ أن أول حبوب زرعت هنا كانت الدخن .

لقد كانت الصين فى عزلة كبيرة عن الغرب خلال معظم تاريخ البشرية ، حتى عصر البخار . ولقد كانت داخلية آسيا فى عصر البلايستوسين تغطيها غطاءات كثيفة من الجليد تجثم فوق مرتفعاتها ، ولا بد أن ذوبان هذا الجليد كان بطيئاً ومن ثم كانت بيئة داخلية سيا صعبة جداً ، ولاسيا فوق مرتفعات التبت وبالقرب منها . بل إن الصين كان يحدها من الجنوب تلال مرتفعة فى شمال بورما وشان . ولا تزال ذكريات طريق بورما فى الحرب العالمية الثانية تذكرنا بتلك الصعوبات ، ولهذه الأسباب الجغرافية كانت الصين إقليما مستقلا فى تطوره خلال الخطوات الأولى للبشرية ، إلا أنه من الصعب تطبيق هذه النظرية على زراعة الحبوب. وقد وجدت فى كهوف شوكوتين Chou-Kou-Tien على بعد ٣٠ ميلا جنوب غرب بيبنج (بيكين) بقايا أفراد كثيرين من البشريات Hominid (أو أشباه الإنسان) نسميهم إنسان الصين Sinanthropus وكان مع حفرياتها آلات حجرية بسيطة . ولم يعثر على أية بقايا لإنسان الصين ترجع إلى أية فترة تالية لأوائل عصر البلايستوسين . غير أنه هناك

حقيقة غريبة وربما كانت أيضاً فى غاية الأهمية ، وهى أن كثيراً من المغول الحديثين والصينيين ، بل والهنود الأمريكيين وإنسان الصين القديم يشتركون جميعا فى بعض الصفات ومنها صفة معروفة تماما ، وهى القواطع التى تشبه الجاروف ، ومعنى هذا أنه من الممكن ، إن لم يكن من المحتمل أن يكون إنسان الصين قد أسهم فى الميراث الفيزيائى للصينيين والمغول، كما ساهم إنسان نياندرتال فى الميراث الفيزيائى للأوربيين الحديثين . وعلينا إذن أن نكون حريصين فى إبداء الآراء عن الأصول المشتركة للبشر ، وتدل الطبقات العليا فى كهف شوكوتين على وجود شعب يشبه الأوربيين فى ذلك الوقت ، كما أنه يسكن هوكايدو (شمال اليابان) شعب الأينو — الذين يمتازون بالجسم المشعر ، والبشرة البيضاء ، والشعر المموج ، والرأس البالغ الطول ، مما يدل على وجود علاقات عريقة مع أوربا .



(شكل رقم ٦٠)

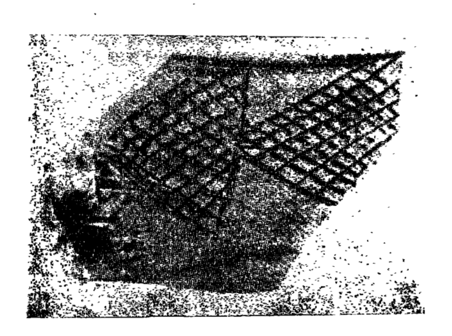
إناء مطلى يرجع إلى عصر ماقبل التاريخ — الصين الشمالية

وبعد نقاش طويل نشأ رأى سائد وإن لم يقبـــله جميع الباحثين ، يؤيد نظرية تقول إن آلات العصر الحجرى الحديث وفنون وصناعة الفخار قد دخلت الصين من الغرب . ففى الألف الثالثة ق. م. انتشر فن تلوين الفخار، من موطن نشأته الأولى فى شمال العراق أو مايجاورها من الأناضول إلى كل مكان ، فانتشر شرقا إلى كانسو وشنشى بل وإلى هونان . ويمتاز هذا الفخار فى الصين بأنه من نوع ممتاز ، يمتاز بأشكال لولبية واضحة فوق أرضية مجردة بسيطة ، وهو طراز يدل على المهارة والذوق . ولقدسار تطور أنماط الفخار الملون فى غرب آسيا والصين فى مراحل متشابهة ، وأية مقارنة بين فخار كل من المنطقتين أمر معقـــد للغاية ، ولكن أوجه التشابه فيهما كافية لأن تقوى الفرض العام الذى يقول إن موطن هذا الفخار الأصلى هو غرب آسيا والهند البعيدة . حيث حفرت الحلية على الفخار بخطوط محززة بعد أن كانت مرسومة بالألوان ، رغم أن تصميم الحلية لم يتغير . ويرجع الفخار الملون فى شمـال الصين إلى ٢٣٠٠ ـــ ٢٢٠٠ ق. م. وانتشر حوالى منتصف الألف الثانية ق. م. بشىء من التعديل إلى الهند البعيدة .

ويبدو أنه انتشر أيضاً بعـد ذلك فخار رمادى من منطقة تركستان شرقى بحر قزوين نحو الشرق ، حوالى نهاية الألف الثالثة ق.م. أو بعد ذلك .وقد عرف هذا الفخار بصفة خاصة فى هونان وشانتونج فى الصين ، أى إلى الشرق من منطقة الفخار الملون ، ولهذا السبب ، ولأن بعض الفخار اتخذ صفات مميزة اعتقد بعض الباحثين أن هذا الفخار الرمادى من أصل صينى ، وإن اقتبس بعض حوافز من الغرب ، إذ أنهم أخذوا أموراً أخرى فى الاعتبار .

إن فخار جنوب غرب آسيا الرمادى والأسود المصقول يرجع إلى الألف الخامسة ق.م. ، كما أنه يرجع فى الأناضول إلى الألف الرابعة ق.م. وقد حل فخار «حلف» الملون محل الفخار الرمادى فى العراق ، إلى حد ما ، غير أن الفخار

الرمادى استمر يصنع فى الأناضول وشمال العـــراق ، ومن ثم انتشر إلى جنوب شرق أوربا ، وإلى سومر (حيث ساهم فى حضارة الوركاء) وإلى منطقة شرق بحر قزوين فى الألف الثالثة ق. م. ومن ثم نشر تأثيره حتى مدن السند وبعد ذلك وصل الصين بعد الفخار الملون بفترة من الزمن . فأشكال الأوانى ، وصقلها ، وملمسها الناعم ، ورقتها الدقيقة ، كلها تربط غرب آسيا بالفخار الصينى الرمادى . ولم يوجد حتى الآن إلا قليل من الفخار الأسود الدقيق مع الفخار الرمادى فى غرب آسيا ، بينما هو متوافر فى الصين . ووجد فى الصين أيضاً فخار رمادى وأنماط قريبة منه فى شانسى وشنشى وكانسو ، وستشوان كما وجد فى أنهواى وسيكيانج . وتوجد فى بعض المواضع فى طبقات تعلو الطبقات التى وجد فيها الفخار الملون ، وفى غيرها من المواضع ، كما وجدت مختلطة .



(شكل ٦١)

قطعة شفافة عليها حزوز محفورة

بعض أشكال الأوانى تنفرد بصفات صينية مميزة . فمثلا هناك الشكل الثلاثى لطرازلى Litripod الذى صنع بوضع ثلاثة أوان ذات قاعدة مدببة ، إحداها لصق الأخرى لتستند بعضها بعضا . وطراز هسين Hsien وهو يتكون من جزء سفلى وهو عبارة عن إناء عادى منتفخ له فوهة واسعة، وجزء علوى له قاعدة ذات ثقوب ، حتى يتخللها البخار فينضج ما هو موجود فى القدر العلوى . ويبدو أن هذه الأنماط الخاصة بشمال شرق الصين لم تنتشر إلى جنوب الصين أو الهند البعيدة وكان الفخارى الأسود الجميل الذى ذكرناه آنفا كان بعض الفخار البنى يصنع بوساطة عجلة الفخارى .

يبدو أن أقدم الزراع فى شمال الصين كانو يزرعون الدخن . ولقد بحث عما إذا كانت هناك أنواع من الدخن لم تزرع فى هذا الإقليم ومع مضى الزمن أضيفت زراعة القمح والشعير وربما انتشرت زراعة الأرز فى وقت انتشار الأوانى الفخارية والرمادية أو الملونة شمالا إلى الصين حتى حوالى خط عرض ٣٠ ٣٤° شمالا ، وحد الأرز الشمالى فى الوقت الحاضر هو خط عرض ٣٢° ش . وكانت الماشية مهمة فى الزراعة أما البرنز فلم يدخل الصين إلا فى أواخر عصر الفخار الرمادى .

من المحتمل أن يكون الحصان قد انتشر من داخلية آسيا إلى العراق فى تاريخ غير بعيد عن ٢٠٠٠ ق.م. وربما استأنسه الإنسان فى مكان ما داخل آسيا قبل ذلك التاريخ ، وهذا عما يزيد التبادل والتداخل الحضارى بين الإقليمين. وربما استوردت الصين، فيما أخذته من مؤثرات ثقافية ، الفخار الجميل المصنوع بعجلة الفخارى ، بما فى ذلك بعض الفخار المصنوع من الطين الأبيض الدقيق (أى الخزف الصينى) ، والماشية المستأنسة والخيل ، ومن المعروف أن سلالات الضأن انتشرت فى ذلك الوقت أيضاً من داخلية آسيا إلى أوربا (الفصل الثامن).

ويظهر أن الصينيين فى هذه المرحلة ، بل فى مرحلة متأخرة عن ذلك أيضا ، لم يكونوا على علم بالقرميد ، ولم يقيموا سوى أبنية قليلة من الحجارة ولكنهم برعوا فى البناء بالخشب وبالطين الذى يتخذونه من تربة اللويس . وكان لهم محلة محصنة ، تحيط بها تحصينات من الطين ، فى شمال غرب شانتونج قرب الموقع الذى قامت عليه تسينان فيما بعد ، ولا ريب أنه يمكن العثور على غيرها من المحلات المحصنة الأخرى .

ويتحدث التاريخ الأسطورى عن أسرة هسيا Hsia وتؤرخ عادة من حوالى ٢٣٠٠ ق.م. — ١٧٦٥ ق م. بعد تحويل التاريخ الصينى إلى تقويمنا . ولا نعلم ما إن كانت حضارة الفخار الملون أو الفخار الأسود مرتبطة بها ، أو مرتبطة بالأسرة التالية لها — أسرة شانج Shang التى تضعها التقاليد فيما بين ١٧٦٥ — ١١٢٣ ق. م.

ومن الممكن تقصير هذه التواريخ قليلا (إلى حوالى ١٥٥٠ — ١٠٠٠ ق.م) إلا أن هذه التواريخ مفيدة فى الوقت الحاضر . وربما وصلت الصين إلى مرحلة تكوين دولة فى الوقت الذى أنتجت فيه الفخار الأسود، وشيدت التحصينات. ويبدو أن مبانيها لم تكن جديرة بشعب هذه مهارته . ولا تزال كذلك ، فى نفس أقاليم الصين القديمة . وليس هذا التناقض غريباً ، فله مايشبهه فى كثير من أنحاء العالم ، مثل انجلترا فى أوائل العصر الانجلو سكسونى .

قبل أن نستطرد ينبغى أن نشير إلى التناقض الكبير بين شمال الصين والهند ، فالهند تقع جنوب النطاق الجبلى الكبير فى نصف الكرة الشمالى فى العالم القديم ، أما الصين فيقع معظمها شمال الشمال الشرقى لهذا النطاق . وقد رأينا أن الإنسان العاقل ربما نشأ فى أوائل عصر البلايستوسين وصنع فئوس الأشول اليدوية ، وربما انتشر من شمال إفريقية وجنوب غرب آسيا . وربما كان وصوله إلى الهند أمراً سهلا نسبياً ، عندما كان مستوى البحر أدنى منه

فى الوقت الحاضر ، وكانت المياه تنحسر عن سهول جنوب بلاد العرب الساحلية. وكانت سهول بلوخستان تمتد وتشغل جزءا من المحيط الهندى الحالى ، كما امتدت سواحل الهند الغربية نحو البحر العربى ، وذلك عندما كانت أغطية الجليد تغطى شمال أوربا . وربما ظهرت حافة اللغات الغربية فى الهند فى أواخر البلايستوسين أو فى العصر التالى للبلايستوسين عندما حدثت حركة ارتفاع فى الأرض صحبتها الفوالق . فاستطاعت الهند إذن أن تستقبل هجرات بشرية قديمة من الغرب ، كما أن هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يقفوا فى وجه منافسة هؤلاء المهاجرين ، كانوا يستطيعون أن يلجئوا إلى مناطق يعتزلون فيها ويلجئون فى الغابات والآجام . وكان فى الهند مناطق عزلة كثيرة لأبناء المهاجرين القدامى ، ولا تزال الهند حتى الوقت الحاضر بلاد المتناقضات الاجتماعية حيث توجد القبائل البدائية التى لا تعرف إلا الزراعة البسيطة فى الآجام ؛ بل والتى كانت حتى وقت قريب لا تزال تعيش على الجمع والإلتقاط والصيد ، على طرف النقيض مع الفلاسفة المتأنقين فى تفكيرهم ، ويتراوح بين الطرفين تدرج كبير من الصعب تحليل نظامه المعقد .

أما الصين فلم تستقبل إلا القليل من هؤلاء المهاجرين الأوائل من الغرب وربما استقبلت شيئا من ميراث إنسان الصين البائد . وأهم من ذلك أن نتذكر أن مدخل الصين كان عن طريق هوانج فى كانسو ، وكذلك روافد واى هو فى شنسى ، حيث تمتد منطقة اللويس دون غابات كثيفة ، وحيث تقوم الزراعة بوساطة الرى لأسلوب الحياة الرئيسى . فلا بد أن السلالة الأصلية والشعوب المهاجرة ، فى هذه المنطقة قد خضعت لظروف واحدة ، ولم يكن أمام الشعوب البدائية الأصلية إلا فرصة ضئيلة للاختباء . حتى ولو طغى عليهم المهاجرون ، فلم يوجد فى شمال الصين إذن إلا قليل من المتناقضات التى تميز الهند ، ولا تزيد المتناقضات فيها على الفروق بين الغنى والفقير فى نفس

الوحدة الاجتماعية. وبعبارة أخرى لم تكن الأحراج عاملا اجتماعياً له أية أهمية فى الصين .

وطبقا للتاريخ الأسطورى ، أدخل يو ، مؤسس أسرة هسيا ، فكرة الرى بالقنوات فى الصين فى وقت قريب من ٢٣٠٠ ق . م. أى بعد أن عرفت هذه القنوات وانتشرت على مقياس كبير فى النيل والفرات . ويرى بعض الأساتذة أن هذا ليس إلا فرية اخترعتها الدعاية أيام أسرة تشو ، إذ ليس لدينا أى دليل حقيق نستدل منه ، على أية نتيجة هامة . وأن الخزف الفائق الجمال الذى صنع بوساطة عجلة الفخارى ، والماشية (بما فى ذلك الجاموس المحب للماء) والخيل ، والتحصينات الطينية . وربما أيضا قنوات الرى قد تدل على تقبل الآراء من الخارج ، غير أنه هناك رغم هذا عناصر أصيلة بلغت من الجودة والإتقان ما وصلت إليه شعوب هذه المنطقة وحدها .

وكانت عمليات الرى على نهر الهوانج هو فى كانسو وشانس والواى هو فى شنسى تتضمن بصفة خاصة رفع الماء إلى الأجزاء المنزرعة من اللويس . أما فى الهوانج هو الأدنى والسهل الساحلى فهى تتضمن صرف المياه الزائدة من الأرض التى يغرقها الفيضان فى بعض المواسم . وهذه المنطقة الأخيرة تفتقر إلى انتظام الأحوال الموجود فى أرض النيل والفرات .

معالم الحياة الصينية القديمة والحديثة الأخرى مرتبطة بهذا الاعتماد التام على الزراعة الكثيفة لأرض اللويس ، أو الطمى المنقول من اللويس إلى السهول الساحلية . فحيث يمكن جلب الماء إلى اللويس ، وحيث توجد هذه التربة فى كميات لاتنفد ، فإنه يمكن زراعة نفس قطعة الأرض سنوات كثيرة متتابعة ، إذ يمكن تجديد خصب التربة بنقل أرض اللويس إلى الأرض المزروعة من أحد الجروف القريبة . ويجب تطهير القنوات التى تشق السهول الفيضية ،

وهذا يتم بتكوين الطين الغنى فوق الأرض ، وهـذا يساعد على رفع مستوى السهل الفيضى . فارتباط الفلاح بأرضه إذن قديم جداً ووثيق للغاية ، تحيط به هالة من التقاليد والطقوس ، فهنـاك إله الأرض يقابله إله فى السماء . وكان الإمبراطور المقدس ، حتى آخر الحكم الإمبراطورى ، يبـدأ موسم الحرث الربيعى لأرض الصين باحتفال مهيب . والاهتمام بإله وإمبراطور يضع الصين على طرف نقيض مع البـلاد الزراعيـة العريقة حيث كانت تعبد إلهـة أم . ولا نعلم ما إن كان هذا راجعا إلى تأخر دخول نظام الرى فى الصين أم لا .

إن استمرار الزراعة لآلاف السنين الحرفة الأساسية ، التى تكاد تـكون وحيدة فى السهول الفيضية الرتيبة ، ذات الأشجار والأحراج المغروسة ، عرض رقاع الأرض الصغيرة لخطر التفتت كلما ازداد تكاثر الأسر . ومن ثم كان ترابط الأسر وتكاتفها وإعراضها عن تقسيم الميراث . فكانت عاطفة الأسرة أهم مظاهر الحياة الصينية ، وعن طريقها قامت الصين بكل ما هو فى استطاعتها ، فصنـع آلات الزراعـة وإصلاحها مثـلا ، يتم من مواد يمـكن الحصول عليهـا من المزرعة بيد أفراد الأسرة أنفسهم . فظلت الأدوات التى يستعملها الصينى بسيطة ، ولـكنهـا على درجة كبيرة من الدقة وذات مستوى رفيع . فأصبحت الأسرة بهذا الشكل فى الحياة الصينية ظاهرة مختلفة تماما عما هى عليه فى الغرب . فهى أسرة متداخلة مكونة من الأب وأولاده وأزواجهم وأطفالهم وفى البيوت الغنية تتكون من زوجة رسمية ، وعدد من المحظيات لرب الأسرة ، وربما لبعض رجال الأسرة أيضا . وقد ترسل الأسرة الـكبيرة أحد أبنائها ليشغل إحدى وظائف الحـكومة وليصبح عالما كذلك ، ولـكنه يعود إلى الأسرة عندما يتقاعد أو تحل به كارثة . فالأسرة إذن هى أساس التقاليد والأخلاق الاجتماعية فى الصين . وأصبح الولاء للأسرة أسبق وأهم من الولاء للوحدة الـكبرى ، للإمبراطورية مثلا . وتحتل الزوجة الرئيسية فى الأسرة مكانا هاما ولا سيما إذا أنجبت أولاداً . فأصبحت العـامل المحافظ الذى يربط

وشائج الأسرة بعضها بالبعض الآخر ، بينما تترك رئاســة الاحتفالات والطقـوس لزوجها أو ابنها الأكبر ، الذى يتمتع بسلطة كبرى على بقيـة أفراد الأسرة .

ومن المسائل الشيقة أن تعـرف لماذا شاهدت القـرون الأولى للألف الثانية ق . م . أحداثا فى غاية الأهميـة وتطورات كبيرة فى داخلية آسيا . وقد تصور الزورث هنتنجتون منذ وقت طويل حدوث دورات مناخية فى آسيا ، تبادلت فيها فترات المطر وفترات الجفاف . إلا أن الدراسات التالية بعد ذلك لم تؤيد هذه النظرية . فلا بد أن انتهاء أحوال الجليد فى عصر البلايستوسين كان يعنى طغيان ذوب الجليد على نطاق واسع فى فترات مختلفة . وربما تؤرخ طوفان العراق أو طوفاناته بحوالى ٤٠٠٠ ق . م . وذلك التاريخ يعتمد على أسس سليمة . وربما حدثت فترات أخرى من الطوفانات نتيجة ذوبان الجليد فى داخلية آسيا من وقت إلى آخر .

وعلينا أن نتذكر انه من المحتمل جداً أن يكون رعاة الحيوان فى هذه المنطقة كانوا من سلاله المزارعين الذين فقدوا أرضهم واستطاعوا أن يظلوا على قيد الحياة عندما استطاعوا أن يتبادلوا مع الزراع ما ينقصهم من مواد غذائية . ولا يكاد يفصل الرعاة فصلا تاما عن الزراع إلا فى بعض حالات خاصة فيما عدا المنطقة القطبية وشبه القطبية حيث تتعذر الزراعة فعلا . وحتى فى هذه الأصقاع يجمع الرعاة بعض الأغذية النباتية حيثما وجدت . ومن الممكن، بل ومن المحتمل أن يكون للناس شئ من الخبرة بالزراعة قبل أن يستطيعوا الاستقرار والانتشار فى داخلية آسيا ، أى أن الجماعات لم تتخصص فى الرعى فى زمن مبكر . وربما انتقلت بعض الجماعات فى هذه المنطقة بالتدريج من الصيد والجمع والالتقاط إلى الرعى .

وربما لاءمت ظروف المناخ فى آخر الألف الثالثة ق . م . رعاة داخلية آسيا

مما أدى إلى استئناس الخيل ، وإن كانت قد استؤنست من قبل فربما اتخذت حينئذ حيوانات للركوب ، وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية من ناحية تكوين طبقة أرستقراطية .

ولا مندوحة أن يكون الرعي ، في الأزمنة الحديثة ، نشاطاً قليل الأهمية فوق سهول شمال شرق الصين الفيضية ، حيث الأرض الزراعية ثمينة جداً ، وحيث يعيش الخنزير على الفضلات والنفايات ، فلا يحتل حيزاً كبيراً منها . فالفرق كبير إذن بين الفلاح الصيني في أراض الري والمزارع الذي يربي الماشية أو البدوي الذي يرعاها في مناطق الحدود الجافة . والبون شاسع والتناقض على أشده لأن الانتقال سريع ومفاجيء . عندما تصعد في أعالي وادي واي هو ووادي هوانج هو . والرعاة ، ولا سيما أيضا من البدو ، على أهبة الاستعداد دائماً للقتال دفاعاً عن ماشيتهم في أي وقت ، فهم جيش متحرك له قيادته الخاصة . والفلاحون مسالمون بطبعهم وإن كانوا في غاية الغيرة دفاعاً عن أنفسهم ، ومعرضين للانفجار والركون إلى العنف أحياناً .

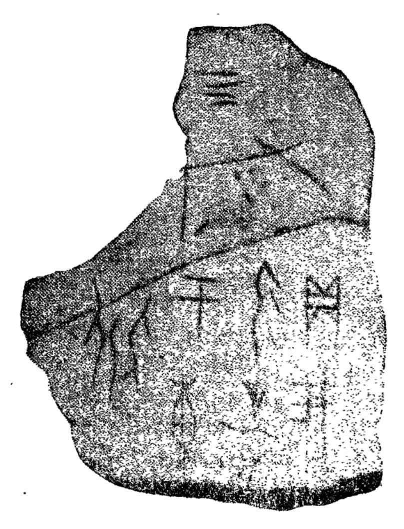
وقد غزا الرعاة الذين يعسكرون على الحدود الجافة شمال الصين مرة بعد أخرى خلال التاريخ ، وأسسوا ملكهم فيها ، وبعد أن يستقروا ويكونوا جماعة إدارية لا تلبث أن تفقد مميزاتها ، وعزيمتها على القتال ، وتتعرض لأن تصبح محكومة هي بدورها . ويبدو أن تلك العلاقة بين الرعاة الغزاة والفلاحين المغلوبين على أمرهم قد أصبحت دورة عادية مقررة ، عندما تشتد قوة الرعاة الحربية اشتداداً كبيراً باتخاذ الخيل للركوب ونشر استخدامه لهذا الغرض ، حوالى نهاية الألف الثالثة ق. م.

علينا أن ندرس العلاقة بين الصين وجنوب شرق آسيا أيضا ، كما درسنا العلاقة بينها وبين منغوليا وداخلية آسيا . وقد امتاز العصر الحجري الحديث

فى الصين ، مثل غيرها من المناطق ، باستعمال الفئوس الحجرية المصقولة ذات القطاع العرض البيضاوى . ومن الممكن تتبع توزيع هذه الأداة عن طريق جنوب الصين وجنوبها الشرقى إلى فورموزا والفيلبين وشرق أندونيسيا (ولكن ليس فى جاوة) وميلانيزيا . وقليل منها موجود فى الهند البعيدة حيث انتشر طراز متأخر انتشاراً واسعاً هاماً . وهذا الطراز يمتاز بالعنق الطويل العريض ذى الشكل المستطيل ، وتسمى هذه الفأس عادة ، بسبب الزاوية المحصورة بين الفأس وعنقها بالفأس ذات الكتف . وانتشرت هذه الفأس إلى جنوب يونان وعن طريق ساحل جنوب شرق الصين إلى فورمورا والفيلبين وشمال شرق كوريا واليابان حتى يزو شمالا ، وإلى شمال سيليبيز . كما توجد فى نيوزيلندة . أما فى الهند البعيدة فهى توجد مختلطة غالباً بطراز آخر ، له قطاع عريض مستطيل ، ولكن ليس له عنق . وهذا الطراز الأخير واسع الانتشار فى الصين ، ويبدو أنه مرتبط بالفخار الملون . كما انتشر إلى حوض ميكونج وعثر عليه فى أماكن كثيرة من بولينيزيا .

وانتهى طراز الفخار الأسود من شمال الصين حوالى الألف الثانية ق.م. ولم يوجد بعد من الأدلة الأثرية ما يربط المرحلة التالية بهذه المرحلة رغم أنه يبدو أنها امتداد لها . فالشعب الذى كان يصنع الآنية السوداء سلم فكرة صنع الآنية الثلاثية من طراز لى Li-Tripcd إلى المرحلة الثالثة ، كما سلمها أيضاً فكرة حرق العظام واستقرار شقوقها التى حدثت نتيجة الحرق فى التنبؤ بالمستقبل . وقد كثرت العظام والقواقع وظهور السلاحف التى كانت تتخذ للتنبؤ فى الفترة التى تقع بين ١٤٠٠ — ١١٠٠ ق. م. والتى عاصرت أواخر أسرة شانج فى التاريخ الأسطورى للصين .

وقد تقدم علماء الصين كثيراً فى قراءة الكتابات التى نقشت على عظام



(شكل ٦٢)

قطع عظام كان العرافون يستوحونها فى عهد أسرة شانج

التبؤ . وربما اتخذ هذا دليلا على استمرار الحضارة الصينية منذ أيام أسرة شانج حتى العصر الكلاسيكى الصينى والعصور الحديثة .

تؤرخ التقاليد أسرة شانج كلها فيما بين ١٧٦٦ — ١١٢٢ ق. م. وتورخ الفترة الأخيرة منها من حوالى ١٤٠٠ — ١١٢٢ ق. م. إلا أنه ينبغى أن نلاحظ أن أى تاريخ سابق لعام ٨٤٠ ق. م. فى الصين إنما هو تاريخ تقريبى ، وإن لم يبعد عن الحقيقة بأكثر من قرن واحد .

وتوضح حفائر آنيانج فى هونان التى أجريت فى رأس دفاعى بارز فوق المجرى القديم لنهر هوانج على حدود هونان المقابلة لهوباى Hopie ، الفترة التى تبدأ من ١٤٠٠ ق.م. فقد عثر فى هذه القاعدة الملكية لملوك أسرة شانج المتأخرين على قرائن عن الحضارة والمهارة الفنية بما فى ذلك صب البرنز فى أشكال معقدة، يمكن أن تؤرخ بنحو ١٤٠٠ — ١١٠٠ ق. م. ويدل طريقة صب هذه الأدوات البرونزية على خبرة فائقة ، إلا إننا لم نعثر بعد على نماذج للمراحل الأولى لهذا الفن . وقد وصل صب البرنز أيام شانج إلى قمة من الإتقان لم لم تكد تصل إليه أية منطقة أخرى فى العالم حتى وقت أحدث من ذلك بكثير . وحتى الآن ، لدينا كل حق فى أن نفترض أن صناعة البرنز قد أدخلت إلى الصين فى مراحلها الأولى وقبل أن تتقن هذه الصناعة . ولكن فى وقت متأخر بكثير عن وقت اختراعها فى جنوب غرب آسيا ومصر حوالى ٣٠٠٠ ق. م. إذن فمن المحتمل أن تكن فنون التعدين قد وصلت إلى شمال الصين من الغرب ، ولكن ، رغم أبحاث الدكتور أندرسون ، لم تصلنا بعد أدلة من كانسو ، وهو الطريق التقليدى الذى تعبره الأشياء القادمة من الغرب ، على مراحل البرنز الأولى ، من الممكن أن تملأ الفجوة الكبيرة الموجودة بين مرحلة الفخار الأسود فى العصر الحجرى الحديث وبين مرحلة برنز شانج فى انيانج ، عندما تظهر الحفائر يوماً ما ، فى مكان آخر ، ما تخبئه الأرض



(شكل ٦٣)
إناء التطهير (الوضوء) من عهد أسرة شانج

من أثر . ولنقتنع الآن بأن نرى أن أعمال البرنز ، مثل الخزف الملون في وقت أسبق من ذلك بكثير ، قد أدخلت إلى الصين ولكنها وصلت إلى درجة فريدة من التعبير الفني في شمال الصين . وما زلنا نجهل طريقة صب البرنز التي كانت على درجة كبيرة من الكفاية والدقة .

ولم تكن البلاد أيام أسرة شانج في درجة ازدحامها بالسكان كما أصبحت منذ ذلك الحين ، وكان سادة تلك الأيام يصطادون الغزال والخنزير البرى إلى جانب الفيل والكركدن والنمر . وربما عرفت المدن في تلك الأيام شيئاً من الأرصفة الحجرية كمدرجات أو كدعائم لأعمدة خشبية ، إلا أنها كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على استخدام الطين والخشب في المباني ، مع استخدام البرنز كقواعد للأعمدة . ورغم أن أحسن الخزف كان يصنع بوساطة العجلة ، إلا أن قدراً كبيراً من الخزف كان لا يزال يصنع باليد . وكانت العربات تستخدم في القتال ، كما كانت تستخدم في الطقوس ، وكانت العربة يجرها زوج ، ثم بعد ذلك زوجان من الخيل ، ويقف وسطها رجل يمسك برمح طويل . ولكن ليس هناك دليل على استخدام الفرسان أو السيوف في الحرب . وكان القوس والسهم ، ولا سيما القوس القوية المزدوجة ، هما السلاح الواسع الانتشار ، إلا أنهم أيضاً عرفوا استعمال الفأس والخنجر البرنزى . وكانت الحجارة الصلبة المعروفة باليشم تصقل وتستخدم في الزينة .

ويبدو أن الرجال وليس النساء هم الذين كانوا يقومون بأعمال الزراعة اليومية إلا أن النساء اشتغلن بتربية دود القز ، وربما ارتبط استخدام الحرير بالدرجة الرفيعة التي وصلت إليها الفنون الأخرى ، وليس لدينا حتى الآن دليل على أن الصينيين أيام أسرة شانج عرفوا المحراث . ومن غير المؤكد أنهم كانوا يعبدون الإلهة الأم المرتبطة بالزراعة ، وهذا أحد أوجه الخلاف بين

الصين و بين جنوب غرب آسيا . وكانت القرابين من الحيوانات ومن الأسرى تقدم على مدى كبير ، وكانت الزوجات والخدم أحياناً يدفنون لمرافقة سيدهم إلى العالم الآخر .

وبينما انتشرت اللغات الآرية من السهوب المنخفضة فى داخل آسيا إلى أوربا وفارس والهند ، وإلى جنوب الروسيا ، فإنه ليس هناك ما يدل على حدوث مثل هذا فى الصين . وليس من المؤكد ، أن تكون لغة شانج ، مثلها مثل الخزف وغيرها من المعالم الحضارية قد اشتقت من الشعب الذى صنع الفخار الأسود، وإن كان هذا أمراً محتملا قياساً على مرحلة ما ورثته الصين أيام شانج . وقد تطورت لغة شانج بعد ذلك ونمت وأصبحت اللغة الصينية. وقد عرفنا الكثير عن هذا الموضوع من النقوش التى تركها الكهنة فوق القواقع وظهور السلاحف رداً على أسئلة كان يلقيها الملوك على الكهنة كما ذكرنا من قبل .

وقد وجدت مجموعة من المقابر الملكية فى آنيانج ، وقيل إنها لآخر اثنى عشر ملكا من ملوك أسرة شانج . وكان القبر الأخير خالياً ، وربما أعده آخر ملك من ملوك هذه الأسرة . وتروى الأساطير أن هـــذا الملك كان ضعيفاً متخاذلا ، قتل فى ثورة دبرها المحاربون من الشـو Chou الذين زحفوا من الحدود المنغولية إلى الصـــين واستقروا فى وادى واى هو (جنوب شنسى) واكتسبوا قدراً كبيراً من حضارة شانج .وربما كانت هذه خرافة اختلقها الغزاة الشو . وقد مات الغازى من الشو ، بعد ذلك بأعوام قليلة ، تاركا حدثاً صغيراً لم يضطلع بأعباء الحكم . وتولى عمه وصاية العرش وقبض على مقاليد الحكم حاملا لقب دوق الشو ، وقد كان هذا الوصى من أبرز الحكام فى تاريخ الصين بأكمله كما كان رائداً من رواد الفلسفة . ونقل هذا الحاكم عاصمته إلى مكان بالقرب من بويانج فى غرب هونان ، وعين حكاماً

وأمراء لمقاطعات الصين المختلفة من بين أمراء أسرة شانج وشو ، بعد أن أقسم يمين الولاء لملك شو . وقد أدى هذا النظام الإقطاعى بطبيعة الحال إلى محاولات الاستقلال بحكم الإقطاعات مما عرضها للغزو الخارجى . ومن ثم تدهورت هيبة أسرة شو بعد أجيال قليلة ، رغم محاولة بعض الحكام الأقوياء استعادة تلك الهيبة، وقد تكون اتحاد مؤقت صغير فى شمال الصين بعد عام ٧٠٠ ق.م. مباشرة حتى آخر حكم أسرة شو ٢٢١ ق. م وعلى أية حال فقد حقق ملوك أسرة شو شيئاً من الوحدة تحت سلطانهم الذى مارسوه عن طريق نبلاء الإقطاع على رقعة أكبر بكثير من الرقعة التى كانت تحكمها أسرة شانج . ونبالغ فى تقديرنا إذا قلنا إن سلطان هذه الأسرة شمل أجزاء من شنسى وشاشى ومعظم هونان وشانتونج وشيه لى (هوبى) . وقد أعطانا منشيوس Mencius فى القرن الثالث ق. م. صورة مثالية للنظام الذى كان سائداً أيام أسرة شو فقال إن أية بقعة أرض كانت تقسم إلى تسعة أقسام ، توزع ثمانية منها على الأتباع المحليين بينما يشتركون جميعاً فى زراعة القسم التاسع لسيد الإقليم . وليس من المعقول أن نعتقد أن مثل هذا النظام كان ينفذ بدقة ، إلا أننا نستطيع أن نقول إن نوعاً من التقسيم كان سائداً بين الشيئة Shi'h أو السيد وبين الأتباع . وكان النظام مستتباً والأمن والسلام منتشرين فى معظم عهد أسرة شو ، أكثر مما كان أيام أسرة شانج السابقة . وليس هناك دليل على القرابين البشرية أيام تلك الأسرة ، كما لا نجد دليلا على التضحية بالأرامل فى جنائز أزواجهن . كما أن هناك أدلة على قيام العلماء بالحكم أيام الملوك الصالحين ، كما أن هؤلاء العلماء لم يكونوا دائماً أو بالضرورة من الأرستقراط ، أى أن الفوارق الاجتماعية كانت أضعف قليلا عن ذى قبل . ويبدو أن ملوك أسرة شو كانوا يحاولون جعل سادة

الإقطاع معتمدين عليهم . يستمدون منهم سلطتهم على أنهم صنائع الملك، وليسوا حكاماً للمقاطعات بحكم حقوقهم الوراثية ، إلا أن هذه الفكرة ظلت نظرية فى كثير من الحالات .

نحن لا نعرف فى الوقت الحاضر ولا ينتظر أن نعرف ، ما إن كان صهر الحديد قد عرف فى الصين مستقلا عن كشفه فى الأناضول ، غير أن ظهور هذا الاختراع فى عهد أسرة شو ، على ما تدل عليه الآثار حتى الآن ، أى بعد أن كان قد ظهر فعلا ، فقد كان فى الغرب من قبل ، يرجح فرض انتشاره من الغرب حيث كان قد ظهر فعلا ، فقد كان صهر الحديد صناعة بسيطة يمكن أن تنتشر بسرعة ، كما انتشرت فى أوربا . وقد عــرف الناس فى ذلك العهد استعمال المحراث . ونحن نعرف من التاريخ الأسطورى أن بعض السكان فى عهد أسرة شو لم يكونوا قد استقروا بعد نهائياً ، إذ تحكى القصص أن هجرة كبيرة من الناس اتجهت نحو الشرق تحت ضغط سلالة من قبيلة الشياطين هسيونج نو Hsiung Na . ومن الممكن أن يكون معنى هذا أن بلاط الإمبراطور ، وما يتبعه من حشود الخدم هم الذين قاموا بهذه الهجرة . وترك الفلاحون يقومون بأعمال الحقل المختلفة ، مثل قطع الأخشاب ، والبناء ، وصيد حيوان الفراء ، والنسيج وجمع أوراق التوت وما إلى ذلك لحساب سادتهم . إلا أنه فى أوائل عهد أسرة شو ساد شئ من الأمن والعدل ، بما فى ذلك العناية بالمسنين .

وازدهرت المدن ، التى تبادلت التجارة مع بلاد بعيدة ، وتقدم النقد ووسائل الراحة والرفاهية ، رغم أن هذه الأسرة فقدت قسطاً من هيبتها بعد أن ركنت للترف ، أى حوالى القرن السابع ق. م. ومرت فى مرحلة معقدة قابلتها فيها الصعاب التى خلقها تطور الأحداث التى سبقتها . وقد ذكر الأستاذ هاينى — جلدرن Heine-Geldern فى محاضرة حديثة له فى لندن.أن

النشاط البحرى للصين جنوب هونان قد أصبح مهماً جداً بعد القرن السابع ق. م. وأنه من الممكن تتبع الأسلوب الصينى فى أشياء كثيرة داخل المحيط الهادى نفسه .

وربما انتشر فن زراعة الأرز المغمور فى أحواض مقفولة تغمرها المياه فى شرق آسيا بعد ٧٠٠ ق. م. أو بعد ٤٠٠ ق. م. ولابد وأن نسجل أن هذا مرتبط بانتشار الحضارة الصينية فى أقاليم تقع جنوب هونان . وليس من شك أن هذا التقدم فى أساليب الزراعة لم يعمل على ازدياد السكان فحسب ، بل أدى إلى امتداد قوة الصين فى الصين الهندية فى القرون الأخيرة السابقة للميلاد .

فى هذا الوقت قام المعلمون الكبار ، فى فترة معاصرة لظهور أمثالهم فى الهند . ومن المهم بصفة خاصة أن نلاحظ أن هؤلاء المعلمين الصينيين والهنود ولاسيما لاوتزو Lao—Tzu، وكونفوشيوس وبوذا،لم يهتموا كثيراً بفكرة الإلوهية ، بل أن كنفوشيوس تحاشاها تماماً عن عمد . وقد اهتم بوذا بصفة خاصة بمصير الإنسان ، وكانت فكرة النرفانا أى الحلول النهائى بالكون ، الذى يسير إليه البشر واحداً بعد واحد ، مثار تفكيره . أما المعلمون الصينيون فقد اهتموا اهتماماً خاصاً بالمجتمع فقال لاتزو إن الناس يجب أن يعيشوا فى انسجام مع الطبيعة ، أى يجب أن يستمروا كما كانوا يعيشون أيامه ، أو على الأقل هذا ما ينبغى بالنسبة للناس البسطاء وهاجم التعقيد. والحركة ، واشتهاء السلطة ، والثراء ، وتدخل المجتمعات بعضها فى شئون البعض الآخر .وكان يرى أن هناك طرقا ووسائل كثيرة مختلفة تهدف إلى الحقيقة .كما أن لها مظاهر مختلفة ومن ثم فإن الحقيقة تفرض على الناس أن ينظروا باحترام متسامح إلى مختلف العقائد . أما كونفوشيوس فكان أساساً الحكيم المحافظ . يبحث فى الماضى

عما يهديه إلى السلوك السليم فى الحاضر ، فى مجتمع هرمى ، الفضيلة فيه من خصائص النبلاء .

وكان من المفروض أن تنتقل المهارة الصناعية من الوالد إلى ولده . ومن ثم كان على الوالد أن ينسج على منوال أبيه ، و يقوم بمهمته . ولذلك كان الفرق بين النبيل والعادى أى بين الغنى والفقير فرقاً واضحاً كبيراً . غير أن هذا لم يمن قط وضع نظام طوائف كما كان معروفاً فى الهند، والسبب فى هذا بلاشك هو كما أوضحنا فى الفصل الخاص بالهند ، عدم وجود فوارق كبيرة بين الناس فى الصين كما كانت فى الهند . حيث الفرق كبير وواضح بين الأمراء المتحدثين بالفيدية الآرية وبين سكان الآجام والأحراج.

صحب تدهور أسرة شو ، كما صحب تدهور أسرة شانج من قبل، ضغط من الحدود الجافة المنغولية . فاستقل عدد كبير من حكام ولايات دولة شو السابقة بحكم ولاياتهم . وأنسلخ الشيثينيون Ch'ins بحكم التخوم الغربية . وتجمعت فى يدهم مزيد من السلطة فى ٢٢١ ق. م. وأعلن شن شئيه هوانج تى Chin Shi'eh Hwang Ti نفسه حاكماً على معظم الأجزاء الشمالية للصين . بعد أن نقل الشو عاصمتهم شرقاً . بعيداً عن طريق زحف الشيثينيين المباشر وقد أراد الحاكم الجديد أن يحكم حكماً استبدادياً. وأراد أن يدمر الكتب التى تحتفظ بالوثائق التاريخية وأن يقضى على كثير من تعاليم الحكماء ويكبت كل نقد لحكومته . وألغى فكرة تقسيم الأرض تقسيما تساعيا . كما ألغى النظام الهرمى للمناصب . وأخضع الجميع لسلطة الإمبراطور وموظفيه وأخضع الجميع للخدمة العسكرية . وكان يعتقد أن التاريخ وما قد يحويه من عبر شيء مضلل . وأنه يجب أن يقتصر الفكر على حدود معينة . ومن ثم يجب أن يحدد الاتصالات بين الصين وغيرها من البلاد.وعلى هذا فقد أمر بأن يقوم الجنود والمجرمون ومعارضوه من السياسيين والمفكرين ببناء سور الصين العظيم ؛

وكان بعض الحكام السابقين على عهد حكم أسرة شو قد أقاموا أسواراً لحدود مقاطعتهم . ولكن سور الصين العظيم فاقها جميعها فى فخامته وقوته . وربما أدخل بعض الأسوار القديمة داخل بنائه فى بعض المواضع ، وكان هذا السور يمثل الحد الواضح بين الأرض الخصبة المنزرعة والأرض المجدبة الجافة ومهد الفاتح الجديد أيضاً طرقاً كثيرة داخل إمبراطوريته تشبه ما قام به الرومان فى وقت متأخر بقليل عن هذا فى إمبراطوريتهم .

وحكم جزءاً كبيراً مما سمى بعده بالصين وربما أضاف إليها جزءاً كبيراً من شرق شبه الجزيرة التى نسميها بالهند البعيدة . ولا بد وأنه كان على قدر كبير من الكفاية الإدارية والقوة التنظيمية الصارمة . غير أن نظامه انهار فى عهد حكم نجله الذى قتل فى ثورة قامت فى أسرة هان عام ٢٠٦ ق . م . وربما كانت هذه الثورة رد فعل محافظ ، أعاد شيئاً من النظام الإقطاعى للبلاد وبعد فترة من السلام والازدهار أمكن استخدام الثروات المتراكمة فى توسيع رقعة الإمبراطورية التى بسطت نفوذها غرباً حتى التركستان الصينية (سينكيانج) .

فى ذلك الوقت كان الغرب نشيطا ، واستطاع الإسكندر الأكبر أن يمد سلطانه وفتوحاته إلى ما يسمى اليوم بالتركستان ، كما استطاع قواده وخلفاؤه أن يؤسسوا المدن والأمصار . وقد استطاع التجار الصينيون فى عهد أسرة هان أن يتبادلوا التجارة مع هذه المدن ، ووصل الحرير أسواق الغرب عن طريق التجار الذى ساروا فى طريق الحرير . كما أن سلطة هان استطاعت فى نفس الوقت أن ترد قبائل هسيونج نو Hsiung—Nu الرعوية على أعقابها ، فاستدارت قبائل الهون Hun هذه غرباً نحو أوربا وعاثت فيها فساداً عندما كانت روما تحتضر . ومن المحتمل أن تقدم التجارة هذا ، مع ما رافقه من إنشاء الطرق وإقامة المحطات التجارية حتى قلب آسيا الداخلية ، قد جاء معاصراً .

لفترة انكمشت فيها ثلاجات الجبال ، مما أضاف قليلا من موراد الماء للسهول الجافة وكما توافرت لدينا أدلة على وجود فترة امتازت بالصيف البارد والمطير فى أوربا حوالى ٥٠٠ قبل الميلاد. وإن هذه الأحوال انتهت بعد مرور قرنين من الزمان تقريباً ، فإنه من الممكن أيضاً أن تكون الرطوبة المشتقة من الجليد الذائب فى داخلية آسيا حوالى ٢٠٠ ق.م قد زادت.وأن هذه الظروف الأكثر رطوبة قد استمرت بضعة قرون أخرى قليلة .

وسارت أسرة هان كما سارت سابقتها فى مراحل الترف والرفاهية ثم الانهيار نتيجة ثورة قامت عام ٢٠٨ م ،

فى أوائل عصر أسرة هان، قد سمت تعاليم كونفوشيوس ووضعت فى مكان الصدارة ، ونسخت نسخاً جديدة من الكتب المقدسة افترض أنها صورة مما نجا من أوامر تشن شيئية هوانج تى التى قضت بإبادة الكتب ، ولكن ، كما هى العادة ، كانت هذه التعاليم قد فقدت روحها ، وأصبحت شكلية وطمست الطقوس معانيها الحقيقية ، ولا سيما فى أثناء تدهور أسرة هان وبعد انهيارها ، عندما مرت البـــلاد فى فترة طويلة تقدر بنحو ٣٦٠ سنة من الانحلال والتفكك والتعرض لهجمات البدو .

وقد أدى اتحاد البلاد تحت حكم إمبراطور يسمى يانج إلى القيام بمشروع القناة الكبرى ، الذى حقق وحده وطنية عظيمة القيمة بين نهرى هوانج هو ويانجتسى ، ولكنه تكلف قدراً كبيرا من المال والارواح . وقد أدى إسراف يانج فى هذا المشروع وفى غيره من مظاهر الطرف والأبهة إلى سقوط أسرته. وقامت أسرة تآنج T'ang عام ٦١٨ م ، لتبدأ مهمتها الجبارة . وقد بدأ أيام يانج تطبيق نظام جديد لشغل الوظائف العامة بعد اجتياز امتحان ، فى تعاليم كونفوشيوس ، وقد وضع هـذا النظام ليقضى على قوة حكام الولايات

الوراثيين وبعد التوسع فى زراعة الشاى فى الأنحاء الدافئة من الصين، ولا نعرف إن كان للشاى وطن واحد أصلى أو أكثر من وطن ، ولا نعرف إن كان له وطن واحد ، ولما كان هذا الوطن هو سفوح الهملايا فى آسام ودارجيلنج أو فى غير ذلك من الصين . وكان للشاى قيمة كبرى فى تغيير نكهة الماء المعكر المستخرج من القنوات التى تملؤها الطين أو البرك والخزانات ، وكان له أثر ضئيل فى تخفيف حدة الآلام الروماتيزمية التى يعانى منها زراع الأرز وهم يعملون فى حقوله المغمورة بالماء ، غير أن الفلاحين وجدوا راحتهم الكبرى فى تعاطى الأفيون .

فى أوائل عصر أسرة تانج حفرت حروف يمكن قراءتها على قطع مستوية من الحجارة ، ثم غطى سطح الحجر بالجير وتركت الحفر دون جير ، وبهذا أمكن طبع عدة نسخ بوساطة حروف بيضاء ذات أرضية سوداء . ويبدو أن هذا كان أول اختراع للطباعة . وبعد ذلك ، ربما فى نهاية هذا العصر استخدمت قطع خشبية لحفرها وطبعها بدلا من الحجارة ، ثم صنعت قوالب الحروف من الطين أو من مادة أخرى يمكن حرقها ، وبذلك أمكن صنع حروف سهلة للطباعة . وبعد ذلك بوقت من الزمن صنعت تلك الحروف من المعدن . ولا نحتاج إلى أن نقول إن حروفنا الهجائية فى الغرب على الرغم من عدم جمالها ، من السهل حفظها وتعلمها كما أنها أسهل وأسرع فى الطباعة من النظام التصويرى البالغ التخصص الذى حفظته التقاليد الصينية ، وبذلت جهود لا حصر لها فى سبيل تبسيط وتخطيط عشرات الألوف من أشكالها(١) .

---

(١) الكتابة الصينية تستعمل أشكالا Characters لا حروفا فى الكتابة فالكلمة المكتوبة عبارة عن شكل تصويرى أو أكثر ، ولا تتكون من حروف صوتية مجردة كما نستعملها نحن . (المعرب) .

ومن المعروف عامة أن صناعة الحروف قد دخلت من الصين إلى أوربا فى أواخر العصور الوسطى .

وشهد عصر تانج أيضا تقدما كبيرا فى الشعر ، ورسم المناظر الطبيعية ، بما فى ذلك العصور الكبيرة المرسومة على أثواب الحرير ، وعمل تماثيل الخيل والرجال من الصلصال ثم حرقها ، وعمل الخزف الصينى . وتوضح تماثيل الخيل والرجال دراسة دقيقة للأنماط البشرية والحيوانية وما كان يجهز به الرجال والخيل من أدوات وأسلحة ، وهى على درجة كبيرة من الدقة والجمال إلا أن هذه الفنون سواء كانت من الرسم والتصوير أم من عمل التماثيل الخزفية لم تنتقل من الصين إلى الغرب . إلا أنه بعد ذلك بعدة قرون انتقل الخزف الصينى من الصين إلى هولندة خاصة وإلى أوربا بصفة عامة .

ثم تدهورت أسرة تانج أيضاً ، وانهارت عام ٩٠٧م وبعد فترة قصيرة من الحكم المضطرب ، تأسست أسرة سونج Sung ولكن على أساس واه ، تضمن تهدئة برابرة الشمال الغربى . وفى عهد هذه الأسرة عدل نظام السخرة ، وسمح للأفراد بدفع إتاوة نظير عدم تسخيرهم فى العمل . واتجه الفن اتجاها انطوائيا أو تأمليا Introspective بعد أن كان نشطا فعالا على يد فنانى أسرة تانج ويمتاز فن عصر سونج بأنه رائع جداً رقيق الألوان والأشكال ، ويمثل شعر هذا العصر قمة الإبداع فى هذا الفن . غير أن التخوم الشمالية ظلت تتهاوى فى يد المغول ، يوما بعد يوم ، كلما سارت الأسرة نحو التدهور . وقد استطاعت أسرة يونج ، التى قاومت هذا الضغط المغولى فترة فى الجنوب ، أن تنمى التجارة البحرية التى انتشرت جنوب شرق آسيا ، بل وأن تنشر الخزف الصينى (أوانى كيلادون) حتى شرق إفريقية وجنوبها .

فوجدت آنية من طراز أسرة سونج بصفة خاصة فى ميناء جيدى الإسلامية

شمال شرق عباسا . كما وجدت مس كشيون تومبسون بعض قطع خزفيـة فى أرضية زمبا بوى بروديسيا . وكانت التجارة البحرية فى غاية النشاط خلال آخر أيام حكم الأسرة المغولية ، كما حكى لنا ماركو بولو ، كما كانت الطرق البرية بين الصين والغرب مطروقة ومعروفة تماما . واستمر شىء من هذا النشاط أيام أسرة منج Ming منـذ القرن الرابع عشر ، ولم تحمل هـذه الطرق التجارة فحسب ، بل حملت المهاجرين إلى جنوب شرق آسيا وأندونيسيا . ولذلك فإن بعض السكان الذين ينحدرون من أصـل صينى أو شبيه منه فى هـذا الإقليم يرجعون إلى عهد قديم ، رغم أن معظم المتحدثين بالصينية فى هذه الأنحاء قد هاجروا حديثاً إلى الملايو وأندونيسيا .

ساعدت صفات الأسرة المركبة المحافظة ، ومحاولتها سد جميع حاجاتها من الأرض التى تملكها ، وحيـــاتها المكتفية بذاتها ، على جعل الحياة الصينية عتيقة المظهر ، تستخدم أدوات مصنوعة فى بيتها ، وتقدس الأسلاف وطرق حياتهم . غير أن نظـام الأسرة المركبة هو أحد القوى العظيمة فى المجتمع الصينى . فقد تردد الأباطرة كثيراً فى تقليل سلطة الأب فى منزله ، حتى لقد قيل إن الصين هى أقل البلاد التى تمارس فيها الحكومة عملها إذ ترك الكثير فى يد الأسرة . ولم يكن ثمة مفر — فى كثير من الأحيان — من أن يضحى الموظفون بالمصلحة العـامة فى سبيل الأسرة ، غير أن هـذه ظاهرة شائعة الحدوث فى كل أنواع الحكومات .

ولقـد كان مصير الأسرات فى الصين الواحدة بعد الأخرى ، الانهيار بعد أن تبدأ عهدها بداءة مبشرة ، تحت قيادة زعيم قوى قادر ، ولم يكن هذا الزعيم فى الصين دائماً من أصل أرستقراطى . فلقد كان من أسباب انهيار الحكم مرة بعـد أخرى دسائس القصر التى تحيكها الحريم وما يحيط بهن من

الأخصياء . حريم باللغة العربية نساء، ولكنه أطلق على مجموعة من زوجات الحاكم وما ملكت يمينه من قيان ومحظيات . إذ تسعى الجارية المحظية في أن تنقل وراثة العرش إلى نجلها ، وتستطيع أن تحكم من وراء ستار ، وأن تمارس السلطة دون أن تتحمل أية مسئولية . وربما طمع الخصى الذكى الذى لا عقب له يفكر فيهم فى أن يمارس السلطان فتحالف كل من الجوارى والخصيان على جلب الشر والمصائب بسبب سوء استغلالهم للسلطة ، غير أنه كانت هناك استثناءات قليلة لهذه الحال .

ومما هو جدير بالذكر أن الصين قد ساهمت بطرق مختلفة فى حياة العالم . فكلنا يعرف الحرير والشاى والموالح (الحمضيات) فى أثناء عصر أسرة تانج أو قبلها ، وحجر المغناطيس الذى يقال إنه عرف فى عصر أسرة شانج ، وهو أصل إبرة البوصلة التى يستخدمها البحارة والتى عرفتها أوربا فى عصر توسع الصين فى نشاطها التجارى البحرى ، والخزف الصينى ، والبارود ، الذى أصبح فى يد الغرب أداة المفرقعات ووقود المدافع ، والطباعة والورق وربما أيضا العملة الورقية ونظام الامتحانات . أما فول الصويا فهو شىء حديث أخذناه من الصين . وربما لم يؤثر فى الرسم الذى تقدم تقدما عظيما فى الصين إلا قليلا فى الفنون الأوربية . ومن ناحية أخرى من الصعب أن نجد شيئاً ماديا ملموسا ساهمت به غرب أوربا فى الصين قبل اختراع البخار والآلات الميكانيكية . وأما من الناحية الفكرية فقد حاول الجزويت الأوائل أن يربطوا تعاليمهم بتعاليم الصين التى تقدس الأسرة ، وبتمجيد كونفوشيوس وتعاليمه الأخلاقية . غير أن الكنيسة الرومانية أوقفت هذه الجهود لأنها محاولة فى التوفيق بين المسيحية والديانات غير المسيحية .

الفصل العاشر

جنوب شرق آسيا والمحيط الهادي

هناك قرائن تدل على استعمال أسلحة ونصال حجرية فى فترة سابقة للعصر الحجرى الحديث بمعنى الكلمة فى جنوب شرق آسيا، كما أن هناك قرائن على استعمال أدوات من طراز النواة ، تشبه ما كان يستعمل فى شمال إفريقية ، غير أنها مشظاة من وجه واحد فقط .

وجد فون ستاين كالينفلز فى جوالاوا وبوديو نيجورو فى جاوة آثاراً فسرها هاينى جلدرن بأنها رؤوس سهام قديمة . وقد وجدت فى هذه الأماكن دون أن يكون معها أية فئوس حجرية حديثة . كما استنتج من شكلها ومن طرق تشظيتها أنها وصلت إلى جنوب شرق آسيا من اليابان . وقد قيل أيضاً إن بعض الجماعات فى الملايو كانت تستخدم أدوات مصنوعة من النواة ومن الشظايا المستخرجة منها .

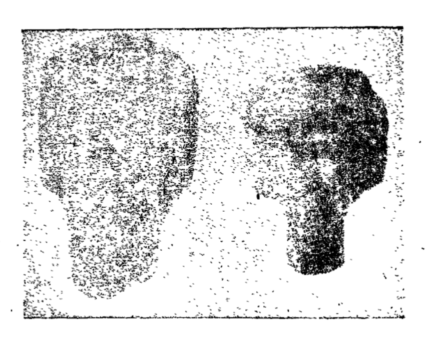
إذا تركنا هذه البدايات المتناقضة المختلطة ، وبدأنا ندرس الآثار والآلات التى وجد شبيه لها فى كثير من أنحاء العالم وتنتمى إلى حضارات العصر الحجرى الحديث بمعنى الكلمة ، وجدنا أنها مكونة من فئوس حجرية شكلت أسطحها وحوافها بالصقل وذات قطاعات عرضية بيضاوية الشكل ،ويسمى الأساتذة الألمان هذه الفئوس باسم Walzenbeil . وهى معروفة تماماً فى الهند والصين واليابان . ووجد بعضها فى الهند البعيدة (الصينية) . غير أنها سلكت سبيلا أهم فى انتشارها من جنوب الصين عن طريق فرموزا إلى الفيليبين ومن ثم إلى شرق أندونيسيا وإلى ميلانيزيا ، وربما وصلت إلى نيكرونيزيا وما وراءها. ومن الغريب والمهم أيضاً أن هذا الطراز لم يوجد فى جاوة حتى وقت قريب على الأقل رغم جمع عدد كبير من فئوس العصر الحجرى الحديث منها. والرأى السائد أنه لم يصل إلى جنوب شرق آسيا حتى عام ٢٠٠٠ ق . م أو ربما بعد ذلك ، ولذلك استمرت فترة ماقبل العصر الحجرى الحديث وقتاً طويلا فى هذه المنطقة . ويمكن أن نستنتج أن هؤلاء الذين صنعوا تلك الفئوس قد مارسوا أيضا الزراعة .



(شكل ٦٤)

فأس حجرية قديمة — من بورنيو

أما الطراز التالى من حيث العمر لفئوس العصر الحجرى الحديث فى جنوب شرق آسيا فيمتاز بأنه أكثر استواء ، وله عنق أضيق من الفأس نفسها ، وتشبه هذه العنق عندما تلتق بالفأس ، عنق الإنسان بين كتفيه . ومن ثم سميت تلك الآلة بالفأس ذات الكتفين ، وكانت العنق تربط بالسيور حول العصا ، ويبدو أن الهند الصينية كانت الوطن الأول لهذا الطراز ، كما وجدت فى أوريا ، وشوتا ناجبور ، والبنغال وعلى ضفاف نهر الجانج حتى «الله آباد» كما وجدت واحدة منها فى جودافارى ، ولما كانت قد عرفت أيضا فى أسام ، فإنه يبدو أنها وصلت الهند عن طريقها . غير أن طريق أسام شاق صعب ، بسبب الغابات واعتراض الحواجز الجبلية ، ومن ثم فإنه يستحسن أن نتردد فى قبول هذه النتيجة التى تعتمد على قرائن ضئيلة . كما أن هذا الطراز من الفئوس انتشر شمالا حتى دخل يونان والساحل الصينى قرب هونج كونج . وربما انتشر من هذا المكان إلى فرموزا وكوريا واليابان ، وربما توغل شمالا حتى يزو ، كما

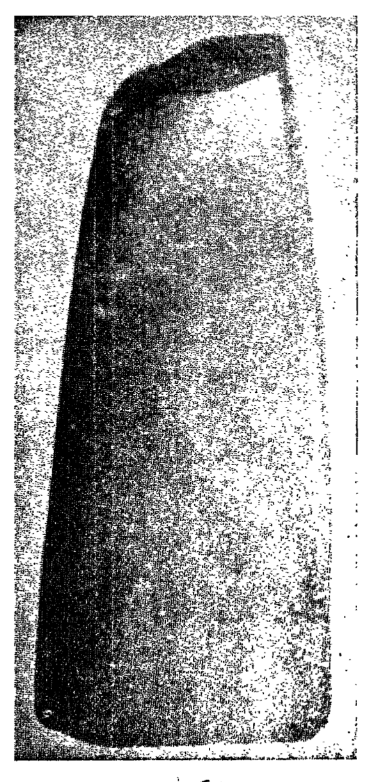


(شكل ٦٥)
فأس حجرية ذات حافة ـ أنام

انتشر إلى الفيليبين والجزء الشمالى من سيليبز (شبه جزيرة ميناهاسا) وشمال بورنيو . ويبدو أنه لم يصل إلى جنوب الملايو مطلقا ، حيث لم يوجد سوى فأس واحدة منها فى باهانج ، وكان الناس الذين يستعملون الفأس ذات الكتفين من الزراع ، غير أنه تنقصنا أدلة على استئناسهم للحيوان . أو حتى الخنزير أو الكلب ، ولم تعرف الفأس ذات الكتفين فى سومطرة أو جاوة . إن توزيعها فى جزر المحيط الهادى لذو أهمية خاصة وسنذكره فيما بعد ، وكان أصحاب تلك الحضارة يقدرون قيمة كبيرة للآلىء ، كما كانوا يصنعون حليهم من الأصداف وغيرها .

أما الطراز التالى لفئوس العصر الحجرى الحديث فهو أكثرها أهمية ، ويمتاز بأنه ذو شكل يشبه الأزميل ، وله قطاع عرضى مستطيل الشكل، ولكن لم تكن له اكتاف وهو يميز الصين تمييزا كبيرا . بما فى ذلك كانسو ، وهونان وشنس وشانتونج ، وفنجتين ، ويونان . وقد انتشر من جنوب الصين إلى الهند البعيدة ، بما فى ذلك تونتجكينج ولاوس ووادى ميكونج والملايو ، وانتشر من إحدى هاتين المنطقتين (الصين أو الهند البعيدة) إلى الهند ، حتى شوتا ناجبور وسانتال بارجاناس ثم انتشر من الملايو إلى سومطرة وجاوة حيث أصبح طرازاً مهما ، وحيث توجد بعض الفئوس ذوات قطاع مثلث الشكل تقريبا ، من كثرة صقل جوانب الفأس التى كانت مستطيلة فى الأصل. ومن شرق الصين انتشر عن طريق فرموزا إلى الفيليبين واليابان ، ومن جاوة انتشر إلى شرق أندونيسيا ولكنه لم يصل مطلقا إلى ميلانيزيا ، وبعض هذه الفئوس التى وجدت فى بورنيو وشرق أندونيسيا لها حافة مرتفعة على طول أحد وجهيها ، وقد جمعت بعض هذه الفئوس الأخيرة من بيسيخيم فى غانة الجديدة الهولندية .

ويبدو أن هذه الفئوس وانتشارها فى جنوب شرق آسيا أقدم عهداً من استعمال البرنز ، الذى بدأ فى تاريخ متأخر . وهى مقترنة بالفخار الملون فى



(شكل ٦٦)
فأس حجرية على شكل أزميل ـــ جاوة

شمال الصين ، وبالفخار الحزز فى الهنــــد البعيدة . وربما انتشرت مرحلة حضارية معينة من الصين إلى جنوب شرق آسيا ، حيث عمرت عدة قرون ، بعد أن انتهت وانقضى أجلها فى الشمال . وقد وجدت فى الصين أوان ثلاثية ، عبارة عن ثلاثة أوان ملتصقة لـكل منها قاعـدة مدببة ، وتسنـد كل منها الأخرى ، كما وجدت أوان ذوات قسمين ، قسم علوى وقسم سفلى ، استخدم لطهو الطعام بوساطة البخار المتصاعد من الإناء السفلى إلى الإناء العلوى . عن طريق ثقوب فى قاعدته .

ولما كانت هذه الأوانى لم توجد فى جنوب شرق آسيا ، فمن الممكن إذن أن تـكون هذه الحضارة الشمالية قد انتشرت عن طريق ستشوان أو منطقة بعيدة غرباً حيث لم توجد هـذه الأوانى . غـير أن الأوانى الثلاثية معروفة أيضاً فى جزر فيجى .

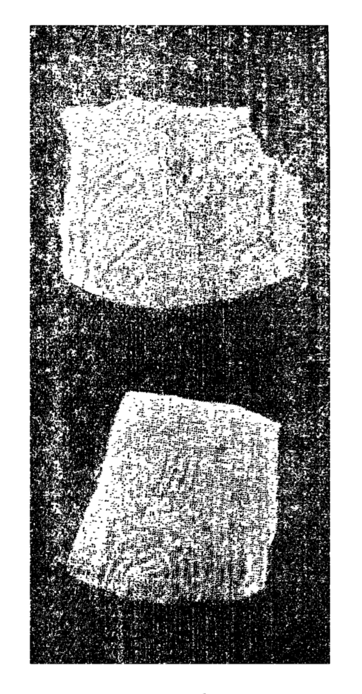
ويبدو أن صناع الفئوس الحجرية ذوات القطاع المستطيل كانوا يحفرون حزوزاً عميقة فى كتلة صخرية ، ثم يضربون الصخر من المكان المحزز ، ويفصلون الفأس عن كتلته الصخرية ، وقد انتشر هذا الطراز من الفئوس إلى أمريكا وإلى بولينيزيا . وكان هـؤلاء الناس يربون الماشية والخنازير فى جنوب شرق آسيا ، كما كانوا يزرعون فعلا الأرز ، ولـكنهم لم يكونوا قد عرفوا بعد طريقة زراعته الرطبة (أى فى أحواض تغرق بالمـاء فصلياً) وعرفوا أيضـاً زراعة الدخن ، وقد حـدس الباحثون أن تكون القوارب المستطيلة Canoes ذوات الحافة المزدوجة كانت من الوسائل التى اخترعت للاستعمال فى أنهار الهند البعيدة خاصة ، فإن كان الأمر كذلك ، فربما اخترعها أصحاب الفئوس الحجرية ذوات الأكتاف ، وذلك قبل صناعة الفئوس الحجرية الأدق شكلا ، ذوات القطاع المستطيل ، أو الثلاثى . وربما أدت الحواف المزدوجة للقوارب إلى استقراره فى الماء ؛ ولـكنه كان صعب

القيادة ، ومن ثم كانت القوارب ذوات الحافة الواحدة أوسع انتشاراً . وقد رأى بعض الكتاب أن أصحاب الفئوس الحجرية ذوات الأكتاف ، كانوا نشيطين فى نشر مجموعة لغات الموندا ، ويدل على هذا بقاء هذه اللغات فى شوتا ناجبور بالهند .

من الواضح أن الهند لم تؤثر كثيرا فى جنوب شرق آسيا ، بل لقد ظلت شبه الجزيرة الهندية فى حالة متأخرة حتى عصر الحديد وعلى كل فقد انتشرت جماعات هندية فى أوائل العصر الميلادى إلى كمبوديا وجاوة ، ثم شيدوا فى وقت تال لذلك معابد انجكورفات فى كمبوديا وفى برابودور بجاوة .

وقد أشرنا إشارات عارضة فيما سبق إلى اليابان . فقد وجدت أنماط سابقة للفئوس الحجرية المصقولة ذوات القطاع البيضاوى فى اليابان بأعداد وفيرة كما وجدت أيضا الفئوس ذوات الأكتاف ، والفئوس التى تشبه الأزميل . وربما وصلت هذه الأنماط إلى اليابان عن طريق كيوشو ، وجزر ريوكيو ، وفرموزا من جنوب شرق آسيا أو من أندونيسيا وإن كان هذا احتمال أقل ويجب أن نذكر إمكان الملاحة التى يسيرها تيار كوروسيو Kuro-Siwo فلقد قامت علاقات ثقافية بين الهند واليابان عن طريق كوريا ، على الأقل فى العصور المتأخرة ، وإذا صدقنا الأسطورة فربما حدث هذا الاتصال الحضارى عن طريق كيوشو .

وتشتمل آثار ما قبل التاريخ فى اليابان على نصب حجرية تشبه نظيراتها فى جنوب شرق آسيا وأندونيسيا ، ولما كانت هذه الآثار قد انتشرت من أندونيسيا إلى جزر هبردين الجديدة ، كما انتشرت شبيهاتها إلى جزر كارولين فمن الطبيعى أن نجدها فى اليابان أيضاً . ويبدو أن هذه النصب لم تظهر فى الهند وجنوب شرق آسيا قبل انتشار الحديد فى الألف الأخيرة السابقة للميلاد ، كما أن بعضها حديث العهد جداً فى ميلانيزيا ، ولذلك فإن نصب اليابان الحجرية ليست



شكل (٦٧)
فخار محفـــور (محزز)

أقدم عهداً من عصرنا الميلادى . وهناك نمط يابانى معين لهذه النصب يسمى Misasagi . وهو يتكون من تل دائرى أو مثلث الشكل متداخل بعضه فى البعض الآخر . ويحيط به خندق أو خندقان . ويحتوى هذا الميساساجى على عقد من الحجر غير المقطوع أى أنه كان فعلا نصباً حجرياً dolmen أو حجرة ذات سقف حجرى معقود . وكان الوصول إلى هذه الحجرة يتم عن طريق ممر مسقوف بقطع ضخمة من الحجارة . ومن المفيد مقارنة شكل هذه المساساجى بالمقابر الضخمة ذوات النصب الحجرية التى شيدت فى عصر ما قبل التاريخ فى شبه جزيرة إيبريا وبريتانى وإيرلندة وشمال اسكتلندة . ويقال إنه لا توجد قرائن على وجود عصر البرونز فى اليابان ، سابق لدخول الحديد إليها ، وهذا شىء غريب إذا تذكرنا نمو صناعة صب البرنز فى الصين فى عهد أسرة شانج إلا أننا نذكر بهذه المناسبة قلة الآثار البرنزية فى أجزاء الهند التى وجدت فيها نصب ضخمة من الحجارة من غير المقطوعة فى عصر الحديد . فهذه نقطة جديرة بالذكر .

ويضع المؤرخون اليابانيون تاريخ أول إمبراطور حكم اليابان فى تاريخ نستطيع — بمقارنته بالتاريخ الميلادى — أن نضعه حوالى ٦٦٠ ق . م . وقد عرف هذا الإمبراطور بعد ذلك بعدة قرون باسم جيموتينو Jimmu Tenno وتقرنه بعض القصص بالعنصر الصينى الجنوبى أو الأندونيسى ، ويقال إنه دفن فى ميساساجى .

وتحكى قصص العصر القديم (حتى حوالى عام ٥٠٠م) حوادث قتال مع سكان اليابان الأقدمين ، الذين بقى منهم شعب الآينو حتى الآن . ويختلف هؤلاء الآينو الذين يعيشون الآن فى يزو (هوكايدو) وشماليه وجزر كوريل الجنوبية اختلافا كبيراً من اليابانيين . فهم يمتازون بالرأس الطويل — أحيانا بالرأس البالغ الطول — والقامة القصيرة حيث يعتبر من يبلغ طوله ١٦٠٠ مليمتر (٥ أقدام و٣ بوصات) رجلا طويلا ، غير أنهم يختلفون عن بقية اليابانيين

قصار القامة بالقامة الربعـــة ، ويغطى رجالهم شعر غزير ، فوق رؤوسهم ووجوههم وأجسامهم وأطرافهم ، بل ويغطى الشعر أطراف النساء ، وأن لم يوجد فوق أجسامهن ، ويمتاز هذا الشعر بأنه أسود خشن وتميل أطرافه إلى التموج بينما يمتاز شعر اليابانيين بأنه دقيق مسترسل ناعم ، وأنوف الآينو ذوات جذر عميق ، وعظام خدودهم مرتفعة ، إلا أن وجوههم ليست مسطحة كوجوه معظم اليابانيين . وعيونهم عسلية وتشبه عيون الأوربيين ، ولا يكاد يبدو فيها سوى أثر ضئيل للثنية المغولية التى تميز جفون عيون المغول . فالآينو بصفة عامة إذن يختلفون اختلافا كبيراً عن عامة سكان اليابان وأوربا والصين فهم ليسوا مغولا ، ويدل هـــذا إلى جانب انعزالهم فى أقصى شمال اليابان . وثبـاتهم على أسلوب الحياة الذى كان سائداً فى أواخر العصر الحجرى القديم معتمدين على صيد السمك والقنص ، على أنهم بقايا شعب قديم ، ويجد هذا الرأى تأييداً ضئيلا من العثور على جماجم تنتمى إلى آخر العصر الحجرى القديم فى المستويات العليا للكهوف فى شوكوتين فى شمال الصين . ولا يزال هناك أفراد يحملون آثار الآينو منتشرين فى كافة أنحاء اليابان . وستكون قصة غزو المهاجرين من كوريا أو جنوب الصين أو منهما معا للجزر اليابانية وقهرهم الآينو ، جزءاً كبيراً من تاريخ اليابان .

وتسجل الأساطير أو التواريخ القديمة قصة غزو اليابان لكوريا وهى تحت حكم إمبراطورة حوالى عام ٢٠٠ م إلا أن التاريخ الصينى لا يذكر هذه القصة ، ومن ثم كانت مشكوكا فيها . ولابد أنه كانت هناك علاقات حضارية ـ ان لم تكن حربية ـ مع كوريا وشمال الصين قبل عام ٥٠٠ م بكثير . ومن ثم فلا نستبعد الغزو العسكرى تماما ، كما أن التاريخ الكورى يذكر فعلا أن الحروب مع اليابان القديمة . ويتحدث الصينيون فى ذلك العهد عن النساجين اليابانيين . ويبدو أنهم عرفوا استخدام الحديد فى صناعة الرماح والسيوف

والمدى والسنانير والمناجل . وربما أدخل الحرير ودود الحرير من الصين إلى اليابان قبل عام ٥٠٠ م . كما أن زراعة الأرز كانت قد رسخت أقدامها تماما . وكان اليابانيون يلبسون معاطف واقية من المطر منسوجة من قش الأرز ، كما كانوا يلبسون أردية مصنوعة من جلود الحيوان وفرائها وأخرى منسوجة من خيوط الجوت. ويبدو أنهم كانوا يستخدمون الخيل فى الركوب ، كما عرفوا الماشية ، ولكنهم لم يعرفوا الضأن أو الخنزير . وتقدمت صناعة بناء السفن ودخل فن الكتابة من الصين إلى اليابان قبل عام ٥٠٠ م بوقت ليس بطويل جدا . ومن معالم الحضارة اليابانية الغريبة أنه رغم تقدم صناعة الخزف فى الصين تقدما كبيرا منذ حوالى ٢٠٠ ق . م . ورغم إدخال عجلة الفخارى من زمن قديم إلى اليابان ، فإن اليابان لم تعبأ بإنتاج آيات فنية من الخزف إلا بعد إدخال عادة شرب الشاى حوالى ١٢٠٠ . وفى هذا الوقت كانت الصين تصنع خزف سونج الجيل.

فى القرن السادس الميلادى انتشرت البوذية عن طريق كوريا إلى اليابان وازداد معها نفوذ المدنية الصينية ، كما تقدمت الفنون والصناعات بما فى ذلك العمارة .

ووضعت القوانين فى القرن السابع الميلادى ؛ كما بدأت أول محاولة لإنشاء نظام إدارى ؛ بينما تجددت عادة إقامة مقابر ضخمة للنبلاء فى كثير من من أنحاء اليابان .

وفى القرن الثامن اختفت عادة تشييد قصر جديد أو عاصمة جديدة لكل عاهل يتولى الحكم ، واستبدل بها مركز ثابت ، فأصبحت كيوتو العاصمة الوطنية لليابان حتى نهاية هذا القرن . ولقد كان التحول من عاصمة متنقلة إلى عاصمة ثابتة علامة من علامات تطور كثير من الشعوب.

وكان الصراع الطويل المرير الذى تركز فى كيوتو ضد الآينو الأصليين

وغيرهم من العناصر صراعا فى جبهة ضيقة ، أى كان مجهوداً مركزاً ، وهذا أسهم فى نمو الروح القومية ذات القاعدة العسكرية ؛ وفى خلق الساموراى وهى طبقة الفرسان الحربية الوراثية . وبهذه الوسيلة اختلف نمو النظام الاجتماعى اليابانى اختلافا قوياً أساسياً عن تطور النظام الاجتماعى الصينى وهذا أدى إلى اختلاف كل من القطرين اختلافا واضحاً عن الآخر فى تطوره .

ومن الممكن تتبع التطور الحضارى لجنوب شرق آسيا فى النصب الحجرية الموجودة فى هذه المنطقة ، وهى نصب من الصعب ربطها بالحضارات المختلفة التى تعرفنا عليها عن طريق ما تركته من آلات حجرية . أما هذه النصب التى يمكن أن تربط بمثيلاتها فى غرب أوربا فهى موجودة فى أسام وغرب بورما ، وقد استمرت عادة تشييدها فى أسام حتى العصور الحديثة وقد ارتبطت فى لاوس وتونجكينج بالطقوس القديمة وهى لا توجد فى جزر نيكوبار بينما توجد فى بعض أنحاء شبه جزيرة الملايو وسومطرة وجاوة . وتقع أمام الساحل الغربى لسومطرة سلسلة من الجزر ، من بينها جزيرة نياس التى تمتاز خاصة بنصبها الحجرية . ولكنها لا توجد فى جزر هذه المجموعة الجنوبية التى تعرف بجزر ميلتاوى . وهذه النصب الحجرية معالم هامة فى شرق جاوة ، فى سومبا وفلوريز وفى بعض أنحاء بورنيو والفيلبيين .

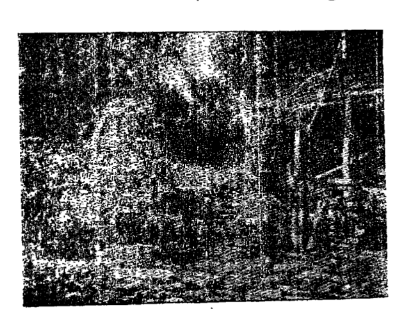
وتشتمل هذه النصب على ما يعرف فى غرب أوروبا باسم الدولمن أى كتل حجرية ضخمة مقامة أفقياً فوق عدد من الحجارة المنتصبة الضخمة وفى بعض الحالات ، صففت الحجارة المنتصبة بشكل خاص بحيث تترك فتحة بيضاوية للهيكل وأحياناً كانت تنحت هذه الفجوة فى الصخر ؛ وقد سميت هذه الفتحة باسم فجوة الباب ، وتفضل التسمية الألمانية لها Seelenloch إذ أنها — كما يتفق الكتاب عامة — كانت بقصد السماح لروح الميت ، أو أرواح الموتى المدفونين فيها بالدخول منها يوم البعث .

وعندما تحدثنا عن الهند ذكرنا النصب الحجرية التى أقيمت فوق مدافن شبه الجزيرة ، والتى وجدت فى بعضها آثار ترجع إلى أوائل عصر الحديد أى مابعد ٨٠٠ ق.م. تقريبا ومن الجدير بالذكر أن إليوت سميث منذ زمن طويل قد ذكر أنه حوالى هذا التاريخ انتشرت فكرة إقامة النصب الحجرية إلى الهند من الأقطار التى تقع إلى الغرب منها ، وفى رأيه أن مصر الأسرة الحادية والعشرين كانت مصدر هذا الانتشار ، الذى كان جزءاً من نشر حضارة عبادة الشمس Heliolithic وقد ساعدت على هذا الانتشار التجارة الفينيقية ، وأنها فى انتشارها كانت تجمع مظاهر متعددة فى طريقها . ومن المعروف أن نظرية إليوت سميث لم تقبل بحذافيرها بعد ، ولكن هذا كان دافعاً أكبر لنا كى نذكر النقط التى يبدو أنه كان على حق فى بعض أجزائها .

تختلف آثار مقاطعتى ناجا وخاسى فى أسام اختلافاً كبيراً عن آثار شبه الجزيرة الهندية . فهى جزء من السلسلة التى وجدت فى جزر الهند الشرقية ، وليس من المؤكد قط أن أسام كانت مصدر الانتشار الحضارى جنوباً بشرق فمن المحتمل على الأقل أن تكون الحضارة انتشرت فى الاتجاه المقابل لذلك . إذ تشمل الآثار الحجرية الضخمة فى آسام وجنوب شرق آسيا أيضاً على مقابر فوقها نصب حجرية (دولمن) وتوابيت حجرية ونصب حجرية قائمة (تسمى منهير Menhir فى غرب أوربا) .وكانت هذه الأحجار الضخمة تقام فى مجموعات لكى تؤلف صفوفاً مستقيمة ، أو دوائر أو تكدس بعضها بجانب بعض فوق تل صناعى ، وربما كانت تقام على النمط الأخير لتخليد ذكرى ذبح الأعداء وكان كل حجر يمثل عدوا قتل . وكان هؤلاء الناس يصطادون رؤوس الأعداء لكى يتزودوا بقوة روحية ، ويضيفوا أساساً روحياً لجماعتهم يساعدهم على البعث ، ومن ثم كان لدينا هنا نوعا جديداً من عبادة الخصب يشتمل على الموت ، أما الحجارة المرصوصة فى شكل دائرى ، فربما كانت أماكن للعبادة

أو أماكن يعقد فيها رؤوس الجماعات اجتماعاتهم ، فكانو يجلسون على صخور الدائرة لغرض انتخاب زعيم لهم أو للتشاور فى أمور مجتمعهم .

وقد لاحظ هتون Hutton أربعة أنماط للآثار الحجرية بين ناجاس الأنجامى Angami Nagas ، هى الداهو dahu وهى عبارة عن هرم مثلث الشكل ، يمكن أن يستعمل كمتراس دفاعى ضد هجوم قرية أخرى . ويبدو أن هذا الهرم كان يقام فوق مقبرة رؤساء أسلافهم ، ومن ثم كانت له قداسة خاصة ، ويرى هتون أن الهياكل الصخرية الكبيرة الموجودة فى تباهوانا كو وسا كساهوامان فى بيرو تشبه هذه الأهرام المثلثة . أما التهوبا Tehuba فهى رصيف مرتفع مسطح للرقص ، قد يحاط بدائرة من قطع الصخر المكعبة الشكل ، لكى يجلس عليها الرجال ويتناولوا الشراب وغالبا ما يحد هذا الرصيف حائط من أحد جوانبه ، حيث يصف عدد آخر من المقاعد كما قد تنحت كوى فى الحائط كى يضع فيها الرجال كئوسهم . وقد يعد جناحان آخران من الخشب

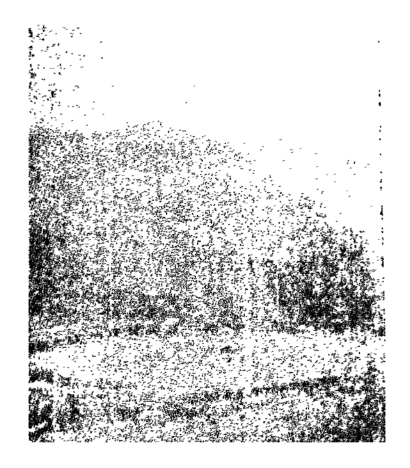


(شكل ٦٨)

مجمع هرمى بلجاجم

لهذا الحائط ، حتى يتسع لعدد أكبر من المقاعد . وقد لاحظ كثير من الباحثين ما يقابل الداهو والتيهونا فى جزر بولينيزيا .

ولاحظ هتون أن المقطع هو hu مرتبط بالمبانى الحجرية الضخمة فى جنوب شرق آسيا وبولينيزيا وبيرو . والكويهو Kwêhu كوم من التراب مسطح القمة ومحاط بحائط دائرى ، وكانت قمته ترصف أحيانا وربما وضع تمثال خشبى للميت الذى أقيم النصب لتخليد ذكراه (فهو نصب تذكارى أكثر منه قبر) ، ولذلك كانت توضع قطعة من الصخر خلف الصورة الخشبية لاستمرار تخليد ذكراه بعد تحلل الخشب ، ويوجد مايشبه هذا الكويهو فى جنوب الهند وفى شمال إفريقية وفى إيطاليا الأتروسكية . أما النمط الرابع فهو البازى bazi وهو اسم لا يشتمل على المقطع « هو » ، وهذا النمط عبارة عن رصيف حجرى مستطيل يرقى إليه بدرج ، وقد توضع مقاعد حول قمته ، أو عدد من المقاعد فى صفوف متدرجة أحدها أعلى من الآخر ، وقد يكمل البناء بالخشب ، وقد يقام كله من الخشب أحيانا . ويتساءل هتون ما إن كان لدينا هنا مثالا مما هو موجود فى كثير من أنحاء العالم الأخرى (سانشى Sanchi فى الهند ، والبارثينون فى أثينا وستونهج فى بريطانيا . . إلخ) لبناء خشبى عدل فيما بعد وأقيم من الصخر ، وإننا هنا بإزاء حالة لايزال الخشب مستخدما فيها وإن هذا هو السبب لعدم وجود المقطع هو فى اسمها . وقد لفت هنرى بلفور نظرنا من أمد طويل إلى بعض أوجه الشبه بين الداهو عند الناجاس الأنجامى وبين الآهو ahu فى جزيرة إيستر . كما توجد فى جزر ماركويساس أماكن للرقص الرسمى تسمى تاهوا . وهى لاتختلف كثيراً عن المراقص التى تسمى رتيهوبا التى وصفناها من قبل . ومن ثم فربما كانت هناك حلقة بين هياكل بولينيزيا وجنوب شرق آسيا . ومن المشكوك فيه أن ترتبط هذه الحلقة بساحل أمريكا الغربى (حيث وجدت مليمى بالمير داهل) .



(شكل ٦٩)
منصة (تيهوبا) فوق مقبرة

وربما وجدنا فى بولينيزيا وغرب أمريكا تداخل معقد لعناصر حضارية كثيرة . تعتمد اعتمادا أساسيا على تراث حضارى جاء من جنوب شرق آسيا وسنذكر فيما بعد الطرق والوسائل التى اتبعتها تلك العناصر الحضارية فى انتشارها .

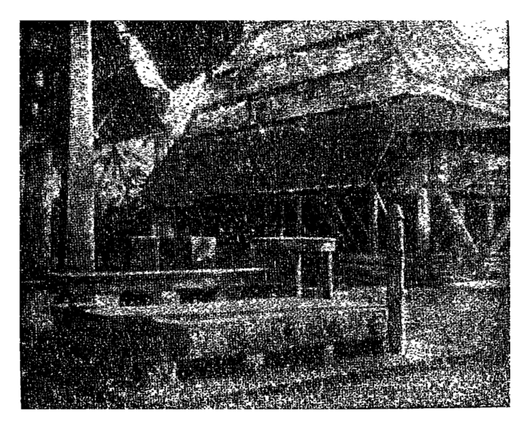
وقد أدت معالجة رفات الموتى عند الخاسى فى أسام إلى تشييد طراز آخر من الآثار . إذ يحرق جسم الميت أولا . ويحفظ الرفات فى قبر منفرد . ثم ينقل بعد ذلك إلى مقبرة الأسرة . ثم أخيرا ينقل الرفات إلى مقبرة العشيرة . وقد تبعد مقابر الأسرة عن مقابر العشيرة . وعندما ينقل رفات الميت من مقبرة إلى أخرى . تمنح روحه فترة راحة فى الطريق . في مكان مقدس يتكون من

صخرة قائمة تحيط بها عدة مقاعد حجرية تستريح فيها أرواح الموتى ، وقد تقام نصب حجرية تذكارية فيما بعد ، وقد يصل عددها إلى ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١١ يتوسطها أعلى الأحجار جميعاً . وقد تطرح بعض الصخور أفقيا فوق دعائم ترتفع إلى قدمين ونصف قدم فوق مستوى الأرض . ويقال إن الأحجار القائمة تمثل أحيانا أقرباء أم الميت من الذكور كما يقال إن قطعة الصخر المطروحة أفقياً تمثل أم العشيرة الأصلية ، وتليها جدة الأسرة ، وقد لوحظ تمثيل النوعين من ذكر وأنثى بقطع من الصخر مختلفة الأوضاع فى جزيرة جلبرت فى المحيط الهادى ، كما لوحظت فى جزيرة مدغشقر جنوبا بغرب وإن تخصيص أقارب الأم الذكور بالذات ليدل على وجود رابطة ما بالنظام الأمى ، إلا أنه أحيانا يقال إن الصخر الأوسط يمثل الأب ، والصخور الأخرى تمثل الإخوة . وهكذا مما يدل على نظام أبوى ربما كان أقدم فى رأى البعض ، من النظام الأمى ، وهذه آراء متعارضة . وتوجد فى الملايو صخور مفردة من الجرانيت ذوات أرصفة مقامة أمامها . ومن العسير معرفة عمرها ، وإن كان هناك اتفاق عام على أنها سابقة لظهور أو انتشار الإسلام فى هذه المنطقة ويقال إنها نصب تذكارية أكثر منها شواهد قبور .

وقد أصبحت نياس ، غربى سومطرة بجزر الهند الشرقية موضع الاهتمام نظراً لأنها لاتزال تحتفظ بكثير من صفاتها القديمة ، التى تشبه دون شك تلك الصفات التى تحدثنا عن وجودها فى أسام ، ولكنها على درجة كبيرة من التعقيد والإتقان غير موجودة فى هذه المنطقة الأخيرة ، وتشمل هذه المعالم القديمة عدداً كبيراً من النصب الحجرية المكونة من الحجارة المقطوعة بعناية ، ذوات الحلى المنحوتة ، وهى فى الأصل نصب تذكارية ، وتعتبر الصخور القائمة ذكوراً ، بينما النائمة إناثاً . ويتكون كل نصب تذكارى عادة من زوج من الصخور ، وقد تكون الصخور النائمة مقاعد للأرواح ، أو للأحياء أحيانا عندما يجتمعون فى مجالسهم . وبعض المقاعد الحجرية الموجودة خارج منازلهم

كبيرة ومغطاه بمظلة أو منحوته بعناية . وأحيانا توضع الصخور القائمة خلف تلك المقاعد للأرواح كي تتكيء عليها . وعلى ضوء ملاحظة هتون عن المقطع « هو » الذى ذكرناه من قبل ، من المناسب أن نضيف هنا أن هذه الصخور التى أقيمت لتتكيء عليها أرواح الموتى اسمها بلغة النياس تدور هولو . وقد تستخدم بعض المقاعد الحجرية التى تحدها نصب حجرية من جانبيها كعروش وفى هذه الحالة تشكل النصب الحجرية بعناية . وتوجد مقاعد حجرية ذوات حجارة بسيطة دون تشكيل لدى ناجا الكونياك (Konyak Nagas) التى تروى تقاليدهم أنهم وفدوا من بلاد تقع جنوب وطنهم الحالى فى شمال شرق أسام .

ويحصن النياس قراهم ويرصفون الطرق الصاعدة إلى التلال . كما يفعل الناجا فى إقليم أسام . إلا أنهم أكثر دقة وعناية بعملهم من الناجا .



(شكل ٧٠)
ناووس حجرى كبير أمام منزل زعيم — نياس الجنوبية — أندونيسيا

وينتشر البناء بالصخور الضخمة، أو كان منتشرا فى الماضى فى جزر الهند الشرقية. وهذه الأبنية تشمل عادة الأنماط التى ذكرناها من قبل عند الناجا والنياس، غير أنها ليست موجودة فى معظم أنحاء بورنيو والفليبين، كما أنه توجد فجوات أخرى فى نظام توزيعها، ومن المتفق عليه عامة أنها عنصر حضارى حملته إحدى الهجرات التى دخلت البلاد فى الماضى. ويقول هاين جلدرن Heine Geldern وهو أحد الثقات المتخصصين فى هذه المنطقة، إن النصب الحجرية الضخمة فى أندونيسيا وجنوب شرق آسيا تقترب من نظيراتها فى غرب أوربا اقترابا كبيراً، ويذكر كوى الكشوس أو فتحات الباب أو ثغرات الأرواح Seelenlöcher فى النصب الحجرية من نمط الدولمن فى كل من الإقليمين، وإن هذا التقارب ليثير كثيراً من الصعوبات أمام من يربط بينها جميعاً ويربط بين معظمها فى غرب أوربا بالجزء الأخير من الألف الثالثة ق. م. إذ أن تاريخ النصب الحجرية فى الهند يوضع عادة فى داخل الألف الأخيرة السابقة للميلاد، ولا توجد لدينا أية قرائن على أنها ترجع إلى عهد بعيد فى أندونيسيا، إلا أننا إذا تذكرنا أن النصب الحجرية ظلت أحيانا مراكز للطقوس والعبادات فى أوربا حتى العصور الوسطى وأن تاريخ تشييد كثير منها غير معروف، فإن العلاقة الممكنة بين هذه النصب الحجرية فى كل من غرب أوربا وجنوب شرق آسيا لا تثير صعوبة كبيرة. إلا أننا يجب أن نتذكر أن ريجاس Reygasse يرى أنه لا توجد أية علاقة بين النصب الحجرية الضخمة المقامة فى جبانات شمال إفريقية وتلك المقامة فى غرب أوربا، وأن هذه الجبانات ترجع إلى القرون الأخيرة للألف السابقة للميلاد إن لم توجد فى بعض الحالات أحدث من ذلك. فهى إذن تكاد تكون معاصرة، واقتربت معظم النصب الحجرية الموجودة فى جنوب شرق آسيا فى تاريخ إنشائها من تاريخ معظم النصب الحجرية الموجودة فى غرب أوربا. ونستطيع أن نضيف إلى هذا أن مقاعد المجالس والرؤساء وغيرها أشياء تختص بها نصب جنوب شرق آسيا، وأنها لا تعرف فى غرب أوربا،

ويوجد فى نصب جزيرة سومبا عدد من القاعد الحجرية ذوات النقوش الدقيقة . بينما تركت غيرها ساذجة . ويقال إن الأخيرة كانت شواهد لقبور العامة ، بينما أقيمت الأولى لتخليد ذكرى الرؤساء ، غير أن هذا من قبيل الحدس والتخمين فقط . وهناك حدس آخر يؤكد أهمية وجود زوج من الشواهد الصخرية لكل قرية فى بعض المناطق مثل منهاسا (شمال سيليبيز) ، واحد قائم (ذكر) وآخر نائم (أنثى) وهى تقام عادة فوق دعائم صغيرة .

وإذا انتقلنا إلى المحيط الهادى ، فإننا نلاحظ أولا أن فأس العصر الحجرى الحديث الأسفل (ذات القطاع البيضاوى) قد انتشرت من آسيا عن طريق فرموزا والفيليبين إلى شرق أندونيسيا وميلانيزيا ، ووجدت أبعد من ذلك فى تونجا ، بنيوزيلندة وفى توبواى (بجزر استرال) وفى بتكيرن Pitcairn .

وتوجد الفأس ذات الأكتاف فى توبواى . مع وضع عنق الفأس عند أحد جانبيها وليس فى وسطها ، ووجدت مثل تلك الفأس فى بتكيرن وجزر سوسيتى . أما الفأس ذات العنق الرفيع الموجود وسط قاعدتها فهى منتشرة انتشارا كبيرا فى المحيط الهادى ، بما فى ذلك نيوزيلندة وجزر شاتهام وجزر نيوى (جزيرة سافيج) ، وجزيرة كوك ، وتوباى وجزر سوسيتى ، وماركويساس ، وبتكيرن ، كما توجد أيضا فى تيكوبيا التى تقع شرقى الممر البحرى بين جزر سانتا كروز وجزر هيبرديز الجديدة (ميلانيزيا) .

إن توزيع الفأس الحجرية الحديثة فى المحيط الهادى واقتصار توزيعها فى شمال بورنيو وميناهاسا (شمال سيليبز) فقط من جزر أندونيسيا ، ووجودها فى الفيليبين أيضا يدل على أنها لم تصل إلى بولينيزيا عن طريق ميلانيزيا ، بل على أنها وصلت تيكوبيا عن طريق بولينيزيا .

أما الفأس ذات القطاع المستطيل فهى تنتشر عامة فى أندونيسيا وفى بولينيزيا

ويوجد قليل منها فى ميلانيزيا . ويبدو أن الشعب الذى اتخذها ضمن أسلحته كان يستطيع الإبحار إلى كل مكان تقريباً .

ووجد فى فيجى الفخار الثلاثى (اللامع غالباً) ، غير أن فن صناعة الفخار إما أنه لم يصل إلى معظم جزر بولينيزيا وإما أنه اندثر بسرعة وراء جزيرة تونجا كما اندثر من معظم جزر هبريدز الجديدة ، ولا يوجد فخار فى ساموا . إذ أن عدم وجود الفخار أو ضياع هذا الفن فى جزر المحيط الهادى أمر ملاحظ جداً ، ويستعاض عن الأوانى الفخارية عادة بالأوانى الخشبية والأوانى المصنوعة من الألياف المجدولة ، والقرع والأوانى الصخرية أحيانا . ومن معالم هذه الجزر أيضاً عدم معرفة أهلها بالنسيج أو ربما نسى أهلها هذا الفن. وتستخدم نساء جزر كارولينا الأنوال ، ولكن نساء جزر مارشال وجلبرت وما وراءها لا تعرف الأنوال . ولا يعرف النسيج فى بابوا أو فى ميلانيزيا إلا فى جزر سانتا كروز ، حيث يقوم الرجال بالنسيج ، بينما تجدل النساء الأليـاف ولا ينسجن .

ومن المعالم الأخرى انتصار استعمال القسوس والسهام على مناطق قليلة متناثرة فسكان جزر الأميرالية يعرفون الأقواس والسهام فى الصيد فقط . بينما هى تستعمل استعمالا واسعاً فى جزر ميلانيزيا ، وتفتقر جزر بسمارك (التى تسمى الآن جزر بريطانيا الجديدة ، وإيرلندة الجديدة .. إلخ) إلى هذه الأسلحة ، كما تفتقر جزر كاليدونيا الجديدة إليها أيضاً ، غير أنها موجودة فى سانتا كروز ، وفى تاهيتى، وكانت تستعملها جزر تونجا فى القتال ، غير أن سكان جزر ماركويساس يستخدمون الهراوات فى القتال .

وينتشر فى جزر المحيط الهادى الجنوبية فن دق لحاء أشجار التوت وعمل غطاءات عريضة منها (تابا) ، تستخدم فى اللباس .

ويعيش فى الأجزاء الداخلية من جزر بابوا وسليمان شعوب سوداء البشرة .

قصار القامة ذوات شعر مفلفل ، ويبـدو أنهم ، مثل التسمانيين ، ذوو نسب لبقايا الأقزام الآسيويين (النجريتو) فى جزر أندمان ، والملايو (السمانج) والفيليبين (الآيتا) . كما توجد شعوب أطول قامة ذوات بشرة داكنة ، لهم تقاطيع غليظة وشعرهم مجعد أو مموج أكثر منه مفلفلا كما تنمو لذكورهم لحى ولهؤلاء علاقة نسب بالأستراليين الأصليين ، وكل من هذين الأصليين يدل على انتشار قديم لبعض السلالات عندما كان المحيط أدنى مستوى مما هو عليه الآن أى عندما كانت هناك كتل ضخمة من الماء متجمدة على هيئة غطاءات جليدية خلال فترات مختلفة من عصر البلايستوسين . ويرى وودجونز أن الصدفة حملت التسمانيين من ملانيزيا . غير أن أتكنسون (١٨٩٠) قد صور بعض الأستراليين الأصليين من شمال كوينزلاند ، كما جمع تندال بعض صور شبيهة لهؤلاء من الغابات الرطبة التى تغطى منطقة بالقرب من كرينز Crains ودرسهامع بيردسل Birdsell، ويقال إنها قريبة لعناصر موجودة بين السلالة التسمانية الأصليـة البائدة . كما يقال إن التسمانيين الأصليين والأستراليين الأصليين لا ينتمون إلى سلالة واحدة .

والعنصر القزم الآسيوى (عنصر النجريتو) أقوى ما يكون فى بابوا ، بينما العنصر الأسترالى ملاحظ جداً فى ميلانيزيا ، ولا ريب فى انتشار هجرة بشرية من بابوا نحو ميلانيزيا ، وأن هذه الهجرة استمرت بعد انتهاء عصر البلايستوسين وارتفاع مستوى البحر .

فلا ريب إذن مما قلناه حتى الآن فى أن فكرة الفخار والقوس والسهام قد انتشرت عبر ميلانيزيا حتى فيتى ليفو وتونجا .

كما انتشرت الفأس المصقولة ذات القطاع البيضاوى خلال ميلانيزيا إلى فيتى ليفو وتونجا ، كما وجدت بعض تلك الفئوس فى نيوزيلندة ، مما يدل على إمكان حدوث اتصال حضارى مع ميلانيزيا . غير أنه يجب أن نتحدث بحذر

عندما نناقش مسألة انتشار الفئوس الحجرية ، إذ قد يستمر استعمال نمط ما بين هذه الفئوس مدة طويلة ، كما أنها سهلة الحمل .

أما القول الذى ذكرنا من قبل أن نساء كارولينا بجزر ميكرونيزيا يستعملنه وأن رجال سانتا كروز فى جزر بولينيزيا يستعملونه ، وأنه غير معروف فى جزر مارشال وجلبرت أو فى جزر بابوا وميلانيزيا (فيما عدا سانتا كروز) فربما انتشر من بحر سيليبز شرقا وجنوباً بشرق ، إذ أن هناك تياراً مستمراً من الماء يمر من بحر سيليبز شرقا نحو جزر كارولينا معظم أيام السنة ، كما أن التيار الاستوائى المضاد يمر شرقا من هذه الجزر الأخيرة ، فهذا — من الناحية النظرية — طريق ممكن نحو المحيط الهادى ، وقد لا يبدو من الخرائط العامة للتيارات البحرية أن الطريق من جزر كارولين إلى سانتا كروز ملائم ، غير أنه فى الواقع يوجد نطاق يقع بين مجرى التيار الاستوائى الجنوبى والتيار ضد الاستوائى يمكن أن تسلكه القوارب . وربما كانت الرحلات البحرية من بحر سيليبز أو جزر كارولين إلى مجموعة سفن سانتا كروز مغامرة كبرى أمام البحارة من السكان الأصليين . وأن الملاحة بإزاء الجانب الجنوبى الغربى لجزر سليمان ، طبقاً للخرائط العامة ، أقل تعرضاً للتيارات المضادة من الملاحة بإزاء الجانب الشمالى الشرقى .

من الممكن أن نقدم لموضوع النصب الحجرية الكبيرة فى جزر المحيط الهادى بما قلناه عن سماتها الحضارية القليلة العامة ، فلقد وجدت نصب حجرية من هذا القبيل فى كل من ميلانيزيا وبولينيزيا ، وإن كانت كل منهما تختلف عن الأخرى اختلافاً كبيرا فى نصبها الحجرية ، وقد درس لايارد نصب هبرديز الجديدة بشىء من التفصيل ولا سيما تلك التى وجدها فى جزيرة ماليكولا . وقد لفت الأنظار بصفة خاصة إلى وجود قطع حجرية مفردة (Monoliths) قائمة يرى أنها تمثل الذكر ، ووجد دولمن (قطعة مسطحة من الصخر نائمة فوق صخرتين منتصبتين) تمثل الأنثى ، وتتصل الأولى بمبدأ التسلسل الأبوى ، بينما

تتصل الثانية بمبدأ التسلسل الأمى ، غير أنه قد يوجد هذان النمطان معا ، كما قد توجد أيضا مقابر مبنية .

ووجد بالقرب من ساحل جنوب ماليكولا قطع حجرية مفردة ودوائر من القطع الصخرية الصغيرة ، كما قد نحتت بعض الصخور المفردة لتمثل وجوها بشرية ووجدت فى وسط شمال هذه الجزيرة ، على الجانب الغربى لبرزخ صغير يربط شمال الجزيرة بجنوبها دوائر صخرية ودهاليز تحف بها صخور قائمة . أما الجزر الصغيرة التى تقع بالقرب من الساحل الشمالى الشرقى لجزيرة ماليكولا فوجدت بها دولمينات وصخور مفردة فى بعض مواضعها ، وأرصفة مبنية من الصخر ، غير أنه لم توجد بها دوائر من الصخور . أما فى شمال ماليكولا فقد وجدت أصنام أو صخور مفردة ودولمينات . ويبدو أن الصخور المفردة قد سبقت الدولمينات فى الظهور فى آتشين Atchin حيث قد تأسس نظام أبوى قوى ، وحيث تحتفظ الأسر بقوائم نسب طويلة ، بينما كان هذا النظام الأبوى أمراً مستحدثا فى جزيرة فاو (إحدى الجزر الصغرى) ، ومن ثم كان عند الدولمينات قليلا وقوائم النسب قصيرة . أما النصب الحجرية المميزة لجزر سبريتوسانتو وبانكس فهى من نمط الدولمينات . وتسمى الطقوس الرئيسية بها بالماكى Mak¹ وهى قائمة على أساس فكرة البعث . ومن المحتمل أن يكون النظام الأبوى للمجتمع قد امتد من تلقاء نفسه شمالا من جنوب ماليكولا . ويروى سكان هذا الإقليم أن شعبا أبيض البشرة وفد إلى هذه الجزيرة يحمل إليها الحضارة ثم غادرها وأقلع عنها ، وقد دفن أحد حملة الحضارة هؤلاء فى جنوب غرب جزيرة ماليكولا فى قبر مستدير ، وإذا قارنا هذا القبر بمثيله فى أوربا ، وجدنا أنه مقبرة مستديرة ، ومزودة بمقعد حجرى يجلس عليه هذا الزعيم ، موجود داخل دولمن يغطيه كوم من التراب وتتناثر فوقه قطع من الحجارة .

من الممكن الوصول إلى جزر كارولين كما قلنا عن طريق تيار يتجه من

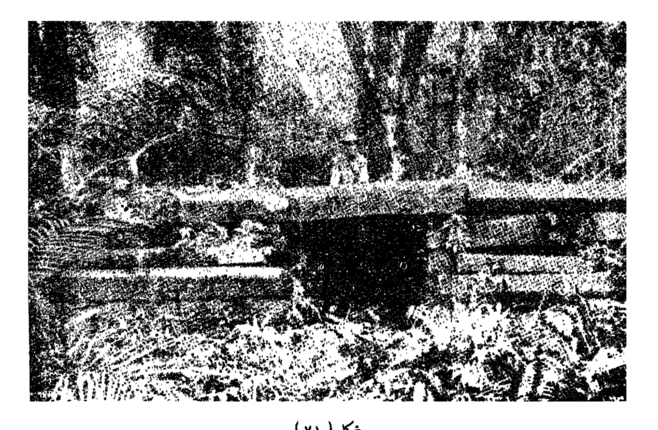
بحر سيلبيز وتوجد فى هده الجزر نصب حجرية ضخمة . ويوجد فى جزيرة نان ماثال الصغيرة التى تحف بالجانب الشرقى لجزيرة بوناب وهى أهم جزر كارولين . مدرج من كتل البازلت ، التى ترتفع أكثر من ست أقدام فوق مستوى الماء الضحل ، وفوق هذا المدرج بناء من الكتل الحجرية الضخمة ، به « صخور قائمة وأخرى نائمة » (أى صخور رأسية وأخرى أفقية) . وهناك بهو يؤدى إلى هيكل يرتفع ٢٥ قدما على الجانب الأيسر ، ويبلغ طول هذا الهيكل ١٨٥ قدما وعرضه ١١٥ قدما ، ويبلغ سمك جدرانه ١٥ قدما ويبلغ ارتفاعه فى بعض جهاته ٤٠ قدما . وهناك سلالم تؤدى إلى هيكل آخر مقام فى مدرجات . ويبلغ ٨٥ قدما وعرضه ٧٥ قدما ، وسمك جدرانه ٨ أقدام وارتفاعه ١٥ — ١٨ قدما . وداخل هذا الهيكل الداخلى قبر له قبو ، يثوى فيه ملوك بوناب .

أما هياكل بولينيزيا فتتكون من مصاطب حجرية ومنابر صخرية ،وهى تشبه الهرم المدرج الناقص ، ويمكن أن تقارن بهياكل المايا فى أمريكا الوسطى وهياكل بيرو القديمة .

أما ساموا فقد شيدت بعناية شواهد صخرية مثلثة الشكل فوق مقابر رؤسائها . وقد تغطى تلك الشواهد بالحصى الأبيض (الكوارتز أو الصوان) أو القواقع البيضاء .

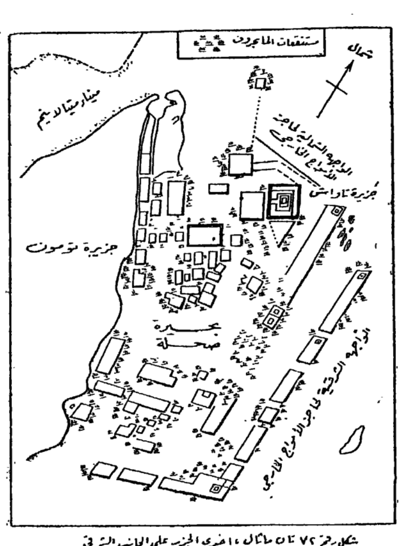
وتوجد فى تونجا أكوام من الصخور المرجانية المسطحة التى كان يحيط بها حائط صخرى فوق المقابر ، وكان لبعض المقابر كتل صخرية موضوعة على على شكل مدرج يرتفع إلى ١٥ — ٢٠ قدماً . كما وجد فى تونجا شواهد صخرية ثلاثية ، مكونة من قطعتين رأسيتين من الصخر وثالثة أفقية .

وتوجد فى كثير من الجزر آثار صخرية تعرف باسم مراى Marae, Marai



شكل (٧١)

عقد كبير — نان تاواش



شكل رقم ٧٢ نان ماتال ، احدى الجزر على الجانب الشرقى لبوناب (جزر كارولين)

وهى تتكون عادة من حجرات مستطيلة ، لها سور مكون من الصخور القائمة ، التى تترك بينها فجوات صغيرة .

أما فى جزيرة توبواى (فى جزر أستراال) فيكتفى بثلاثة أضلاع المستطيل الصخرى ، أما الضلع الرابع فيترك فراغاً وهو عادة يواجه أكبر صخرة فى السور ، أما فى جزيرة راروتونجا (بجزر كوك الجنوبية) ، فإن الحجرة المستطيلة لا يحيط بها سور صخرى ، ولكن يحيط بها مقاعد صخرية ذوات مساند خلفية مصفوفة فى صفوف كما يوجد بها صخرة تستخدم كمذبح للضحايا البشرية ، وصخرة مرتفعة تستخدم فى الطقوس .

وكان المستطيل المقدس فى تاهيتى ، يحيط به سور من ثلاثة أضلاع أما الضلع الرابع له فهو هرم مدرج مثلث الشكل ، وكانت شواهد الصخر التى ترمز لرءوس العائلات مصفوفة فى صفوف داخل تلك الحجرة ، التى كانت تستخدم كقاعة للاجتماعات والقضاء ، وتوجد فى تاهيتى أيضاً حجرات صخرية أكبر تسمى آهو Ahu وهذه تشتمل على هرم مدرج ، يصل بعضها أحياناً إلى ١١ درجا وطول قاعدته ٧١ مترا وعرضها ٢٦ متراً وارتفاعه أكثر من ١٣ مترا ، ويبلغ طول الآهو الكبير فى ماهاياتيا ١١٠ أمتار . كما يوجد فى هرمه قبر مقدس خاص ، وتوجد فى تاهيتى وماركويساس وجزر إيستر ما يمكن أن يعتبر أعظم الهياكل والآثار الصخرية فى بولينيزيا .

وتوجد فى ماركويساس بقايا مقابر مبنية من قطع البازلت الضخمة ، وعليها تماثيل حجرية ، وقد وصف . د . كريستيان عام ١٩١٠ عددا كبيرا من الجزر الصناعية الساحلية ، التى تحيط ببعضها أسوار يصل ارتفاعها إلى ٣٠ قدما وسمكها ١٠ أقدام ويسمى بعض آثارها الصخرية باسم آهو أيضاً وبعضها يسمى ميئى Me'ae كما توجد بها أيضا هياكل من نمط التوهوا ، وهى أماكن للرقص وغيره من الطقوس ، وتتكون هذه المراقص من مسطحات مرصوفة وأرصفة ترتفع درجا بعد درج يجلس عليها المتفرجون أحيانا حول أحد أضلاع المستطيل أو حول جميع أضلاعه .



(شكل ٢٣)

تمثال قديم من ماركويساس

وآهو جزر ايستر أحيانا على شكل مثلث ، كما لو قطع الشكل المستطيل التقليدى إلى نصفين بخط القطر . وقد يرتفع مدرج طوله ١٠٠ متر وعرضه ٣ أمتار ارتفاعا تدريجيا حتى يصل إلى ارتفاع ٥ أمتار ، ثم يصل إلى حافة شاهقة ، تواجه جرفا مرتفعا يهبط فجأة إلى البحر ، وتقوم تماثيل صخرية ضخمة فوق تلك المصاطب .

وتوجد النانجا Nanga فى جزر فيتى ليفو ، وهى حجرات مستطيلة يحيط بها سور من الصخور القائمة ، تتخلله فتحات ضيقة كثيرة ، وتقسم الأهرام المدرجة الناقصة تلك الحجرة إلى ثلاثة أقسام (طبقاً لوصف أحد الدارسين) .

وإن انتشار النول إلى جزر كارولين وسانتا كروز وعمل الرجال فقط عليه (وربما دل هذا على أنهم تعلموا ذلك من بحارة مهاجرين) ليدل على استخدام تيار بحرى للإبحار به من بحر ليبيز إلى أرخبيل كارولين ، غير أنه يستحسن ألا نفكر فى الطريق الذى سلكه البحارة إلى سانتا كروز . وربما انتشرت الفأس ذات الأكتاف من سواحل بحر سيليبيز عن نفس الطريق إلى بولينيزيا ، حيث تحتل مركزا هاما بين آثار عدد كبير من الجزر (انظر صفحات ٣٧٩ — ٣٨١) . إلا أنها لم توجد فى جزر كارولين ، حيث استخدمت حافات القواقع البحرية الحادة .

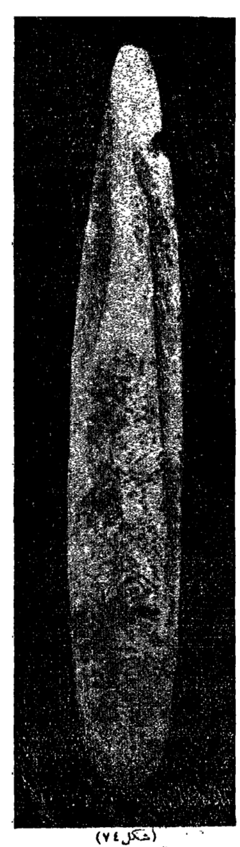
وقد منح النرويجى هيراداهل[1] Heyerdahl مسألة البحث عن الحضارة البولينيزية روحا جديدة وذلك بأن قام برحلته الجريئة فوق أحد الأطواف البدائية المصنوعة من البالزا وهو خشب لين يتشرب الماء ينمو بكثرة فى غابات أمريكا الجنوبية الاستوائية . وقد اتبع هذا النرويجى طريقة أهل بيرو القدماء فى صناعة هذا الطوف فربط كل الخشب طوليا بعضه بالبعض الآخر ، بحبال من القنب ، ثم بطنه بأعواد البوص ، ثم وضع ألواحا من

---

(١) كون تيكى ... سلسلة الألف كتاب .

خشب الأشجار الصنوبرية بشكل عرضى على الكتل الوسطى ليتم صنع هيكل القارب ، ثم صنع له عمودا للشراع من خشب المانجروف الصلب ، كما اتخذ له مجدافا من هذا الخشب أيضا ورفع شراعه فوق القارب ، وبذلك لم يستعمل مسمارا معدنيا أو سلكا واحدا ، حيث إنها يمكن أن تتعرض للصدأ فى البحر وقد أتم هذا النرويجى رحلته الجريئة فوق هذا القارب العجيب من كالاو إلى تواموتو فى الجزر المنخفضة ، أى مسافة ٤٠٠٠ ميل ، متتبعا تيار بيرو ، والتيار الاستوائى الجنوبى وفرعه الجنوبى نحو الجزر المنخفضة . وبذلك أيد هيراداهل تأييدا كبيرا إمكان خروج هجرات من الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية إلى المحيط الهادى ، ولكنه يشك فى إمكان قيام البولينيزيين برحلة فى الاتجاه المضاد ، فى وجه الرياح والتيار المائى ، وقد لاحظ أن البطاطا التى تسمى كومارا تنتشر انتشارا واسعا فى بولينيزيا ، وهو يقول إنها جاءت من أمريكا الجنوبية . ويرى أيضاً أن فكرة المبانى الصخرية الضخمة الموجودة فى تياهواناكو فوق هضاب بيرو قد انتقلت من أمريكا الجنوبية إلى جزر المحيط الهادى .

وعندما ناقش هيراداهل مغامرته البحرية ، وضع هذا المؤلف نقطة أخرى للبحث إذ قال إن الملاحين ربما كانوا قد اتبعوا تيار كوروسيو الذى يمر باليابان ويدور إلى سواحل أمريكا الجنوبية ، حيث تنمو على سواحل كولومبيا البريطانية غابات الصنوبر الضخمة وهذه أصلح ما تكون لنحت قوارب مستطيلة ، وتفوق فى ذلك أية أخشاب موجودة فى جنوب شرق اسيا . ولابد أنها استخدمت فى الرحلات البحرية إلى هواى ومنها إلى جزر بولينيزيا عامة ، وربما اضطرت إلى ذلك جماعة لقيت الهزيمة على يد أعدائها . ويرى هيراداهل أن هذه الرحلات تمت حوالى عام ١٢٠٠ م ويرى أن هذه الهجرات ألحقت الهزيمة بهجرات سابقة كانت قد غزت الجزر وجاء أصحابها من بيرو فوق أرماث كالتى سافر عليها هيراداهل .



(شكل ٧٤)
سلاح من القواقع - جزر كارولينا

وقد اهتم هيراداهل كثيرا بمسائل أصول الحضارة البولينيزية ، غير أن مشكلات تلك المسألة لم تحل بعد . ويبدو من المحتمل — على ضوء معلوماتنا الحالية — أن البحارة قد سلكوا السبل الآتية : عن طريق ميلانيزيا ، وعن طريق بحر سيليبيز وجزر كارولين ، وعن طريق غرب أمريكا ، وربما زار البولينيزيون ما يجاورهم من جزر ميلانيزيا وميكرونيزيا .

ومن المحتمل أن أسلاف الأستراليين الأصليين قد وصلوا أستراليا عندما كان مستوى البحر منخفضا فى بعض فترات البلايستوسين ، وربما فى أواخره ومن الممكن أن يكون أصحاب الشعر المفلفل قد انتشروا فى بابوا وأجزاء من ميلانيزيا فى عصر البلايستوسين أيضا . وقد ذكرنا من قبل رأى وود جونز الذى يقول إن التسمانيين كانوا شعبة من الميلانيزيين ، غير أن الرأى السائد يقول إن التسمانيين هجرة سابقة دخلتها من أستراليا ، فربما وصلت بعض سلالات قليلة إلى أستراليا قبل أن تنفصل عن القارة الآسيوية بارتفاع مستوى البحر ، ويدل على هذا معرفة الأستراليين الأصليين فى شبه جزيرة رأس يورك بالقوارب ، ووجود بقايا ضئيلة لما يمكن أن يعتبر حضارة حجرية حديثة بينهم .

والرأى السائد أن انتشار الحضارة الحجرية الحديثة بكامل مميزاتها من آسيا إلى أندونيسيا سبق الألف الثانية ق . م . وأن فن بناء الهياكل الصخرية الضخمة قد انتشر فى جنوب شرق آسيا وأندونيسيا فى الألف الأخيرة السابقة للميلاد . ويبدو أن هذا الفن قد صحب الرحلات البحرية الكبيرة فى غرب أوربا ، ولنا أن نظن أن المقدرة المعمارية التى أتت بهذه الهياكل كان يصحبها أيضا مقدرة فنية فى نواح أخرى مختلفة ربما كان منها أيضا بناء السفن والملاحة . ومن ثم فليس هناك أى داع لكى نظن أن جزر المحيط الهادى البعيدة قد استقبلت هجرات بشرية فى عهد أبعد من عصرنا الميلادى

إن لم يكن هذا فى حد ذاته عهدا بعيدا . ومن ثم فإن التواريخ التى اقترحها هيراداهل لا غبار عليها ، ومن أحسن الرحلات المعروفة لنا ، رحلات أساطيل الماورى إلى نيوزيلندة فى القرن الرابع عشر الميلادى .

ويبدو أنه لا ريب فى أن فنون الفخار والنسيج لم تعرف قط ، أو أنها نسيت من عهد بعيد فى بولينيزيا وأن البولينيزيين قد تقدموا فى فنون طرق لحاء شجر التابا وصنع الملابس منه ، وصنع ملابس الفراء ، وبناء السفن ونحت الصخر والخشب رغم أنهم لم يستطيعوا المحافظة على عددهم داخل المجتمعات الصغيرة المتناثرة فى الجزر . وليس من المؤكد ـ فى العهد السابق للأزمنة الحديثة ـ أنهم استطاعوا أن يحموا أنفسهم من خطر التناقص ، رغم أن بعض الجزر كانت مزدحمة بالسكان (بالنسبة لحالتهم الاقتصادية) عندما بدءوا يتصلون بالسفن الأوربية . وقد جلبت تلك السفن الأوربية أوبئة لم تعرفها جزر المحيط من قبل ، فارتفعت نسب وفياتهم ولا سيما بعد انتشار الأمراض التناسلية بينهم ، ولذلك ومن أجل هذا السبب نقط نقص عدد سكان الجزر فترة من الوقت ، ولقد أضيف إلى هذا العامل ، عامل آخر لم يفهم أثره بعد فهما حقيقيا ، فقد كان سكان الجزر يعيشون فى ظل نظام اجتماعى واقتصادى معين ، فى حالة اكتفاء ذاتى ، تحوطه طقوس محلية ، قضى عليه النظام الأوربى الجديد ، بوجهة نظره المادية التجارية الجديدة . وقد تأثرت نسب المواليد بهذه الثورة الاجتماعية والبيولوجية التى لم يهيأ لها السكان الأصليون بعد ، فنقصت نقصا ملحوظا ، ويقال إن هذا النقص فى نسب المواليد لدى الماورى فى نيوزيلندة قد توقف ، وإنهم بعد أن امتزجوا امتزاجا قليلا بالأوربيين قد بدأت نسب مواليدهم فى الارتفاع ، غير أن هذا لا يمثل الحال فى أجزاء كثيرة من بولينيزيا وميلانيزيا ، حيث اختفت المهارات القديمة أمام البضائع الأوربية ، وحيث أصبحت التجارة أكثر أهمية من ذى قبل .

الفصل الحادى عشر

افريقية جنوب الصحراء وجنوب الحبشة

أظهرت الحفائر الحديثة فى إفريقية أنماطا من القردة العليا وأشباه البشر (انظر الفصل الأول) ويرجع الفضل فى ذلك إلى جهود الدكتورين بروم ودارت فى جنوب إفريقية ، بينما أضافت جهود الدكتور ليكى فى كينيا الكثير من المعلومات الخاصة بالإنسان القديم وعمله . ولقد تعدل كل ما كتب عن العصر الحجرى فى إفريقية جنوبى الصحراء الكبرى ، كما كان تاريخه موضع النقاش باعتبار أن أنماط الحياة الحجرية القديمة قد استمرت فى بعض أنحاء هذه القارة زمنا طويلا بعد أن انتهى ذلك العصر فى أوربا .

ولكن عندما ننتقل إلى أواخر العصر الحجرى، ويبدأ انتشار إنتاج الطعام فى الأقطار التى تقع بين المدارين فى أفريقيا وفى جنوبها ، تقابلنا بعض المشكلات التى لا تزال غامضة .

فقد جمع عدد صغير نسبيا من آلات العصر الحجرى الحديث من نيجيريا ومن حوض الكونغو ، ومن جنوب شرق إفريقية ، ولكنها ليست شائعة وليست موزعة توزيعا عاما فى هذه الأرجاء . وقد ظل رأس سهم صوانى مشرشر جيد القطع أداة منعزلة وحيدة حيث وجدت فى أومتالى (جنوب شرق إفريقية) . ولو عثر على مثل هذه الأداة فى بريطانيا لكانت دليلا جيداً على وجود شعب على أبواب عصر البرنز . إلا أن إفريقية جنوبى الصحراء الكبرى والحبشة لم تعطنا دليلا على إعداد أو استخدام أو استيراد البرنز فى عصور ما قبل التاريخ . فلم يوجد ثمة عصر سابق للبرنز — على ما يبدو — فى هذا الإقليم . ويعتبر القصدير من منتجات نيجيريا الحديثة الهامة ، كما أنه استخرج من هضبة باوتشى Bauchi عدة قرون ، وتعتبر شمال روديسيا من أهم مصادر النحاس فى العالم ، إلا أنه ليس لدينا دليل على أن الناس خلطوا هذين المعدنين لصنع البرنز فى عصر ما قبل التاريخ أو فى العصر السابق للحديد فى إفريقية جنوبى الصحراء .

وتوجد خامات حديدية رديئة النوع فى كثير من مناطق إفريقية. فأكاسيد الحديد معرضة لأن تصعد ذائبة فى الماء إلى سطح التربة فى أثناء الفصل الجاف الطويل فى الإقليم الحار ، حيث تتبخر المحاليل وترسب أكاسيد الحديد وخصوصا إذا وجد بها جير ذائب ، فإنه يساعد على تكوين قشرة على السطح أو بالقرب منه ، ثم تهطل الرياح الموسمية وتجرف معها المواد غير الحديدية ، فلا تكاد تنقص من القشرة الصلبة شيئا ، وهكذا تتوافر خامات الحديد حتى ولو لم توجد مصادر كثيرة له .

ويحتاج الحديد لصناعته إلى تسخينه مدة أطول مما يحتاج إليها النحاس ولكن ما إن تعد النار إعدادا جيداً ، وتغذَّ بحطب الخشب ، حتى تصبح عملية صهره سهلة فلا يتضمن تنظيما تجاريا أو مهارة كالتى تتضمنها عملية صناعة البرنز من صهر القصدير والنحاس ، اللذين يجلبان عادة من أماكن بعيدة حيث يصهران فى مكان واحد .

وقد وجدت نظريات ترى أن صناعة الحديد قد نشأت فى إفريقية منذ عدة آلاف من السنين ، غير أن الأدلة على ذلك ليست كافية ، ويبدو أنه من المستحسن أن نتبع النظريات السائدة من أن صناعة الحديد ، غير قطع الحديد الساقطة من الشهب ، قد أصبحت هامة جدا بين الشلوبيين Chalybes فى الأناضول بعد منتصف الألف الثانية ق. م. وما إن توصل الناس إلى طريقة ينفخون بها الهواء فى الفرن ، حتى أمكن انتشار تلك الصناعة ، بحيث إنها لم تتأخر طويلا فى الوصول إلى إفريقيا المدارية . وإلى جانب هذا فإن الحديد كان أوسع انتشارا بين الإفريقيين شمال غابات الكونغو ، أكثر مما كان بين الإفريقيين فى جنوب إفريقيا (على الأقل قبل الاتصال بالأوربيين) وهذا وحده يدل على أن الحديد ليس عريقا جدا فى إفريقية . ويضاف إلى هذا أن الحدادين فى إفريقية عبارة عن جماعات متجولة فى الغالب ، ينظر

إليهم أحيانا على أنهم سحرة ، أو على أنهم غرباء ، أى ينظر إليهم بحذر وشك . إلا أننا يجب أن نذكر أن سيرليونارد وولى قد وجدا رأس رمح من الحديد فى قبر يرجع إلى الأسرة الثانية عشر فى بوهين ، شمال الجندل الثانى بقليل ، وقد تساءل ما إن كان مصدره الحدادون المتجولون فى إفريقية المدارية قبل ١٨٠٠ ق . م .

لقد تعرض تغلغل فكرة إنتاج القوت جنوباً فى إفريقية إلى عدة صعوبات فلقد أكد الفيلسوف المسلم ابن خلدون فى القرن الرابع عشر عدم وجود مدن فى الإقليم الحار (من إفريقية) وأرجع عدم وجود مدن فى هذا الإقليم إلى أثر الحرارة الشديدة فى عقول الناس . ولاشك فى أن الإنسان يرتاح عادة ويصبح فى أحسن بيئاته إذا كانت درجة حرارة النهار تتراوح بين ٦٠° — ٧٠° أو ٧٢° ف حوالى ١٥,٥° م — ٢١° م أو ٢٢° م مع فترات باردة من حين إلى آخر . هذا يعنى أن النوع البشرى (الإنسان العاقل) قد نشأ فى إقليم معتدل نسبيا ، وأنه كان من الصعب عليه أن يتلاءم مع بيئة مدارية حارة ، ولا سيما إذا كانت تجمع بين الحرارة والرطوبة ، ومن ثم كانت عملية ملاءمته بهذه البيئة شاقة وربما لم تكن كاملة ، وعلينا أن نذكر نشاط القرية الإفريقية عند غروب الشمس وفى أثناء الليل . ويبدو أن جسم الإنسان يتعرض لكثير من الأمراض فى البلاد المدارية ، التى تعج بالحشرات والأوبئة المختلفة ، وإلى جانب ذلك كانت توجد بعض العقبات . فالقمح والشعير لا يصلحان للإقليم الحار الرطب ولم ينتشر بعيداً جنوبى الصحراء الكبرى فى إفريقية . أما الدخن فقد انتشر فى إفريقية فى طول القارة وعرضها وأصبح المحصول الإفريقى التقليدى ، وربما نشأ الدخن كنبات مزروع فى جنوب غرب آسيا ومصر ، إلا أن هذا الرأى لم يصبح بعد نهائياً . فهو لا يحتاج لمهارة فى زراعته

كما يحتاج القمح ، ولا يغل محصولا وفيرا مثله . فقد اعتمدت زراعة القمح في مصر وجنوب غرب آسيا منذ أقدم العصور على الري ، ونجحت زراعته في الأراضي التي تغمرها فيضانات سنوية منتظمة ، مصدرها الثلوج الذائبة كما كانت الحال في سومر وأكاد أو أمطار الحبشة الموسمية كما هي الحال في مصر . ولم تسمح الظروف المناخية في إفريقية جنوبي الصحراء الكبرى إلا في النادر لنشأة أساليب زراعة قائمة على الري ، بل إن أعمال الري لم تبدأ في إفريقية المدارية إلا في القرن العشرين . ولقد أدت أعمال الري وضبط المياه إلى إنشاء نظام اجتماعي سليم منذ أقدم العصور في مصر ، وهذا عامل هام في التطور فقدته إفريقية المدارية فظلت الزراعة الإفريقيـــة على مستوى منخفض ، وربما ساعد انتشار زراعة الأرز المغمور في الماء كثيرا في إصلاح تربة إفريقية ونظامها الاجتماعي . ويبدو أن موارد السكان الأصليين في إفريقية المدارية من المواد الغذائية قليلة وضئيلة القيمة ، فنحن لا نكاد نعرف من هذه الموارد سوى أصناف ضئيلة وقليلة القيمة من اليام والفول . ويضاف إلى هذا حقيقة جغرافية هامة وهي أن الطريق إلى إفريقية جنوبي الصحراء أو الحبشة لابد له من أن يخترق نطاقا صحراويا جافا أو مناطق تغطيها المستنقعات والسدود ، ومن ثم فلا يمكن أن تسمح هذه الظروف إلا لعدد ضئيل من السكان بالتغلغل داخل إفريقية ، ربما اضطروا إلى الاعتصام فيها تحت ضغط شعوب أخرى أقوى عدة وعدداً . ولم تزر تلك البلاد سوى رحلات بحرية قليلة من حين إلى آخر عندما تحسنت وسائل بناء السفن ، ربما منذ الأسرة الثالثة المصرية القديمة ، إلا أن هذه السفن ظلت عدة قرون لا تغامر قط بالإبحار جنوبي طرف البحر الأحمر الجنوبي أو خليج عدن . وقد وصلت الرحلات البحرية حول القارة الإفريقية في العصر القرطاجني من البحر المتوسط إلى خليج غانة جنوبا بغرب .

إلا أن التجار القدماء — على ما يبدو — كانوا يرغبون فى الرحلات البحرية لكى يعودوا بمحصولات معينة ، ومن الواضح أنهم لم يتركوا سوى آثار ضئيلة فى حياة إفريقية فى الإقليم الحار الرطب . ومن ثم فقد كان ينقص إفريقية المدارية الفوائد التى كان يمكن أن تعود عليها من دخول آراء جديدة من بلاد أخرى ، بينما كانت جنوب شرق آسيا تتقبل مؤثرات كثيرة من الصين .

ولا بد وأنه كان من الأمور النادرة أن تدخل إفريقية جنوبى الصحراء محصولات غذائية فى العصور القديمة ، كما كان من الأمور الصعبة توطيد دعائم نبات غذائى جديد فى إفريقية المدارية . ومن أمثلة المحصولات الغذائية التى نجح إدخالها فى إفريقية ، الدخن والموز ، وذلك قبل أن تتأثر إفريقية بالأوربيين. ويبدو من المحتمل أن يكون العرب هم الذين أدخلوا الموز إلى إفريقية . كما جابه إدخال حيوانات مستأنسة إلى هذه البلاد صعوبات كبيرة ، وربما كانت عائلة الوعل — من الحيوانات الأصيلة فى البلاد — أقلها نفوراً ، ورغم أنها قريبة من الثيران ، إلا إنها سريعة العدو ، ومن المشكوك فيه أن تكون قد استؤنست قديما لدرجة تجعلها مفيدة فعلا للإنسان، وقد وجدت فى جبانة قديمة فى هليوبوليس ترجع إلى حوالى الألف الثانية ق . م . ستة مدافن لغزلان صغيرة ، ومعها بعض القرابين ، فقد كانت هذه الغزلان حيوانات مقدسة ، ولا نعلم ما إذا كان الإنسان يقوم بتربيتها أم لا .

فإذا استبعدنا عائلة الوعل ، فإننا نستطيع أن نقول إنه كان لا بد من إدخال الحيوان المستأنس إلى إفريقية جنوبى الصحراء الكبرى مع الهجرات من الشمال إلى الجنوب . ويبلغ من اعتماد الماشية على الماء ، أن طرق الهجرة التى أدخلت تلك الحيوانات كانت محدودة للغاية بل إن معظم الحشائش فى إفريقية المدارية خشن ردىء النوع تنقصه فيتامينات ح بصفة خاصة ومن ثم لا تنمو الماشية نموا حسنا . كما أن الحشائش الطويلة الخشنة كثيرة الألياف قليلة

البروتينات ، ولما كانت الماشية تحتاج إلى قدر يتراوح بين ١٥ — ٢٠٪ من البروتين فى طعامها فإن تغذيتها تغذية جيدة تستلزم أن تستهلك كميات كبيرة من هذه الحشائش الطويلة التى تنمو فى كثير من جهات إفريقية المدارية . وفوق ذلك فإن هذه المنطقة موبوءة بالحشرات والطفيليات وغيرها ، وهذا يستلزم بذل عناية كبيرة فى تربية الماشية حتى تنجح وتصبح الماشية مفيدة فعلا للإنسان ويستخدمها فى العمل . ونستطيع أن نقول ونحن على شىء من الاطمئنان إن إفريقية المدارية وجنوب إفريقية لم تعرف استخدام الحيوان فى العمل قبل أن يتصل الإفريقيون بالأوربيين حديثا إلا فى بعض مناطق قرب النيجر . والضأن أصلا من حيوانات الأقاليم المعتدلة المائلة للبرودة ،ومن ثم فهى لا تزدهر فى المناطق الاستوائية الإفريقية ، ومن ثم فهى قليلة القيمة فى منطقتنا ، هذا بغض النظر عن إدخالها فى جنوب إفريقية . أما الماعز فقد استطاعت أن تلائم نفسها مع الظروف المدارية ملاءمة حسنة ، وهى ذات أهمية فى بعض أجزاء إفريقية ، وكذلك الدواجن إلا أنها لم يحسن تربيتها بعد . ولم يكن للجمل تاريخ فى مصر قبل العصر الإسلامى (القرن السابع الميلادى) . رغم أنه عرف فى بلاد العرب قبل ذلك بنحو ١٧٠٠ سنة . إلا أننا يجب أن نذكر أنه وجدت بعض عظام قليلة تعرف إليها العلماء بأنها عظام جمل ، مع بعض آثار قبل الأسرات (أى قبل ٣٤٠٠ ق.م.) فى مصر العليا . وأن امتدادها الضئيل داخل إفريقية جنوبى الصحراء أمر حديث جداً . أما الحصان فقد وصل مصر بعد الهكسوس أو ملوك الرعاة فى القرن السابع عشر ق. م . ولم يتوغل إلى إفريقية المدارية وجنوب إفريقية فيما عدا الحبشة حتى دخول الأوربيين حديثاً إلى إفريقية ، واستخدامهم للخيل فى جنوب إفريقية .

ومن ثم لم تسهم الحيوانات المستأنسة إلا مساهمة محدودة جداً فى مساعدة الإفريقيين . ومن المحتمل أن توغل المحراث توغلا ضئيلا جداً إلى إفريقية

جنوبى الصحراء فى نيجيريا قبل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان أمراً حديثاً جداً .

فزراعة إفريقية المدارية الأولى إذن كانت لا تعرف الرى أو المحراث ، ومن ثم كانت على مستوى منخفض من حيث الأدوات والمهارة والتنظيم الاجتماعى. وظلت على هذا المستوى بعد ذلك ، وعلى كل حال فإن الحرث كان جديراً بأن يعرض التربة إلى الاحتراق تحت أشعة الشمس المحرقة فى كثير من أنحاء إفريقية المدارية وفى إفريقية شبه الجافة خارج المدارين . وهناك صعوبة أخرى ، فبينما تضيف الماشية سماداً طبيعياً إلى مراعيها ، فإن النمل الأبيض يلتهم فضلاتها فى البلاد المدارية ، ثم تأتى الأمطار المدارية بعد ذلك فتجرف ما تبقى منها . أما فى الفصل الجاف فإنها سرعان ما تتحلل وتذروها الرياح ، وكان لا بد للزراعة البدائية أن تكون نتيجة لبعض العادات المدمرة على طول المدى . فقد جرت العادة بأن تنظف قطعة الأرض بتحطيم الأشجار وقطعها بالفأس وحرقها ، ثم تزرع بضعة أعوام قليلة ، ثم تترك بعد ذلك فترة من الزمن ثم يعود إليها الزراع مرة أخرى ويعيدون تنظيفها وزراعتها، وكثيرا ما تزيد مساحة الأرض المنظفة على المساحة المزروعة فعلا . ومن ثم تترك مساحة من الأرض عارية من الغطاء النباتى ، فتجرف الأمطار الغزيرة التربة وتتعرى الأرض ، وهذا أمر كثير الحدوث إذ تهطل الأمطار غزيرة عادة كل يوم بعد الظهر ، أو ربما تتعرض الأرض العارية للبخر الشديد الذى يؤدى إلى رفع محلول الجير والحديد إلى السطح ، فيتبخر الماء ويترسب الجير والحديد ويكونان قشرة صلبة . ومن ثم يتكون ما يسمى بالصحراء ذات الدروع المصفحة حيث كانت تنمو الحشائش . أو أرض كثيرة الشقوق والحفر معراة من تربتها التى حملتها الأنهار وجرفتها إلى البحر . بل إنه حيث لم تحدث مثل هذه الكوارث للأرض ، فإن إعاده حرق الحشائش عاما بعد عام ، لا يدع مجالا إلا للحشائش الصلبـــة التى تحتفظ بمخزون من الطعام

كى تنمو مرة أخرى ، وهذه الحشائش كثيرة الألياف وقليلة القيمة كمراع حيث إن الحيوان لابد له من أن يستهلك كميات كبيرة منها لكى يحصل على ما يحتاج إليه من بروتين . أما فى حالة مناطق الغابات فإن حرق الأرض وزراعتها ثم تركها بعد ذلك يعنى نمو أحراج ضئيلة محل الغابة الاستوائية الأصلية ، وقد تشجع هذه الأحراج المزارعين على حرقها مرة أخرى . إذ أن هذا أسهل من محاولة إزالة غابة أصلية . وتقدر المدة اللازمة لراحة الأرض التى أزيلت منها الأشجار بنحو عشرين عاما ، حتى يمكن أن تستعيد شيئاً من غطائها النباتى الطبيعى إذ أن التربة تتعرض لخسارة كبيرة من إزالة محاليلها الغذائية والمعدنية وهى معرضة المطر الغزير دون أن يغطيها أى غطاء نباتى . ولا يحاول الإفريقيون قط عمل شىء لإعادة خصب الأرض ، فيما عدا نشر هشيم الحشائش المحرقة . غير أنه يجب أن نذكر أن وسائل الزراعة الأوربية تعود بالضرر على كثير من تربات البيئات الإفريقية . فأحياناً تزول العناصر الهامة من التربة ، وأحياناً تحطمها أشعة الشمس المحرقة .

فالزراعة إذن ليست على مستوى منخفض فحسب ، بل إنه يجب أن يتبعها انتقال مراكز الاستقرار البشرى من مكان إلى آخر خصوصاً فى الغابة . إذ سرعان ما تتحلل أخشاب الأكواخ وتفسد ، فيتحتم على الجماعة أن تنتقل إلى قطعة أرض أخرى وتشرع فى تنظيفها وتحتاج أى جماعة صغيرة العدد لمساحة كبيرة تتجول فيها وتمارس زراعتها المتنقلة إلى جانب شىء من الصيد . وقد يخطىء الزائر فى تقديره عندما يرى مساحات واسعة من الأرض غير مستغلة ، فى هذا النظام الزراعى الذى ينطوى على إسراف شديد . إلا أنه يجب أن نعترف للإفريقيين بشىء من المهارة اليدوية فى إقامة أكواخهم من المواد النباتية المحلية .

قامت فى بعض المناطق مثل بعض أجزاء غرب إفريقية ، أماكن عمران دائمة ، تقوم على نظام زراعى دقيق ، يعتمد على أداة العصا المعقوفة (السلوكة) .



(شكل ٧٥)
تشييد كوخ من لحاء الشجر فى منطقة النيجر

إلا أن المحراث لم ينتشر وراء شمال نيجيريا ، فيما عدا الجهات التي تأثرت بالأوربيين. ولا ريب أن انتشار المحراث سيتضمن ثورة كبرى في النظم الاجتماعية ، ولا تربى الماشية إلا لاستبدالها وتقديم مهور للزواج ، ولا يهم الإفريقي سوى عدد الماشية التي يملكها بغض النظر عن قوتها وطاقتها للعمل . وأكثر من ذلك فإن استعمال المحراث أمر خطير في الأقاليم الرطبة الحارة ، ولا داعي مطلقا للحرث العميق إذ أن مواد التربة الغذائية قريبة من السطح .

وتقوم الجماعات الصغيرة المحلية عادة بشئونها الصغيرة ، كما أنها تعيش غالبا في حالة اكتفاء ذاتي . وربما كانت هناك ضريبة تدفع للرئيس الذي يرأس عددا من الجماعات الصغيرة ، وأحيانا ـ كما هي الحال في أوغندة ـ يوجد ملك يحكم مساحة لا بأس بها من الأرض ، حيث تقوم أرستقراطية مكونة من الرعاة ، فوق سواد الشعب من الزراع .

ومن مميزات إفريقية جنوبي الصحراء الكبرى والحبشة ، وفيما عدا بعض أجزاء نيجيريا والسودان وأوغندة ، أنه لم تتم قط دول إدارية ، أو أي نظام يعمل على نقل التراث الاجتماعي من جيل إلى جيل إلا فيما يتعلق بحياة الجماعة بصفة عامة . فلم يكن ثمة كتابة أو أي تسجيل لأي شيء . وكان تولي الزعماء السلطة في إفريقية يتضمن كثيراً من المنازعات والمشاحنات .

فالإقليم إذن كان يمتاز بضآلة السكان الذين يعيشون في مستوى منخفض وهم يجاهدون في وجه بيئة صعبة ، فيما عدا بعض نقط قليلة يتكاثر فيها السكان والمناطق التي فرض فيها الأوربيون نفوذهم .

إلا أن هذه الظروف قد تغيرت إلى حد ما في شرق إفريقية ، حيث وصل البحارة العرب في الوقت الذي ظهر فيه الإسلام تقريبا ، وعرفوا استخدام الرياح الموسمية في الملاحة والتجارة في المحيط الهندي . واستطاعت السفن العربية أن تبحر من البحر الأحمر وخليج عدن إلى عمان والهند والملايو

ومن ثم تتصل بالصين ، وكان من الممكن لهذه السفن أن ترسو على ساحل شرق إفريقية وخصوصا فى رحلة عودتها. ومن المحتمل أن هذه العملية ساعدت على نشر بعض الآراء ، ومن المحتمل أيضا أنها نقلت بعض الأشياء من جنوب شرق آسيا إلى شرق إفريقية عن هذا الطريق . وربما كان انتشار الموز إلى إفريقية قد تم بنفس الوسيلة وإن كانت هذه المسألة لم تحل بعد إلا أنه من الممكن أن تكون بعض النباتات قد أدخلت إلى إفريقية حيث ضاعت أو نسيت طريقة زراعتها بوساطة البحارة العرب . وقد كان معنى قيام علاقات جديدة بهذا الشكل ، نمو تجارة الرقيق ، مع بلاد العرب على أية حال ، إلا أن هذه العلاقات تضمنت نقل مهارات جديدة إلى سواحل شرق إفريقية على الأقل .

توجد شمال مومباسا بقايا عدة موانٍ ومحطات إسلامية ترجع إلى العصور الوسطى ، ونجد مثلا فى جندى أساس قصر ومسجداً . ويدل ما وجد من فخار على وجود اتصال بعمان ، وربما بالصين أيضا بطريقة غير مباشرة . وهذه الآثار كما تدل عليها الأوانى الصينية الكيلادونية (سونج) تدل على أنها من العصور الوسطى . وعلينا أن نذكر هذه الاتصالات الخارجية عندما نناقش النصب التذكارية الكبيرة التى وجدت فى روديسيا ، مثل زنبابوى Zinbabwe وغيرها . وقد وجد الدكتور رندل ماكايفر ومس كيتون تومسون أدلة تؤيد ما يذهبان إليه من أن آثار زنبابوى قد وجدت ، أو على الأقل أضيفت إليها إضافات كثيرة فى عصورنا الوسطى حيث وجدت بقايا كيلادونية وغيرها تحت الأرضية الطينية . وربما كانت هذه الآثار تمثل أقصى ما وصل إليه التجار الساحليون جنوبا فى اتصالهم بالإفريقيين داخل القارة .

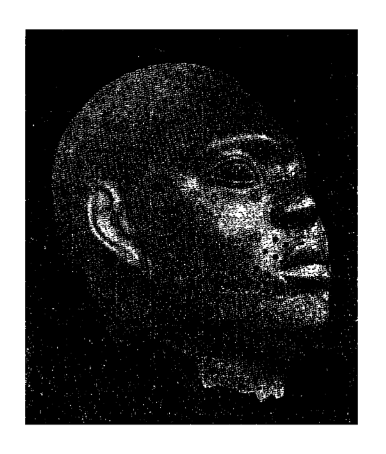
أما فى غرب إفريقية ، فيجب أن نذكر آيات فى النحت وصب المعدن فى بنين وآيف وغيرهما من الأماكن النيجيرية . ولقد عرف من قبل أن صب البرنز ونحت العاج وعمل التماثيل من الطين النضيج كانت فنونا قائمة فى بنين

حتى عصر الرحلات البرتغالية (القرن الخامس عشر الميلادى) ، ويوجد فى المتحف البريطانى الآن رأس منحوت من العاج مزين بعدد من رءوس البرتغاليين الصغيرة ، كما توجد به عينات أخرى من الفن الزنجى ، ولسنا نعرف حتى متى ظل هذا الفن فى بنين ، أو ما إن كان هذا الفن قد تقدم نتيجة للاتصال بالبرتغاليين ، ولكن من المؤكد أن هذا الفن كان موجودا قبل قدوم البرتغاليين وقد صبت بعض التماثيل من البرنز ، وهذا شىء فريد فى إفريقية ، ولكنه أمر يمكن تعليله بوجود القصدير فى هضبة باوتشى Bauchi شمالا . وتواجهنا صعوبة خاصة إذا أردنا إرجاع هذا الفن إلى تأثر منطقة النيجر بانتشار الإسلام حوالى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فإن هـذا الفن كان يعنى بتمثيل الأشخاص ، وهذا نوع من الفن لم يحبذه الإسلام أو على الأقل المسلمون السنيون أى أنه فن لا يمت للإسلام بصلة .

ووجد فى السنوات الأخيرة عدد من تماثيل الرءوس الجميلة مصبوبة من سبيكة قريبة من البرنز فى آيف Ife وقد عنى بها حاكم الإقليم الذى يسمى بالواحد ، وأرسلها للإخصائيين فى المتحف البريطانى . وعرضت وقتا ما فى المتحف عام ١٩٤٨ قبل أن تعاد إلى إفريقيـة . وهى تنتمى إلى نفس المجموعة المصنوعة من الصلصال والمتصلة بصناعات المعدن فى هضبة باوتشى .

وقد أدت هـذه التماثيل الجيدة النحت والتى تدل على مهارة فى صب المعدن ، بحيث تمثل رءوس أنماط مختلفة من الرجال ، بما فيها من وشم إلى كثير من الآراء الخاصـة بنشأة هذا الفن ، التى نستطيع أن نقول مطمئنين إنها نشأة غير إسلامية ، وهذا ميدان فسيح للبحث لم يصل فيه الباحثون بعد إلى نتائج نهائية ، غير أنه يجب علينا ألا ننسى احتمال نشـأة هذا الفن نشأة أصيلة فى هذا الإقليم .

انتشر الإسلام كما هو معروف بالفتح غربا فى شمال إفريقية فى القرنين السابع والثامن الميلادين ، وقد قابل العرب مقاومة البربر مرة بعد أخرى ، إلا أنه ما إن وافى القرن الحادى عشر حتى أصبح شمال إفريقية مسلما رغم تنافس البربر والعرب . وقد أدى انهيار الخلافة الأموية والحكومة الإسلامية فى أسبانيا إلى قيام حركة إصلاح إسلامية فى القرن الحادى عشر فى شمال إفريقية ، ووصل هؤلاء المصلحون الذين سموا أنفسهم بالمرابطين إلى السنغال ، وبهذا وصلوا إلى إفريقية جنوب الصحراء الكبرى الغربية وأوجدوا صلات قوية ونشيطة بينها وبين العالم الإسلامى شمال إفريقية وربما



شكل (٧٦)
رأس برنزى من إيف — بنيجريا

نشأت منذ ذلك الحين الإمارات الإسلامية فى النطاق الذى يحف بجنوب الصحراء الكبرى ، بمدنها المبنية باللبن ، وأسواقها وجمالها التى كانت تستعمل المحراث قرب ثنية النيجر .

وكانت تلك الجماعات التى تقع على نفس خط عرض شمال نيجريا تقع تحت ضغط الرعاة من شمالها ، وتضغط هى بدورها الجماعات الزراعية فى جنوبها .

وكان اكتشاف الأوربيين لأمريكا من أبشع الأحداث بالنسبة لإفريقية . فقد تسببت فى تضخم تجارة الرقيق وفى نقل آلاف من الإفريقيين الغربيين إلى جزر الهند الغربية والبرازيل وجنوب الولايات المتحدة الأمريكية، وقد حصل الرقيق فى وطنهم الأمريكى — مع مرور الزمن — على حريتهم، وتكاثروا وأصبحوا يعدون بالملايين ، ومعظمهم — ولا سيما فى الولايات المتحدة الأمريكية — خلاسيون ، أى مزيج من الإفريقيين والأوربيين . ولاسيما وأن البحث عن الرقيق قد عاد بأوخم النتائج على حياة غرب إفريقية ، وإن ما نراه الآن فى هذه البلاد أدنى بكثير عما ينبغى أن تكون لو لم تقم هذه التجارة المشئومة .

غير أن اكتشاف أمريكا أيضاً قد عاد بآثار أخرى على تلك القارة ، فقد أدى إلى إدخال عدد من المحصولات الأمريكية إلى إفريقية المدارية ، وقد انتشرت زراعة محصولين من هذه المحصولات النباتية انتشاراً واسعاً فى إفريقية . وهذان المحصولان هما الذرة الأمريكية Maize والمانيوق وهما محصولان سهلا الزراعة دون حاجة إلى حرث . وبينما يقوم الإفريقيون بطقوس خاصة عند نمو الدخن ، وهو المحصول التقليدى القديم فى البلاد ، فإنه لا يرافق زراعة الذرة أو المانيوق أى شىء منها . وإلى جانب هذين المحصولين ، دخلت إفريقية أصناف كثيرة من اليام والطماطم وأنواع نباتية أخرى مثل البطاطس والبطاطا

ومن الممكن أن ينمو السكان نمواً كبيراً بعد إدخال هذه المحصولات ، ولا ريب أنه كان من الممكن أن يزداد هذا العدد أكثر بكثير مما هو عليه فى الوقت الحاضر لولا تجارة الرقيق وما كان يتصل بها من بؤس .

ويجب أيضاً أن نلاحظ أنه بينما كانت إفريقية — قبل القرن السادس عشر — مفتوحة لتقبل تأثيرات ثقافية من شمال إفريقية نحو الجنوب ، أو من بلاد العرب نحو سواحل شرق إفريقية عن طريق الرحلات البحرية العربية ، فإنه بعد هذا القرن تعرضت إفريقية المدارية وجنوب إفريقية لضغط آراء ومعتقدات أجنبية عنها . وقد ساعدت المؤثرات الخارجية بشكل كبير فى القرن التاسع عشر على التغلغل فى قلب القارة ، وعلى تغيير الحياة الإفريقية ، وكان على كثير من الإفريقيين أن يواجهوا هذا الانتقال العنيف المفاجىء من حياتهم التقليدية القديمة إلى حياة أخرى حديثة لا رغبة لهم فيها . وقد رافق هذا الانتقال كثير من أعقد المشكلات الموجودة فى العالم فى الوقت الحاضر ، وبصفة خاصة فى المستقبل . ولم يمنع الأثر الأوربى فى إفريقية فى الوقت الحاضر عملية انهيار التربة ، وربما ازدادت سوءا على يد الأوربيين . وإن إفريقية فى حاجة إلى عدد من الإصلاحات العاجلة ، منها ضبط الماء وإدخال زراعة الأرز المغمورة فى مناطق ملائمة ، وتشجير الأرض ، وفوق هذا كله حماية التربة الصالحة للزراعة من التعرض للشمس والمطر ، هذا إلى جانب محاربة ذبابة تسى تسى ، والجراد والطفيليات ، والبعوض ، والبلهارسيا وغيرها من الأوبئة .

فهرس الأعلام

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

تصـــــــويب

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطـــأ	الصـــواب
٢٨	٢٠	دواروجت و	وجد دارت
٣٤	٤	ص ٢٧	ص ٤١
٣٧	٨	باندونج	نجاندونج
٤٦	٣	القياسية	التياسية
٤٧	١٩	القياسية	التياسية
٧٦	٧	بمعى	بمعى القيادة
١٠٩	١	الليفورينا	الليتورينا
١١٣	١١	لجيـــبي	لنجـــبي
١٥٩	١٤	وكـ	ولاء
١٦٣	١٤	Bre-neolithic	Pre-neolithic
١٦٣	١٥	Rroto-neotlihic	Proto-neolithic
١٨٩	١	الثابق	السابق
١٨٩	٨	القيردان	القيروان
٢٢٤	١	ثيوسيديد	ثيلسيد
٢٦٣	١٢	Thot	T ıor
٢٦٨	٢١	كوربوول	كورنوول
٣٢٤	١٠	محمد الغزنوى	محمود الغزنوى
٢٦٣	٥	أوربا	أوريسا
[illegible]	١٣	توجكينج	تونجكينج
[illegible]	٢٣	بالهيرداهيل	بوساطة هيرداهل

Ge... al Organizat ... Library ...
Bi... ...andrina

دار النيل للطباعة ت ٥٨٨٥٥



